
قاموس
العادات والتقاليد والتعابير
المصرية
أحمد أمين



وضع هذه الصورة وأكثر الصور التى فى آخر الكتاب خصيصا لهذا القاموس الأستاذ عبد المجيد موافى المصور بجريدة الأهرام ، وبعضها مأخوذ من كتاب « لين » « مصر الحديثة » بالإنجليزية ، وبعضها من كتاب « المنجد » ، فلهم جميعاً الشكر .

قاموس
العادات والتقاليد والتعابير المصرية

تأليف

أحمد أمين

الطبعة الأولى

الثمن ٦٥ م

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٣

مقدمة

فى نحو سنة ١٩٣٨ طُلب منى أن أكتب سلسلة مقالات فى مجلة الإذاعة فاحترت فى اختيار موضوع تتعاقب مقالاته . وبعد ذلك هدانى تفكيرى إلى أن أكتب سلسلة مقالات فى العادات والتقاليد المصرية بعنوان دائرة المعارف المصرية أرتبها حسب حروف الهجاء ، فبدأت بحرف الألف ، وبدأت من حرف الألف بالإبرة أذكر على الأخص عقائد المصريين فيها والأمثال التى قيلت فيها ، واستمررت على ذلك نحو أربع عشرة مقالة ولما ينته حرف الألف ؛ ثم شاء القدر أن أختار عميداً لكلية الآداب سنة ١٩٣٩ فنصحنى بعضهم ألا أستمر فى هذه المقالات ، لأنها تتنافى مع جلال العمادة ، مع أنها كانت فى اعتقادى أجل من عميد .

ومضت السنون وتركت العمادة ، وأخيراً فى نحو سنة ١٩٤٨ سألنى سائل : هل كتبت فى مجموع مقالاتك هذه شيئا عن أبى علىّ وأم على وما معناهما ؟ فأجبته . وهاجنى ذلك إلى أن أتم ما بدأتِ فأخذت أجمع الماضى وأكمله ، واستغرق منى ذلك نحو أربع سنين ، ورأيت صعوبات كثيرة فى هذا الموضوع فلم أكن أعتمد إلا على الذاكرة غالبا ، وساعدنى أنى تربيت فى حارة بلدية تكثر فيها العادات والتقاليد . وقد منحنى الله ذاكرة طيبة حفظت ما كان يجرى أمامها حتى مع التقدم فى السن ، فأخذت أستذكر ما مضى ، وكلما ذكرت عادة أو كلمة قيدتها من غير ترتيب حتى إذا تمت اجتهدت فى ترتيبها . وعرفت إذ ذاك فضل الخليل بن أحمد لما بدأ يجمع معجمه « العين » لا عن مثال يحتذيه وسلك فى ذلك مسلكا دقيقا بوضع الكلمة حسب مخارج الحروف وحذف المهمل منها ، ولكنى لم أفعل ذلك بل اكتفيت بتقييد ما أذكره .

ثم رأيت أن كلمة « دائرة المعارف » كلمة فخمة لا تتناسب وهذا الكتاب فتواضعت وسميته « قاموس العادات والتقاليد المصرية » .

وأخيراً كنت أجلس مع صديقى الأستاذ توفيق الحكيم فقص علىّ أن مستشرقا فرنسيا

أراد أن يترجم كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » فوقف عند ترجمة كلمة « كوز ذرة » وتساءل : ما معنى كلمة « كوز » هنا ثم ترجمها بكلمة « كوب من الذرة » وبذلك انحرف عن المعنى الأصلى ، فلفت ذلك نظرى إلى أن هؤلاء المستشرقين وأمثالهم فى حاجة إلى شرح التعابير الشعبية ، فأخذت أجمع هذه التعابير وأشرحها ولكنى وجدتها كثيرة جداً تحتاج إلى سنين فى جمعها فاكتفيت منها بعرض نماذج وتركت لمن يأتى بعدى حصرها والبحث فى إرجاعها إلى أصلها الذى أخذت منه ، ثم رتبتها على حروف المعجم واضطررت من أجل جمعها إلى مطالعة فى كتب كثيرة شعبية . هذا إلى ما وعته الذاكرة .

وفى الحق أنى أعتقد أن المؤرخين قد قصروا فأهملوا الجوانب الشعبية عند كتابتهم التاريخ اعتزازا بأرستقراطيتهم مع أن الأدب الشعبي — فى نواح كثيرة — لا يقل شأنا عن اللغة الفصحى وأدبها ، سواء من حيث فنها أو من حيث دلالتها على حالة الشعوب .

ولم أستقص العادات والتقاليد المصرية فى جميع عصورها لأن هذا عمل شاق طويل بل اكتفيت بها فى العصر الحديث الذى عاصرته أو سبقنى بقليل .

وقد أقدمت عليه وأنا وجل لأنه موضوع جديد أظن أنى لم أسبق إليه ، والجديد عادة غريب ، وأنا أعتقد أنه فتح باب يكمله من يأتى بعدى . وقد دعانى إلى تأليفه ما رأيت من عادات وتقاليد وتعابير كانت حية فى زمنها ثم أخذت تندثر حتى إن أولادى قل أن يعرفوا منها شيئاً ، فالمؤرخ فى حاجة شديدة إلى تدوينها والانتفاع بها .

نعم قد يؤخذ علىّ أن فى نشر هذه الأشياء تشهيراً بالمصريين وحطاً من شأنهم ، لأن أكثرها خرافات وأوهام ، وانتشار الثقافة بين المصريين وخصوصاً النساء أزال كثيراً منها ولكن عذرى فى ذلك أنها تسجيل لما كان وحمدٌ لله على أخذها فى الزوال . والحق أحقّ أن يقال من غير اعتبار للوم لائم أو اتهام متهم ، فإذا رأى راء أن فى هذا عيباً وتشهيرا ، رأيت أن فى هذا مفخرة للمصريين إذا نظرنا إلى أين كانوا ، وإلى أين صاروا ، وكيف قطعوا خطوات واسعة فى عهد قريب فى التقدم .

فهذا الكتاب يمثل مرحلة زالت أو هى على وشك الزوال ، كما يمثل أمة طفرت إلى استعمال العقل بعد الإغراق فى الخيالات والأوهام . وقد كتبنا فى التعبيرات الهمزة قافا ، لأن

اللغة الشعبية لا تنطق بها قافا مطلقا ، وإنما تنطق بها همزة ، ولأن القاف أسهل فى الكتابة من الهمزة ، وأدل على الأصل . فنحن إذا كتبنا قال آل ، كانت نابية على النظر ، مستكرهة على السمع ، ولم أمعن فى كتابة العادات القديمة ، أى ما كان عند قدماء المصريين ، أو عند المصريين فى العصور الوسطى ، لأن الموضوع الأول أليق أن يكتب فيه علماء الآثار القديمة ، والموضوع الثانى أليق أن يكتب فيه المتخصصون فى تاريخ مصر فى ذلك العصر ، وإنما اكتفيت بذكر العادات والتقاليد التى كانت فى زمنى أو قبل زمنى بعهد قليل .

وفكرة الكتاب فى حاجة إلى أن تدرس من نواح كثيرة (١) من ناحية هذه العادات والتقاليد وأىٌّ منها كان موروثا من عهد قدماء المصريين ، وأىٌّ منها مستحدث . وهذا المستحدث ، ما الأحوال الاجتماعية التى سببته ؟ (٢) دلالة هذه العادات والتقاليد على الطور الاجتماعى الذى كانت تعيش فيه البلاد ، والتى انتقلت منه وسبب الانتقال (٣) هو فى حاجة إلى استكمال الناقص ، وزيادة الشرح (٤) من ناحية التعابير فهى فى حاجة إلى أن تدرس دراسة لغوية لمعرفة أصولها : هل هى من أصل تركى مثلا ، أو إيطالى ، أو فرنسى ، أو عربى محرف . وهى أيضا فى حاجة إلى استكمال الناقص منها ، فإنى رأيت الذين عُنوا باللغة الشعبية جمعوا مفردات لا تراكيب وأساليب ، مع أن الناحيتين يكمل بعضهما بعضا ، فلما رأيتهم جمعوا الكلمات ، عنيت بجمع التعابير والأساليب ، ولم أستقص كل هذه التعابير والأساليب فهناك أضعاف لها فى ثنايا الكلام الشعبى ، اكتفيت بذكر نموذج منها . فهو يحتاج إلى من يكمله .

هذا إلى مافاتنى من العادات والتقاليد . وقد عودتنا الطبيعة أن الشىء يبدأ ناقصا فإذا قُدر له البقاء كمل على الزمان . وليس يعلم إلا الله مالقيت من عناء فى جمعه وترتيبه ، فقد شغل به ذهنى طويلا . وأحيانا كنت أفكر فيه وأنا نائم ، فتأتينى فكرةُ عادة من العادات أو تعبير من التعابير ، فأستيقظ وأوقد المصباح وأكتب فى مذكراتى ماتذكرت حتى لا أنساه فى الصباح .

وقد ينظر إليه بعض الأرستقراطيين من العلماء نظراً شزْرا ، ويعجبون كيف أن أستاذا جامعياً يتنزل إلى قيد عادات وتعابير شعبية ، يعنى بها العوام ، ولكن عذرى أنى أرى أن

هذه ناحية تهمّ المؤرخ الصادق كما يهمه أدق شىء وأصغره ، وأنى أعتقد أن فى العادات والتقاليد دلالة على نوع الأخلاق ونوع العقلية للشعوب ، وأن فى التعابير الشعبية من أنواع البلاغة ما لا يقل شأنا عن بلاغة اللغة الفصحى ، وأن هناك من أمثلة المصريين وتعبيراتهم وزجلهم ما يُعجب به عالِم البلاغة ، كما يُعجب بامرئ القيس وزهير . وشاء القدر أن أعنى بالناحيتين فى آن واحد ، فقد كنت أحضِّر الجزء الثانى من ظهر الإسلام فأغرق فى تاريخ الطبرى وفلسـفة إخوان الصفاء وابن سينا ، وأخرج من ذلك ، فأنظر فى المجلات الشعبية الخفيفة لألتقط منها بعض التعبيرات . وأعتقد أن فى كلٍّ خيرا ومنفعة . والله المسئول أن ينفع به كما نفع بإخوانه من قبل ، فما أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله .

القاهرة فى ١٠ / ١ / ١٩٥٣ أحمد أمين

الإبرة

هي الأداة المعروفة . وقد أصبحت محوراً يدور عليها كثير من الاعتقادات المصرية ، والأدب المصري الشعبي — وقد أخذت هذه الاعتقادات تندثر تبعاً لرقي الأمة واستنارتها.

كان عامة المصريين يحرمون بيع الإبر بعد العصر . وكان على باب حارتنا « عطار » لو بذلت له عشرة قروش ثمن إبرة بعد العصر لا يرضى أن يبيعها .

وأساس ذلك عندهم خرافة شائعة ، وهي أن الملائكة الموكلة بقسمة الأرزاق تنزل بعد العصر فتقسم الأرزاق حسب الحالة التي يرون عليها الإنسان ، فإذا كان في سعة من العيش زادته سعة ، وإن كان في ضيق أعطته على قدره ، وهم يعتقدون أن حرفة الخياطة من أبأس الحرَف وأفقرها ، فهم يكرهون أن تراهم الملائكة على هذا البؤس فترزقهم على قدر بؤسهم ، فحرموا من أجل ذلك الخياطة وبيع الإبر بعد العصر .

وعند بعضهم اعتقاد بأن الخياطة بالليل تؤذي الأموات ، فهم يكرهون أن يخيطوا شيئاً بالليل .

وفي بعض القرى يتشدد النساء في ذلك فلا يعرن إبرة لأي سبب بعد العصر ، فإذا دعت الضرورة إلى ذلك وضعتها المعيرة فوق رغيف من الخبز وأعطته لطالبة الإبرة فتأخذ الرغيف وعليه الإبرة ، ولكن لا تمسها بيدها مباشرة .

وعندهم نوع من الإبر يسمى « الإبرة الغشيمة » وهي الإبرة التي لا عين لها وهي في الأصل إبرة أخطأت الآلات التي تصنعها فمرت عليها من غير أن تثقبها ، فلما كثر الطلب عليها كان تجار الإبر يستوردونها بتوصية منهم عليها .

وكان السبب في الإقبال عليها اعتقاد العجائز أنها تبطل عمل السحر ، فهن يأخذنها ويلففنها في خرقة ويضعنها في حجاب من جلد فتمنع العين والسحر .

وقد دخلت الإبرة في الأدب المصري الشعبي كما دخلت في الأدب العربي ، فهي في الأدب المصري سبة للمرأة ، فإذا رأت امرأة امرأة أخرى نحيفة جدا ، وكانت جلداً على عظم ، عيرتها بأنها « إبرة » . وكانت هذه سبة فظيعة يوم كان المثل الأعلى للجمال هو السمن ، وكان الخاطب يوصي الخاطبة بأن تكون المخطوبة « بيضاء سمينة غنية وشعرها أصفر » ، فأما الآن فقد تغير هذا الذوق ، وتغلب حب الرشاقة على حب السمن ؛ ولذلك

فقدت هذه السبة كثيراً من قيمتها .

ومن الأمثال العامية فى الإبرة « يفتى على الإبرة ويبلع المِدْرَة » ، ومعنى يفتى على الإبرة أنه يفتى بتحريم الإبرة على غيره ، ومعنى « المدرة » المذراة وهى التى يذرى بها الحب .

وهو مثل يضرب لمن يحرم على الناس صغار الأمور وهو مع ذلك فى نفسه يرتكب كبائرها ، فهو لغيره يحاسب على الإبرة وهو فى نفسه يبلع المدرة .

ومن أمثالهم أيضاً « الإبرة اللى فيها خيطين ما تخيطش » وهو مثل يضرب لتعدد الرؤساء والخوف من فساد العمل بكثرة الأوامر المتناقضة ، فهو أشبه بالمثل الآخر : « المركب اللى فيها ريسين تغرق » .

ومما يتصل بأمثال الإبر أنهم إذا عابوا خياطة خائطة قالوا : « بين الغرزة والغرزة ترقد المعزة » يعنون بذلك أن غرز الخياطة ليست منسجمة ولا دقيقة ، فبين كل غرزة وأخرى فضاء كثير يتسع لرقاد المعزة .

ومن أمثالهم أيضاً « التركى يحفر البير بإبرة » وهو يدل على عقيدتهم فى التركى بأنه صبور على نيل غرضه يصل إليه فى دؤوب وصبر ، ولو لم يجد وسائله متوافرة استطاع أن يتخذ أى وسيلة مهما صغرت وكمّل نقصها بصبره والثبات على قصده .

وفى القرآن الكريم : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » . وسم الخياط هو ثقب الإبرة — أى لا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل فى خرق الإبرة ، فهذا مستحيل وذاك مستحيل ، وهذا تعبير جميل عن الاستحالة .

ومن التعبيرات اللطيفة فى ذلك قول الشاعر :

فلو أن ما بى من جوى وصبابة
على جمل لم يدخل النار كافر

أى لو أن ما به من وجد وهيام وضنى وصبابة نزل بالجمل لهزله وجعله كالفتلة تدخل فى الإبرة ، وإذا دخل الجمل فى الإبرة دخل الكافر الجنة .

والعرب جمعت الإبرة على إبر ، وأحياناً تجمعها على إبار ككتاب ؛ ومن ذلك قول القطامى :

وقول المرء ينفذ بعد حين
أماكن لا تجاوزها الإبار

وهو معنى ظريف ، أى أن القول قد يصل فى الحز واللذع ونحوهما إلى حيث لا تنفذ الإبر .

وشاع فى الأيام الحديثة التعبير بقولهم : « سياسة وخز الإبر » ويعنون بذلك سياسة العداء فى الخفاء تَخِز وخزاً من غير أن تسيل دما .

أبريق

الأبريق إناء من الأوانى التى يستعملها المصريون ، وله صنبور يصب منه الماء ، ويد يمسك منها ، وهو يستعمل من الصُّفر أو من النحاس الأحمر . وفى العصور الحديثة استعمل من الصاج ، واستغنى عن الصنبور بشفة يصب منها الماء ، وإذا ذكر الأبريق ذكر الطشت . وكان كثيراً ما يستعمل لتنظيف اليدين قبل الأكل وبعده . فكان من يريد الأكل يصب على يديه الخادم من الأبريق فى الطشت ، فإذا فرغ منه غسل يده أيضاً لتنظيفها .

وكان من الأشياء التى تلاحظ دائماً فى جهاز العروس شراء الطشت والأبريق . فلما غزتنا المدنية الحديثة استغنينا غالباً بالحنفيات عن الطشوت والأباريق إلا فى القليل النادر .

أبزيم أو آبزين

هو فى لسان العامة اسم لآلة من نحاس أو حديد مستطيلة ، وفى وسطها لسان رفيع ، تستعمل فى السروج ، أو براذع الحمير . وفى كتاب الألفاظ الفارسية المعربة « الأبزيم جمعه أبازيم ، معرب آبزين » وقد استعمل فى العصر الحاضر استعمالات كثيرة ، فوضعوه لحزام الجلد ، وفى البنطلونات ، وعلى وجه أحذية النساء . وكانت امرأة فى قرية من قرى الشرقية تختزن إبزيما من هذا النوع وتزعم أنه يمنع النزيف من الحبلى وتعيره لكل من أرادته لهذا الغرض من المستعيرات . والنساء المستعيرات له يعتقدن أنه لولاه لاستمر النزيف وسقط الحمل . وكانت لا تعيره إلا لمن رهنت عندها حلياً يساوى عشرة دنانير على الأقل وبعد الحلف على المصحف بأنها ترده . فلما كثرت الأبازيم بطل سحرها .

أبلس

أبلس بمعنى تشيطن ، يقول بلاش أبلسة أى لا تشيطن ، وهو مأخوذ من إبليس ، كما أن تشيطن مأخوذة من شيطان ، وتمرد من مارد .

وبعض الناس يستعمل بدل أبلس تأبلس .

ابن

أصل كلمة « ابن » للولد المذكر ، فيقال ابن فلان وابن فلانة نسبة إلى أبيه وأمه ولكن العرب أضافت الابن إلى شيء ليست العلاقة بينهما أبوة أو أمومة ، فسمت اللص ابن الطريق أو ابن الغبراء ؛ وذلك أن اللص يتصل بالطريق اتصال الابن بأبيه ، وسمت الليل « ابن السكروان » وهكذا .

ونجد هذين الاستعمالين بعينهما فى اللغة المصرية ، فهم يقولون محمد بن على وحسن بن فاطمة . وكذلك ينسبون الابن إلى شيء له به اتصال وإن لم يكن الثانى ابناً للأول . ولهم فى هذا الباب ألفاظ كثيرة متعددة النواحى فيقولون مثلا :

« ابن فن » لمن مهر فى صناعة ما .

« ابن روحه » لمن كان عصامياً ربى نفسه .

« ابن فتلة » للمحتال النصاب .

« ابن سبعة » أى سبعة أشهر ، أى أنه مكث فى بطن أمه سبعة أشهر فقط بدل تسعة . يعتقدون أن من كان كذلك كان ضيق الخلق غضوباً ، فهم يطلقون هذه الكنية على كل من كان سريع الغضب .

« ابن سوق » للبياع المتجول .

« ابن غرام » لمن سار على هواه ودار على حل شعره (كما يقولون) .

« ابن الليالى » وهو يطلق على من كان من طائفة تحفظ القصائد الغزلية الصوفية كقصائد ابن الفارض ينشدونها عند إقامة الأذكار .

« ابن كلة » وهو يطلق بمعنيين ، فأولا يطلق على من كان سريع التصديق لكل ما يقال له — وثانياً — لمن كان سريع التأثر بما يقال فكلمة ترضيه وكلمة تغضبه .

« ابن الحاكم » وهى كلمة كانت تطلق فى الزمن الماضى القريب فى الأرياف على العسكرى والقواس والحاجب والخفير والصيارفة فى القرى — يعنون بذلك أنهم مكلفون من قبل الحكومة بأعمالهم ، فيجب أن تحترم أوامرهم ، ولا يلامون إذا استعملوا شيئاً من القسوة والعنف فى أثناء تأدية وظائفهم .

« ابن الزمن » وهى أيضاً تستعمل استعمالين : أحدهما أن تطلق على الخبير المجرب الذى رباه الزمان وأفاده حُنكة وخبرة ، والثانى أن تطلق على الرجل ذى المروءة الذى يدخر عند الحاجة وعند حلول كوارث الزمان .

« ابن درزى » وتطلق على اللئيم الميال إلى الإضرار بالناس ، وهى نسبة إلى الدروز

تلك الطائفة التى تبعت الحاكم بأمر الله ولهم عقائد خاصة بهم — وعامة المصريين يعتقدون فيهم سوء العقيدة ، ولذلك يتخذونهم علماً للسباب .

« ابن مَرَة » وهذه سبة عندهم يطلقونها على من لم تنجح تربيته وخرج فاسداً لا يصلح لشيء . وسبب هذه العقيدة أنهم كانوا يرون المرأة بطبعها رحيمة ضعيفة لا تقسو على ابنها ولا تعرف ما ينفع الولد وما يضره ، وإذا عرفت وجه النفع والضرر منعتها الرحمة من تنفيذه بالشدة ؛ إنما الذى يشتد ويقسو هو الرجل ، فإذا لم يكن للولد أب أو عم أو أخ يربيه ويقسو عليه لا ينجح الولد . وقد دلتهم على ذلك التجارب فى زمنهم . ولست أدرى ما رأيهم فى المرأة الجديدة المتعلمة إذا وكل إليها أمر تربية الولد ، فإنى لم أجد المثل تغير مع أن الأحوال كلها تغيرت .

« ابن ساعته » يطلقونه على من لا يستقر على حال ، فهو الآن صديق وغداً عدو ، وهو الآن على رأى وبعد ساعة على رأى آخر وهكذا .

« ابن كَيْف » يستعملونه للدلالة على من أصيب بكيف من الكيوف ، ولكن لا يستعملونه فى الكيوف السهلة المألوفة كالشاى والقهوة والدخان ؛ وإنما يستعملونه فى الكيوف الحادة كمن اعتاد الأفيون أو الحشيش وأخيراً « الكوكايين » . وقد يطلقون على « الحشاش » وحده « ابن شداد » وسبب ذلك أنه يستعمل « الحشيش » فى « الجوزة » ثم يشد منها أنفاسه فهو ابن شداد من أجل ذلك .

« ابن ناس » للرجل الكريم الأصل ومثله « ابن الأصول » و « ابن السيادة » و « ابن بيت » . وفى عكس ذلك يقولون « ابن اللى هو ابنه » يريدون بذلك أنه غير معروف النسب فهو كقول العرب « زياد ابن أبيه » .

« ابن الضرة » يقال للمكروه الممقوت لأن الضرة تكره ضرتها أشد الكراهية وتكره كل من ينتسب إليها ، وخصوصاً ابنها لأنه يشارك أبناءها فى مال زوجها وعطفه وعنايته .

وهناك شتائم كثيرة بدئت بالابن . وقد كان حظ كلمة « الابن » فى السباب والشتائم أكثر من حظ غيرها . وكثرة السباب بالآباء والأمهات دليل على أن المصريين كانوا يعنون بقيمة الأب والأم عناية قد تفوق عنايتهم بتقويمهم للشخص فى نفسه أو بعبارة أخرى بقيمته الذاتية .

واستعملت كلمة « الابن » أيضاً كثيراً

فى الأمثال ، فقالوا « ابن الوزعوام » و « ابن العنزة يعلم أمه الرعية » و « ابنك حته من كبدك » و « ابن الحرام يطلع يا قواس يا مكاس » و « ابنه على كتفه وهو داير يدور عليه » ونحو ذلك مما لا يحصى .

ابن أرملة

هو كابن مَرَةْ الذى تقدم . يكنون به عن الشاب أو الرجل الذى لم يربه رجل كأبيه ، وإنما ربته امرأة كأمه .

ومن غريب العوائد أن المرأة فى واحة سيوة إذا مات عنها زوجها حبسوها فى غرفة مظلمة لا يراها أحد إلا خادمة تقدم لها الطعام وما تحتاج إليه حتى تنقضى عدتها ، وهم يزعمون أن عينا شريرة تلبسها فى أثناء تلك المدة فلا تنظر إلى أحد إلا أضرت به وأول ذلك ابنها الذى تربيه .

وأول شخص تراه عند خروجها من سجنها لا ينجو من الموت . ولذلك يرسلون المرأة إلى عين ماء آخر المدة تغتسل فيها ، وفى أثناء اغتسالها ينادى مناد فى الأسواق يحذر الناس من الوقوف فى طريقها .

ابن البلد

نالت هذه الكلمة شهرة كبيرة بين الناس ، وكان لها مدلول يختلف باختلاف العصور . وقد أدركتها منذ خمسين عاما تطلق على الرجل الذى يجمع صفات مختلفة فى ملبسه وحديثه وهيئته وطريق سلوكه .

فهو يلبس جبة وقفطانا وعمامة ويعنى بها كل العناية . ولا بد أن تكون هذه الملابس مستوفية لشروط كثيرة ، فيجب أن يكون نسيجها خفيفاً لطيفاً ، وأن يكون لون الجبة زاهياً كالأزرق الفيروزى أو الأخضر الفستقى أو الأحمر القرمزى ، وأن يكون لون الجبة منسجماً تمام الانسجام مع لون القفطان وأن يكون لون الحزام منسجماً معهما .

ويجب أن يكون طربوش العمامة خفيف الوزن وأن تكون العمامة قليلة وأن يكون شال العمامة مفتلا وأن تظهر هذه الفتل من الأمام على شكل دبابيس ، ويجب أن يكون « المركوب » أحمر خفيف الجلد رقيق النعل صغير الوجه ، ويلبس فى يده خاتماً رفيعاً من الذهب فصه فيروز أو ياقوت أو زمرد ، وأن يكون وجهه حليقاً دائماً كأنما خرج من عند الحلاق لساعته ، وأن يكون مقصوص الأظفار دائماً .

ويجب أن يعنى العناية التامة بكل شىء فى هندامه ، فالجبة والقفطان مهندستان هندسة تامة لا يشذ أحدهما عن الآخر فى شىء مهما قل ، والعمامة موضوعة على الرأس بأناقة والمركوب فى الرجل منسجم .

وهو فى كل ذلك نظيف أنيق يتحرج من أى شىء يعلق بثيابه أو بأطرافه . وأكثر من شاهدتهم من هذا القبيل كانوا ضعاف البنية نحيلى الجسم عليهم آثار المرض ، وذلك لسببين : (١) أن رقة عواطفهم ناشئة غالباً من ضعف مزاجهم (٢) أن نوع معيشتهم لا يبعث على حركة ولا نشاط ، فيستلزم ذلك ضعفاً فى صحتهم . يضاف إلى ذلك أن كثيراً منهم كانوا يستعملون المعاجين و «حُق» العنبر ونحو ذلك من المكيفات وفى هذا كله إتلاف للصحة .

وأما فى سلوكه فهو خافض الصوت ؛ إذا تكلم فنى أناة ورقة وإذا ضحك فعلى قانون وإذا مشى فنى تؤدة تامة حتى لا تختل هندسة ملابسه ، وإذا رأى أمامه أرضاً مرشوشة عمل لها ألف حساب كيف يتخطاها من غير أن ينال « مركوبه » أذى ومن غير أن ينال أذياله مكروه ، وإذا أكل فالأناقة التامة من تصغير اللقمة والدقة فى نظافة أصابعه والمراعاة الدقيقة حتى لا ينال ثوبه شىء مما يأكل ونحو ذلك .

ولابن البلد اصطلاحات فى كلامه ولوازم يكثر من استعمالها ، فهو بين كل كلمة وكلمة يقول « بلا مؤاخذه » أو « بلا قافيه » و « يكرم من سمع » و « عن إذنك » و « اسمح لى » و « الأبعد » و « ياسيد » و « أعزك الله » و « أكرمك الله » ونحو ذلك من الكلمات الشائعة بينهم ، الدائرة على ألسنتهم .

وابن البلد — فى العادة — يكثر من التنكيت ، ويستعمل فى حديثه الكناية والتورية ويعرف مناحى الكلام ، ويستطيع أن يرد على النكتة بمثلها أو بأحسن منها ويجتهد أن يرضى محدثه كل الرضا ، فلا يجرح إحساسه ولا يخدش عواطفه ولا يسمعه كلمة قاسية ، وإذا رأى الحق يؤلم فلا بأس من الكذب ، ويتحرى أن يجعل آخر الحديث نكتة ختامية تثير الضحك وتبعث الرضا فيمتلىء المكان بالسرور ، ويتفرق الجالسون أو المتحدثون وفى نفوسهم الإعجاب « بابن البلد » .

وقد يسمى «ابن البلد» أيضاً «الذوق» فيقولون فلان ذوق ، وهو اختصار لذى ذوق وأحياناً يسمونه ابن ذوق . والفرق بين «ابن الذوق» و «ابن البلد» أن الأول يراعى فيه حسن التصرف أكثر مما يراعى حسن

الشكل وما إلى ذلك ، أما ابن البلد فيراعى فيه الأمران جميعاً .

وقد عرّف المرحوم قاسم أمين الذوق السليم بأنه الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب مالا يناسبه . وعامة المصريين يعتقدون أن القاهرة أحسن البلاد ذوقا ، فكما أنها «أم الدنيا» فكذلك هى «أم الذوق»

ومن أقوالهم المأثورة « الذوق لم يخرج من مصر » ومصر فى قولهم هذا يعنون بها القاهرة لا القطر المصرى بأجمعه . ويروون فى هذا قصة طريفة وهى أن رجلا كان اسمه « حسن الذوق » كان فى منتهى الظرف والكياسة واللباقة رقيق الحس والشعور فغاضبه قوم من المصريين فعزم على الرحلة من مصر ، فلما وصل إلى «باب الفتوح» وهو أحد أبواب القاهرة مات هناك ؛ وما يزال قبره فى هذا المكان إلى الآن ويعرف ضريحه « بسيدى الذوق » ، ومن أجل هذا قالوا إن الذوق لم يخرج من مصر . وكلمة الذوق فى هذا المثل تدل على المعنيين معا ، فالمراد بها مرة الشعور الرقيق ومرة سيدى حسن الذوق . والله أعلم .

ابن حظ

يقال للرجل الذى يطلب حظه وشهوته من سكر ونساء ونحو ذلك . ويظهر أن « ابن » هنا بمعنى ذو ، ومثله « ابن ناس » ويطلق على النسيب الحسيب . ومثله أيضاً « ابن حرام وابن حلال » فيقال للرجل الطيب ابن حلال ، وللخبيث الماكر ابن حرام .

ابن دانيال

وإنما اخترناه من الأعلام لأن له شخصية مصرية واضحة كالبهاء زهير .

كان يفتح دكاناً داخل باب الفتوح ، يكحل فيه عيون الناس ، ويدر ذلك عليه مالا قليلا ، شكى كثيراً من قلته وبؤسه .

وفى ذلك يقول :

يا سائلى عن حرفتى فى الورى
وصنعتى فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه
يأخذه من أعين الناس

***

ويظهر أنه كان يتعاطى المنزول ، فله قصيدة رفعها إلى القاضى يشكو زوجته :

بك أشكو زوجة صيرتنى
غائباً بين سائر الحضار
غيبتنى عنى بما أطعمتنى
فأنا الدهر مفكر فى انتظار

غبت حتى لو انهم صفعونى
قلت كفوا بالله عن صفع جارى
دار رأسى عن باب دارى فبالله
أخبرونى يا سادتى أين دارى
أنا أنسى أنى نسيت فلا يخشى
سميرى إذاعة الأسرار

وكان له نكت يتداولها المصريون ويتضاحكون منها شعراً ونثراً ؛ من ذلك قوله :

فسّر لى عابر منـاما
أحسن فى قوله وأجمل
وقال لا بد من طلوع
فكان ذلك الطلوع دمّل

والمصريون يسمون الدمل والخراج طلوعا .

وربما عددته أول روائى مصرى ، فقد كان يؤلف الروايات تمثّل فى خيال الظل وبقى بعضها إلى اليوم .

ابن رابية أو أولاد رابية

كانوا أسرة معروفة فى القاهرة . وكانوا يدعون فى الأفراح . وتكون من لياليها ليلة يقال لها ليلة أولاد رابية . وكان عملهم إرهاصا للتياترو والتمثيل . فكانوا فى ليلة يمثلون رواية من الروايات ، ولكن مع الأسف كان تمثيلهم مبتذلا . فهم ينطقون بأقبح الألفاظ ويأتون بأخش الأعمال . ويشمئز من منظرهم وكلامهم ذو الذوق السليم . وقد انقرض هؤلاء وحل محلهم السينما والتمثيل . ومثلهم فى ذلك أحمد الفار المشهور ، فكان أيضاً يأتى بأعمالهم .

ابن كباية

الكباية الكوب التى تشرب فيها الخمرة . وكثيراً ما يقال هذا القول للتفاخر فيقول الرجل أنا ابن الكباية . وكثيراً ما يُدِلون به على شدة الصداقة فيقولون نحن أولاد كباية .

أما ابن الحشيش والمعجون ونحو ذلك فيقال له ابن كيف ، وهو لذلك يتظاهر بالرقة واللطف .

وسواء ابن الكيف أو ابن الكباية فهما يكرهان أن يجلس معهما أحد على غير كَيفهم — ولذلك يتنادر أهل المجلس سواء فى السكر أو فى الحشيش على من لم يجارهم ... فمثلا يقولون لبعضهم تنكيتاً على من لم يفعل فعلهم ، وفى أثناء الكلام ينظرون إليه « شال الحمام ، حط الحمام » تعريضاً له بالخروج . ويقولون « قالوا للجندى عزل ، رمى قاووقه » أو « دهده يا سيدى هى لازقة بغرا » أو « دستور يا سيادى » ...

ابن نكتة

أصل النكتة فى اللغة العربية النقطة من بياض فى سواد أو من سواد فى بياض تقول هو كالنقطة البيضاء فى الثوب الأسود.

ثم استعملت على طريق المجاز فيما جاء فى وسط الكلام من عبارة منقحة أو جملة طريفة صدرت عن دقة نظر ولمعان فكر أو مسألة لطيفة تؤثر فى النفس انبساطا — يقولون جاء بنكتة فى كلامه وقد نكت فى قوله ورجل منكت ونكات بهذا المعنى.

ثم استعملت فى النوادر الظريفة تستثير الضحك وتبعث السرور. وفى هذا المعنى الأخير يستعملها المصريون فيقولون للرجل الذى يأتى بالنوادر المضحكة « ابن نكتة ».

وقد اشتهر المصريون من قديم بالميل إلى الضحك وحب الهزل، فقد نقل المقريزى عن أبى الصلت « أن أخلاق المصريين يغلب عليها الانهماك فى الملذات والاشتغال بالترهات وفى أخلاقهم من الملق والبشاشة ما أربوا فيه على من تقدم ومن تأخر ».

ولا نريد أن نناقشه فى قوله، فكل ما نريده هنا أنه يصف المصريين بالبشاشة وقد أداهم حب البشاشة هذا إلى حب النكتة.

وقد يتصل بهذا قول ابن خلدون، فإنه لما رأى المصريين قال: « أهل مصر كأنهم فرغوا من الحساب ». يريد بذلك أنهم لا يطيلون النظر فى العواقب. وتبعه فى ذلك تلميذه المقريزى فقال: « من أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر فى العواقب فلا تجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هى عادة غيرهم من سكان البلاد، بل يتناولون أغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشيا ».

وعدم الإمعان فى حساب العواقب يستتبع الفرح والمرح، لأن الإنسان إذا لم يفكر فى العواقب لم يحمل همّا فيكون مجال النكت عنده فسيحا.

ومن غريب ما نلاحظه فى هذا الباب أن أشد الناس بؤساً وأسوأهم عيشة وأقلهم مالا وأخلاهم يداً أكثر الناس نكتة، ففى القهاوى البلدية حيث يجلس الصناع والعمال ومن لا صنعة لهم ولا عمل، وفى المجتمعات الشعبية حيث يجتمع البؤساء والفقراء نجد النكتة بينهم تحلّ محلا ممتازاً. ونجد ابن النكتة محبوباً مقدراً، يفتقد إذا غاب، ويبجل إذا حضر — كأن الطبيعة التى تداوى نفسها بنفسها رأت البؤس داء فعالجته بالنكتة دواء.

* * *

على كل حال شُهر المصريون بالنكتة يعجبون بها ويتفننون فيها وتتناقل بينهم فى المجالس، وفيهم من يتحرى أخبار « آخر نكتة » كما يتحرى أخبار آخر ساعة وآخر سعر للقطن فى « البورصة » . وقد شهرت القاهرة بذلك أكثر من غيرها من المدن والقرى لأن « النكتة » تابعة للذوق فإذا رقى الذوق رقيت النكتة .

ومما يؤسف له أن الأدباء والمؤلفين لم يعنوا بتدوين « النكت » عنايتهم بتدوين الأشعار والمقالات ترفعاً منهم عن ذلك واستصغاراً لشأن النكت وتحقيراً لها . وليسوا فى ذلك منصفين — وأقرب مثال لذلك النكت البديعة التى كانت للمرحومين عبده البابلى وحافظ إبراهيم وغيرهما ، فإنها تموت تدريجيا بمرور الزمان لأنها لم تدوّن ، مع أن بعض نكت حافظ قد تفوق بعض قصائده وتدل على حضور البديهة وحسن الذوق أكثر مما يدل عليها الشعر ، فحبذا لو التفت الأدباء إلى قيمة النكتة وعنوا بها عنايتهم بالأدب « الكلاسيكى » .

ولكن بحمد الله لم نعدم فى المصريين من عنوا بهذا الباب ودونوا فيه . وقد أردت أن أتتبع التآليف فى هذا الباب ومشاهير المضحكين فى مصر من عهد الفتح الإسلامى ؛ ولكنى وجدت ذلك يطول ، فاكتفيت بإلمامة يسيرة فيما يتعلق بهذا الباب فى العصر الحديث .

ولعل أجدرهم بالذكر مؤلف كتاب «هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف» وهو الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد الشربينى . ومن الأسف أنى لم أعثر على ترجمة لهذا الرجل ، ولكنى عثرت فى أثناء الكتاب على أن المؤلف حج سنة ١١٠٧ هـ وأنه كان واعظاً فهو من علماء القرن الحادى عشر الهجرى .

ولهذا الكتاب الذى يستهزئ به الناس قيمة كبرى ، ففيه وصف اجتماعى دقيق لحالة الفلاحين فى عصره وبؤسهم وظلم الحكام لهم وأنواع عاداتهم فى المأكل والمشرب والزواج وغير ذلك — وفيه تدوين للغة الفلاحين كما ينطقونها وأغانيهم — وفيه حكايات ظريفة مما سمعها أو شهدها لولا أنه لا يعفّ عن ألفاظ الفحش .

ويخيل إلىّ أن المؤلف رأس المدرسة التى عنيت بالتنكيت عن طريق اللعب بالنحو والخروج من باب إلى باب من غير مناسبة والمفارقات ونحو ذلك .

وقد اتبعت هذه الطريقة فيما بعد على لسان الشيخ حسن الآلاتى ، وقد

كان فكها لطيفاً ، وكان يجتمع مع بعض أصحابه فى البيوت يتسامرون ويتنادرون ويتكلمون فى الجد والهزل ، ثم تسامع بهم الأصحاب فكثروا وضاقت عليهم البيوت فاتخذوا قهوة لطيفة فى حى الخليفة بالقرب من السيدة سكينة وسموها « المضحكخانة الكبرى » وشاع صيتها فى القاهرة ، وكان يأتيها الناس من كل ناحية بل كان يأتيها بعض الأمراء فى زى الفقراء ليروا هذه الأعجوبة .

وكان يدير هذه الجلسة فى القهوة جماعة من الظرفاء رئيسهم الشيخ حسن الآلاتى المذكور . فيفتحون موضوعاً ويتنادرون عليه وينتقلون من باب إلى باب حتى يتقدم الليل ، ويتخلل أحاديثهم أحياناً زجل وأحياناً قصص وأحياناً سباب الخ . . .

وقد مات الشيخ حسن الآلاتى سنة ١٨٨٩ م وألف من ذلك كله كتاباً دون فيه بعض ما كان يجرى سماه : « ترويح النفوس ومضحك العبوس » طبع فى ثلاثة أجزاء .

وأظهر ما فى هذا الكتاب من فنون المضحكات فن « المفارقات » فقد ارتقى على يد الشيخ حسن الآلاتى واستخدمه استخداما كبيراً ، فيقول مثلا فى مطلع خطاب له « إلى السيد المهاب والضبع الوثاب الصادق الكذاب عالم العصر ومصلى الظهر وتارك العصر الجاهل بصلاة القصر ، الذى بنى على ظهره مائة قصر ، أعز الإخوان ذى المجد الرفيع الشان من تهابه الخرفان ، ولا تحتقره « الشجعان » الضارب بالنقرزان قاهر ابن خلكان مولانا الشيخ رمضان » .

والكتاب مملوء بالقصص والتنكيت ، وتهزىء النحو بالإعراب الماجن والعرضحالات على طريقة الدعابة الخ . . .

وكان يعاصر حسن الآلاتى ويجرى معه فى هذا المضمار عبد الله نديم المتوفى سنة ١٨٩٦ ، فقد أنشأ مجلة أسبوعية اسمها « التنكيت والتبكيت » كما أنشأ مجلة أخرى اسمها « الأستاذ » وفى كلتا المجلتين كان يمزج الجد بالهزل والكلام السياسى وبنقد الحياة الاجتماعية فى شكل فكاهى جذاب .

وتتابع هذا الباب فأنشئت جريدة « حمارة منيتى » وغيرها من المجلات إلى أن كان فى أيامنا الكشكول ثم آخر ساعة الخ .

كل هذه مدرسة واحدة بعدت عن الأدب الكلاسيكى واتصلت بالأدب الشعبى وعنيت بالنكت وبالتعبير اللاذع وبالنقد المخفف بالفكاهة .

والنكتة أنواع ، فمنها العقلى الذى يستخرج

الإعجاب لما فيه من دلالة على ذكاء ، ومنها اللفظى الذى قيمته فى التلاعب باللفظ . ومن خصائص النكت العقلية أنها عالمية يمكن ترجمتها إلى اللغات الأخرى من غير أن تفقد قيمتها ، أما النكت اللفظية فمحلية تفقد قيمتها بترجمتها .

كذلك تتنوع النكت، فمنها ما يستخرج الضحك القوى العميق ، ومنها ما يبعث على التبسم فقط . ومنها ما يدعو إلى الإعجاب فقط من غير تبسم ولا ضحك . وأكثر ما يثير الضحك هو النكت التى تبنى على السخرية بالغير والاستهزاء به وتحقيره ، أما النكت التى لا تشتمل على نقد لاذع ولا على سخرية حادة فتبعث على التبسم أو الإعجاب .

والأمم تختلف اختلافاً كبيراً فى مقدار حبها للنكات وإعجابها بها . فمنهم من شهر بها ومنهم من كان حظه منها قليلا فاترا ، فأظن أن فى العالم الشرقى أشهر أمة بالنكتة الأمة المصرية ، وهى فى ذلك تفضل الشام والعراق والحجاز . وكذلك فى العالم الأوربى تفوق أمة أمة فى هذا الباب .

والأمة الواحدة تختلف فى تقويم النكت من حيث الكمية والكيفية . وحسبنا دليلا على ذلك الأمة المصرية نفسها ، فقد كانت منذ عهد ليس ببعيد تعجبها النكت اللاذعة وكلما كانت النكتة ألذع كانت أبدع . والذى يرجع إلى النكت التى كانت تنشر فى «حمارة منيتى» و «الصاعقة» و «المسامير» وما ينشر الآن فى المجلات المشابهة لها يرى تقدما محسوساً يستدعى الإعجاب . فقد كان ينشر فى تلك المجلات نكت صارخة مكشوفة كل الانكشاف عارية كل العرى ، قد ذكر فيها بصراحة أسماء المهجوين ونسبت إليهم أشنع التهم مع سفاهة لفظ وقبح معنى . وكان الجمهور يتقبل ذلك قبولا حسناً ؛ أما اليوم فاكتُفى فى كثير من الأحيان بالتلميح مكان التصريح وباللذع الخفيف مكان اللذع السخيف وبالكناية بدل الحقيقة . وسيفعل الزمن فعله فى استمرار الرقى .

وهذا تابع للذوق لأنه هو الذى ندرك به النكت ، فكلما رقى الذوق استلطف النكت الراقية واستسخف النكت العارية . ونظير ذلك الذوق فى الملابس ، فالقروية يعجبها الأحمر القانى أو الأصفر الفاقع ، والقروى يعجبه الألوان الزاهية على حين أن الممدن والممدنة تعجبهما الألوان الباهتة .

كما نلاحظ أن النكت تختلف باختلاف مقدار ثقافة الأوساط ، فالجماعة المثقفة ثقافة عالية تعجبها النكت العقلية والنكت التى تثير التبسم لا الضحك ، والنكت التى تستدعى

الإيجاب لا النكت المؤسسة على الهجاء . ومن هم أقل ثقافة تعجبهم النكت المبنية على اللعب بالألفاظ و يعجبهم التصريح وتعجبهم مرارة النكتة وهكذا . ثم إن النكت ركن أساسى فى كل أدب ، فمن قديم أولع الأدباء بالمضحكات يحلون بها كتابتهم ، و يسترضون بها قراءهم ولا نعلم أدباً خلا من هذا الضرب من القول . فمن أشهر أنواع الأدب وأ كثرها ذيوعا روايات المهازل « الكوميديا » وأساسها ومحورها النكت المضحكة والنقد اللاذع . وكان لها حظ كبير فى الأدب اليونانى، وسارت على نهجه الآداب الأور بية ، والأدب العر بى غنى بالنوادر والنكت . ومنذ فجر الإسلام عنى الأدباء بتدوين النكت عنايتهم بتدوين المواعظ وترجموا لأشعب المضحك كما ترجموا لجرير والفرزدق والأخطل ؛ فلما جاء عصر التأليف كان للجاحظ وابن قتيبة فضل كبير فى توجيه المؤلفين إلى الناحية المضحكة فى الأدب . فالجاحظ يؤلف ما يضحك كرسالة « التربيع والتدوير » و يروى ما يضحك فى فى ثنايا كتبه ، و ينبه إلى أنه إنما يفعل ذلك ليزيل عن القارئ « السأم » .

وابن قتيبة فى أول كتابه « عيون الأخبار » يقول إنه حلاه بالنوادر الطريفة والكلمات المضحكة ليروح القارئ من كد الجد وتعب الحق ، فالمزح إذا كان حقاً وكان فى أحايينه وأوقاته فرّج عن النفوس و بعثها على النشاط .

ومما يؤسف له أن الذين كتبوا فى تاريخ الأدب العربى على النمط الحديث لم يعنوا ببحث هذا الباب عنايتهم بغيره ، فقد عقدوا أبواباً لدراسة الشعر ولدراسة المقامات والرسائل ولم يعقدوا باباً للفكاهات يدرسون فيه تطورها مع أنها جزء هام من الأدب كأهمية الشعر والخطابة .

وفى الحق أن تاريخ الفكاهة هو تاريخ الأدب وجد معه منذ نشأته وترقى أو انحط أيام رقيه وانحطاطه — وكانت عناية الفرنج بالفكاهة ودراستها فى أدبهم وتاريخه أكثر من عنايتنا فى أدبنا ، وعرض لها النقاد عندهم كما عرضوا لكل أنواع الأدب وطبقوا على النكت ماقالوه فى الفن الجميل ، فكما قالوا « الفن للفن » قالوا « النكتة للنكتة » — والذى يدرس الذوق فى الأمة و يريد أن يتعرف مقدار رقيه وانحطاطه يجب أن يدرسه فى الفنون وفى الملابس وفى الأزياء وفى النكت .

وفى المصريين من يحترفون قول النكت

واختراعها وروايتها . ومن هؤلاء من يدعون للحفلات يملأونها سروراً وضحكا ، ومنهم من يقتصر فى ذلك على صحبه وأصدقائه يؤنسهم فى مجالسهم الخاصة ويروى لهم كل ما اخترع من النكت . ومنهم من يحترفه من ناحية التحرير فى الصحف والمجلات الفكاهية . وقد وصف المرحوم قاسم أمين رجلا من هذا الطراز فقال :

« أتعرف حسين بك ؟؟ لا . رجل خفيف ولطيف . لا تغيب البشاشة عن وجهه ولم يره أحد قط غير مبتسم . إذا قال لك نهارك سعيد ضحك وإذا أخبرته أن الهواء طيب ضحك وإذا سمع أن زيداً مات ضحك . زينة المجالس وأنيس النوادى يرى نفسه مكلفاً بوظيفة السرور فيها ومنوطاً بنشر التفريح حوله . يستخدم كل شىء لتسلية نفسه وأصحابه فيجد فى أهم الحوادث موضوعاً للتنكيت وفى أحسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك فى أشرف الأعمال فلا بد أن يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس .

ولم يعجبه هذا الشكل فقال (بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلى الصحيح فرق عظيم ، فالانتقاد الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر إلى مواضع العيوب فى الإنسان وجهات الضعف فى الحوادث ، فيبتسم بالسكون واللطف ، وإذا علا صوته للضحك فليس لأن الضحك غاية فى نفسه ، بل يعده وسيلة للفت النظر إلى شىء يحزنه وأمر يبكيه) الخ .

ولعل هذه الكلمة من المرحوم قاسم أمين كتبت فى ظروف قاسية ؛ إذ كان هناك هازلون يوجهون إليه نقداً لاذعا لموقفه فى تحرير المرأة وآخرون يوجهون مثل ذلك للمرحوم الشيخ محمد عبده ، وكانوا فى نقدهم يسبون أفحش السباب وينقدون ألذع النقد .

* * *

ولأولاد البلد طرق فى التنكيت ، فأحيانا يدعى شخصان للمبارزة فى النكت وأيهما غلب حكم عليه ، ويستعملان فى ذلك طرقاً مختلفة ويسمى ما تدور عليه النكت بالقافية . ومن أشهر هذه الطرق أن يقول أحدهما جملة ويرد الآخر « إيش معنى » ثم يرد الأول . مثال ذلك :

(الأول) عمر الأبعد :

(الثانى) إيش معنى

(الأول) فص ملح وداب .

(الأول) الأبعد بين الناس :

(الثانى) إيش معنى .

(الأول) كالة عدد . . . الخ .

وقد تتخذ المباراة شكلا آخر فيقول الأول مثلا « الأبعد غراب ونشف » فيقول الثانى « الأبعد يعطى ملامح للنعجة» فيقول الأول « سلالم بيت الأبعد اتنين والباقى سلبه » فيقول الثانى « سقف بيت الأبعد ملاية» وأحياناً تدور القافية على شيء يختارانه منها كأن تكون القافية «جنينة » أو «قرافة» أو نحو ذلك . فمن عجز أخيراً عن المتابعة حكم عليه ، ومن غلب عزى كما يعزى على المصيبة .

وقد تكون المباراة شعراً لا نثراً ، ومن خير الأمثلة على ذلك ما وقع لعبد الله نديم ، فقد جمعه عظيم من عظماء طنطا مع جماعة من الأدباتية فى محفل عام وجعل جعلا لمن يَغلب وعقوبة لمن يُغلب ، وتباروا بالشعر حتى غلبهم « عبد الله نديم » . وقد حكى هذه القصة بطولها فى بعض كتبه ودون كل ما قيل فيها فكانت مثلا من الأمثلة على ما كان يجرى إلى عهد قريب فى هذا الباب .

أبو

الأب فى اللغة الوالد . وقد استعملته العرب كنية عن بعض الأشياء ، فكنوا الأسد « أبا الحارث » والثعلب « أبا الحصين » والهرم « أبا مالك » .

قال الشاعر : «أبا مالك إن الغوانى هجرننى » وقالوا للرجل الكريم أبا الأضياف.

وقالوا للفتاة إنها بنت أبيها أى مثله فى صفاته . روى عن عائشة أنها وصفت حفصة بنت عمر فقالت « كانت بنت أبيها » أى شبيهة به فى قوة النفس وحدة الخلق والمبادرة إلى الأشياء . أما إذا قالوا ابن أبيه فمعناه أنه غير معروف الأب .

وعلى العكس من ذلك لا أب له ولا أم له ، فإذا قالوا لا أبا له ، فأكثر ما يستعمل فى المدح، أى ليس له أب يتكل عليه ؛ وإنما هو يكفى نفسه . وأما لا أم له فيستعملونها فى الذم ، لأنهم يقولونها للقيط ولمن ليس له أم حرة ، بل إن أمه من الإماء .

أما فى اللغة المصرية فيستعملونها استعمالات مختلفة ، فأحياناً يستعملونها بمعنى ابن فيقولون أبو يوسف لمن كان اسم أبيه يوسف وأبو محمد لمن كان اسم أبيه محمداً . وأحياناً لا يستعملونها بمعنى والد فيقولون أبو محمد لمن كان له ولد اسمه محمد .

وهناك كنى مشهورة لأسماء خاصة فيقولون : أبو عوف لمن اسمه عبدالرحمن ، وأبو على لمن اسمه حسن ، وأبو درش أو أبو درويش لمن اسمه مصطفى ، وأبو محمود لمن اسمه حنفى وأبو داود لمن اسمه سليمان وهكذا .

وتستعمل كناية عن الشجاعة ، فيقولون للشجاع أبو الفوارس وأبو زيد ، ويقولون للأسود أبوسمرة وللحشاش أبوشداد . وهناك طائفة من الأولياء لهم كناية من هذا القبيل فيقولون للسيد البدوى أبو طنطا نسبة لاسم البلدة طنطا ، ويسمونه أيضاً أبا فراج ويسمون الرفاعى أباالعلمين والشيخ الشعرانى أبا المواهب .

ولهم اصطلاحات خاصة فى هذه الكلمة فيقولون :

« أبو على » للرجل اللطيف الكثير الإنفاق السمح الكريم . وهو إما مأخوذ من الحسن بن على أو من السلطان حسن سلطان بنى هلال فإنهم يلقبونه دواماً بأبى على .

«أبوجيبين» لمن ينفق مامعه ولايبالى ، كأنهم يريدون أن له بدل الجيب جيبين حتى إذا نفد ما فى أحدهما أنفق مما فى الآخر . ويستعملون قريبا من ذلك « أبوجيب مخروق » للسفيه المبذر المتلاف .

« أبو طويلة » للمفرط فى الطول مع بلاهة وغفلة . و « أبو الروس » للكبير الرأس المقسم رأسه إلى أقسام .

« أبو عين نايمة » للذى يعتاد الصمت مكراً وخداعا ، وأحياناً يطلق على الخجول الحيي ، وفى عكسه يقولون « أبو عين قارحة أو فاجرة » .

«أبو رجل مسلوخة» وهو اسم للعفريت يخوف به الأطفال ويصفونه بأنه مخلوق نصفه الأعلى كالإنسان ونصفه الأسفل كالحمار، وله ذنب وبفخذيه سلوخ فى الجلد يظهر منها لحمه الأحمر .

«أبو قردان» وهو ذلك الطائر الأبيض المعروف وكان يرى فى العهد الماضى أسرابا كثيرة يتبع الأرض المروية يلتقط ما فيها من الديدان والحشرات الصغيرة . وقد كان الفلاح يحرم إيذاءه لما يرى من منفعته ثم كثر صيده فقلّ . وتنبهت الحكومة إلى منفعته فحرمت صيده . والعامة تقول فى أمثالها «زى أبو قردان هايف ونظيف » لأن أبو قردان لايهمل نفسه ، فإذا ناله شىء من قذر اجتهد فى إزالته فيحكه بمنقاره حتى يزيله ، فهو دائماً نظيف . وعدوه « هايفاً » لقلة غنائه . وللعامة أغنية فى أبى قردان وهى :

أبو قردان ، زرع فدان ، ملوخية وباذنجان .
لخت فى الطين ، لقى سكين ، دبح أولاده وطلع مسكين .

وقد اجتهدت أن أفهم معناها فلم يتيسر لى ذلك .

« أبو حديد » وهو لقب لشيخ اسمه الشيخ صالح أبو حديد ، له مسجد بالقاهرة بشارع الحنفى ؛ يقول على باشا مبارك فى خططه : إنه كان فى أول أمره قاطع طريق ، وكان له صاحبان أحدهما الشيخ يوسف المدفون فى شارع القصر العينى ثم قبض عليهم ، فأما الشيخ يوسف فكان يلوذ بلاظ أوغلى فأفرج عنه ، وأما الشيخ أبو حديد فاحتمى بمغنية وادعت أنه مجنون واعتقل لسانه من الخوف ، ثم شاع عنه أن له كرامات — وقد علق على باشا مبارك على هذه القصة بقوله :

« وجامعه عظيم لم يبن لغيره من أهل الفضل والمعرفة والعلم ، ولكن هذه عادة قديمة ألفها المصريون من قديم الزمان وطالما نبه عليها كثير من المؤلفين فى كتبهم » .

« أبو فروة » وهو اسم أطلقه المصريون على ذلك الثمر المعروف بشاه بلوط ، وقد سموه بهذا الاسم لما فى داخل قشرته من الوبر والزغب الشبيه بفروة الحيوان .

وهناك أسماء وكنايات كثيرة بدئت بأبو فى التعبير المصرى لا يمكننا هنا إثباتها جميعاً . ومن الأمثلة المصرية التى استعملت فيها كلمة أب قولهم : « أبوك ما هو أبوك وأخوك ما هو أخوك » يقولونها عند الشدائد التى ينسى فيها الابن أباه والأخ أخاه ، وفى هذا المثل نظر إلى قوله تعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه » . وقولهم : « اللى يترك صنعة أبوه وجده يلقى وعده » يريدون بذلك الحض على احتراف حرفة الآباء والأجداد ، فإن ذلك أجدى وأنفع وأضمن للنجاح . ومن باب « أبو » أبو زيد الهلالى وسيأتى .

أبو دقيق

حشرة صغيرة تنتقل من صورة إلى صورة . فيخلق أولا فى صورة ثم ينقلب إلى صورة أخرى . ثم إلى ثالثة .

وهو فى تغير الصور تتغير طباعه . فهو فى أول أمره كدودة القز . راسب فى قاع البحر . ثم ينخرط فى سلك آخر ، ثم يعلو على سطح الماء . ثم ينخرط فى سلك الحيوانات الهوائية . ويتحلى بكسوة ظريفة الشكل فيكون له أجنحة كاللؤلؤ والمرجان ، ويصير غذاؤه من نسيم الهواء .

ويكون فى أول أمره خاليا من الأجنحة ثم تخلق له ويطير . فمن نظر فى تطوره أذعن بربوبية خالقه ، وأعجب بما

تحلى به من جمال أجنحة وجمال شكل .
ويقول العامة فى أمثالهم « يا ابو الدقيق يا ابو النخال ، اركب يا عم انزل يا خال » يقال فى تطور الحال من فقر إلى غنى ، ومن ترف إلى بؤس .

أبو زيد الهلالى

أبو زيد الهلالى شخصية غريبة غامضة لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً تفصيليا واضحاً عنها ، ولكن فى ثنايا الكتب بعض نتف قليلة هنا وهناك .

كان أبو زيد هذا فى القرن الخامس الهجرى وهومن قبيلة « هلال » ونسب إليها فقيل هلالى .

وهلال هذه كانت قبيلة كبيرة بدوية تسكن نجدا ، يجاورهم فى مسكنهم قبيلة أخرى اسمها سليم . وكانت هلال وسليم جفاة سلابين نهابين يخرجون من ديارهم فيغيرون على أطراف الشام والعراق حتى ضجت منهم الدولة العباسية ، وأرسلت فى أيام الواثق سنة ٢٣٠ حملة بأمر القائد التركى (بغا الكبير) لتأديبهم على ما ارتكبوا من فساد فى المدينة

وهاجر قوم من « هلال » و « سليم » إلى مصر ونزلوا أولا فى الوجه البحرى ولكنهم ساروا سيرتهم الأولى من سلب ونهب حتى ضج منهم الناس ، فأمر الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦) بطردهم إلى الصعيد — ولكنهم فعلوا فى الصعيد كما فعلوا فى كل مكان من سلب ونهب وتخريب . وكان من بنى هلال هؤلاء فروع مختلفة منهم زغبة وربيعة وعدى ، فعم ضررهم واستغاث أهل البلاد من شرهم . وفى خلافة المستنصر الفاطمى ثارت بلاد المغرب عليه فنصحه بعض مشيريه أن يبعث إلى المغرب هؤلاء العرب من هلال وسليم ، فإن ظفروا بالثائرين ، فقد كسب تلك البلاد وأخضع الثورة وظفر بالخصوم ، وان انهزموا وقى الله مصر شرهم ، فأرسلهم سنة ٤٤١ وأعطى لكل واحد منهم بعيراً ودينارين ، وقال لهم قد أعطيتكم المغرب ، ففرحوا بذلك وجازوا النيل إلى برقة ببلاد المغرب ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها ، وكتبوا لإخوانهم فى مصر يدعونهم إلى السفر إليهم ويصفون لهم ماهم فيه من خير ونعيم ، فأرادوا الرحيل فمنعهم المستنصر حتى يأخذ من كل واحد دينارين فعوض بذلك مادفعه لمن قبلهم .
وسارت سليم وفروع هلال من دياب وزغب إلى تونس كالجراد المنتشر لا يمرون بشىء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى تونس وقسموا البلاد بينهم وبين قبيلة سليم ، فأخذت سليم شرق

تونس وهلال الغرب ، ووقعت بين هؤلاء العرب و بين سكان البلاد الأصليين من البربر كقبيلة زناته وصنهاجه حروب يطول ذكرها ، كما وقعت الفتن والحروب بين بعض العرب و بعض ، و بعض البربر ، وكان ذلك فيما بين سنة ٤٤٠ وسنة ٤٦٠ ه‍ . واشتهر فى هذه الحروب رجال كثيرون منهم دياب بن غانم وأبو زيد الهلالى .

هذه الحروب وهذه الوقائع فى القرن الخامس الهجرى فى بلاد المغرب هى ميدان لسيرة أبى زيد .

وهذه القصة ثلاثة أقسام : القسم الأول منها يصف تاريخ بنى هلال فى بلاد السرو (وهى منازل حمير بأرض اليمن) وكان من أعيان الهلالية جابر وجبير ابنا المنذر الهلالى وقد رحل جبير بأمه إلى نجد وصار فيما بعد سلطانها .

وكان أن أتى من نسل جابر الأمير حازم والأمير رزق وكانا يحكمان فى بلاد السرو . وقد تزوج الأمير رزق « خضراء » بنت شريف مكة ، وولدت منه ولداً أسمر اللون اسمه بركات ، وهو الذى لقب فيما بعد بأبى زيد . وقد تعاون أبو زيد وابن عمه حسن بن سرحان ابن حازم على فتح الهند فى حديث يطول . أما القسم الثانى فتدور حوادثه حول رحلة بنى هلال إلى نجد ، وقد ألجأهم إلى هذه الرحلة من السرو إلى نجد مجاعة عظيمة فى بلاد السرو باليمن .

وقد استقبل الهلاليون فى نجد استقبالا حسنا من الملك غانم وابن دياب (وكان دياب من فرع جبير) ومن بنى زغبة .

وقد وقعت الحرب أخيراً بين دياب ابن غانم وأبى زيد الهلالى لأسباب نسائية يطول شرحها ، وانتهت بانتصار أبى زيد وخضوع دياب .

والقسم الثالث تدور حوادثه حول رحلة الهلالية إلى الغرب ، فإن أبا زيد ذهب مع أتباعه إلى تونس ليبحث عن أرض خصبة لما حلت المجاعة بنجد ، فلما حلوا بتونس واتصلوا بالبربر حدث أن وقعت « سعدة » بنت الزناتى خليفة وهى من البربر فى حب «مرعى» أحد أصحاب أبى زيد ، وقد وقعت حروب بين الهلالية والزناتية بسبب ذلك انتهت بقتل الزناتى خليفة، ثم اختلف الهلاليون فيما بينهم على قسمة أملاك الزناتى خليفة وثارت الحرب بين أبى زيد ودياب وانتهت بقتل دياب لأبى زيد ، فاجتمع قوم للأخذ بثأر أبى زيد منهم بريقع والجازية بنت الحسن وانتقموا من دياب وقتلوه . وقد قتلت الجازية أيضا فى هذه المعارك .

هذا موجز مختصر جداً لقصة طويلة تقرأ فى أيام . نتبين منها أن حوادث القصة حدثت بين البدو من الأعراب وأن أرضها كانت بين بلاد العرب (من السرو فى اليمن إلى نجد فى الحجاز) و بين بلاد المغرب من تونس وماحولها . ولم تدخل مصر فى هذه الحوادث إلا من ناحية أن الهلاليين أقام بعضهم فيها سنين ثم رحل أكثرهم إلى المغرب .

ولكن القصة كان لها شأن كبير فى مصر ، فقد أعجب بها الشعب المصرى لأنها مكتوبة بلغة شعبية ، ولأن حوادثها بدوية ساذجة ، ولأنها تشتمل على بطولة من نوع خيالى أشبه ببطولة الجن ، ولأن فيها حبا لطيفا بسيطا تضحى فى سبيله الأفراد والقبائل . لهذا كله كانت القصة محبوبة إلى الشعب المصرى . فإلى القريب كان فى كل حى رجل يطلقون عليه اسم (الشاعر) . وكان فى حارتنا بالمنشية رجل اسمه « أحمد الشاعر » كان يخرج بعد العشاء إلى القهوة من داره فتتخذ له منصة عالية يجلس عليها وحوله المستمعون ويخرج القصة من منديل لفها به ويأخذ فنجان القهوة و يبدأ فى قراءة قصة أبى زيد والناس يصغون إلى الحوادث باهتمام ، وكثير منهم يدخن « التنباك » فى الجوزة وصبى القهوة يجىء ويذهب للمستمعين ؛ هذا بتعميرة وهذا بقهوة « سادة » وهذا بقهوة بسكر ، والمستمعون يختلفون فى ميولهم ، فمنهم من يتعصب لأبى زيد ومنهم من يتعصب لدياب . وقد يقوم النزاع والسباب والضرب بين الفريقين . فإذا جاءت ليلة سينتصر فيها أبو زيد عمل أنصاره « فرحا » فى القهوة فزينوها واستعدوا لها ، و إذا جاءت ليلة سينتصر فيها دياب فعل أنصاره كذلك . ولا يزال الشاعر يقرأ وهم يصغون إلى قرب الفجر ثم ينصرفون إلى بيوتهم وأنصار أبى زيد فرحون إذا انتصر ، مهمومون إذا انكسر . وكذلك أنصار دياب .

فكانت هذه القصة تقوم مقام السينما والتمثيل فى أيامنا هذه — وكان الشيخ أحمد الشاعر يلقى القصة إلقاء حسنا فيتحمس فى مواقف الحماسة ويترنم فى القصائد .

وظلت هذه القصص تتداول فى مصر قرونا طويلة . وقد قرأها ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى وأعجب بها و ببلاغتها ، ونقد الناس الذين لا يرون البلاغة إلا فيما كان جاريا على قواعد النحو والصرف ، فقال فى الجزء السادس من تاريخه بعد أن وصف بلاغتها وجودة أشعارها « إلا أن الخاصة من أهل العلم يزهدون فى روايتها و يستنكفون منها لما فيها من خلل فى الإعراب ، و يحسبون

أن الإعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك».

ولم يفت ابن خلدون أن القصة لها أصل تاريخي ولكنه زيد عليه وأدخل فيه كثير من الحوادث المصنوعة والأخبار التي لا يوثق بها.

ومهما كان، فالقصة لها أثر حميد في الأوساط الشعبية المصرية في العصور السوداء التي اجتازوها. فقد كانت سمراً لذيذاً في ليلهم وحديثاً طريفاً في نهارهم. وكانت تبعث فيهم الغزل اللطيف والحماسة الحارة والعصبية للأبطال. وكانت سلوة لمن لا يحسنون القراءة فيستمعون لنوع من الثقافة طريف.

وآسف أشد الأسف لأن هذه العادة امحت أو هي على وشك الامحاء. ولو رقيت وهذبت واستمر القراء يقرأون في المقاهي قصة أبي زيد وغيرها من القصص لكانت ضربا من نشر الثقافة جميلا مفيدا.

أبو نضارة أو أبو نضارة زرقه

لقب لرجل يهودي كان يسمى «يعقوب صنوع» وقد أخرج مجلة في عهد الخديوي إسماعيل اشتهرت بالجرأة ونقد الخديوي حين لم يكن أحد يجرؤ على هذا. فكان هو والشيخ جمال الدين الأفغاني من أجرأ الناس في النقد. هذا في جده وذاك في هزله. وكان من أنصار تعيين البرنس سعيد حليم مكان إسماعيل ويدعو له. وقد أقفلت جريدته ونفي إلى فرنسا. فأخرجها باسم «أبو نضارة حتى لاتصادر»، وأخرج لهذا الغرض أيضا مجلة فرنسية هزلية لتكون داعية في الأوساط الأوربية، وعندي مجموعة منها اشتهرت بإتقان صورها وحسن دلالتها.

الأتراك

كانوا عنصراً كبيراً يمثلون طبقة الأرستقراطية من المصريين . وكانوا يأتون من الأناضول أو استنبول أو غيرها . ويعد المصريون أذكى منهم ، ولكنهم يمتازون بالترفع والتكبر وحب السلطة والعناد . وهم ينظرون إلى سائر المصريين نظرة فيها احتقار على أنهم خلقوا من دم أقل من دمهم ، ولذلك يطلقون عليهم اسم « فلاحين » مقرونة بالازدراء . وقد عرفوا بالنظافة فى بيوتهم وملابسهم كما عرفوا بالترف والنعيم والعيشة الواسعة . وساعد محمد على باشا على إشراك المصريين فى الحكم وفى الجندية ، واشتهر التركى بتدينه ، ولكن تديناً شكايا تنقصه روح الإسلام . فهو يعنى بالأدب أمام تلاوة القرآن ، وبإقامته الصلاة أكثر مما يعنى بتحرى العدل ورفع المظالم وعدم الرشوة ويعتقد أنه إذا ارتكب هذه الجرائم كلها ، يرفعها عنه بناء مسجد أو سبيل أو مدرسة . ومع الأسف لقى منهم المصريون الأمرين . ومن أمثالهم المشهورة « آخر خدمة الغز علقه » والغز طائفة من الأتراك . وهو يمثل الإحساس الذى يحسه المصرى إزاء التركى . وقد أخبرنى صديق من أبناء الأتراك هؤلاء قال : « خرج والدى ذات يوم بموكب كالمعتاد وأراد أن يرينى سلطانه ، فنظر إلى اليسار وكنا نسير على النيل ، فرأى أحد الفلاحين ، يركب « ذهبية جديدة » يجرها أربعة من الفلاحين بالحبال ، فصاح أبى فى الفلاحين أن قفوا ، وأمرهم أن يجروا الذهبية إلى البر ففعلوا ، ورأى الغنى هذا المنظر فنزل ، وجاء لأبى . فقال له أبى :

متى كان الفلاح يركب ذهبية جديدة ؟

الغنى — مراحمكم وعدلكم ومراحم أفندينا خديوى مصر وعدله ، جعلتنا نستريح ونطمئن ودا شىء يفرحكم ودا خير يسركم .

والدى — لكن كيف يجوز للفلاحين أن يتشبهوا بأسيادهم ويركبوا الذهبيات ؟

الفلاح — الحمد لله إحنا بنجرى ونلعب على حسكم وفى ظلكم وظل أفندينا والعبد وما ملكت يداه لمولاه فأنا عبدكم وعبد أفندينا . والذهبية ملككم وملك أفندينا .

والدى — أنا أقول لك كيف تجاسرت وتشبهت بأسيادك وركبت ذهبية ؟

الفلاح — استغفر الله العظيم أن أكون أريد التشبه بكم .

والدى — إذا كنت لا تريد التشبه بنا فلماذا اشتريت الذهبية ، وركبتها فى البحر كأنك من أسياد البلد ؟ وتريد أن يشوفك الفلاحون ويقولوا دا له شأن ومقام

الفلاح — ياسيدى إن كان لى مقام فهو بفضلكم أنتم وأفندينا .

والدى — الفلاح من نسل فرعون وفى المثل « ليه يافرعون اتفرعنت ، قال : ما لقيت أحداً يردنى » .

الفلاح — أستغفر الله . إن كنتم ترون أن فى ذلك عيبا فإنى أشهد الله ورسوله أن لا أعود لركوبها أبداً . وتبت إلى الله على يديك .

والدى — توبتك مقبولة . ولكن يلزمها تفكيرة .

الفلاح — لا ورأسك ورأس أفندينا ما أنساها أبداً .

والدى — لا لا . لا بد من تفكيرة ولو صغيرة . . . يا ولد . حضر الخدامون .

والدى — اربطوه من ذراعيه . وهاتوا النسوة اللى بيملأوا البلاليص دول ، وروحوا خليهم يرشوا الأرض حتى تصير وحلة ، واسحبوه فوق الوحل ذهابا وإيابا ليعرف أولا قيمة الثياب التى يلبسها ففعلوا ذلك ، وأمر بضربه العلقة ، حتى سال الدم من رجليه وركبتيه وظهره ، وقال له والدى : إن شاء الله ما تنساش ؛ مع أن هذا الفلاح كان غنياً كبيراً ولا أحب أن أذكر اسمه » .

وكان التركى لا يطيق أن يترأس عليه مصرى . ومرة عين رجل تركى « أمير ياخور » أى مفتشاً على المواشى . وكان رئيساً عليه مفتش مصرى لزراعة الباشا . فأمره مرة أن يرسل بهيمتين من مزرعة إلى مزرعة . فأبى وادعى أنه هو الرئيس مع أن مرتبه كان ضعيفاً أى مبلغ ١٧٥ قرشاً . فأمر المفتش الكلافين أن يذهبوا بالماشيتين إلى المزرعة الأخرى ففعلوا . فذهب التركى معهم وأبى عليهم أن يستخدموا الماشيتين ، وسحب بندقيته وأبى إلا أن يأخذ أجره ويترك هذا العمل ، ففعلوا معه ذلك . والحكايات على ألسنة الناس كثيرة فى غطرسة التركى وسوء معاملته للفلاح ، وعناده ، وضيق عقله وضربة العلقة للفلاح لأتفه سبب . حتى اشتهر عن فلان باشا أنه كان يأمر بضرب الفلاح أو الموظف ثم يأخذ فى صلاته .

ومن الأتراك المماليك ، وكانوا متميزين بسمات خاصة . ومن صفاتهم : أنهم مغرورون يعتدون بأنفسهم وبقوتهم كثيراً . ولما علم أحد الفرنسيين بحملة نابليون على مصر ، ذهب إلى مراد بك وأطلعه على هذه الحركة فضحك مراد بك ضحكا طويلا فخما ، يستخف به من قوة الفرنسيين وتفكيرهم فى ذلك ، وقال إنهم إذا حضروا سحقناهم سحقاً ، فكانت النتيجة أن دارت الدائرة على مراد بك وأتباعه فى وقعة الأهرام .

أثر النبي

هو حجر فيه صورة رِجْل بأصابعها ، يزعمون أنه من أثر النبي فى الحجر ، وهم يتبركون به . وفى ضاحية القاهرة بلدة صغيرة تسمى « أثر النبي » من أجل ذلك .

و بعض هذه الأحجار يتخذها بعض المشايخ دعاية للولاية ، ومقصداً للتبرك ، فيضعها على رأسه .

الأحجبة

الأحجبة جمع حجاب . وقد اشتهر بين العوام المصريين استعمال الأحجبة ، وأشهر من اشتهر بعملها المغاربة من أهالى تونس ، والجزائر ، ومراكش ، ويليهم فى ذلك السودانيون و بعض الفقهاء . والعادة أن يكتبوها بحبر أحمر أو أخضر ، ثم تطبق الورقة ، وتوضع فى جلد أحمر ، ويعلقها فى رقبته من أراد ، ويكون الحجاب تحت الثياب . و بعض الناس يتعمد أن يكتب الحجاب بنجاسة حفظا من العفاريت ، ويقولون إن الجان أسرع فى إنجاز الأغراض من غيرهم .

و بعض الناس ينقطعون لهذا العمل و بعضهم يغالى فيه . و بعضهم يتحجب بالمصحف الشريف ؛ لذلك طُبع فى حجمٍ صغير جدا ليوضع فى الجيب الصغير . و بعض الأغنياء يضعه فى علبة صغيرة من الذهب أو الفضة للتبرك . وقد ألّف بعض العلماء كتباً فى الأحجبة على اختلاف أنواعها : فحجاب لشفاء المريض ، وحجاب لقضاء الحاجات وحجاب لتحبيب الزوج فى الزوجة وغير ذلك . ومن أشهرها كتاب « مجربات الدِّيَرْبى » .

وأعرف رجلا انقطع لعمل الأحجبة ، وكان مكاراً خبيثاً تقصده النساء لعمل حجاب لتحبيب زوجها فيها . وتقصده أخرى لشفاء ابنها وغير ذلك ، فما مضت عليه سنة من هذه الحرفة إلا وأصبح معتوها . وألزم نفسه بأن يقول كل ليلة يا لطيف خمسة آلاف مرة . ومن الغريب أنه يعتقد أن هذه الأحجبة وأمثالها ضلال فى ضلال ، ولكنه لا يمكنه أن يتركها بعد أن تعودها وأصبحت جزءاً من حياته . وسيأتى أنواع من الأحجبة فى مواضعها . وأحياناً تكون هذه الأحجبة مؤسسة على الوهم ، كالذى حكى لى صديق أنه رأى حجاباً قد وقع من ضيف كان نازلا عنده ، ففتحه فلم يجد إلا ورقة من قصاصات إحدى الجرائد .

الأحزاب

فى مصر أحزاب كثيرة ، تقليداً لأحزاب البلاد الأوربية ، ولـكنها فى أوربة مبنية على اختلاف البرامج ، فـكل حزب له برنامج خاص ، ينتسب إليه من اعتنق مذهبه كحرية التجارة وتأميم المناجم . أما فى مصر ، فتكاد تكون اختلافات أفراد ، بعض الناس يتصلون برجل ، فيكونون حزبا ، وآخرون يتصلون بآخر ، فيكونون حزبا آخر ، والأحزاب فى مصر قريبة العهد بدأت تقريباً حوالى سنة ١٩٠٦ . وكانت فى مصر ثلاثة: الحزب الوطنى وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وحزب الأمة .

فالحزب الوطنى أسسه مصطفى كامل باشا ، ودعاه إلى ذلك ما شعر به من تأخر صحته ، وكان برنامجه واسعاً طموحاً ، يغرى الشبان باعتناقه ، وهو استقلال مصر وتكوين دستور فى البلاد ، بحيث تكون الهيئة التنفيذية مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة واحترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية ، بالنسبة لسداد الديون ، والصراحة فى انتقاد الأعمال الضارة وتشجيع الأعمال النافعة والعمل لنشر التعليم على أساس وطنى صحيح ، بحيث ينال الفقراء أوفى نصيب ، وترقيـة التجارة والصناعة والزراعة ، وبث الشعور الوطنى فى الشعب وإفهامه حقوقه الوطنية ، ودعوته للتعاون ، والعناية بالشؤون الصحية ، وبث روح المحبة بين المصريين والأجانب ، وتقوية العلاقة بين مصر والدولة العلية ، والدعاية لمصر فى الخارج ، ونفى كل شبهة عنها يلصقها بها خصومها . ويشترط لقبول الأعضاء فى الحزب الوطنى أن يكون الطالب مصرياً معروفا بالأخلاق الفاضلة لم تصدر عليه أحكام تمس شرفه وسمعته ، وألا يكون عضواً فى حزب آخر .

حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية « بعد تأليف الحزب الوطنى رأى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد إنشاء حزب آخر وسماه حزب الإصـلاح على المبادئ الدستورية » وكان من أغراضه خدمة الخديوى عباس والدفاع عنه خصوصاً وأن الحزب الوطنى تخلى عن الخديوى وهاجمه ، وكان برنامجه تأييد السلطة الخديوية ، والمطالبة بتحقيق الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عنـد احتلالها لمصر والمطالبة بمجلس نيابى فى مصر ليكون تام السلطة ، وأن يكون التعليم الابتدائى عاما ومجاناً ، وأن تكون اللغة العربية لغـة التعليم فى البلاد ، وأن تعطى الوظائف

فى المصالح المصرية للوطنيين على حسب الكفاءة ، وأن تكون محاكمة الأجانب جنائياً أمام المحاكم المختلطة . وقد كان رئيس هذا الحزب الشيخ على يوسف ووكيله أحمد باشا حشمت .

حزب الأمة

ألفه المرحومان محمود سليمان باشا وحسن باشا عبد الرازق . وأنشأ جريدة له اسمها « الجريدة » كان رئيس تحريرها أحمد لطفى السيد باشا . وكان الخديوى يخشى أن يكون لسعد زغلول باشا وأحمد فتحى زغلول باشا دخل فى هذا الحزب . وتلخص مبادئه فيما يلى :

معاضدة حركة التعليم ونشره بكافة الطرق ، وجعله إجبارياً فى التعليم الأولى والابتدائى ، والحصول على حق البلاد الطبيعى فى الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة ، وتوسيع اختصاص مجالس المديريات ، ومجلس شورى القوانين تدرجا إلى المجلس النيابى ، وتوسيع نطاق الجمعية الزراعية ، توصلا إلى تقدم البلاد الزراعى وعدم إهمال الصناعة والتجارة والعمل على ترقيتها . وقد ظهر فيما بعد أن سعد باشا وفتحى زغلول باشا يعملان سراً على تأييد هذا الحزب . وقد علق عليه اللورد كرومر أملا كبيراً فى مناهضة الخديوى عباس ، ولكن . . .

اشتدت المنازعات بين هذه الأحزاب الثلاثة و بلغت حد السباب والمهاترة ، ثم جاء الوفد فاكتسح هذه الأحزاب كلها ولم يسم نفسه حزباً ، بل قال إنه نائب عن الأمة كلها . ولم يبق إلا الحزب الوطنى . . ثم انقسم الوفد أقساما فخرج منه جماعة وتسموا الدستوريين أو الحزب الدستورى ورئيسهم اليوم الدكتور هيكل باشا والسعديين وكان رئيسهم ابراهيم عبد الهادى باشا ، ومن الأسف أنه عند الانتخاب لاتعرض البرامج . ولايتم الانتخاب عليها وإنما تعرض الأشخاص . ومعنى الحزب الفلانى أنه ينتمى إلى الرئيس الفلانى ، فإما لأنه تربطه به رابطة ما ، وإما لاتحاد أعضاء الحزب فى عقليات متشابهة .

ومن الغريب أن مجلس النواب لم يستطع فى المدة الطويلة أن يسقط وزارة لم يرض عنها . وفى الأيام الأخيرة ظهرت « هيئة الإخوان المسلمين » تدعو إلى العمل بمبادئ الإسلام وتطبيقها على الأمة والتخلق بالأخلاق الفاضلة ونحو ذلك . وقد قتل أخيراً رئيس الهيئة وهو المرشد العام الشيخ « حسن البنا » لما اتهمت الهيئة بقتل « محمود فهمى النقراشى رئيس الحزب السعدى » وقد انتشر أتباعه انتشاراً كبيراً مما يدل على استعداد المصريين لتلبية الدعوة الدينية . ثم كان أيضاً

الحزب الاشتراكى وهو يدعو إلى المبادئ الاشتراكية وأصبح له عضو واحد فى مجلس النواب يمثله ، ويدعو لمبادئه . وعدده أقل من عدد أى حزب آخر . وقد تقسمت هذه الأحزاب طلبة الجامعات . أحياناً يتفقون وأحياناً يختلفون فيتضاربون . وإذا اختلفوا كانت هناك هتافات مختلفة تدل على رغباتهم .

ولما حدث الانقلاب الأخير ، وعزل الملك السابق ، وقبض ضباط الجيش على ناصية الحال ، انكمشت الأحزاب ، وأصدرت الحكومة قراراً بضرورة تنظيم كل حزب نفسه ، وتطهير من الأعضاء المتهمين بالرشوة ، واغتصاب الأموال ، واشترطت تنفيذ ذلك لتكون الانتخابات القادمة على أسس صحيحة ، تبنى على مبادئ الحزب لا على الأشخاص . وقد بدأت الأحزاب تفعل ذلك جدّيا ، وتستعد لمواجهة الأحوال الحاضرة ، ونحن نكتب ذلك والأحزاب كلها قائمة قاعدة فى تنفيذ هذه التعاليم .

الأدعية

يكثر المسلمون من قراءة الأدعية . وهى أنواع مختلفة : دعاء للشفاء مثل « حصنتك بالحى القيوم الذى لا يموت أبداً ودفعت عنك السوء بألف ألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ، ومثل « اللهم رب الناس أذهب الباس ، واشف أنت الشافى . لا شفاء إلا شفاؤك . شفاء لا يغادر سقماً . يا رب العالمين ... ... »

ودعاء لقضاء الحاجات مثل الصلاة على النبى خمسمائة مرة . وقوله « أسأل الله الكريم الديان الحنان المنان الرحيم الرحمن ذا الجود والفضل والإحسان والخير والامتنان ، بحق ذاته السمية وصفاته السنية وبحق الأئمة الأعلام ، نور الهدى ومصابيح الظلام أن تقضى حوائجنا وأن تختم لنا ولأحبابنا ولكل من له حق علينا بالإيمان والإسلام ، وأن تطهرنا وإياهم من الذنوب والآثام ، وأن تجمع كلا من الأشياخ والأحباب والآباء والأمهات فى دار السلام بسلام » .

وبعض هذه الدعوات مأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم وبعضه عن الصحابة أو التابعين ، وبعضه عن الأولياء والصالحين ...

الأُذن

إذا طنت الأذن اعتقد بعض المصريين أن أحداً يذكر من طنت أذنه فى تلك الساعة فيضع يده عليها . ثم لا يزال يذكر أسماء من يظن أنهم ذكروه بعد أن يسد أذنه بوضع يده عليها . فإذا ذكر الاسم الذى كان يذكره سكت الطن . ويقولون : « إذا طنت الودن اليمين عدو مبين ، وإذا طنت الودن الشمال ، حبيبى سال » .

ومن المشهور فى كلامهم «يا ودن طنى . كل يوم خبر» .

ومثل ذلك رفة العين : فإذا رفت العين اليمنى تنبأ صاحبها بحدوث شر ، وإذا رفت العين اليسرى تنبأ بحدوث خير . وقد أخرجوا فيلماً حديثاً بعنوان (عينى بترف) .

ومثل ذلك أيضاً أكلان اليد ، فإذا كان فى اليد اليمنى كان إيذاناً بأنه سيضرب أحداً ، وإذا كان فى اليسرى كان إيذاناً بأنه سيسلم على أحد أو سيقبض فلوساً ، ومثل ذلك خدر الرجل وتنملها .

أربعاء أيوب

هو يوم الأربعاء الذى قبل شم النسيم . وقد اعتادوا فيه أن يبيعوا نبتاً يقال له البرنوف . يدعون أنه إذا نقع فى الماء واغتسل به يوم الأربعاء شفى من الضر وأنه هو النبات الذى شفى به أيوب .

وفى ذلك اليوم ينادى على نبت آخر ذى رائحة طيبة بقولهم يا رعرع أيوب .

الأرمَن

توجد منهم طائفة لا بأس بها فى مصر . وقد اشتهروا بجودة الصنعة وإتقانها والمهارة فى التجارة وعدم المبالاة بالغربة . ولذلك نجحوا حيث لم ينجح غيرهم ، وكسبوا من الأموال ما تضخمت به ثرواتهم .

وإذا سابقوا الوطنى فى الصناعة أو التجارة سبقوه .

الأروام

هم اليونانيون ، وهم طائفة كبيرة فى مصر امتازت ببعض مهن ، كفتح القهاوى والبارات ومحلات البقالة ، والخمارات .

كما امتازوا بالنشاط وجمع المال . ولذلك جمع بعضهم ثروات هائلة ، وكان لهم من النشاط العجيب ما مكنهم من الانبثاث حتى فى القرى النائية و بين الفلاحين يبيعونهم الخمور ويبتزون أموالهم . و يصبرون صبراً تاماً على معيشة تشبه معيشة الفلاحين .

ومنهم تجار أقطان وحبوب يستطيعون لذكائهم وممارستهم أن يضحكوا على الفلاح المغفل ، فيستلبونه ماله ويسخرونه فى مصالحهم . وربما كان احتلالهم أشد أثراً من الاحتلال الإنجليزى . وهم شديدو المعرفة بعادات الناس من فلاحين وغير فلاحين وتقاليدهم ، فلذلك تكون مداخلهم أعمق ، وأساليبهم أدق . ومما يؤهلهم لذلك أنهم سرعان ما يتخلقون بأخلاق أهل البلد و يتعودون عادتهم و يتكلمون بلغتهم …

أزرق

كثيراً ما يسمى المصريون الأزرق أخضر ، تفاؤلا بالخضرة ، وكراهية للزرقة . ولذلك سموا العتبة الزرقاء بالعتبة الخضراء ، وكانت عتبة زرقاء لبيت من بيوت أمراء هذا الحى . ويقولون ، زرَق المسمارَ فى الخشب . أى أدخله بسهولة ، و يقولون « نابه أزرق » لمن كان خبيثاً مكاراً .

الأزهر

لا يهمنا فى كتابنا هذا تاريخ الأزهر وعمارته والدراسة فيه ومركزه من العالم الإسلامى ؛ وإنما يهمنا فى موضوعنا هذا عادات الأزهريين ، واتصالها بعادات الشعب كله .

والأزهر بناء كبير ، قسم إلى أروقة ، فللصعايدة رواق ، وللبحاروَة رواق ، وللشوام رواق ، وللأتراك رواق … وهكذا .

وكثيراً ما كنا نشاهد منازعات تحصل و يتبادل فيها الضرب وتثور فيها العصبيات ، فأحياناً تحدث المشاجرة بين البحاروَة والصعايدة والعكس ، وأحياناً بين المغاربة والمصريين .. وهكذا .

وكل جماعة عليهم أوقاف خاصة بهم يأخذون من ريعها (الجراية) سواء فى ذلك

الطلبة أو العلماء ، وهى فى القديم تتراوح بين ثلاثة أرغفة وعشرين رغيفاً . وكنت كثيراً ما ترى على أبواب الأزهر مجاورين يبيعون جراياتهم أو يستبدلون ببعضها إدامًا .

وفى الأزهر بجانب الأروقة ، صحن كبير سماوى قد بلطت أرضه ، يتشمس فيه المجاورون فى الشتاء ، وينامون فيه فى ليل الصيف .

وكثيراً ما ترى ملاية بيضاء ، أو عباءة سوداء قد فرشت فى هذا الصحن ووضعت عليها الزوّادة ، وهى عبارة عن خبز أُخضر للمجاور من بلده فيخشى عليه من التعفن فيضعه فى الشمس ثم يجمعه بالليل .

وكان العلماء ينصبون أنفسهم مدرسين فإذا سمعهم الطلبة فإما أن يقروهم على تدريسهم أو يقيموهم من أمكنتهم ، ثم وضع لهم نظام الامتحان . ويجلس الشيخ إلى جانب عمود إما فى الأرض أو على كرسى مجنح مرتفع ، ويقرأ درسه فى كتاب ، ويطيل ويعيد فى كل جملة ويفتتها تفتيتاً . والكتاب عادة عبارة عن متن وشرح وحاشية . وقد يزاد أيضاً على هذا كله تقارير . وفى كل كلمة تتوالى على الشيخ الأسئلة ، فإذا كان حصيفاً استطاع أن يجيب عليها .

ولهم اصطلاحات خاصة فى الأسئلة والأجوبة .

وفى جانب من جوانب الأزهر زاوية تسمى « زاوية العميان » ينتسب إليها عميان الأزهر ، وقد عرفوا بالجبروت مصداقاً لقولهم : « كل ذى عاهة جبار » .

والأزهريون كانوا يقرءون فى الفجر التفسير والحديث ، وفى طلوع الشمس الفقه وفى الظهر النحو ، وفى العصر العلوم الدنيوية كالجغرافيا والرياضة .

وفى أركان الأزهر كتاتيب على الطريقة البدائية . وكان فى الأزهر ميضأة كبيرة يتوضأ منها الأزهريون فأبطلها الشيخ محمد عبده ووضع مكانها الحنفيات ، فادّعوا أنه أذهب البركة من الأزهر ، وقاموا عليه وانتقدوه .

وفى الأزهر على يمين المحراب الكبير صندوق صغير يقال إن به طلسما يمنع من سكنى العصافير وسائر الطيور .

وكان قبل الحنفيات صهاريج أربعة تحت الصحن تملأ بالماء ثم يستقى منها طول السنة .

وفى جانب الأورقة دواليب كل دولاب يشتمل على خزانات ، والطالب إذا تقدم فى الطلب أُعطى مفتاح خزانة وضع فيها كتبه وجرايته وما يحتاج إليه .

ومن عادة الصعايدة إذا أتوا من بلدهم

أن يحضروا معهم مؤونة نصف السنة تقريباً من خبز وسمن وجبن وكشك وعدس وبصل.

وأكثرهم يسكن مع بعض زملائه فى غرفة واحدة فى الوكالات التى حول الأزهر وفيهم من يتزوج من بلده ثم يحضر إلى الأزهر ويترك زوجته وأولاده، ثم يذهبون إلى بلادهم فى أيام البطالة. وغالبهم يباشر أعماله بنفسه من طبخ وغسل ثياب وترقيعها وأكثر أكلهم وخصوصاً الفقراء منهم، المدمس والفلافل أوالطعمية والمخلل والسكرات والفجل والنابت. وكان الزى فى زمننا للجميع الجبة والقفطان أو الجلابية والعباية والعمامة. وكثيراً مايستعملون فراء الغنم للجلوس عليه فى الدرس وقل أن يتعهدوا بيوتهم بالتنظيف. ومن الأمثلة التى كانت منتشرة بين الأزهريين قولهم «العلم زبال» يعنون به أن العلم لا يلائم المظاهر. وإنما يذهب إلى القذرين الذين يشبهون فى قذارتهم الزبالين. وشاع بين القاهريين أن من الأزهر ينتشر الجرب. وقد يحصل بين بعض الساكنين فى الحجرة الواحدة عناد على غسل الأطباق فيقول كل منهم «اغسله انت» وتكون النتيجة عدم غسلها.

واشتهر أهل الأقطار الأخرى من هنود وشوام وأتراك بالنظافة فى الثياب والسكنى.

وإذا ختموا كتابا كان من عادة الطلبة أن يأتوا فى حلقة الدرس بالمباخر والقماقم والمطريات فيرشون ماء الورد وينثرون اللوز والتمر ويقبلون يد الشيخ.

وكانت العادة أيضا عند بعض المجاورين أن يطلبوا الإجازات (البراءات) من المشايخ فيكتبوا لهم الإجازات بخطوطهم وهى تتضمن الإقرار بتحصيل الطالب ومهارته فى الفنون.

* * *

وكان الطلبة يحترمون مشايخهم احتراما زائداً ولو كانوا أغنياء والمشايخ فقراء، فيقبلون أيديهم ويجرون وراء حمارهم وينظفون بيوتهم إذا لم يكونوا متزوجين ويمتثلون أمرهم.

والمشايخ يلبسون الفرجيات، وهى ذات كمين واسعين تتخذ من جوخ أو تبيت.

والمجاورون يحترمون فى بلادهم فلايشغلون فى السخرة، ولايجندون فى الجيش، ويمكن أن يكون هذا هو السبب فى كثرتهم.

والغالب أن يتبع الطالب مذهب أبيه فإن كان حنفيا فهو حنفى أو شافعياً فشافعى وهكذا.

ولما انحصرت الفتوى والقضاء فى مذهب الحنفية تحول كثير إليه للتعيش. وقد كان الطلبة والمشايخ لا يأخذون ماهية إلا الجراية

فكانوا يتكسبون من أوجه أخرى كإمامة مسجد وأذانه ودروس خصوصية وخصوصاً للمستشرقين. ولكل رواق عصبية يتعصبها بعضهم ضد غيرهم. وتحدث فى الأزهر حوادث كثيرة منها ما يكون ضد الحكومة إذا أرادت التدخل ومنها ما يكون بين الأزهريين أنفسهم، ومنها ما يكون بين العلماء للتنازع على المشيخة والوظائف الرئيسية وهكذا... ومثال هذه الحوادث أن أحد مماليك محمد على باشا وكان مجاوراً فى الأزهر ضربه بعض الطلبة بسكين فقطع أصابعه من أجل مرتب الجراية فقطعت جرايته وأخذ وسجن ثم نفى إلى بلاده وكان تركيا.

وقد كان العلماء فى القديم واسطة جيدة بين الحكومة أو على الأدق الوالى و بين الناس، فإذا شكا الجمهور من شىء وسّطوا العلماء فى التظلم منه. وكان منهم أعضاء فى المجلس الذى ألفه نابليون بونابرت عند دخول الفرنسيين مصر.

وللأزهريين أثر كبير فى الحياة المصرية من حيث عاداتهم وتقاليدهم حتى فى الأمور السياسية إلى يومنا هذا، فقد كان للأزهر دخل كبير فى ثورة مصر سنة ١٩١٩، ويظهر أكبر تأثيرهم فيمن يتعلمون فى الأزهر من أهل القرى فى الأرياف ثم يعودون إلى بلادهم بعد أن يتموا دراستهم أو قبل إتمامها وقد يكونون مأذونين أو فقهاء كتاتيب أو نحو ذلك. ولبعضهم أثر كبير سيئ، فإصلاح الأزهر ليس أثره قاصراً عليه بل يتعداه إلى سائر البلاد فى العالم الإسلامى.

هذه هى صورة الأزهر أيام كنت طالباً به، أى من نحو خمسين عاماً، ولكنه تغيّر ككل شىء، كما تقول الأغنية البلدية:

« كل شىء فى الدنيا اتحوّل
وحبنا مش زى الأول »

والحق أن للأزهر ميزات: منها أنه رفع راية الثقافة، يوم حوربت الثقافات حتى انكمشت، وأنه كان قبلة المسلمين فى الأقطار الإسلامية كلها، وأن منهجه فى التدريس يعلم طلبته الصبر والدقة. فلا يقبلون من العبارات إلا ما كان دقيقاً منطقياً، مركزاً. ولهم صبر طويل على تفتيتها وشرحها.

الأزياء

من أكثر ما يلفت النظر إلى المصريين تنوع أزيائهم، وخصوصاً الرجال، وهذا ما يدهش الأجنبى إذا زار مصر لأول مرة فهم يجدون العجب من اختلاف هذه الملابس فجبة وقفطان وعمة — وجبة وقفطان وطربوش — وجلابية وطربوش — وجلابية وطاقية — وبدلة أفرنجية وغير ذلك مما لا تجد له نظيراً فى اللبس الأوربى.

وكذلك المرأة — ملاءة لف — وحبرة وغير ذلك .

والذى يلاحظ الآن التغير السريع فى الأزياء . فالنساء تغيرت أزياؤهن بعد السفور تغيراً كبيراً ، وقبل السفور كانت تتغير عادة الأزياء من حين إلى آخر . فمثلا كانت ثياب النساء فى الطبقة العليا والوسطى فى عهد محمد على قميصاً من حرير مختلف الألوان إما أبيض أو وردياً أو بنفسجيا أو أصفر أو أزرق ويزركش غالبا بالحرير أو أسلاك من ذهب ، ويكون واسعا جداً وعريض الأكمام وقصيراً ، ثم (شنتيان) يلف به الخصر بواسطة تكة تمر فى باكية بأعلاه ويربط من أسفل بالساق ثم يسبل إلى القدمين . ثم (يلك) وهو ثوب يلتصق بالقامة وينسدل إلى القدمين ويلف الجسم بإزار من أمامه من فوق إلى تحت ، ويكون مفتوحا من الجانبين وحزام يحيط بالوسط من حرير أو كشمير أو نحو ذلك . ويلبس السيدات فوق اليلك جبة من الجوخ فى فصل الشتاء مقورة من الأعلى وتكون مفتوحة .

أما غطاء الرأس فطاقية حمراء صغيرة يلف حولها منديل من حرير مزركش وتضع فى مقدمة الطاقية صفيحة مستديرة ويسميها النساء (قرصا) والأغنياء منهن يصنعنها من ذهب ويرصعنها بالأحجار الكريمة .

وهن لا يقصصن شعورهن بل يتركنها أو يضفرنها ضفائر فى النهار أو فى الليل وفى السهرات يتحلين بالحلى الكثيرة كالأقراط والعقود والخواتم والأساور .

ثم دخل على ذلك تغيير كبير فى عهد الخديوى إسماعيل ، فكن يلبسن كذلك الشنتيان وهو سراويل واسعة تمكن السيدة من الجلوس على الشلتة وفوق الشنتيان صديرى بدون أكمام وفوقه اليلك وهو رداء طويل . وعند الخروج يلبسن الفرجية وهى أشبه بالعباءة الواسعة ويضعن على رؤوسهن العزيزية وهى غطاء للرأس مغطى من الداخل بقماش وفوقه ورد صناعى وتحته اليشمك يغطى الوجه وهو من القماش الشفاف .

أما الرجال فكانوا فى الغالب يلبسون العمامة سواء فى ذلك الأغنياء أو غيرهم والجبة والقفطان والحزام ؛ ثم دخل التغيير على لباس الرجال والنساء جميعاً فالنساء أصبحن يخرجن بالفساتين التى يلبسنها فى البيت على شكل أجمل ، والرجال فشى فيهم اللبس الأفرنجى من جاكتة وبنطلون حتى بين رجال الأزهر ودار العلوم ... وفشى لبس الطربوش أخذاً من الأتراك .

أما الفلاحون فهم كعادتهم يلبسون الجلاليب الزرقاء وقليل منهم يلبسون الزعابيط وهم يحتفظون بالعمامة على الرأس وأكثرهم

يسير حافيا من غير جزمة ولا مركوب والنساء يلبسن الجلاليب السود الطويلة ويغطين رؤوسهن عند الخروج بمنديل ووجوههن بالطرح ويتحلين بالحلق وأحياناً بالخلخال وأحيانا بالأساور .

وكل أمة تريد الإصلاح عادة ، توحد زيها كما فعل الأتراك فى ثورتهم . فلم يُستثن منهم فى لبسهم إلا رجال الدين الرسميين . فقد سمح لهم بالعمامة . أما سائر الشعب فقد فرض عليهم لبس البدل الأفرنجية والقبعات ، حتى المؤذنين . وذلك شعوراً بأن توحيد اللبس أول عمليات التجديد ، لأنها تبعث فى النفوس نشاطا ، وقد بدأ المصلحون فى مصر يفكرون أيضاً فى توحيد الزى .

استحضار الأرواح

من عادة بعض المصريين استحضار الأرواح ، بعد أن كانوا يستحضرون الجن . وقد شاهدت مجلساً لاستحضار الأرواح هذا . رأيتهم قد أطفأوا الأنوار ، وأداروا اسطوانة على الفونوغراف ، تبعث الهدوء والسكينة ، ثم استحضر رئيس المجلس شخصا ونوّمه تنويما مغناطيسيا . وأغرب ما شاهدته رجل قالوا إنه غير مثقف ، وإن أصله مُبَيِّض ، فلما نوّموه كان يتكلم بالإنجليزية بلهجة هندية ، وهو يداوى الحاضرين ويخبر كلا منهم بمرضه وطريقة علاجه .

ولكن طريقة علاجه ، والحق يقال ، لم تنجح معى . وقد زعموا أنهم يشاهدون فى سقف البيت مناظر أرواح لأشخاص يعرفونهم ولكنى لم أر ... وحكوا لى أشياء كثيرة من هذا القبيل ، وطلبوا منى أن أجلس فى حجرة وحدى فى الظلام فى ليلة الجمعة لأنهم يرسلون الأرواح ، ولكنى لم أفعل .

ومرة أخرى وإن لم تكن من هذا القبيل بل من قبيل الإخبار بالمغيبات زارنى رجل تونسى يزعم أنه يقرأ البخت وكان معى صديق . وقد طلب منا هذا المغربى أن نكتب أوراقا لما نحب أن نسأله فيه ، ثم نضعها فى مصحف أمامنا وهو يخبرنا بالأسئلة والأجوبة من غير أن يقرأها .

وقد ذهب إلى الحمام وظل يأتى بحركات غريبة ، ثم عاد إلينا وقرأ بعض الآيات وقال إن فلاناً يسألنى فى ورقة عن اسم أبيه وأمه ، ولم يكن أحد فى البيت يعرف اسمهما ولا أنا ، واسم أبيه كذا واسم أمه كذا ، وأخبرنى صاحبى أنه صدق فى ذلك . ثم سأله عن اسم ابنه فأخبره بصدق — ثم قال له إنك سألت عن سعر القطن وسيرتفع ، وكنت أنا كتبت أسئلة فى ورقة ؛ منها سؤال عن مرضى فأخبرنى ، وذكر دواء لم ينفعنى ، وكان

مما كتبته فى الأسئلة : « هل ستقوم الحرب العالمية الثالثة ؟ ومتى ؟ » فقال إنها ستكون فى نوفمبر القادم ولم يحدث . فظهر لى من جميع ذلك أن الرجل بالحركات التى عملها فى الحمام قد نوّم نفسه تنويماً مغناطيسيا ، وبذلك استطاع أن يقرأ أفكارنا ، أما الإخبار بالمستقبل فكان مجرد تخمين ؛ أى أنه كان يقرأ من أفكارنا ما نعلمه ، شأن كل المنوّمين المغناطيسيين ، عندهم من الموهبة ما يستطيعون به أن يقرأوا أفكار الناس . أما قراءة المستقبل فدعوى لم يقم عليها برهان — والله أعلم .

الاستخارة

الاستخارة ضرب من قراءة الغيب — فيستخيرون بالسبحة ؛ تؤخذ مجموعة من الحبات اعتباطا وآخر حبة هى القول الفصل فى أن يفعل أو لا يفعل ، وأحياناً يستخيرون بالمصحف يفتحونه حيثما اتفق ، ويستخيرون بورق يقطعونه ، ورقة فيها نعم ، وورقة فيها لا . ويستخيرون بأوّل قادم يطلع عليهم ، إن كان مليح الوجه أو رديئه . وهى شائعة عند المصريين .

الاسترسال

هو خلق من أخلاق العامة أو قاعدة من قواعدهم فى المحادثة .

يفتتح الواحد منهم حديثاً فيترك الحديث لمن بعده فيكمله مع الاسترسال ... وذلك ناشىء من ضعف العقلية ... ومن الغريب أن نرى ذلك بين المتعلمين ، فقل أن نرى مثلا رجلا يتحدث عن موضوع واحد ثم يتم الحاضرون الكلام فيه وحده . ويأخذك العجب إذا قارنت بين مفتتح الكلام ومختتمه . وذلك أخذاً من كتب الأدب عندهم . وهناك نوع من البلاغة يسمى « الاستطراد » وهو فى معنى الاسترسال ، كالذى يفعله الجاحظ وابن عبد ربه وابن قتيبة وأمثالهم حتى فى الكتب ، فترى كتاب الفقه كابن عابدين يغرق فى موضوع فقهى وإذا به يتحدث فى إعراب (حاشا لله) وهكذا ؛ ولذلك لا تخلو كتاباتهم من مفارقات طويلة قد تكون لها علاقة بالموضوع بعيدة . وربما كان الرقى العقلى كفيلا بذهاب هذا العيب .

الاستغاثة

يكثر المصريون من الاستغاثة بالأولياء . وهم يختلفون قوة وضعفاً . فأهل القرى يستغيثون بأوليائهم فى قراهم ، وأهل المدن بمشايخهم ومنهم من يعتقدون لهم سلطة عامة كالسيد البدوى وسيدنا الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة . ولهم فى ذلك أناشيد ونذور وربما بلغ ما يدخل فى صندوق النذور للسيد البدوى فى ثلاثة أشهر ما يزيد عن ألف جنيه يدفعها الفقراء المحتاجون لمشايخ المسجد الأغنياء . ولهم فى كل شيخ قصائد وابتهالات مثل ما قيل فى السيد البدوى :

يا سـيد كم لك من مدد
يسمو عن وصف أو عـدد
وبكم طنطـا أعلى بلد
بوسيع رحابك يا سـيد
كم جاك مسكين يبكى
وعليـل من ألم يشكى
وفقير فى حال ضـنك
فأخذت بيده يا سيد ...
أهل التصريف لهم شان
فى الـكون رجال شجعان
والقوم جميعاً فتيـان
وأبو الفتيان هو السـيد
حتى فى الحج مع الركب
تسعى بالجسم مع القلب
وتـكون دواما فى الدرب
نحو المختار أيا سـيد
للشـدة أنت أبو فراج
سـند للعاجز والمحتاج
وسبيل الفضل بكم قد راج
وازداد بسرك يا سـيد
وقع القنديل من الأعلى
للأرض فلم يكسر أصلا
نورت بنـورك ما أظلم
من لاذ بك لا يظـلم
وأنت حديد البـاب إذا
جنـدى جاء يريد أذى
فنجا من لاذ بكم وكذا
ينجو من جاء إلى السـيد

* * *

وأعرف صاحباً لى ركب القطار مع الركاب، فلما وصلوا إلى طنطا قال بعض الحاضرين « الفاتحة » للسيد . فاستنكر هذا الرجل فعلهم فقاموا عليه يضربونه حتى كاد يهلك وما نجا منهم إلا بادعاء بعض أصحابه أنه مجنون . ولـكل شيخ من هؤلاء الأولياء مولد تقام فيه الأفراح والليالى الملاح. وتختلف فى عدد الأيام وفى عظم الزينات وفى الحلوى

التى تباع على الأبواب . وربما كان أعظم مولد للسيد ولسيدنا الحسين ، ويقصد إليهما من كل البلاد وتكثر فيهما الاستغاثات والدعوات .

الاستفهام

يعتمد الشعبيون فى الاستفهام على الصيغة واللهجة أكثر مما يعتمدون على حروف الاستفهام أو أسمائها .

فتستطيع بالمران أن تفهم إذا كانوا يستفهمون أو يخبرون . وكذلك الاستنكار حتى أن الكلمة الواحدة مثل كلمة « الله » تستعمل استعمالات كثيرة تدل على معناها لهجتها . فقد تكون للتعجب ، وقد تكون للاستنكار وقد تكون للإعجاب ، حسب النغمات ، ونحو ذلك .

الأسرة

ويسمونها « العيلة » . وهى عادة وحدة الأمة . وكانت كل جملة من الأسر تضمها حارة . والحارات يضمها شارع . والشوارع تضمها المدينة أو القرية .

وقد كان للأسرة نظام معروف ، فكان يضم الرجل الكبير والزوجة والأبناء والبنات وقد تضم أيضاً الأقارب ، كالابن وزوجته وولده والأخت المطلقة والحماة وغير ذلك .

وقد يضم البيت زوجتين « ضرّتين » ومن أجل كبر الأسرة كانت تكثر فيها المشاحنات والخصومات . وقد ينقضى الليل فى الحكم بين المتخاصمين والمتخاصمات ، وقد ينتهى بالضرب أو الطلاق . والأسرة إلى عهد قريب كانت محكومة بالسلطة الأبوية فكل السلطة فى يد الأب ، والزوجة لاتجرؤ أن تأكل معه والأولاد يحترمونه فلا يصح أن يدخنوا أمامه ولاأن يتكلموا بصوت يعلو على صوته . ولا يصح أن يتزوّجوا إلا برضاه . والأم لايصح أن تخرج إلا بإذنه ، و بيده ميزانية البيت .

وهو الذى يتحكم فيما يؤكل وما لا يؤكل . والأسرة أيضاً وحدة اقتصادية كما أنها وحدة اجتماعية . فلكل حارة سوقها القريب منها ؛ تشترى منه الضروريات ولا تحتاج إلى غيره إلا فى الكماليات . وهى أيضاً وحدة دينية . فالولد يتعلم منها شعائر الدين . وقريب من الحارة المسجد ، يصلون فيه صلاة الجماعة وصلاة الجمعة ، والمسجد أيضاً يقوم بوظيفة اجتماعية بجانب الوظيفة الدينية فسكان الحارات يتعارفون فى المسجد ، ويعرضون فيه مشاكلهم الاجتماعية ، وفى الأرياف يتحدثون عن حالة الزراعة من قطن وقمح ودودة وما فعل الحر بالزراعة وما فعل البرد وغير ذلك .

والمرأة فى أسرة الفلاحين أحسن منها فى المدن . فهى تعين زوجها فى زراعته فتحلب جاموسته وتصنع سماده وتأتيه بغذائه فى الغيط وتعينه فى الدرس والجمع وتفهم فى الزراعة مثل ما يفهم على عكس المدنية . فالفرق بين معلوماتها ومعلومات زوجها كبير ؛ ولذلك يتفاهم الزوجان الفلاّحان فى كل شئونهما ، وقلّ أن يكون ذلك فى المدن . فقد كانت الزوجة إلى عهد قريب خادمة نظيفة والزوج فى وظيفته أو قراءته أو حساباته المالية منعزلا عن زوجته لا يستطيع إشراكها معه .

وقد شاهدنا فى عصرنا تحول الأسرة من سيطرة الأب إلى سيطرة الأم ومن استبداد الرجل إلى استبداد المرأة . وشاهدنا فى عصرنا أيضاً أن حجاب المرأة يتحول إلى سفورها ، وجهلها إلى تعلمها وتفريطها فى حقوقها إلى الغلو فى طلبها ، حتى لتريد أن تشارك فى السياسة فتنتخب وتنتخب وشاهدنا مزاحمتها للرجل فى العمل والتوظف ، وشاهدنا كثيراً من البيوت يكون فيها الزوج موظفا والزوجة موظفة ويسلمان أولادهما للمربيات .

ولما فشا تعليم المرأة قل الاعتقاد بالخرافات والأوهام . ولما سفرت المرأة عرفت كثيراً من أحوال الرجال وشاركت فى إدارة الأموال وزاد حظها فى كل شأن من شئون الحياة .

ومع ذلك بقيت الأسرة قديما وحديثا خير مربٍ للأطفال . ولم يوجد ما يستعاض به عن الأسرة .

وقد كان فى القديم تتعارف الأسر وترتبط برباط متين خصوصاً من كان منها فى حارة واحدة أو شارع واحد .

ولكن لما غزتنا المدنية الحديثة قل اختلاط الأسر . فكثيراً ما ترى أسرة فى شقة من عمارة لا تعرف شيئاً عمن يسكن بجوارها ، تقليداً للأفرنج فى معيشتهم . ومن أجل هذا أيضاً كان من أكبر مظاهر الأسر فى الزمن القديم الاشتراك العام فى المآتم والأفراح ومساعدة الأسرة البائسة وعيادة المريض إذا مرض فى الحارة والمشى فى جنازته وسؤال كل فرد فى الحارة عمن يساكنه ، فزال كل ذلك بحكم اعتزال الأسرة .

والأسرة المصرية كثيرة العطف على أفرادها ، وهى تصغى إلى العاطفة أكثر مما تصغى إلى العقل . ومن مظاهر ذلك كثرة الاتصال بموتاها فى زيارتهم فى كل موسم والطلوع عليهم بالخوص والفاكهة والفطير وقراءة القرآن الكريم والترحم عليهم وغير ذلك ، ثم مساعدة الأولاد مهما كبروا واستطاعوا أن يقفوا على أرجلهم .

ثم الخوف الشديد من سفرهم والبعد عنهم ولو إلى مسافة قصيرة . ومن هذه

العلاقات احتفالات كبيرة بمظاهر الزواج والمآتم حتى تقع الأسرة من جراء ذلك فى فقر شديد . وقد تضطر الأسرة إزاء عطفها الشديد إلى ارتكاب مايضر ، فأعرف أسرة لم ترض أن ترسل أولادها إلى المدارس خوفا عليهم ، وأعرف أفراداً من أسرة أخرى فسدوا لكثرة مايمدهم به آباؤهم وأمهاتهم من الأموال كلما طلبوا . وهكذا ، حتى إذا انفصل الولد أو البنت وكونا لأنفسهما بيوتاً خاصة ظل الاتصال شديداً بينهما و بين الأسرة . ولا بد من أن يرسلوا إليهم كعكا فى العيد الصغير ، ولحما فى العيد الكبير ، وهدايا متتالية . وهذا عكس ما نشاهده فى الأسر الأوربية . . . أعرف أسرة أمريكية مات واحدها فى الحرب فنشرت عنه الجرائد ، فلما ذهب بعض الأصدقاء للعزاء شكوا فى أن يكونوا هم المقصودين لأنهم لم يشاهدوا عليهم أثراً من آثار الحزن . . . نعم إنهم يحزنون ولكن فى حدود ضيقة ويحزنون فى أنفسهم ويبشون للناس .

وتجد كثيراً من الأغنياء فى أوربا وأمهاتهم أو آباؤهم فى أشد حالات البؤس . وقل أن ينفق إنجليزى أو أمريكى على ابنه فى التعليم الجامعى ولكنه إذا أراد الولد عمل بنفسه ليتكسب ويصرف على نفسه ، كأن يشتغل صبى لبان أو بائع جرائد أو موزع بريد فى جامعة أو كناساً للجامعة أو طباخا .

ثم من مظاهر الأسرة المصرية أيضاً الاتصال والاعتزاز بالأقارب حتى الأبعدين ، فهذا ابن ابن عمه ، وهذه بنت بنت خالته ، وهكذا حتى ليبلغ ببعضهم الاعتزاز بجارته أو قريته .

والأسرة المصرية كما يدل عليها ماضيها وحاضرها سائرة إلى السفور وإلى توحد الزوجات وإلى التعلم وإلى السلطة النسائية ، وإلى مشاركة المرأة فى الأعمال التجارية والسياسية وإلى التزوج من غير أقاربها وإلى تحديد النسل وعدم الإكثار منه وإلى ضياع الفروق الكبيرة بين الرجل والمرأة فى الترام والقطارات ونحو ذلك ، وإلى ضيق نطاق الأسرة والاهتمام فقط بالأزواج والبنين والبنات إلى الاستقلال المالى .

وأخشى أن يرجع الأمر إلى ما قاله هيرودوت عن المصريين (أن النساء يعملن فى الأسواق والرجال يعملون فى البيوت) .

أسلوب الكتابة

يختلف أسلوب الكتابة اليوم عن الأسلوب فى الأيام الماضية ، فقد كان من خصائص الأسلوب الماضى قلة المعانى والعناية بالألفاظ والتزام السجع ، حتى فى أسماء الكتب وعنوان المقالات ، والإمعان فى الجناس والفرح به ، وتضمين الكتابة الشعر .

ولم تكن الكتابة طيعة فى أيدى الكثيرين . بل كان الكاتب كأنه ينحت من الصخر ، وكانت الكتابة ممزوجاً فيها اللغة العامية باللغة الفصحى كما يرى فى كتاب بدائع الزهور وتاريخ الجبرتى . وكان عبد الله نديم فى مجلة الأستاذ ينشر بعض مقالاته باللغة الفصحى و بعضها باللغة العامية .

ثم رزق الله الأمة من تحرر من السجع وتحرر من الزينة اللفظية وأطلق لقلمه العنان . وربما كان من طلائع هؤلاء ، إبراهيم المويلحى وعبد الله نديم ، والشيخ محمد عبده فى عهده الأخير .

أما من قبلهم كرفاعة الطهطاوى وعبدالله أبى السعود ، ومحمد أنس وميخائيل عبدالسيد صاحب جريدة الوطن فكانوا يمثلون الخصائص القديمة التى ذكرناها .

وكان من أكبر ما ساعد على الانطلاق فى الكتابة والتدفق وغزارة المعانى الصحافة المصرية ، واقتباس الأدباء المحدثين من الأدب الغربى ، كما كانوا يقتبسون من الأدب العربى . وكان المثل الأعلى للكتابة مثلا إنشاء العطار وما كتبه من سجع وجناس وبديع . ثم صار المثل الأعلى حديث عيسى ابن هشام لمحمد المويلحى ، والنظرات للمنفلوطى ، وكلاهما لم يتحرر من السجع بتاتاً ، ولم ينطلق صاحبه انطلاقا تاماً ، فظلا يحنان إلى السجع حيناً ، وينطلقان حيناً ، حتى استوى للأدباء الحديث المرسل ، والتحرر من السجع . وحتى بعد تقليد الأدب الغربى ظلت فى مصر مدرستان ، مدرسة تقلد الأدب العربى القديم فى سجعه ونمط بلاغته ، ومدرسة تقلد الأدب الغربى فى استرساله وعنايته بالمعانى . ومن الملاحظ أن النثر العربى فى مصر نجح فى تقليده الأدب الغربى أكثر من نجاح الشعر ، فقد ظل الشعر مقيداً بالبحور القديمة والقوافى والموضوعات غالباً ، ولم يتحرر تحرر النثر .

اسم التفضيل

للمصريين ولع باسم التفضيل . ولهم فى ذلك تعبيرات لطيفة وتشبيهات بليغة أعرض للقراء أهمها . فهم يقولون :

« أبرد من مية طوبة » .

يقولونه للسمج الثقيل الروح . وإنما اختاروا طوبة لأنه أكثر الشهور بردا . وأهل الجزائر يقولون فى مثله « أبرد من الثلج » والعرب الجاهليون يقولون « أبرد من عضرس » والعضرس البرد أو حب الغمام والمولدون يقولون « أبرد من استعمال النحو فى الحساب » ويقولون أيضا « أبرد من شيخ يتصابى وصبى يتمشيخ » . ويقولون :

« أبغض من وش التاجر يوم كساد السوق » .

وأصله مثل عربى وهو « أبغض من وجوه التجار يوم الكساد » وفى مثله يقولون « أبغض من ريح السدب للحيات » والسدب محرفة عن « السداب » وهو نبت زهره أصفر ورائحته ليست قوية ، وهم يدعون أن رائحته تطرد الحيات والثعابين ؛ ولذلك نجد فى كثير من البيوت نبات السدب مزروعاً فى « القصارى » . وعلماء النبات والحيوان هم الذين يستطيعون أن يذكروا لنا الرأى الصحيح فى ذلك . « ويقولون » :

« أبخل من كلبة يزيد » .

ولم أدر من يزيد هذا ؟ هل هو يزيد بن معاوية أم غيره ؟ وربما كان أصل المثل أبخل من كلبة ميت يزيد . وميت يزيد هذه قرية من قرى المنوفية « مشهورة بالبخل » وكلابها أبخل منها حتى يحكوا عن بخلهم وبخلها حكايات كثيرة .

والعرب من قديم تصف الكلب بالبخل فتقول « أقبح من قرد وأبخل من كلب » وفى ذلك يقول الشاعر :

وأقبح من قرد وأبخل بالقِرى
من الكلب أمسى وهو غرثان جائع

والعرب القدماء يقولون « أبخل من مادر » ومادر هذا رجل من بنى هلال بلغ من بخله أنه سقى إبله فبقى فى أسفل الحوض ماء قليل فبال فيه حتى لا ينتفع به أحد من بعده . ويقولون :

« أثقل من جبل الجيوشى » .

وهو جبل بالقاهرة قرب القلعة وتشبيه الثقل المعنوى بالجبل معروف مشهور . فأهل الجزائر يقولون « أثقل من جبل » والعرب تقول « أثقل من أحد » ويقولون « أثقل من الكانون » قال الحطيئة يهجو أمه :

أغربالا إذا استودعت سراً
وكانونا على المتحدثينا

وقد اختلف الشراح فى تفسير هذا البيت فقال قوم إنه يريد بالكانون الموقد وهو ثقيل لأن العرب كانت تضع حجرين على الجبل وتوقد بينهما النار ، فالجبل أحد دعائم الكانون ، ومن أجل هذا سموه ثالثة الأثافى وقال بعضهم إنه يريد بالكانون شهر كانون لأنه فى قلب الشتاء .

وللمصريين تعبيرات كثيرة فى الثقل فيقولون « أثقل من آخر يوم فى رمضان » و « أثقل من المطالب بالدين » والموظف يقول « أثقل من آخر يوم فى الشهر » والمرأة تقول « أثقل من الحماة » و «أثقل من أخت الزوج » .

وإذا شكت امرأة لأخرى قالت الأخرى لها « تشكين ولا حما ولا أخت زوج » .

ويقول العامة أيضا « ليس أثقل من الإنسان على الإنسان » وهم ينظرون فى ذلك إلى قول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

ويقول شاعر فى وصف ثقيل :

وثقيل قال صفنى
أنت فى الوصف جليل
قلت قولا باختصار
كل ما فيك ثقيل

ويقولون أيضاً فى هذا المعنى « أثقل من الهم على القلب » وهو تعبير ظريف وبعضهم ينطقه «أكثر من الهم على القلب»

وفى عكس ذلك يقولون :

« أخف من ريش النعام »

يقولونه فى الخفة واللطافة ، يعبرون به عن الإنسان وعن الكلام وعن كل شيء ظريف — ويقولون :

« أجوع من كلب العرب »

لأن أغلب العرب الذين يسكنون على حدود المدن المصرية فقراء فكيف بكلابهم .

وأهل الجزائر يقولون :

« أزلط من فار الجامع » ومعنى أزلط منتوف الشعر ، ومنه قول المصريين رأسه زلط ، أى لا شعر فيها . ومثل قول أهل الجزائر قول الفرنسيين « أفقر من فار الكنيسة » .

والعرب تقول فى ذلك « أجوع من كلبة حومل » ، وحومل هذه امرأة من العرب

كانت تجيع كلبة تحرسها ، فكانت تربطها بالليل لحراستها وتطردها نهاراً وتقول لها التمسى لنفسك لا ملتمس لك ، فلما طال ذلك على الكلبة أكلت ذنبها . ويقولون :

« أقل موال ينزه صاحبه »

يعنون بذلك أن الإنسان إذا حفظ موالا ولو كان تافها وأحبه كان سببا فى سروره إذا غنّاه — ويقولون :

« أمر من الصبر وأمر من الحنظل »

وأمر هنا من المرارة ، والصبر مادة مرة وفى ذلك يقولون :

« أمر من الصبر سؤالك للئيم » ، و « أمر من الصبر سؤالك لغير مولاك » .

ويقولون :

« أمسخ من الطبيخ الشايط »

والطبيخ الشايط هو الطعام الذى يحترق على النار فيسوء طعمه وتفسد رائحته ، يضربونه مثلا لكل شىء كريه لا طعم له ولا معنى له .

وعلى الجملة فقد أولع المصريون والعرب من قبلهم باسم التفضيل جريا وراء المبالغة .

الأسماء والألقاب

لبعض المصريين أسماء وألقاب غريبة وخصوصاً عند الفلاحين . أما أهل المدن ، وخصوصاً الطبقة الراقيــة فتعتنى باختيار الأسماء . وكثيراً ما يستعملون الأسماء التركية كثروت وبهجت وحكمت الخ . وفى العصور الحديثة قلد الأقباط الإنجليز فى أسمائهم ، كوليم وچورچ ، أما الفلاحون والطبقة السفلى من القاهريين فلهم أسماء وألقاب وكنى غريبة مثل أبو سنة ، أبو سبعة ، أبوهبل ، أبوخربوش ، الأعور ، الأسود ، الأعسر ، الأعرج ، أبو طبيخ ، برغوث ، بلاص ، جمل ، بعرور ، حلوف ، حتحوت ، جحش ، جندى ، دبور ، غراب ، سمسار ، عجل ، فار ، شرباش ، شرباص ، شلتوت ، عفن ، قط ، كرارة ، كشك ، وزة . ومن النكت اللطيفة أن رجلا كان من بلدة اسمها الزريبة بجوار بلبيس وكان اسمه الحاج على الفحل فاستدعى مرة للشهادة بمحكمة الزقازيق ، فلما سأله القاضى عن اسمه واسم بلده قال « على الفحل من الزريبة » فضحك القاضى . ومن أسماء النساء وألقابهن بعرورة ، جندية ، عساكر ، ستهم ، ست الكل ، ست الدار ، ست الأهل ،

ست أبوها ، ست البلد ، زعبوطة ، بطة ، هندية ، هانم ، هنومة ، مكية ، سيدة ، مسعدة ، مسعودة ، سيسبان ، ست اخواتها ، أم الخير ، زحلفة ، طربوشة ، شعلة ، شعلانة .

ولهم فى أسماء الشهور بعض اصطلاحات فيسمون المحرم «عاشوراء» وربيعا الأول مولد النبى وربيعا الثانى مولد الحسين ، وجمادى الأول وجمادى الثانى الجمادين ، وشوالا شهر العيد الصغير ، وذا القعدة بنات الأعياد ، وذا الحجة العيد الكبير . ويسمون الجسم كله البدن والجتة ويسمون الجمجمة النافورة والشعر النابت على أم الرأس شوشة والأذن «الودن» وطبلة الأذن «صرصور الودن» والصماخ «بت الودن» ويؤيؤ العين «النِنى» والشارب «الشنب» والفم «الحنك» والمرىء «الزور» واللحية «الدقن» والترقوة «الجوزة» والثدى «البز» والبطن «الكرش» ومفاصل الأصابع «العقد» والإصبع الكبير «الكبير» والسبابة «الشاهد» .

الأسياد

يستعمل فى الغالب للأولياء من أهل عالم الغيب أو الجان ، وأحياناً يكون الأسياد من أشكال مختلفة : هذه عليها أسياد سودانية ، وهذه حجازية ، وهذه مغربية . وهكذا .

ويتضح ذلك فى حفلات الزّار ، فربّات الزار تضرب نغمات مختلفة على الدف ، لكل نوع من الأسياد ضربة خاصة ولا تفقِّر السيدة إلا إذا دقت دقات مناسبة لهذا النوع من الأسياد التى عليها .

وتستعمل كلمة الأسياد فى لسان الشعب المصرى بمعنى العفاريت والأولياء التى تركب الإنسان وخصوصاً السيدات ، وتتقمص أجسامهم وأجسامهن . ولهم فى هذا تعبيرات مختلفة فيقولون — مثلاً — «جتته مش خالصة» ، أى جسمه مشغول بالأولياء أو العفاريت . ويقولون «ركبه عفريت» و «عليه أسياد» ، وإنما كانت الأسياد تألف النساء أكثر من الرجال لضعف أعصابهن ورقّة مزاجهن واستعدادهن لسلطة الأوهام عليهن .

ولكل سيد من هؤلاء الأسياد ملابس تناسب جنسه وأغان تناسب لغته ورقصات

تناسب أمته ودقات على الدف تناسب رقصته .

فإذا كان الشيخ الذى على الست عربيا لبست فى الزار لبساً عربيا ورقصت رقصة عربية وغنت لها جوقة الزار غناء بلهجة عربية . وإذا حضر الشيخ على لسان الست تكلم بلهجة عربية . ونظير ذلك إذا كان مغربيا أو سودانيا أو حبشيا .

ومن أجل هذا يكون للست التى عليها الأسياد ملابس خاصة للزار وحلىّ خاصة بحفلات الزار تتناسب والشيخ الذى عليها . وإذا كان الشيخ لم يعرف بعد فإن الكدية والمغنيات تدق لها سبع دقات كل دقة على طريقة خاصة ، وعند كل دقة وكل طريقة تلبس السيدة لباساً من جنسها ، فالنغمة التى تعجبها فترقص لها تكون هى الطريقة التى تعرف بها الست ويعرف بها نوع الأسياد الذين يلبسون جسمها .

فإذا كانت الأسياد من نجد كان من ضمن الأغنية : ياسيد نجد ، يا لابس سيفك ، يامحيي ضيفك ، يا مدلع فى الميدان ، يا لابس العباية فى الميدان ، مكحل عيونه ، وراخى شعوره .

وإذا كان سودانيا ، فمن أغانيه : يا أبو العباس ياسلطان الرجال ، يا حامى الرجال ، يامرحباً بك يا مرحبا ، يالابس الياقة والكوفية على العمامة .

وإذا كانت السيدة سودانية ضُربت لها الدلوكة وقالوا :

دلكتك يادلوكة ، يا مرحباً يادلوكة ، عدّى البحر على دراعه ، طلع النخلة بدماغه ، يا فارس بين إخوانه .

وإذا كانت مغربية سموها عويشة ، وقالوا :

يا عويشة لله يا مغربية ، يا عويشة لله عقبال يومك ، حلق عويشة على الخد نادى ، حزام عويشة على الخصر ليّه ، خلخال عويشة رنّه برنّه . يا عويشة لله يامغربية ، يا عويشة لله ارضى علىّ ، يا عويشة لله من المغرب جيه ، ياعويشة لله ارضى علىّ . من تونس جيه ، من مكة جيه وست عظيمة . . وهكذا .

***

ولهم نشيد عند البخور ، منه قولهم :

اتكلنا على الله والنبى ، الفاتحة لعمر وعثمان وعلى ، والعشرة الكرام المتدركين بكل ولى . . وملوك السما وملوك الأرض ، والشهدا والصالحين ، واللى انقفل عليهم الدرب ، وملوك البر وملوك البحر وإخواننا ،

يجعلهم راضيين عنا . . الفاتحة لستى سكينة وسيدى محمد الخواص .

الفاتحة لستى سكينة ، صاحبة الليلة العظيمة ؛ الفاتحة لسكان المغرب عويشة لله ، والسادات البكرية والخضر و إلياس ، سلام لهم وعليهم ؛ وكان الفاتحة لسلطان الحبش ، كبير مع صغير شيء لله ، ولهم الفاتحة

* * *

وللأسياد نظام متسلسل الحلقات ، من حفلات بخور ، ومن حفلات زار ؛ وسيأتى الكلام على ذلك فى مادة « بخور » ومادة « زار » ، انظرهما فى حرف الباء وحرف الزاى .

الأشاير

يطلقونها على أدوات الذكر التى تتقدمه من رايات و بيارق وطبل ودف ونحو ذلك .

وتستعمل عادة فى المحافل كمولد النبى ومولد الحسين و إقامة أذكار خصوصية .

الأشلا

اسم يطلقونه على ما يطلق عليه اليوم (المستشفى) وهو اسم كريه يقابل بالفزع إذ يظهر أن التمورجية والأطباء كانوا يعاملون فيه المرضى معاملة قاسية .

وبقى من آثاره إلى اليوم كراهية إرسال المريض إلى المستشفيات . و يظهر أنه اسم تركى كان يطلق على الثكنة .

وكان المستشفى يكاد يقصر على جرحى الجنود . ولذلك كان من مفهوم الأشلا أيضا الدماء والجروح وما إلى ذلك .

الأشياء المقدسة

يقدس المصريون أشياء كثيرة . كحذاء الجلشنى . والنعل القديم يعلقونه على رأس الخيل أو على باب دكان أو يعلقونه تحت إبط الأطفال يعتقدون أنه يمنع من تأثير العين .

و يشترط فى مثل هذا النعل أن يكون ملقى فى الطريق ، لا يعرف له صاحب ، وأن توجد إحدى الفردتين فقط . و يعتقدون أكثر وأكثر فى بوابة المتولى ، ومعنى المتولى أحد الأقطاب الذين يحكمون الدنيا ، وترى بوابة المتولى مربوطاً على مساميرها فتل كثيرة

أو شعور أو قطعة من منديل ، و يعتقدون فى الأضرحة و يتبركون بالمحمل .

ومما يقدس أيضاً فى مصر شجرة الحنفى وشجرة العذراء فى المطرية وشجرة الشرا كسة ونحوها ، و يقدسون أيضاً الخبز فيحرمون المشى عليه و يلتقطونه من الطريق ليضعوه بجانب الحائط .

و يقولون أستغفر الله العظيم . كما يقدسون الورقة المكتوبة ولو كانت قطعة من جريدة لعل فيها آية من القرآن أو اسماً من أسماء الله إلى غير ذلك ...

أصحاب العاهات

الاعتقاد الشائع أن أصحاب العاهات جبارون ، أخذاً من قولهم : كل ذى عاهة جبار ، وذلك كالأعمى والأعرج . و يظهر أن ذلك طبيعى ، لأن الطبيعة تريد أن تعوض النقص فصاحب العاهة إذا رأى نقصاً فيه اشرأب إلى القوة ليستر نقصه ، فكان جباراً ليُتحدث عن جبروته فيستر آفته .

وقد اشتهر بعض أصحاب العاهات ببعض الحرف . فقد رأيت مثلاً أن السقائين عموماً فى الواحات الخارجة عميان . و يسيرون فرقاً فرقاً . وكثيراً من العرج يبيعون الجرائد والمجلات

ومنهم من يستغل عاهته لعطف الناس عليه كبعض الشحاذين ، يُرى الناس ذراعه المقطوعة أو برصه لاستدرار الإحسان منهم .

وعلى العموم فالعاهات كثيرة فى مصر نسبتها فيهم أكثر من غيرها من الأمم بسبب القذارة والغبار والاعتماد على طب الركة وعدم الإيمان بالأطباء أو الكسل فى المعالجة .

إصطبل عنتر

هو كهف منقور فى الجبل بأسيوط على بعد ساعة بالمشى العادى ، وأصله من مقابر قدماء المصريين على دهليزه كتابة هيروغليفية ، فيها اسم كاهن من كهنة العائلة الثالثة عشرة وهذه العائلة على قول علماء الحفائر تولت من سنة ٢١٥١ إلى ٢٣٩٨ ق ب . وقد اتخذ هذا الكهف وأمثاله ملجأ للمسيحيين الذين كانوا يفرون من الاضطهاد فى مبدأ انتشار النصرانية على عهد الملوك الوثنيين .

أما لم سمى هذا اصطبل عنتر فلم أقف عليه . ولعله مجرد وهم وتحريف كما سموا مصطبة عالية فى حى الخضيرى ، بمصطبة فرعون . و يقصده بعض الناس أحياناً هو وأمثاله من الكهوف لاصطياد العقارب ، لأن بها عقارب كثيرة ، و بعضها يكون فيه فص

بقدر الحمصة ، مادته عظيمة ، فإذا عثر على عقربة بها فص من هذا اصطيدت العقربة ونزع منها هذا الفص ويعتقدون أنه نافع للدغة العقرب .

وطريقة صيد العقارب أن يلبس الصائد ثوباً مخصوصاً لهذا الغرض مصنوعا من الجلد قطعة واحدة ، يلبسه من الصدر ، ومع الصائد عصا فى طرفها قطعة حديد محددة ولها رأس كرأس السنارة يدخلها الصائد فى العقرب ، ويخرج بها فى النور فإذا وجد فى ظهرها هذا الفص استخرجه فى الحال بملقاط من حديد قبل أن تموت ، وقل أن يوجد هذا الفص لأنه نادر

والعقارب فى هذه الكهوف كثيرة جداً وقد شهد كثيرون ومنهم أطباء بنفع هذا الفص فى لدغة العقرب ، فمن لدغته عقرب دهن من هذا الفص عقب لدغه وربط جيداً فيقف سمها فى مكانه ويتجمد حتى يصير كتلة واحدة ولا يسرى فى الجسم . وبعد أربع وعشرين ساعة يفك الرباط ويشرط المكان المتجمد فيه السم فيبرأ المريض .

الأعراب

يسكن مصر ، وبالأخص على تخومها قوم من البدو ، يسمون الأعراب . وقد كانت سيرتهم فى الزمان الأول سيرة غير حميدة لاشتهارهم بالسلب والنهب ، وتلك عادة قديمة . حتى ذكرها ابن خلدون فى مقدمته ، ووصفهم فيها أوصافاً كثيرة .

واستمر شىء من هـذا الحال إلى يومنا هذا . فالأطيان التى يسكنها بدو أو حولها بدو تكون ضعيفة الثمن والإيجار لأن البدو ينهبون محاصيلها ، وإذا استأجروا لا يدفعون إيجارها . ولهم مع ذلك فضائل من كرم وبساطة عيش . وكان عددهم كبيراً أيام الحملة الفرنسية ، فقد بلغ أيامها نحو مائة ألف نفس تقريباً . منها ثمانية عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً فوارس . وهم يحبون الصحراء ، ولا يسرون من سكنى الحضر ، لأنهم كما يقولون يفقدون فيها خشونتهم وبساطتهم وشجاعتهم ، وتضعف فيها عصبيتهم ، وهم يتأثرون بالعواطف أكثر من تأثرهم بالعقل ، ويعشقون الحرية والاستقلال ، ويعتزون بنسبهم ، ولا يخضعون لنظام . وإذا خاطبوا أميراً خاطبوه بجرأة . وإذا جد الجد اكتفوا بالقليل من لبن النياق أو بعض التمر . كما اشتهرت نساؤهم بالشجاعة

وبالجمَال . وفى ذلك يقول المتنبى :

حُسْنُ الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البداوة حُسْن غير مجلوب

ويقيم البدو عادة فى الخيام ، وهى تصنع من الأوبار السوداء أو السمراء أو من جلود المعز ، وتمتاز خيمة الرئيس ببياضها . ويقسمون الخيام عادة إلى قسمين ، قسم للنساء وقسم للرجال . وقد اقتسموا الصحراء المصرية فلكل قبيلة نصيب منها ، وكثيراً ما يختلفون فيتحاربون . ولا يزالون يحبون من الرجل أن يكون فصيحا ، ويحبون التشبيهات فى الكلام ، وتقل بينهم الأمراض لاستنشاقهم هواء الصحراء ، واعتيادهم الرياضات البدنية ومن هؤلاء التراجمة والأدلاء وهم قوم أصلهم من هؤلاء القبائل ، تعلموا اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وهم يلازمون السياح إذا حضروا إلى مصر فى الشتاء ويعرفون مسالك الصحراء . ولهم صدق نظر فى تقدير المسافات ومعرفة جهة الماء ، ومنهم مع الأسف قطاع طريق ومهربو حشيش وإن كان قد قل ذلك اليوم . ومع الأسف أيضاً قد انتفع بهم الإنكليز فى ثورة عرابى ، فاستهووهم بالمال حتى أعانوهم بكل ما يستطيعون . والحكومة تحاول من عهد محمد على كسر شوكتهم وتقليم أظفارهم وتحضيرهم . حتى أن محمد على فى أحد حروبه مع الأعراب اشترط فى الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة ليكونوا رهناً عنده على طاعتهم .

وقد أراد على بك أحد أمراء المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أن يبيدهم ولكن كانت هذه سياسة خاطئة ، فمن الخير الانتفاع بهم والاحتفاظ بشجاعتهم وصد عدوانهم . ومن الأمثال المشهورة على لسان المصريين « ظلم الترك ولا عدل العرب » ، وهذا يدل على أن ما لقيه المصريون من هؤلاء البدو أسوأ مما لقوه على يد الأتراك مع شدتهم .

أفندى

لقب كان يطلق على الحكام الذين يلبسون الطربوش والبدلة ، فإذا كان يلبس جلباباً وطربوشا قالوا إنه أفندى بظرميط ، ومعنى بظرميط أنه ملخبط ، فهو أفندى للبسه الطربوش ، وابن بلد للبسه الجلباب ؛ وكذلك يسمون الولد يأتى من أبوين أحدهما مصرى والآخر سودانى بظرميط ، ويسمون أيضاً الفراخ التى تأتى من ديك هندى وفرخة

بلدية أو بالعكس بظرميط ، ويقولون « بلاش بظرمة » . أى كلام فارغ .

وأصل اسم الأفندى كان محصوراً فى العائلة المالكة فى الآستانة ، يقابل برنس الأفرنجية . وكان يطلق على السيدة المحترمة أم الأفندى . والآن برطشت الكلمة فصارت تطلق حتى على الفراشين الذين يلبسون البدلة ويخدمون فى الأفراح والمآتم ، تمييزاً لهم عن الفراشين ذوى العمم .

الأفيون

يستعمل أحياناً للتدخين فى مصر . وهو يناسب من غلب عليه السكون والميل إلى التأمل . وأحياناً يخلطونه بغيره ويسمى المنزول .

ويستعمله غالباً من يريد التخدر عند اتصالهم الجنسى ... وهو محرم وهو عادة فاشية فى بعض العوام وقع فى أضرارها كثير من الناس ، وهو يخدر الأعصاب ويدير الدماغ ويثقل اللسان حتى ليعرف الشخص من كلامه وحركاته بأنه أفيونجى ، ومن يستعمله يسمى أفيونجيا .

الأقباط

الأقباط هم العنصر المصرى الأصيل ، وهم الذين يصح أن يقال حقا ، إنهم من قدماء المصريين ، وهم عنصر له صفات خاصة أظهرها الانكماش والوجوم والحزن . وربما كان سبب ذلك ما عوملوا به فى أيام اليونان والرومان والعرب من العنف ؛ ومن قديم شهروا بالحساب وإدارة الأموال خصوصاً حساب الفدان ، ولما تمكنوا من هذه المناصب ومن المال مالوا إلى الأخذ بالثأر من جراء ما لحق بهم من المظالم والاضطهاد وخصوصاً لما عهد إليهم مساحة الأراضى ، فاعتبروا أنفسهم أصحاب مصر الشرعيين وسادتها الحقيقيين ، وأن المسلمين فى نظرهم كانوا فاتحين غاصبين . ويستريح كثير من المسلمين المصريين إلى استخدامهم فى الأعمال الحسابية لاشتهارهم بالطاعة ، ويلبسون كما يلبس المسلمون سواء فى المدن أو فى الريف ، وهم أميل إلى اللون الأسود أو الأزرق

وهم من أكثر الناس تحمسا لدينهم ، وذهابهم للكنيسة ، ويهتمون بالحج إلى بيت المقدس اهتمام المسلمين بالحج إلى الكعبة ، ورجال الدين منهم يلبسون فرجية سوداء تشبه فرجية العلماء المسلمين ، ولهم

عمامة خاصة سوداء ، ولا يتزوجون إلا من أنفسهم ، بينما قليل من المسلمين يتزوجون منهم وهم يحتقرون المرأة إذا عقمت ، ويجهلون اليوم لغتهم القديمة . وقد كثروا فى الوظائف ومهروا فى صياغة الحلى . وفى الفيوم يستقطرون ماء الورد ، وفى أسيوط ينسجون الكتان ، وهم مع ذلك يشاركون فى الأعمال الأخرى التى يزاولها المصريون ؛ ومن الأسف أن أقيم مؤتمر اتسعت فيه هوة الخلاف بين المسلمين والأقباط وألقيت الخطب تمجد الأقباط ، وتندد بالمسلمين ، وسمى « مؤتمر الأقباط »

فرد عليهم المسلمون فى مؤتمر آخر رأسه مصطفى باشا رياض ؛ ولكن تدارك الله هذه الحركة بالتوفيق بين المسلمين والأقباط فى الثورة المصرية ؛ فكنت ترى فى العربة الواحدة أو فى الشوارع عالما مسلماً وقسيساً وهما يتعانقان ، واشترك فى الحركة الوطنية المسلمون والأقباط على السواء

وقد اعتادت الوزارات المصرية أن يكون أحد وزرائها قبطيا على الأقل ، ومن عهد أن قتل بطرس باشا غالى وكان قبطيا ورئيس وزارة مال أولو الأمر إلى أن يكون رئيس الوزارة مسلما إلا فى القليل النادر

أقدام وأعتاب ونواص

يقصدون أن التفاؤل والتشاؤم يكونان فى هذه الأمور الثلاثة . الأقدام وهى الدواب والأعتاب وهى مدخل المساكن والنواصى وهى الخيل ويعنون أن هذه الأمور الثلاثة إما مبخته وتكون مصدر سعد ، وإما منحوسة وتكون مصدر شقاء . ويعتقدون أن الدابة إذا أكثرت من هز رأسها وهى مربوطة ، فتلك علامة على قرب موت صاحبها ، والدابة التى تكون شفتها السفلى أطول من العليا دليل الخير والبركة . ويعتقدون أيضاً أن اللون الأحمر القاتم فى الدابة دليل الحرون ، واللون الأبيض الذى يخالطه شعر أسود دليل القوة والنشاط . وإذا كان الشعر الأسود فى بعض الجسم فقط فهو أحسن ما يختار ، ويسمونه القروشى .

وأما المسكن فالباب الذى يفتح إلى الشمال دليل السعادة والخير ، والباب الذى يفتح إلى الغرب دليل السيادة والرياسة ، والباب الذى يفتح إلى الشرق دليل الصحة والعافية والذى يفتح إلى الجنوب دليل الفقر والعوز وسوء المصير .

وكثير من الناس يتوهمون الخير أو الشر فى البيوت لمجرد حادثة حدثت لأول مرة ، مصادفة إن خيراً وإن شراً ...

الأكل

اعتاد المصريون أن يتناولوا كثيراً من أنواع الأطعمة . وسكان المدن منهم يكثرون من أكل اللحوم وخاصة اللحم الضأن ، وخاصة فى عيد الأضحى ؛ أما القرويون فيأكلون لحم الجاموس ولحم البقر ولحم الجمل إذا تيسر لهم .

والفقراء منهم لا يأكلون لحماً . وقد يبلغ الفقر ببعضهم ألا يأكلوا لحماً إلا فى العيد الكبير . وهم لا يأكلون لحم الخنزير لتحريمه ويأكلون الطيور الداكنة كالفراخ والحمام ويأكلون السمك واللبن والبيض . وهم ينوعون الخضارات — فيأكلون الخبازى والقلقاس والبامية والملوخية والباذنجان والطماطم والقرع والكرنب والفاصوليا ، كما يأكلون البقول كالعدس والفول والترمس والبصل . وانتشر بينهم فى الأيام الأخيرة أكل البطاطس تقليداً للأروبيين . وهم يطهون الأطعمة بالزبدة والمسلى والزيت . وهم يختصون بكثرة البهارات كالفلفل والشطة والقرفة والقرنفل ، ويكثرون من الليمون وعصره على الأطعمة وخصوصاً البامية والباذنجان . وأساس الغذاء عند المدنيين الخبز من القمح وعند الريفيين الخبز من الذرة وقد يضعون عليها الحلبة .

ومما مهروا فيه شواء اللحم . وقد يشوون خروفاً بأكمله ، ولذلك شهروا بصنع الكباب وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم توضع فى أسياخ صغيرة . واشتهر صانعها باسم «الحاتى» ويبتدئ المصريون الأكل بالشوربة ثم بصنوف اللحوم والطيور وحدها أو مع الخضر . ثم بالأرز ويطهونه بالزبدة أو بعصير اللحم أو بهما معاً ، وأحياناً يكون حشواً بورق العنب أو نحو ذلك وأحياناً يخلطونه باللحم المفروم وهم يكثرون أيضاً من الفطائر محشوة بالجبن أو اللحم المفروم أو مسقية بالشربات . ومن أطباقهم التى يعتزون بها «الكنافة» والقطائف والفول المدمس . وهم لا يهتمون كثيراً بما يفتح الشهية قبل الأكل ويسميه الأفرنجة (الأوردوف) وإن كانوا يكثرون من السلطات المختلفة كسلطة الطحينة والقوطة واللبن والخيار المخلل . ويختمون الطعام عادة بالحلويات كالفطائر الحلوة والمهلبية ونحوهما ، ثم بالفواكه فى مواسمها كالبطيخ والخوخ والمشمش والعنب والبلح والموز .

وهم يأكلون الأصناف تباعا ولا يقدمونها دفعة واحدة ، وقلما يستعملون قائمة الطعام قبل الأكل ، وإنما يأكلون حسب ما قدم

لهم مع جهلهم بما يأتى . وكانوا فى القديم يأكلون بأيديهم ، ولذلك يجتهدون فى غسلها قبل الأكل و بعده ، فلما انتشرت المدنيـة الحديثة أكلوا بالشـوكة والملعقة والسكين . وهم يستحسنون الحديث على الأكل حتى تطول مدته وتكثر لذته .

وكان الأكل فى أيامنا الأولى مرتين مرة عند الضحى ومرة عقب صلاة العصر ثم تغيرت هذه الحالة فى الأيام الأخيرة ، فأكلوا صباحاً أكلا خفيفاً من جبن وزيتون ولبن وقهوة ثم أكلوا ظهراً ثم أكلوا عشاء . و إذا بدؤوا الأكل قالوا « بسم الله الرحمن الرحيم » و إذا ختموه قالوا « الحمد لله رب العـالمين » . وكان الفقراء ومتوسطو الحال يجلسون إذا أكلوا على السجاد أو البساط وأمامهم الطبلية المستديرة ، ثم أدخلوا نظام المائدة المرتفعة يأكلون عليها .

ومن عادات المصريين أن يكثروا من الحلف على الضيف أن يأكل ولو تظاهرا حتى يختم . وأن يكثروا من ألوان الطعام و يعتبروها علامة كرم ولولم يأكل .

وفى الأفراح يقام الناس حسب مراتبهم و يجلسونهم على المائدة ولو لم يكونوا متعارفين من قبل فتكون أكلة ثقيلة . و بعض الأغنياء يقيمون الموائد ظهراً وعشاء لـكل قادم عليهم أو زائر لهم ولو لم يكن معروفاً أنه سيحضر ثم اندثرت هذه العادة . وأخيراً انتشرت فيهم عادة عمل البوفيه ، وهو طعام مختلف الأنواع من لحم وفاكهة وحلوى ، يدعون إليه الضيوف ثم يتركونهم وشـأنهم يأكلون حسـبما تيسر لهم .

أكل النار

هى عادة منتشرة بين بعض الصوفية فيدّعون أنهم يستطيعون أكل النار من غير أن يصيبهم أذى ويدعون أيضاً أن الولى الذى ينتسبون إليه يحول بينهم و بين الأذى من أكل النار ، مع أنه قد يكون السبب فى عدم الأذى استخدام مواد كيماوية تمنع أثر النار حتى لتخلط بعجينة الورق فتمنعه من الاحتراق ، ومثل ذلك أكل الزجاج ونحوه .

الألعاب

للمصريين ألعاب كثيرة بعضها عام كالنرد والشطرنج والدُّومينو ، و بعضها خاص مثل ما يلعبه الأطفال من الـكورة وهى على غير النمط الأفرنجى المعروف إذ يكببون كيساً و يضعون حجراً يسمونه الميس ، ويلعبون ألعاباً مختلفة كل لعبة ثلاث مرات حتى يأتوا على آخرها . ومثل الاستغماية وهى أن

يختبئ أحد الأطفال ليبحث الآخرون عنه ومثل الكبة وهى حجارة صغيرة يلعبونها على أشكال مختلفة ومثل الطاب إلى غير ذلك .

ومن الألعاب الألعاب الرياضية وكانوا يلعبونها قبل تعودهم الرياضة البدنية الأفرنجية مثل المصارعة فيتجردون من ثيابهم إلا ماستر عورتهم ويتعرون من نصف أبدانهم ويتصارعون كل اثنين مع بعضهما حتى يغلب أحدهما . وأحياناً يلبس المصارعون لباس جلد نصفيا ويمسكون بأيديهم مايسمى بالزخمة من الجلد ، وكانت الزفات قديماً تشتمل على المصارعين يمشون أمام الزفة . ومن أشرف أنواع الرياضة ركوب الخيل وهى أثر من آثار عهد الفروسية . والمتفننون منهم يقومون بحركات كثيرة عليها .

وربما كان للماليك أثر كبير فيها لتمرنهم عليها . وقد خلف ذلك البرجاس وهو أيضاً معروف فى مصر وهى لعبة مؤداها أن يركض فارسان من جانبين مختلفين حتى إذا التقيا قذف أحد الفارسين الآخر بأقصى ما فى ساعده من القوة والشدة بعصا من جريد النخل ، وقد يحدث به جرحا بليغاً . وقد يموت . ومهارة اللاعب أن يتقى وقع هذه العصا عليه .

ومن الألاعيب المعروفة لعبة الحاوى فيزمر الحاوى زمارة إذا أراد اللعب فيأتى المتفرجون من الأطفال والرجال والنساء يتحلقون حوله وفى كل لعبة يجمع ما جاد به المتفرجون . وهى ألعاب متنوعة كأن يغرس الحاوى فى جسمه نصلا أو رمحا ، وفى الواقع أنه لا يغرسه فى جسمه وإنما يغيب فى قرابه ، ومثل الأكواب التى يحولون فيها البيض إلى كتاكيت ويصبغون الأوراق البيضاء بألوان مختلفة ، ولعبة إخفاء النقود وبلع النار وبلع شلات من الصوف الخام ثم يخرجونها منسوجة ، وهم ينصبون هذه النصبة عادة فى المواسم والأعياد . وقد يجتمع اللعاب فيمثلون رواية هزلية أو يلاعبون قرداً فيعلمونه حركات مختلفة يأتى بها كالعجوز إذا مجنت والسكران إذا مشى والشايب لما يدلع ، ونحو ذلك .

وقد قرأت قديماً أن رجلا كان يلاعب القرود فى الدولة العباسية فيقول صاحب القرد للقرد : هل تود أن تكون تاجراً ؟ فيهز رأسه أن نعم وصانعاً فكذلك . ثم يسأله : هل تريد أن تكون وزيراً ؟ فيشير لا ، لما كان عليه الخلفاء مع الوزراء من قتل ومصادرة .

ألف ليلة وليلة

كتاب قصص مشهور ، مرت عليه مئات السنين . ولم يعرف المصريون قيمته حتى تنبه إليه المستشرقون فترجموه إلى لغاتهم واستوحوه وقلدوه ، فقلدهم العرب وأخذوا يقومونه . وأكثر قصصه مبنى على كيد النساء والإيمان بالقضاء والقدر ، والإيمان بالحظ . وقد ألف فى أزمنة مختلفة وأصله فارسى ، والعامة تسهر به فى البيوت والقهاوى . وقد أحسوا بما ينتج عن العكوف عليه من الكسل فنسبوا إليه الشؤم وقالوا إن قراءة الكتاب كله على ليال متوالية فى بيت أو قهوة لا بد أن تنتهى بحادث مؤلم خصوصاً خراب البيت أو القهوة . ومما يدل على تأليفه فى عصور مختلفة وزيادة النساخ فيه أن فى بعض نسخه ذكر القهوة من البن ولم يعم استعمالها إلا فى سنة ١٥٠٠ م ، وكذلك ذكر التبغ ولم يعرف استعماله إلا بعد اكتشاف أمريكا . وهو يفيد الأطفال والسيدات عند قراءته فى البيوت للتسلية وتوسيع الخيال ولذة القصص . ويشبهه فى ذلك قصة أبى زيد والظاهر بيبرس وأمثالها .

اللى

يستعمل المصريون كلمة « اللى » اسم موصول ويكتفون بها عن كل اسم موصول آخر فهى للمفرد المذكر والمفرد المؤنث والمثنى المؤنث وجمع الذكور وجمع الإناث والعاقل وغير العاقل . فلو عقدنا باباً لاسم الموصول فى اللغة العامية لم نجد غير « اللى » . وقد كثر استعمال هذه الكلمة فى اللغة المصرية وكثر ورود الأمثال التى بدئت بها . ولنقص عليك طرفا منها ، من ذلك قولهم :

« اللى أوله شرط آخره نور » .

يقال للحض على حصول الاتفاق قبل البدء فى العمل حتى لا يحصل خلاف بعد .

« اللى أكل لحمتها ياكل عضمتها »

يقال بمعنى أن من له فائدة الشىء عليه أن يتحمل متاعبه . ومثل ذلك قول أهل الجزائر :

« اللى يحلب الغنم عليه يسرحها » .

« اللى اختشوا ماتوا »

يقال للدلالة على فساد الزمان وأنه لم يبق من الناس إلا من قل حياؤه .

« اللى تزرعه بايدك تحصده بايدك »

يعنون أن نتيجة عملك من جنس عملك إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وهذا المعنى كثير الاستعمال ، من ذلك قول الشاعر :

كل امرئ – ياعمرو – حاصدُ زرعه
والزرع شيء لا محالة يحصد

وقوله :

من يزرع الشر يحصد فى عواقبه
ندامة ، ولحصد الزرع إبان

« اللى تسكر به افطر به »

يقال تبكيتاً للرجل ينفق ماله فى الترف والفخفخة وما يضر ، على أنه محتاج إلى ما هو ضرورى .

« اللى تصاحبه ما تقابحه »

يقال للحث على حسن السلوك مع من تكون الضرورة داعية إلى معاشرته كجار فى المسكن أو شريك فى العمل أو نحو ذلك

« اللى تشوفه راكب على عصا قول له مبارك الحصان » .

يراد به مجاراة كل إنسان على قدر عقله ومسايرة كل أحد على هواه .

« اللى تجمعه النملة فى سنة يأخذه الجمل فى خفه » .

يضرب للفقير المقتصد قليلا قليلا ثم يأتى عليه من يذهب بما يقتصده دفعة واحدة كغنى ظالم يسلبه ماله أو ابن مسرف يبذر ما جمعه أبوه فى الزمن القصير .

« اللى تملكه اليد تزهده النفس »

يقال للدلالة على أن النفس تزهد ما ألفت وملكت وتطمع فيما منعت كما قال الشاعر :

« أحب شيء إلى الإنسان ما منعا »

« اللى تغلب به العب به » .

يقال للحض على استعمال وسائل الغلبة أيًا كانت شريفة أو غير شريفة .

« اللى حطيته فى الطاقة تلقاه فى الطاقة »

أى ما ادخرته ينفعك يوم تحتاج إليه فإن لم تدخر لم تجد .

« اللى عاوز يسرق جمل يحضر له كامة »

أى من أراد شيئاً وجب أن يعد له عدته ومثل ذلك قول أهل الجزائر « اللى عاوز يسرق صومعة يحضر لها بير » .

« اللى فلوسه حرام يعرف باب المحكمة »

يمثل عقيدة الناس فى المحاكم والتقاضى وأن الدخول فى القضايا يفقر . الخ . الخ .

الألوان

تختلف الأمم اختلافاً كبيراً فى الألوان من حيث التفاؤل والتشاؤم منها ومن حيث حبها أو بغضها ومن حيث استعمالها فى المناسبات وفى المواقف الرسمية ونحو ذلك .

فقد اعتاد أكثر الناس (مثلا) لبس السواد عند الحزن . وقد ذكروا أن أهل الأندلس كانوا يتخذون البياض لباس الحزن . وفى ذلك يقول الشاعر :

يقولون البياض لباس حزن
بأندلس فقلت من الصواب
ألم ترنى لبست بياض شيبى
لأنى قد حزنت على الشباب

والمصريون عادة يتفاءلون بالأخضر والأبيض ويتشاءمون من الأسود والأزرق فتراهم يقولون « نهارك أسود أو أزرق » إذا أرادوا التعبير عن يوم مملوء بالشر ، وفى عكس ذلك يقولون « نهارك أبيض » أى مملوء بالخير . وقد يكنون عن البركة بشىء شديد البياض فيقولون « نهارك لبن أو نهارك زى الفل » .

ومن تشاؤمهم من الأسود أيضاً أنهم ينادون الرجل الأسود بقولهم « يا أبيض » تفاؤلا ونفوراً من السواد .

ومن تفاؤلهم بالأخضر تسميتهم « العتبة الخضراء » .

ويغلب على أهل الوقار والرزانة والمتقدمين فى السن والطبقة الأرستقراطية ومن يحذو حذوهم لبس البدل السوداء أو القريبة من السواد لأنها تبعث الوقار والهيبة ، فهى فى ذلك أشبه بلباس الحزن بجامع الرزانة والوقار فى كل .

والعرب خاصة والشرقيون عامة — مع تشاؤمهم بالأسود ولبسهم السواد فى الحزن يعجبون بسواد العيون وسواد الشعر ، وإن كان منهم من يميل إلى العيون الزرق أو الخضر والشعر الأشقر ولكن الغالب حب السواد فيهما — وهذا طبيعى ومعقول لأن لون بشرتهم يغلب عليه السمرة والأنسب للسمرة سواد العين وسواد الشعر حتى يكون هناك انسجام فى الألوان يرتاح إليه النظر ولذلك كان بغيضاً عند أهل الذوق من المصريين أن يروا فتاة سمراء قد صفرت شعرها بالأوكسجين .

والمصريون يقولون « قلبه أسود » كناية عن أن قلبه مملوء بالحقد والحسد وفى عكسه يقولون « قلبه أبيض » أى صريح لا غش فيه . والعرب تستعمل فى مكان «أسود القلب» أسود الكبد . قال الشاعر :

فما جشّمت من إتيان قوم
هم الأعداء فالأكباد سود

وتقول العرب سويداء القلب أى حبته ويقولون « رميته فأصبت سواد قلبه » أى القلب نفسه . وكثيرا ما يصغرون سوداء فيقولون سويداء ويقولون أصابه فى سويدائه .

وكان أهل المدينة يطلقون على الحرة (وهى المكان الذى علا سطحه حجارة

سوداء كأنها شيطت بالنار) وعلى الليل الأسودين ، ومنه حديث عائشة رضى الله عنها « لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مالنا طعام الا الأسودان » وقد فسره بعضهم بالتمر والماء ، ولكن التفسير الصحيح أنهما الحرة والليل لأنها أرادت أن تبالغ فى شدة الحال وأن ليس معها إلا الحرة والليل .

والعرب أيضا تسمى شخص كل شىء سوادا فسواد الإنسان متاعه والسواد الأعظم العدد الكثير من الناس . وقال بعضهم « إنما السؤدد فى السواد » أى أن السيادة الحقة أن يكون الشخص سيداً عند عامة الناس لا عند خاصتهم لأن الخاصة عدد قليل والسيادة فيهم محدودة المدى بخلاف السيادة على العامة .

والمصريون يكنون عن الإنسان أحيانا بأسود الشعر ، ومن الأمثال فى ذلك « أسود الرأس ما تأمن له » أى لا تأمن شر الإنسان وفى أمثالهم أيضاً وهو يوضح المثل السابق « ربى أسود الرأس يقلعك » و « ربى أزون المال ينفعك » والمراد بأزون المال أقل حيوان كالكلب والقط ، أى أن إسداء الخير للإنسان يعود بالوبال على من أحسن إليه وخير من ذلك الإحسان إلى أحقر الحيوان .

ولون الخضرة محبوب عند المصريين يتفاءلون به ، لأن أكثر لون المزروعات الخضرة ، والزرع عماد حياتهم ، ولذلك قد يسمون اللون الأزرق أحيانا أخضر و يطلقون الأخضر على كل شىء رطب ندى ، فيسمون الثوب المبلول الذى لم يجف أخضر والأرض إذا كانت مرشوشة خضراء . و يظهر لى أن هذا الاستعمال الأخير تحريف عن الأخضل باللام لا بالراء ، فالعرب تقول خضل الشىء أى ندى ، والشىء أخضل أى ندى مبتل ، ومنه قولهم « عيش خضل » أى طيب ناعم وشباب خضل أى ناعم مترف ، ومنه قول الطغرائى فى لاميته :

نعم الألى علمونا من مكارمهم
غر الخصال وصانونا عن الخطل
سرنا على إثرهم فى كل ناحية
سير النسيم على ذى نضرة خضل

فجاء العامة وحرفوا اللام راء وسموا الشىء الرطب أخضر بدل أخضل . وقد يجوز أن يكون هذا الوصف من الخضرة أيضاً ، لأن العرب استعملت الخضرة وصفا للغض الناعم .

ومما يدل على تفاؤل المصريين بالخضرة قولهم « ربنا يجعل قدمك علينا صلق أخضر » لأن الصلق لطيف الخضرة ، فهم يتمنون أن يكون قدمه أو أثره أخضر حسن العاقبة .

ولعل هذا كان من الأسباب فى اختيار العَلَم المصرى أخضر لأنه من جهة يدل على أن الأرض المصرية زراعية عمادها الاقتصادى الزراعة ، ومن جهة أخرى يدل على التفاؤل بهذا اللون الجميل .

والعرب كالمصريين لم يستعملوا الألوان بدقة فخلطوا بين الأسود والأزرق والأخضر فسموا مثلا السماء خضراء مع أنها زرقاء ، ففى الحديث « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر » ، فالخضراء السماء والغبراء الأرض ، وسموا سمرة الجلدة خضرة فقال شاعرهم :

« أخضر الجلدة فى بيت العرب »

وسموا الكتيبة خضراء إذا كان رجالها يلبسون الدروع السوداء . وفى الحديث « إن الحارث بن الحكم تزوج امرأة فرآها خضراء » فطلقها أى سوداء . وقالوا فى عكس ذلك « سواد العراق » وهو أرضه الخصبة التى تكثر فيها الأشجار الخضراء والزروع الخضراء وهكذا خلطوا بين الأسود والأخضر والأزرق .

والمصريون يعبرون عن اللون إذا اشتد بأنه غامق وإذا خف بأنه فاتح ، فيقولون أسود غامق وأحمر غامق وأحمر فاتح وأخضر غامق وأخضر فاتح . وهم يرتبون الأزرق رتبا فإذا كان زاهيا قالوا أزرق صينى ولعله تشبيه بألوان الأطباق والفناجين لأنها تسمى كلها « صينى » فإذا كان أفتح من ذلك قالوا « صافى » كلون الجلاليب التى يلبسها العامة فإذا كان أفتح من ذلك قالوا « سماوى » أى كلون السماء فإذا كان أفتح من ذلك قالوا « لبنى » أى كلون اللبن لأن فى لونه زرقة خفيفة .

وأحيانا يقولون « أحمر انجليزى » إذا كان شديد الحمرة كلون لباسهم الذى كانوا يلبسونه من أعوام ، فإنه كان شديد الحمرة . ويقولون أخضر غامق فإذا كان أفتح من ذلك قالوا أخضر زرعى أى كلون الزرع ، فإذا كان أفتح من ذلك قالوا أخضر فستقى أى كلون الفستق .

وقد اتخذ العباسيون السواد شعار الدولة الرسمى ولذلك غلا فى أيامهم سعر الثياب السود . وكان شعار الثوار البياض فيقولون « إن جماعة خرجوا عليهم و بيضوا » واشتهر على لسانهم اللون الأصفر ، وقالوا فى ذلك كثيراً . وقد شرحنا هذا فى كتابنا فيض الخاطر .

والله أعلم ......

الأمثال

الأمثال نوع من أنواع الأدب ، يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكناية .

ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم . ومزية الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب ، وليست فى ذلك كالشعر والنثر الفنى فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الأرستقراطية فى الأدب .

فالعجائز فى البيوت تؤلف الأمثال وطبقة الفلاحين ينبع منها أمثال وكذلك طبقات الصناع والتجار وغيرهم .

وأمثال كل أمة مصدر هام جداً للمؤرخ والأخلاقى والاجتماعى يستطيعون منها أن يعرفوا كثيراً من أخلاق الأمة وعاداتها وعقليتها ونظرتها إلى الحياة . لأن الأمثال عادة وليدة البيئة التى نشأت عنها ، فالعربى البدوى فى الصحراء نجد أمثاله مشتقة من عيشته من جمال وخيام وأرض وجدب وخصب ومطر ونحو ذلك والذين يسكنون السواحل يشتقون أمثالهم من البحر والسفن والصيد والسمك ونحو ذلك .

كما نستطيع أن نفهم من الأمثال مبلغ إدراك الأمة للأشياء وما تثيره فى أنفسهم من معان ، ومبلغ ذوقهم فى التشبيه واقتدارهم على انتزاع وجوه الشبه بين المشبه والمشبه به

كما أنها تدل على ما يستحسنه الشعب ومايستقبحه أو على الأقل ماتستحسنه الطبقة التى نبع منها المثل وما تستقبحه ، فيستطيع الباحث فى أمثال أمة أن يعرف ما الذى تكرهه وما الذى تحبه وما الذى تكبره وما الذى تحتقره ، كما يستطيع أن يعرف منها مقدار تقديرها للأخلاق من كرم وبخل واقتصاد وإسراف وخيانة وأمانة وغدر ووفاء وحرية وعبودية .

كما يستطيع أن يعرف منها مقدار تدينها وعدم تدينها . وما هى الروابط التى بين الشخص وبين أسرته وبينه وبين أصدقائه وبينه وبين أمته الخ . . .

فإذا جمعنا ـ مثلا ـ الأمثال المصرية التى قيلت فى المرأة أمكننا أن نعرف منها نظرتهم إلى المرأة ، وإذا جمعنا الأمثال التى قيلت فى الحاكم أمكننا أن نعرف نظرهم إلى الحاكم ، وإذا جمعنا الأمثال المالية أمكننا أن نعرف منها نظرتهم الاقتصادية وهكذا .

ولكن يعترض الباحث فى الأمثال صعوبات كثيرة منها : أن الأمثال لا يعرف قائلها حتى نستطيع أن نعرف من أى وسط نبعت ، هل قالها ريفى أو حضرى وهل قالها سوقى أو أرستقراطى ؟ والناس — عادة —

يهتمون بقائل الشعر ، فكثير من الشعر يمكننا معرفة قائله ، أما المثل فلا ؛ فقد تقوله عجوز فى بيتها أو فلاحة فى حقلها أو صانع فى مصنعه ثم يسير القول فى الناس من غير اهتمام بقائله كما أنه من الصعب تحديد تاريخ المثل فى أى عصر قيل . وقد يكون هذا هاماً جداً لأنا كثيراً ما نجد أمثالا متضاربة ، فهم يقولون — مثلا — « القرش الأبيض ينفعك فى اليوم الأسود » ويقولون « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » فهذان مثلان متناقضان ينصح أولهما بالتدبير والثانى بالتبذير ، فهل نبعا من وسطين مختلفين أو قيلا فى وقتين أو حالين مختلفين . ومثل قولهم « ابن الوز عوام » وقولهم « باب النجار مخلع » فبين هذين المثلين شبه تناقض .

نعم إن بعض الأمثال يمكن معرفة تاريخها بدلائل مختلفة ، فقد جمع لنا — مثلا — الأبشيهى فى كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » طائفة من الأمثال العامية المستعملة فى زمنه ، وقد كان مؤلفه فى القرن الثامن الهجرى .

وأحياناً يدل المثل نفسه على التاريخ الذى قيل فيه مثل « آخر خدمة الغز علقة » فإن المثل يدل على أنه قيل فى مدة حكم الأتراك لمصر .

كما أن بعض الأمثال يدل على نوع الوسط الذى نبعت منه مثل « النوتى فى حساب والريس فى حساب » فإنه يدل على أنه نبع من وسط المراكبية ، ومثل قولهم « إيش عرف الفلاح بأكل التفاح » فإنه يدل على أنه نبع من وسط الحضريين ، ومثل قولهم « اللى مالوش شيخ شيخه الشيطان » فإنه يدل على أنه نبع من وسط مشايخ الطرق وهكذا ولكن هذا قليل . وأكثر الأمثال لا يعرف قائلها ولا تاريخها ولا منبعها .

ومما يفيد الباحث فى الأمثال مقارنة أمثال الأمم بعضها ببعض كالموازنة بين أمثال الإنجليز والفرنسيين والألمان والمصريين والشاميين والمغاربة ونحو ذلك . وهذه المقارنات تدل على أن بعض الأمثال يكاد يكون عاماً بين الأمم وهو ما اتصل بالإنسان كإنسان وما اشترك فيه الناس من تجارب الحياة مثل تقدير المال ووجوب التدبير ومثل (معظم النار من مستصغر الشرر) ومثل (إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب) ومثل القول بأن الورد يظهر بين أشواك ونحو ذلك من المعانى التى تكاد تتفق فيها الأمم لأنها نتيجة تجارب مشتركة أدت إلى نتائج متحدة .

وهناك — على العكس — من ذلك —

أمثال تختلف فيها الأمم إما من حيث اختلاف التعبير و إما من حيث اختلاف البيئة و إما من حيث اختلاف الظروف الاجتماعية ، فإذا قال المصرى « إن اصطلحت الضراير يخرب البيت » فهذا مثل لا يمكن أن يقوله الفرنسى أو الإنجليزى الذى لا يتزوج إلا واحدة ، و إذا قال الشرقى « إن اشتريت الحمار حضر له المنخسة » فلا يقوله الغربى الذى ليس فى بلده حمير ، و إن قال الفرنسى « أفقر من فأر الكنيسة » فالمسلم لا يشتق أمثاله من الكنائس وهكذا . . . .

هذه مقدمة صغيرة لدراسة الأمثال .

وللمصريين أمثال كثيرة منها ما شاركوا فيه الأمم الأخرى لأنها نتاج تجارب إنسانية عامة ، كما قلنا ، ومنها ما هى خاصة بهم لأنها نتيجة بيئتهم ونوع معيشتهم ، ومنها ما هى خاصة بطائفة من الطوائف دون عامة المصريين لأنها نبعت من وسطهم وقيلت فى شأن من شؤونهم .

و بعض هذه الأمثال فى منتهى الحكمة والدقة و بعضها نتيجة نظر قاصر وتجربة ناقصة وعقل سخيف .

والآن نعرض لبعض الأمثال مرتبة حسب الموضوعات لا كما يفعل المؤلفون فى ترتيبها حسب الحروف الأبجدية :

« حمارتك العرجاء ولا سؤال اللئيم » .

وكثرت فى الأيام الأخيرة الأمثال الدالة على الاستعباد والخضوع للحكام مثل قولهم « ان ابتليت بظالم جاريه » ، « حاكمك سيدك » « يا بخت من كان النقيب خاله » ، « اللى تشوفه راكب على العصا قول له مبارك الحصان » .

ويقول أهل الجزائر فى هذا المعنى : « إذا قال سيدك ديب قل ما أعتاه » .

و يروون أن سيدا رأى فى مزرعته حيوانا فنادى خادمه احذر الذئب ، فقال الخادم إنه ثعلب ، فقال السيد إنه ذئب ، فقال الخادم إنه ثعلب ، فرفع السيد عصاه وضرب بها رأس الخادم بعد أن ذهب الثعلب ، فقال الخادم ما دمت تقول إنه ذئب فهو ذئب وما أعتاه . فقيل هذا المثل الخ .

ومثل قولهم « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » .

وقولهم « أنا أول من أطاع وآخر من عصى » « إن كنت فى بلد بعبدوا الجحش حش وادى له » « إن كان لك عند الكلب حاجة قل له ياسيدى » الخ .

ومن الأمثال التى تدل على علاقة الحاكم

بالمحكوم قولهم : « آخر خدمة الغز علقة » وهو مثل وضع أيام كان المصريون تحت حكم الأتراك والغز طائفة منهم ، وهو يدل على أن المصريين قد لاقوا العنت من حكم الترك .

وقولهم « ظلم الترك ولا عدل العرب » وهو يدل على أنهم قد لقوا من بدو العرب أكثر مما لقوا من ظلم الترك .

وقولهم « أكن أبوك سنجق داير على حل شعرك » يدل على أن من ينتسبون إلى السناجق وهم ضباط الأتراك كانوا يعيثون فى الأرض فساداً ، ويسيرون تبع هواهم .

وقولهم « أرقص للقرد فى دولته » يدل على خضوع المصريين لكل حاكم فى أيامه مهما ظلم .

وقولهم « رايح فين ياصعلوك بين الملوك » يدل على احتقارهم أنفسهم أمام العظماء كأنهم من طينة أخرى .

وقولهم « راحت من الغز هاربة قابلوها المغاربة » والمغاربة قوم من الجنود كانوا يجندون من المغاربة للغزو ، أى أنهم هربوا من شر فوجدوا أشر منه .

وقولهم « ضرب الحاكم شرف » .

وقولهم « جند الكرا ما يحاربوش » أى أن الجنود الذين يجندون بالكراء لا يصدقون فى الحرب .

وقولهم « يا فرعون من فرعنك قال مالقيتش حد يردنى » .

وقولهم « لاتلابطِ البدوى ولا تجاريه » الملابطة المصارعة ، أى أنك إن لابطته فقد يغلبك ولا تجارِه لأن البدو مشهورون بسرعة العدو .

« لا تذم ولا تشكر إلا بعد سنة وست أشهر » « زى التركى المرفوت يصلى لحد ما يستخدم » .

« ما حدش يقول يا جندى غطى دقنك » الجندى « الأمير التركى » أى لا يستطيع أحد أن يشير عليه بالخير إذا أراد الشر .

« الولد ولد ولو حكم بلد » .

« حاكمك سيدك » وهو يدل على الاستسلام للحاكم المستبد .

ومن الأمثال الدالة على حالة المرأة قولهم « الأصيلة ما تتاقلش بعال » .

وقولهم « تحت البراقع سم ناقع » ، « تاخدى جوزى وتغيرى ، ما تخيلى » ، «تبقى عورة وبنت عبد ودخلتها ليلة الحد» .

قالوا هذا لأن العادة أن يكون الزواج ليلة الجمعة أو الاثنين ، فأن يكون الزواج ليلة الأحد نكبة أخرى .

« الغزالة تغزل برجل حمار » ومثله

« لبس الخنفسا تبقى ست النسا »

« زى أم العروسة فاضية ومشبوكة »

«وفرى نفسك ياحماتى مالى إلا مراتى»

« لبس البوصة تبقى عروسة » البوصة : القصبة من غاب أو نحوه فإذا ما وضع عليها ما يصنع من فضة أو ذهب ولُبّس فيها سميت عروسة .

« الفجرية ست جيرانها » .

« خد من الزرايب ولا تأخد من القرايب » .

« خد المليح واستريح » .

« قالوا خدوا جوز الخرسة اتكلمت » .

« الخنفسة عند أمها عروسة » ، ومثله : « القرد فى عين أمه غزال ».

«الراجل ابن الراجل اللى عمره ما يشاور مرة » .

«الراجل ومراته زى القبر وأفعاله» أى أن السر الذى بينهما لا يذاع .

« الحماحمة ، وأخت الجوز عقربة صمة »

« قالوا يا جحا مراة أبوك بتحبك ، قال يمكن اتجننت »

« قعاد الخزانة ولا جواز الندامة » الخزانة الحجرة الصغيرة .

« فاتت ابنها يعيط وراحت تسكت ابن الجيران »

« الفاجرة داريها والحرة عاديها »

« البايرة لبيت أبوها »

« بوس إيد حماتك ولا تبوس إيد مراتك »

« بنت الدار عورة » والمراد أنها غير مستحسنة لأنها فى اليد

« بنت الفارة حفارة »

« بنت الحرافة تطلع دراسة »

« البنات بسبع وجوه »

« بره وردة وجُوّه قردة »

« جوزوا مشكاح لريمة ما على الاثنين قيمة »

ومن الأمثال الدالة على الحالة الاجتماعية والأخلاقية :

« زى بعجر أغا ما فيه إلا شنبابه »

« زى ساعى اليهود لا يودى خبر ولا يجيب خبر »

« الدنيا بدل يوم عسل ويوم بصل »

« الدنيا زى الغزية ترقص لكل واحد شوية »

« الوش وش حاج والطبع ما يتغيرش »

« لا شجرة إلا وهزها ريح »

« خد لك من كل بلد صاحب ولا تأخد من كل إقليم عدو »

« خدوا من فقرهم وحطوا على غناهم »

يضرب للغنى يستنزف ما عند الفقير .

ومثله :

« عاز الغنى شقفة ، كسر الفقير زيره ؛ جت الفقير وكسه ، ما أقل تدبيره » .

« الخسارة اللى تعلم مكسب »

« الخشب اللين ما ينكسرش »

« خفف أحمالها تطول أعمارها »

« خفها تعوم » ، والضمير على السفينة

« خلق ناس وتحفهم وكبب ناس وحدفهم »

« خلى بينك و بين الجرب غيط »

« خبطتين فى الراس توجع »

« خلّ الميّة مِية واردب » أى احتط بالزيادة .

« من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته »

« التنا ولا الغنى » التنا : الثناء السمعة.

« ثوب غيرك ما يليقش عليك »

« غاب القط العب يا فار »

« الغايب مالوش نايب »

« الغربة تعلم »

« غشيم ومتعافى »

« الغضبان خىّ المجنون » خى : أخ .

« ضبة خشب تحفظ العتب » الضبة : القفل الذى يركب على البـاب ويقفل بها — يقولون إنها تمنع من السرقة .

« الضحك على الشفاتير والقلب يصبغ مناديل »

الشفاتير : الشفاه . والمعنى (الضحك فى الظاهر والقلب يبكى)

« الضرب فى الميت حرام »

« ضعيف ويا كل ميت رغيف »

« ضلالى وعامل إمام — والله حرام »

« ضيع سوقك ولا تضيع فلوسك » أى لا تشترِ إلا إذا وثقت بالربح ، فإذا لم تثق فاحفظ فلوسك .

« اسأل مجرب ولا تسأل طبيب »

« أصحاب العقول فى راحة »

« ياللى بترقص فى الظلام مين حاسس بيك »

« يا فاتح البير ومغطيه ، لا بد من وقوعك فيه »

« يا معزى بعد سنة يا مجدد الأحزان »

« زى الإبرة تكسى الناس وهى عريانه »

« قال له نام لما أذبحك ، قال دا شىء يطير النوم »

« كذب مساوى ولا صدق مبعزق »

« كل بير قصادها بلاعة »

« كل شىء عند العطار ، إلا حبّنى غصب »

« اعط العيش لخبازينه »

« أقل شيء يرضى الخاطر »

« أقل موال ينزه صاحبه »

« تدبل الوردة وريحتها فيها »

« لا إنسان ولا حلاوة لسان »

« راحت الناس وفضل النسناس » أى أن الخيرين ذهبوا ولم يبق إلا الأشرار

ومثله قولهم : « ما بقى على المدود إلا شر البقر » « ياكل ويشرب ووقت الحاجة يهرب » — « يا مؤامنة للرجال يا مؤامنة للحية فى الغربال » « يا مستكثر الزمان أكثر » « يا حامل هم الناس ، خليت همك لمين » — « يا بانى فى غير ملكك يا مربى فى غير ولدك » — « زبال فى إيده وردة » يضرب لمن يتجمل بما لا يتفق وحالته .

« الزمار ما يغطيش دقنه » « زبلة ويقاوح التيار » « زرعت لو كان ، وسقيته يا ريت ، طرحت ما يجيش منه » يضرب للمتمنى ولا يعمل ، ويتكل على أمانيه . « زى الخروب ، قنطار خشب على درهم سكر » « زى روايح أمشير ، كل ساعة فى حال » الروايح : الرياح . «زى الطبل ، صوت عالى وجوف خالى » « زى فقراء اليهود ، لا دنيا ولا دين » — « زى المش كل ساعة فى الوش » — «داهية تخفى الشرك» الشرك : المشاركة . « الدخان القريب يعمى » يعنون أن المصايب لا تأتى إلا من الأقارب .

« دور الزير على غطاه لما التقاه » يدل على اتصال الإنسان بما يناسبه .

« واحد شايل دقنه والتانى تعبان ليه »

« الوسخة تفرح ليوم الحزن »

« اربط الحمار جنب رفيقه ، إن ما تعلم من شهيقه ، يتعلم من نهيقه »

« أسيادى وأسياد أسيادى ، اللى يعولوا همى وهم أولادى »

« النحس مالوش إلا أنحس منه »

« النهارده دنيا وبكره آخره »

« النواة تسند الزير »

« لقمة جارى ماتشبعنى وعارها متبعنى »

« لما اتفرقت العقول كل واحد عجبه عقله ، ولما اتفرقت الأرزاق ما حدش عجبه رزقه »

« لو شاف الجمل حدبته وقع وانكسرت رقبته »

« ما النقاش العيش ينقشه جاب له عبد يلطشه »

« ما تتم الحيلة إلا على الشاطر »

« ما تيجى المصايب إلا من الحبايب »

« ما تعرجش قدام مكسحين »

« ما دام رايح كتر من الفضايح »

« ما شتمك إلا مَن بلغك »

« ماقدرش على الحمار اشّطر على البردعه »

« ما لقوش فى الورد عيب قالوا له يا أحمر الخدين »

« ما تعملش كيس حرير من ودن خنزير »

« ما يعجبك البيت وتزويقه ، داللى جوّه نشفان ريقه »

« مَن جاور الحداد ينحرق بناره »

« من حبه ربه واختاره جاب له رزقه على باب داره »

« ساعة لقلبك وساعة لربك »

« ساعة الحظ ما تتعوضش »

« الساهى تحت راسه دواهى »

« اللى ما لهوش قرابة مالهوش عداوة »

« شابت لحاهم والعقل لسه ماجاهم »

« الشحاتة طبع »

« شخشخ يتلموا عليك » يريدون الدلالة على طمع الناس فى المال .

« الشرا يعلّم البيع »

« شرارة تحرق الحارة »

« الشرط عند الحرت ، ولا الخناق فى الجرن » وهو يدل على أنه من وضع الفلاحين

« الشكك يفلس التاجر الألفى » أى صاحب الألوف

« شيلنى وأنا أشيلك »

« الردا طويل واللى جواه عويل »

« الرقص نقص »

« الحيطة الواطية كل الناس تنط عليها »

« قالوا : أبو فصادة بيعجن القشطة برجليه ، قالوا : كان بان عليه »

« قالوا : الله يلعن اللى يسب الناس ، قال : الله يلعن اللى يحوج الناس لسبه »

« ناموسة وعاملة جاموسة »

« قالوا للأعور : العمى صعب ، قال : نصف الخبر عندى »

« قالوا للغراب : ليه بتسرق الصابونة ، قال : الأذيّة فىّ طبع »

« قالوا للمشنوق : غطى رجليك ، قال : إن رجعت ابقوا عاتبونى »

« قالوا : يا جحا عدّ موج البحر ، قال : الجيات أكثر من الرايحات »

« قالوا : يا جحا فين مراتك ؟ قال : بتطحن بالكرا ، قالوا : فين طحينك ؟ قال : كريت عليه ! قالوا : كنت خلى مراتك تطحنه ! »

« قالوا : يا كنيسة اسلمى ، قالت : اللى فى القلب فى القلب »

« قبل ما أقول يا أهلى يكونوا جيرانى غاثونى »

« القفص المزوّق ما يطعمش الطير »

« القفة اللى لها ودنين يشيلوها اثنين »

« قول له فى وشه ولا تغشه »

« الفار وقع من السقف قال له القط اسم الله عليك »

« فى الوش مراية وفى القفا سلاية »

« اقنع بالحاضر لغاية مايبجى الغايب »

« اقطع العرق يسيّح دمه »

« أعمى و يسرق من المفتّح »

« الأصل الردى يردى على صاحبه »

« العيب من أهل العيب مش عيب »

« العيان ماحد يعرف بابه ، والعفى ما أكثر أصحابه »

« عيوبى لا أراها ، وعيوب الناس أجرى وراها »

« الظن السوء يودّى جهنم »

« البيت بيت أبونا ، والغُرب يضر بونا »

« بيت العنكبوت كثير على من يموت »

« بيت المنتاش ما يعلاش »

« البهيمة العِشَرى ما تناطحش »

« صاحب الحق عينه قوية »

« صباح القرود ولا صباح الأجرود »

« صبرى على نفسى ولا صبر الناس علىّ »

« صلح خسران ولا قضاء كسبان »

« إذا كان اللى بيتكلم مجنون يكون اللى بيسمع عاقل »

ومن الأمثال الدالة على اعتقادهم فى القضاء والقدر والحظ قولهم :

« إذا حل القضا لا ينفع طب ولا دوا »

ومثله قولهم : « وقت القضا يعمى البصر »

« تحوش الوحوش ، غير رزقك ماتحوش »

« تبات نار تصبح رماد ، لها رب يدبرها »

« السعد ماهوش بالشطارة »

« قيراط بخت ، ولا فدان شطارة »

ومن الأمثال التى تدل على الاقتصاد :

« الدراهم مراهم ، تخلى للعويل مقدار ، و بعد ما كان بكير ، سموه الحاج بكار »

« هاتى يا مدره ودّى يا سدرة »

السدرة : إناء من نحاس يشبه القدر يغسلون فيه أوانى القهوة .

« هز فلوسك ولا تهز دقنك » أى عرض فلوسك للمطالب ولا تعرض عرضك

« مال تجيبه الرياح تاخده الزوابع »

« مال الكنزى للنزهى »

« مال الوقف يهد السقف »

« من حف فى غموسه أكل عيشه حاف » أى من أفرط فى إدامه أول الأكل اضطر آخر أكله أن يأكل خبزه من غير

إدام . والمعنى من أفرط فى الصرف من غير حساب ندم على ما فات .

« معاك مال : ابنك ينشال ، معا كشى ابنك ما ينشالشى » « خد من التل يختل » ونظيره : « جبال الكحل تفنيها المراود » .

« الفلوس زى العصافير تروح وتيجى »

« يقطع الطشت الذهب ، اللى تطرش فيه الدم »

والمتأمل فى هذه الأمثال يستخرج منها أخلاق المصريين فى العهد الماضى ؛ فهم يمجدون حكامهم ، ويطيعون أوامرهم ، ولا يثورون لمظلمة . وهم يعظمون من انتسب إليهم . ثم إن تجاريبهم دلتهم على كثير من أنواع المعاملة والاعتقاد ، كعدم ثقتهم بالإنسان ، واحترام الغنى واحتقار الفقير . ثم إن علاقتهم بالمرأة علاقة مبنية على سوء الظن ، فالأخت تأخذ زوجها من حجر أختها وهم يعتقدون فى الأصالة أكثر مما يعتقدون فى الجمال .

ثم هم يؤمنون بالقضاء والقدر والحظ ، حتى إن مقداراً صغيراً من الحظ خير من مقدار كبير من المهارة . ثم هم يقومون المال تقويماً كبيراً ، فالقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود . وإذا كان مع الإنسان مال عز وعز بنوه ، وإذا لم يكن معه مال ذل وذل بنوه .

كما أنه مما يلاحظ أن الروح المصرى المرح ظاهر فى الأمثال بما فيها من سخرية لاذعة وتشبيهات مضحكة .

ويستطيع المتأمل أن يستخرج بدقة نظره أكثر من هذا .

الأمراض

يشترك المصريون مع غيرهم فى الأمراض وتكثر عندهم أنواع خاصة أكثر من غيرهم . من أشنعها « الدوسنتاريا » وهى كثيرة فى مصر ، يكثر معها الإسهال ، ثم مرض الكبد للحر ولكثرة شرب الماء . وقد ينشأ عن الدوسنتاريا البواسير . وتتفشى بينهم الأمراض الديدانية لعدم نقاوة الماء الذى يشرب به الفلاحون ، ثم الأمراض الجلدية كالجرب وحب النيل ، وقد يكون حب النيل هذا خاصاً بمصر . وهى حبوب تظهر على الجلد فى أيام فيضان النيل . ولذلك سموها « حب النيل » وأحيانا يسمونها « حمو النيل » . وكذلك « القوبة والجدرى » . ولشدة الحر والغبار تكثر بينهم أمراض العين . يقول بعض الرحالة من الفرنج : « إنه شاهد فى مروره فى شارع من شوارع القاهرة عشرين أعمى ، وعشرة عورا ، وعشرين

احمرت جفونهم وسال منها الصديد » . والرمد فى المدن أكثر منه فى الأرياف . ويضيف بعضهم إلى أسباب الرمد التى ذكرناها شدة الضوء لسطوع الشمس سطوعا قويا ؛ وكذلك ينتشر فى مصر مرض السيلان والزهرى . وهم لا يعتقدون أن سببه اتصال غير شريف ، بل قد يكون الفزع أو البرد الشديد . ولذلك لا يستحيون كثيرا من ذكره أو الإصابة به .

ومنها الأمراض السرطانية وهى والحمد لله قليلة فى مصر ، وكذلك الأمراض كالسل فإنها قليلة فى مصر ، بالنسبة لغيرها وكذلك الأمراض العقلية .

ومن الأمراض المتوطنة حمى التيفوس والتيفود ولكن من فضل الله أن الطب الحديث بدأ يتغلب عليهما .

ويكثر بين المصريين ـ مع الأسف ـ مرض البول السكرى ، ولكنه أخف نوعا من المرض السكرى فى الأقطار الأخرى .

أم

يستعملها المصريون بمعنى الوالدة ، كأم حسن ، وأم حسين ، وأم خليل .

ويستعملونها ككلمة أب ، بمعنى صاحبة كأم الخلخال ، وأم العباية ، وأم الشال ، وأم الجلابية الحمراء . واشتهر عنهم تكنية امرأة كانت فى عهد الخديوى إسماعيل بأم الشعور ، وكانت ماهرة فى اللعب على الحبل والإتيان بحركات بهلوانية غريبة . وكانت تستدعى فى أفراح الأغنياء ، كما اشتهرت الطعمية بأم الفلافل ، نسبة إلى الفلفل ، لأنه يوضع فيها ؛ وكما اشتهرت السيدة زينب بأم هاشم وأم العجايز ، ومن ذلك أم على ، وأم قويق .

أم على

أم على طعام لذيذ مشهور ، يصنع من الرقاق الرفيع واللبن والسمن ، فإذا فردت راقات منه وضع فى منتصف « الصينية » جوز ولوز وزبيب وبندق مكسر ثم أكملت الصينية مع إضافة اللبن والسمن أيضاً — ثم تدخل فى الفرن فتكون أكلة لذيذة .

أم قويق

هى البومة ، ويتشاءم منها العامة كثيراً فإذا صاحت فى بيت فذلك إنذار بمصيبة تحل بأهله فيخرب ، ويقولون لمن كان سيء الطالع : « وش البومة » وربما كان السبب أنها طائر ليلى ليس فيه ميل للاستئناس ، ويميل إلى العزلة ، وكذلك يذهب إلى الخرائب .

إنْ – وإذا

يستعمل المصريون كلمتي إنْ وإذا في معنى واحد تقريباً، ولا يفرق بينهما الفرق الدقيق المعروف في النحو. واستعمالهم «إنْ» أكثر من استعمالهم «إذا»، ولذلك كثرت في لسانهم الأمثال المبدوءة بإنْ، وقلّت المبدوءة بإذا، وأحياناً يروى المثل بالوجهين، فبعضهم يرويه بإن وبعضهم يرويه بإذا.

ومن أشهر أمثالهم في هذا الباب قولهم :

« إن كنت في بلد يعبدوا الجحش حش وارمي له »

وهو مثل يدل على حب الاستسلام والميل إلى الخضوع والطاعة ولو كان الأمر باطلا وكره الثورة والمجاهرة بالحق. وقد وردت أقوال كثيرة في هذا المعنى مرّ بعضها. ومثل قول المعري :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً
تجاهلت حتى ظن أني جاهل

ومن أمثال «التلمود» «إذا كان الثعلب ملكا فانحن له» وفي أمثال أهل الجزائر : «إذا وجدت الناس يعبدون العجل فعليك بالحشيش».

وقال الشاعر :

تحامق مع الحمقى إذا مالقيتهم
ولاقهمو بالجهل، فعل ذوي الجهل
وخلط إذا لاقيت يوماً مخلطاً
يخلط في قول صحيح وفي هزل
فإني لقيت المرء يشقى بعقله
كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

ومن طريف ما يحكى في ذلك أنه لما ولي جلال الدين الزينبي الوزارة دخل عليه شاعر اسمه أبو الفضل والمجلس حافل بأعيان الرؤساء والوجهاء، فوقف بين يديه وأظهر السرور والفرح ورقص، فقال الوزير لمن يفضي إليه بسره : قبح الله هذا الشاعر! إنه يشير إلى ما تقوله العامة في أمثالها «ارقص للقرد في زمانه».

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

إذا رأيت امرأً وضيعاً
قد رفع الدهر من مكانه
فكن سميعاً له مطيعاً
معظماً من عظيم شانه
فقد سمعنا بأن كسرى
قال قديماً لترجمانه :
إذا زمان السباع ولّى
أرقص إلى القرد في زمانه

ومن الأقوال العامية في ذلك :

يا اللى تعاشر النــاس
وتريد منهم نصــافه
كن بينهم نسناس
إوع تبين حصافـه

وهذه الأقوال وأمثالها أثر من آثار عصور الاستبداد والظلم ، فطلبوا من الناس أن يكونوا آلات صماء وأحجاراً جامدة ، تطيع ولو ظلمت ، وترضى ولو نكبت ، وتقبل الحاكم ولو كان قرداً ، وتطيع الأمر ولو كان فاسداً ؛ فلما انتبه النــاس وقررت قواعد الحرية وجب أن يتغير مثل هذه الأمثال ويطلب من الناس ألا يقبـلوا الظلم ولو أكرهوا عليه ، وأن يقولوا الحق ولو أوذوا فى سبيله ، وأصبحت هذه الأمثال أثرية تفيد المؤرخ ولا تفيد الأخلاق .

ومن الأمثال المبدوءة بإن قولهم :

« إن شفته بيسب إعرف إنه بيحب »

وهو قول حكيم مبنى على دراسة نفسية عميقة ، فقـد يظهر الإنسان غير ما يضمر خصوصاً فى الحب . وقد سبق مجنون ليلى إلى هذا المعنى فقال :

كلانا مظهر للناس بغضا
وكل عنـد صاحبه مكين

وقريب من هـذا المعنى وإن لم يكن منه تماما قول البهاء زهير :

سميت غــيرك محبوبى مغالطة
لمعشر فيك قد فاهوا بما فاهوا
أقول زيد وزيد لست أعرفه
وإنما هو لفظ أنت معناه

ومن قولهم :

« إن جار عليك الزمن جور على دراعك »

وهو مثل لطيف ، ومعناه إن اشتد عليك الزمان فأصابك بالفقر وقلة الرزق ، فاشتد أنت على ذراعك وأكثر من العمل بيديك والجد فى طلب الرزق لتغلب بجدك جد الزمان فى حربك . وفى هذا المثل قوة رائعة .

ومن قولهم :

« إن أقبلَتْ باض الحمام على الوتد
وإن أدبَرَتْ بال الحمار على الأسد »

ومعناه إن أقبلت الدنيا وحسن الحظ سهل العسير وحصل البعيد ، كأن يبيض الحمام على الوتد ، وإن ساء الحظ حصل ما لم يكن فى الحسبان فيذلّ العزيز حتى يبول الحمار على الأسد ، فعند إقبال الدنيا يسهل كل عسير وينقلب التراب ذهباً ، وعنـد إدبارها يتعقد كل سهل وينقلب الذهب ترابا ويتحكم الحمار فى الأسد . وهو من الأمثال الكثيرة فى اللغة العامية التى تدل على إيمان شديد بالقدر وبالحظ .

ويقولون :

« إن اصطلحت الضراير يخرب البيت »

وذلك لأن عداوة الضراير أمر محتم وأمر طبيعى ، لأن كل واحدة ترى أن الأخرى سلبتها حقها فى الزوج ، فإذا اصطلحتا واتفقتا فلا بد أن يكون هناك سبب غير طبيعى ، فقد تتفقان على الإضرار بالزوج لأنه عدوهما المشترك ، فقد أغضب كلا بزواجه عليها ، وقد تتفقان على الانتقام من حماتهما ، لأنها كذلك عدوهما المشترك ، وقد تتفقان على غير ذلك ، وفى كل هذا هدم للبيت وعمل على خرابه .

ويقولون :

« إن سرقت اسرق جمل وإن عشقت إعشق قمر » .

أى إما كبار الأمور وإلا فلا ؛ وقريب من هذا المعنى قول الشاعر :

« لنا الصدر دون العالمين أو القبر »

ويقولون :

« إن جابوا المجنون ألف عقل على عقله مايعجبوش إلاّ عقله » .

أى أن الضعيف العقل لايعترف بضعف عقله ، بل يعده من أحسن العقول ويعد أحكامه من أحسن الأحكام . ومن أحسن ما قيل فى ذلك : إن كل إنسان راض عن عقله ساخط على حظه .

ويقولون :

« إن كانت الدعوة تجوز ما كان بقى صبى ولا عجوز » .

أى أن الله لا يستجيب كل دعوة ولو كان يستجيبها لما بقى أحد ، لأن كل إنسان لا يسلم من غاضب يدعو عليه .

ويقولون :

« إن لبست الخيشة برضه عيشة »

تقوله الجميلة التى تستغنى بجمالها الطبيعى عن جمالها الصناعى .

وأخيراً :

« إن كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله » .

انتقال الجبل

أسطورة من أساطير الأقباط ، وقصة مخترعة من أقاصيصهم ، خلاصتها : أنه كان لبعض سلاطين مصر وزير يهودىّ أسلم ، والعداوة بين اليهود والنصارى معروفة ، فأراد الوزير أن يوقع الملكُ بالنصارى ، فقال له : « إن إنجيلهم يقول : لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل : انتقل من هنا إلى هنا ، فينتقل » فاستصوب الملك هذا الرأى ، وأمر فاستحضر البطريرك

وكبار الأقباط من رجال الدين ، وسألهم عن هذه الآية ، وهل هي واردة في الإنجيل ، فقالوا له : نعم . فقال الملك : إذاً لابد من تحريك الجبل عما كان ، وإلا محوت أثركم . فاستمهلوه ثلاثة أيام . ولما خرجوا دعوا القسوس جميعهم في مكان واحد ، وصاموا لله ، وواظبوا على الصلوات . وطلبوا من الله ، ومن السيدة مريم ، رفع هذه الغشاوة عنهم . وفي صبيحـــة اليوم الثالث نام البطريرك وهو واقف فكلمته السيدة مريم وقالت له : إذا دخل الكنيسة إنسان وعلى كتفه جرة ماء ، وهو بعين واحدة فأمسكه ، فإن خلاص الشعب على يديه ، وإياك أن يهرب منك ؛ فلما انتبه من نومه ، تربص لهذا الأعور ، حتى إذا سار أمامه أمسكه البطريرك ؛ وكان هـــذا الرجل إسكافيا اشتهى امرأة كشفت عن ساقيها ، ليقيس لها حذاء ، ثم ندم على ما وقع منه ، وقلع عينه بالمثقاب الحديد . وترك تلك الحرفة ، وصار سقاء . وبينما البطريرك والإسكافي يتكلمان ، وفد رُسُل الملك عليهما ، فذهبا إلى القصر ، فأخذهما الملك إلى جبل الجيوشي وقال : أريد أن تنقلا هذا الجبل من مكانه فقال له البطريرك : إننا نريد أن يطلب المسلمون من الله نقل الجبـل قبلنا ، لنرى أيقدرون على ذلك أم لا ؟ فاستصوب الملك رأيهم ، ودعا المشايخ ، والقضاة المسلمين ، فتوضئوا وصلوا وصرخوا بالأذان ، فلم يتحرك الجبل ، وطلب البطريرك أن يمتحن اليهود كذلك ، ففعلوا فلم يتحرك الجبل . وأخيراً جاءت جموع النصارى والبطريرك والإسكاف ، فأمرهم البطريق أن يصرخوا بصوت واحد مرتفع ، صرخة واحدة ، ويدعوا الله أن ينصرهم ، فقالوا بصوت واحد : إننا نأمرك أيها الجبل بحق من أرساك وثبّتك في هذا المكان أن تنتقل من موضعك وتجيء إلينا ، ولا تؤذي أحـداً من خلق الله ، فتحرك الجبل من موضعه ، وجاء إليهم ، وصرخ الملك يطلب من البطريق أن يقفه في مكانه .

فلما انصرف الناس استحضر الملك البطريق إليه سراً ، وصرف جميع مماليكه ، ومن كان عنده ، وقبّل يدي البطريق ، واعترف بأحقيّة المسيحية وتنصّر ، وذهبا إلى الكنيسة سراً ، واعتنق المسيحية وتعمّد . وخزي المسلمون خزياً كبيراً . ولما علم بذلك بعض عقلاء المسلمين تنصّروا أيضاً . وقد صنع المسلمون قصة على هذا النمط يرفعون فيها من شأن الإسلام والمسلمين ، وكلتا القصتين خرافة ظاهرة .

أوراد

الأوراد جمع وِرد . والوِرد عادة دعاء طويل بعض الشيء يتلى فى وقت معين . وكان لكل شيخ طريقة عادة ورد أو أوراد تتلى فى أوقات معينة ، مثل ورد السَّحَر ، وورد يقرأ عند الخوف من الأمواج يسمى ورد البحر . والناس عادة يحفظون هذه الأوراد ، خصوصاً الأورادالتى تنسب لشيخهم الصوفى . وهم يتلونها مراراً . ومن أضرارها اعتماد الناس عليها فى قضاء حوائجهم ، و بسط رزقهم. ولذلك يتركون العمل اعتماداً عليها ، كما اعتمدوا عليها فى تكفير الذنوب ، والاستكثار من الحسنات ، بدلا من أن يعتمدوا على الأعمال الصالحة .

الأوقاف

الأوقاف كثيرة فى مصر ؛ وهى نوعان : أوقاف أهلية ، كأن يقف الرجل على أولاده وأقاربه ، ويخصصها أخيراً عند انقراضهم إلى جهة بر لا تنقطع ، وأوقاف خيرية ، كالوقف على المساجد ، والفقراء والمساكين والأسبلة . وهى كثيرة فى مصر كما ذكرنا . ولولا أن الملوك الظلمة كانوا يلجأون إلى الأوقاف السابقة ويحلونها ، لكانت مصر كلها تقريباً وقفاً على مرور الزمان .

ويلاحظ أن الأوقاف عادة تهمل ، ولا يعتنى بها اعتناء المُلاّك لأملاكهم ، فإذا مررت بالشوارع ورأيت بيوتاً مهملة ، وأرضاً خربة ، فاعلم أن ذلك وقف . ولذلك كان حافظ إبراهيم يقول : « مثل الأوقاف والمبانى المملوكة للأفراد كالجدرىّ فى وجه المدنية » حتى الأوقاف التى تديرها وزارة الأوقاف كانت تستغل استغلالا سيئاً . وكثيراً ما يصرف ريعها على موظفى الوزارة ، فلا يبقى للمستحقين إلا القليل ، أو لا يبقى شىء . وكثيراً ما كانت الأوقاف نهباً للملوك والأمراء ، وكبار المزارعين ، ومطمعاً لذوى الجاه والسلطان ، يستولون عليها ، أو يستأجرونها بأرخص الإيجار . وأعرف أن دار الكتب مثلا وُقف عليها نحو ألف ومائتى فدان ، لا تغلّ إلا القليل . كما أنّ هذه الأوقاف من ناحية أخرى سببت العُطْل لمن وقفت عليهم اعتماداً عليها فأسرفوا فى شهواتهم ، وعاشوا عيشة عاطلة من غير عمل وكانت الأوقاف ضرراً عليهم وعلى الأمة . ولو تركوا وشأنهم ، لاعتمدوا على أنفسهم ، وبحثوا لهم عن عمل يرتزقون منه . وكثير من المستحقين يلجأون إلى اليهود ، يستدينون منهم على أوقافهم ، بأرباح فاحشة . فلما رأت الحكومة التركية مثلا هذه الأضرار ، ألغَتْها على يد مصطفى كمال. وتبعه المصريون فى إلغاء الأوقاف الأهلية ، ففعلوا بذلك فعلا محيداً.

حرف البـــاء

البـاء

يزاد حرف الباء فى بعض الكلمات ، دلالة على الشروع فى الفعل فى الحال ، فيقــال : أنا با كتب ، وأنا بروح ... أى أكتب فى الحال ...

الباذنجـان

هو نوعان : أبيض وأسود . وعند عامة المصريين أنه من مواد المشاهرات . ومعنى ذلك أن النفساء إذا دخل عليها أحد بالباذنجان ، ينقطع لبنها ، فتسمى مشاهرة . وبذلك تحتاط النساء بأن تضع منه بجوارها ، أو تعلق منه بمخدعها ، حتى يمنع المشاهرة .

وفى اعتقادهم أن ذلك يمنعهـا ، وإذا أحضرلها تخرج من مخدعها إلى ناحية بعيدة ، ويضعونه على الأرض ثم تدخل هى وتخطيه سبع مرات ، ويكون دائما بجوارها ، وكذلك الشأن فى مريض العينين .

واشتهرت عند المصريين قصة عن الباذنجـان ، وقد نظمها شوقى بك فى جملة قصصه ، وخلاصتها أن سيداً سأل طباخه ، ماذا سيطبخ اليوم؟ فقال الطباخ ما يعجبك . فقال له السيد : ما رأيك فى الباذنجـان ؟ فقال الطباخ : طعام لذيذ ، ومن صفاته كذا وكذا ، وأخـذ يمدحه ؛ فقال له السيد : ولـكنه ثقيل الهضم ؛ فأخـذ الطباخ يذمه ؛ فقال السيد : ولـكن كنت تمدحه قبـل الآن . قال له الطباخ : هل أنا عبدك أو عبد الباذنجان ؟ إذا كرهتَه كرهته ، و إذا مدحتَه مدحته . يروونها للدلالة على عدم الاستقرار على رأى واحد .

باشـا

هو لقب من الألقاب ، التى كان يمنحها الملك أو الخديوى أو السلطان ، تبعاً لوظيفة أو تبعاً لتبرع كبير لعمل خيرى ، أو اعتباطا أو نحو ذلك . ولها أثر كبير خصوصاً فى بلاد الأرياف ... فمن كان باشا كان عظيم الجاه ، مسموع الـكلمة ؛ ولذلك يتنازلون عن كثير من أموالهم فى سبيل رتبة .

أعرف رجلا فلاّحا ورث بعض فدادين عن أبيه ، ثم اقتصد وجدّ حتى اشـترى غيرها ، فادّعى أنه من الذوات . ثم باع بعض أطيانه واشـترى بها لقب « بيك » وصار يتـكلم مقلداً الترك ، فيبدأ حـديثه بقوله : آه . آه . آه مفخمـة . انتِ عاوزه إيه يا راجل ! أنا موش يعرف . متظاهراً بأنه تركى وليس فلاحا .

ثم باع كثيراً من أملاكه ، وحصل على لقب باشا ، فزادت وجاهتـه واستطاع بها

أن يظلم مَن حوله من الفلاحين وأن يسترد منهم ما دفع فى الرتبة . وكان فى الأزمنة الماضية لقب أفندى أكبر من بيك وباشا ، ثم نزلت رتبته اليوم ، وصار كل ذى طربوش أفنديا .

وكانت هذه الرتب مكملة لسلطة الملوك ، يستذلون بها الشعب ، ويجعلون الناس تشرئب إليهم . وهو نظام يتمشى مع نظام الطبقات . فنظام الرتب والألقاب ، والفروق الكبيرة بين الأغنياء والفقراء ، وهكذا . ولذلك لما جاء عهد الإصلاح سنة ١٩٥٢ كان من أول أعماله إلغاء نظام الطبقات بإبطال الرتب والألقاب ، وتحديد الملكية الزراعية .

البـاع

هو مقياس من طرف أصابع اليد إلى طرف أصابع الأخرى بفرد اليدين .

وهو قياس طبيعى بدائى ، استُعمل قبل استعمال المقاييس الجديدة . وتقول العامة فى أمثالها : « فلان باعه طويل » كناية عن الكَرَم . وباعه طويل فى الحكومة ، يعنى أن له جاهاً . وفلان باعه قصير ، أى لا يستطيع أن ينهى الأعمال وليس له كلمة مسموعة . ويقولون : أخذ الشىء بالباع والذراع ، أى بقوة سلطته .

البخور

طريقته أن توقد المباخر أو الدفايات ، وتوضع فيها مادة أو مواد ذات رائحة عطرية إذا احترقت من غير لهيب ، وأحياناً يكتفى بذلك .

ويستعمل البخور فى البيوت والمساجد ، وكثيراً ما نرى فى الشارع حملة المباخر يطوفون بها على الأسواق ويأخذون من كيس معلق فى أكتافهم بعض البخور ، ويضعونه فى النار ، فتهب منها رائحة عطرية تبقى زمناً طويلا ؛ ولهم على بعض الدكاكين راتب شهرى أو أسبوعى نظير تبخيرهم الدكان ، وأحياناً يوقدون المباخر أمام الجنائز ، وأحياناً يتلون مع البخور بعض العزائم التى يزعمون أنها تقى العين . وقد يضيفون إلى البخور بعض الشب وبعض حبات حمر يسمونها عين العفريت . ومن عادة الشب أنها إذا احترقت تكيفت بشكل خاص ، ويدعون أنها تتكيف بشكل الحاسد ، ويدعون أنها تشبه فلاناً أو فلانة ممن كان قد حسد ، فيفقؤون عينها ، ويزعمون أن فى ذلك فقأ لعين الحاسد .

وفى الحق أن البخور مهدىء للأعصاب ، يشعر من بخر أنه قد هدأت أعصابه . وإذا

اجتمع البخور وترتيل القرآن فى المسجد أو البخور والدعوات فى الكنيسة تسبب عنهما تهدئة للأعصاب .

ولذلك يكثر استعمال البخور أيضاً فى الزار مع الطبل والغناء على نغمات خاصة ، فيعمل البخور إذ ذاك عمل السحر .

وهم يكثرون عادة من استعمال البخور فى الأيام العشرة الأولى من المحرم .

ويدور بعض الناس فى الشوارع والحارات بأنواع من البخور مختلفة قد وضعت على أوراق ملونة بألوان مختلفة وينادون به . ولهم عند البخور عزيمة يتلونها ستأتى فى موضعها .

واشتهرت فى مصر سيدات يقصد إليهن النساء وبعض الرجال للتبخير . وإذ كانت أمراضهن كثيراً ما تكون أمراضاً وهمية أو عصبية كان البخور نافعاً لهن . ويظهر أن عادة التبخير موروثة من عهد قدماء المصريين ، فقد عثر فى المقابر القديمة على بعض المباخر .

البـــدو

على حدود البلاد المصرية والقرى يسكن البدو . وهم كما قال ابن خلدون : إذا سكنوا بلدة أسرع إليها الخراب ، فهم من حين لآخر يغيرون على القرى والمدن فيسلبون وينهبون . وقد امتازوا حتى فى الجسم بأن وجوههم ورءوسهم أقرب إلى الاستطالة منها إلى الاستدارة كما هى الحال فى الفلاحين .

وهم نحاف الأجسام لنوع أكلهم وكثرة حركتهم .

وينظرون إلى الفلاحين أيضاً كالأتراك نظر احتقار . ولذلك يظلمونهم كثيراً . ويأنفون من تزويج بناتهم لأهل الريف ، ويقصرون زواجهم على أنفسهم .

(انظر الأعراب)

بدوح

كلمة تكتب على الخطابات لتصل إلى المكتوب إليه سليمة . وغلا بعضهم فكان يكتبها على السلع التجارية ، وعلى فص خاتمه . وأصل هذه الكلمة أن كثيراً من المسلمين يعتقدون فى الخواتم والطوالع .

من ذلك خاتم يسمى خاتم أبى سعيد . كان يكتب على رق غزال أو ورق ويعلق تميمة . وشكله هكذا :

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

وبعضهم يكتبه حرفياً هكذا :

ب	ر	و
ط	ه	ا
د	ج	ح

وميزة هذا الخاتم أنك لو جمعت كل سطر طولا أو عرضاً وجدت المجموع خمسة عشر . ويجعلون لهذا الخاتم سراً عظيما فى بلوغ المآرب وجلب الخير ، ودفع الشر . وأنت إذا قرأت الأركان الأربعة ، كانت ب د و ح . ويعتقدون أن من حملها إذا كان مسافراً لم يجد فى سفره تعباً ، وإذا كتبت على رسالة وصلت سالمة . وتكتب أيضاً للمحبة وتبخر وتتلى عليها هذه العزيمة : « يا بدوح يا بدوح يا بدوح ، ألف بين الروح والروح وبحق القلم واللوح ، وآدم وحواء ونوح » . ثم تعلق على العنق ، أو تحمل على الرأس .

وكان فى عهدنا كثيراً ما تكتب على الخطابات بدوح بدوح .

البرابرة

هم جيل منتشر على ضفاف النيل من جزيرة أنس الوجود إلى الشلال الثانى للنيل على مسافة تبلغ مائتى فرسخ تقريبا . ويمتازون بالسمرة الشديدة التى تشبه خشب الجوز ، وهم أفتح من السودانيين . وقد امتازوا بالخدمة فى المقاهى والفنادق والبيوت وعرفوا بالإخلاص والأمانة والنظافة ، كما اشتهروا بسرعة الغضب وقلة الفهم ، حتى لو أتى أحد منهم من المصريين بما يدل على غباوته قالوا « برابرة يا رسول الله » . وإذا اغتنوا قليلا من عملهم فى الفنادق والمقاهى رجعوا إلى أوطانهم من حين لآخر ، فأمدوا أهلهم بالأموال ، كما يفعل المهاجرون إلى أمريكا

من اللبنانيين ، مع الفرق الواسع فى الغنى والثروة . ومن أشهر أعمالهم الخدمة فى البيوت سفرجية أو طباخين أو فراشين أو بوابين ، والخدمة فى القهاوى والفنادق . ويغلب أن يكون عليهم رئيس رومى ، فهم يحضرون القهوة أو القازوزة ، والرومى هو الذى يأخذ الثمن والبقشيش . وقد اصطنعوا الآن حرفة جديدة ، وهى أن يقفوا أمام الفنادق أو البنوك أو المحلات أو البيوت إذا كان فيها ولائم ، ويحفظون السيارات من أن تسرق أو أن يسرق منها ، ويهدون سائق السيارة كيف يخرج من وسط الزحام نظير قرش يدفع لهم من كل صاحب عربة . ومنهم من احترفوا حرفة سائق السيارات . وقبل إلغاء الرقيق كانت البيوت مملوءة بالجوارى السود من البرابرة أو من السودانيات ، وكن يختلطن بالعائلة كأنهن أحد أفرادها .

وتجد فى القاهرة اليوم طوائف من البربريات زوجات البرابرة يسرن جماعات ويتكلمن لغة بربرية .

البرابى

هى آثار قدماء المصريين ومومياؤهم ، وهم يتبركون بها ، وهى منتشرة فى القطر المصرى خصوصاً الصعيد . وقد كانت الكتابة الهيروغليفية التى عليها مجهولة إلى عهد شامبليون حين اكتشف حجر رشيد . ومع ذلك قبل أن يكتشف هذا الخط كانوا يدعون أن بعضهم قد ترجم ماعليها . فيزعمون أن ذا النون المصرى الصوفى المشهور كان يحسن قراءتها ويترجم ما عليها . وكذلك نجد فى كتب التاريخ القديمة بعض أنماط من ترجمتها . وإنما هى نصائح تخيلوها ومواعظ أحكموها ، دلت القراءة الحديثة على عدم صحتها .

البراغيث

كانت البراغيث آفة من الآفات المصرية ومن أكبر المصائب فى زمن الشتاء ، وخصوصاً فى بلاد الريف حيث تكثر الوسائخ . وقد قلت بالنظافة واستعمال الأدوية المطهرة القاتلة للحشرات . ومن الأمثال المنتشرة « زى براغيت القنطرة ، قلة وزنطرة » أى أن البراغيث قليلة الجسم ، ولكنها تنط . ومن أقوال الشدياق :

يا ليلة ما أسفرت عن صباح
من البراغيث السراع الكفاح

بت بها أغزى وأغزو وما
لدىّ إلا حدّ ظفرى سلاح
من كل ذى ناب يكاد إذا
جن الدجى يشبه فى السفاح
ما إن يرى بدا عن الفتك بى
ولو ملأت الفرش لحما وراح

وهناك نوع من الحلوى صغير أقل من الحمصة ملون ألوانا مختلفة يسمى « براغيت الست » لأنه فى حجم صغير جداً يشبه البرغوث ، وقد قل هذه الأيام .

برج

هى فى لسان الفلكيين أمكنة فى السماء تتنقل فيها الشمس . وكل برج من الأبراج يدل على معان ، وعندهم أن لكل كوكب أبراجه وطبيعته ، ولكل يوم من أيام الأسبوع سلطنة كوكب ، فيوم الأحد كوكبه الشمس ، طبعه حار يابس ، معدنه الذهب ، ملكه العلوى رفاييل ، والسفلى « ميمون » . يوم الاثنين كوكبه القمر ، طبعه بارد رطب ، معدنه الفضة ، ملكه العلوى جبريل . يوم الثلاثاء كوكبه المريخ ، طبعه حار يابس ، معدنه النحاس ، ملكه العلوى ميخائيل . يوم الأربع كوكبه عطارد ، طبعه ممتزج ، معدنه الزئبق ، ملكه العلوى ميكائيل . يوم الخميس كوكبه المشترى ، طبعه حار رطب معدنه القصدير ، ملكه العلوى إسرافيل ، والسفلى شمهورش . يوم الجمعة كوكبه الزهرة ، طبعه بارد يابس ، معدنه الحديد ، ملكه العلوى عينائيل ، والسفلى زوبعة . يوم السبت كوكبه زحل ، طبعه بارد رطب ، معدنه الرصاص ، ملكه العلوى كسفيائيل . ولهم حسابات طويلة فى البروج وطالع الإنسان ، فمثلا يوم السبت الساعة الأولى لزحل ، الأحد الساعة الأولى لعطارد ، الاثنين الساعة الأولى للمشترى ، الثلاثاء الساعة الأولى للزهرة ، وهكذا . ولكل برج طبع وطالع ، فإذا أردت معرفة الطالع فاحسب اسم المطلوب وأمه بحساب الجمل الكبير واسقط من المجموع ١٢—١٢ ، فالباقى برجه وطالعه وطبعه .

ولهم فى ذلك قصائد كثيرة . وإذا عرف الطالع يمكن أن يكتب الحجاب على مقتضاه . ولهم فى ذلك كلام طويل وحساب أطول .

ويطلق البرج على برج الحمام ، وسيأتى الكلام عليه فى الحمام . وللأبنية الكبيرة كالقلاع وسراى السلاطين أبراج يقف فيها الحراس اتقاء للشمس والبرد .

(انظر كلمة الطالع)

برد العجوز

هو اسم لثمانية أيام ، وهى الثمانية الأولى من شهر أمشير القبطى ، ويظن أن العجائز أكثر بها تأثراً . وتلك التسمية قديمة ، فإن العرب كانت تسمى الأيام السبعة بين آخر شاباط وأول آزار أيام «برد العجوز» ، وأهل الشام يسمون هذه الأيام «عدو العجائز» .

برطمة

يقولون : فلان يبرطم زى الترك ، وغرضهم أنه يتكلم كلاماً غير مفهوم ، ولا يسمع منه إلا حروف غامضة خشنة غليظة ثقيلة . وما كان أكثر ما يبرطم التركى ، ويشتم المصرى ويحتقره ، كقولهم : «وكور عرب» بمعنى فلاح أعمى ، لأن العمى فى مصر أكثر منه فى بلاد الترك . . وقبطى عرب ، أى عربى قبطى . وبس عرب ، أى عربى قذر . وعرب عقلى ، أى عقل عربى ، يعنى سخيف . وعرب طبيعتى ، أى طبيعته طبيعة العرب دنيئة . وإذا أراد أن يؤكد شيئاً ، قال : إن فعلت هذا أكون من العرب . وإذا سئل كم كان عددكم فى فى هذا المجلس ؟ قال : ثلاثة ومصرى ، أو أربعة ومصرى ، لأن المصرى غير محسوب .

البرقع

البرقع هو غطاء يغطى وجه المرأة . وكان يلبسه بنات البلد . ويكون من الكريشة أو الحرير الأسود المكرش . وكان يصنع بالمحلة الكبرى ضمن ما يصنع . ويعلقن فيه قصبة ، وهى تختلف باختلاف الغنى والفقر . فقد تكون القصبة من الذهب أو من الفضة المطلية بالذهب ، أو من النحاس كذلك . ومنه نوع يسمى المشخلع . وهو برقع مخرق خروقاً واسعة أو ضيقة ، مرتبة على أشكال هندسية : من مثلث أو مربع أو مخمس ، وغير ذلك .

ونساء الشرقية تضع على البرقع قطعاً من الذهب تسمى «غازى أو بندق» . والفتيات منهن يرتبن تلك القطع صفوفاً من أول البرقع إلى آخره . ويضعن تحت القصبة مرجاناً . وتلبسه الفتاة فى الشرقية مثلا بعد العاشرة .

وأما نساء البحيرة فلا يضعن قطع الذهب على البرقع . وبعض النساء لا يضع قصبة ، وبعضهن يلبسه من النوع الأبيض . وبعض الفقيرات يتبرقعن بقطعة قماش من النسيج السخيف من القطن أو الكتان ويعلقن بدل القصبة عقلة غاب .

وكان البرقع فى أول أمره أبيض أو أسود من النوع السميك . وكان عريضاً حتى يدارى صدغى المرأة إلى أذنيها . وقصبته قطعة قماش منه . وكان البرقع يثير فى نفوس الرجال حب الاستطلاع ويثير الخيالات . فهو يستر وجه المرأة إلا العينين .

ومن أمثلة العامة فى ذلك « ياما تحت البراقع سم ناقع » ، ومن الأمثلة أيضاً التى تتعلق بهذا « لبس البوصة تبقى عروسة » وأصله أن عروسة البرقع عبارة عن قطعة من القصب أو الغابة لبست بقطعة من الذهب أو الفضة أو النحاس ، فإذا ركبت على الغاب ، سميت عروسة ولم تكن قبل ذلك إلا غابة . وكنوا بهذا عن أن الفتاة أو المرأة إذا حليت بالثياب كانت عروسة جميلة .

وقد أخذ البرقع فى الزوال شيئاً فشيئاً بناء على الدعوة إلى السفور . ومصيره على ما يظهر دار الآثار .

وليس للبرقع علاقة بالعهر ، فقد تفجر المحجبة وتعف السافرة .

البركة

هى سر الله والأنبياء والأولياء فى الأشياء ، فمتى حلّت البركة فى شىء كفى الحاجة وربا ونما ؛ فمثلا إذا كانت البركة فى المال سد مطالب كثيرة ، ولذلك قالوا عند ذلك « حصلت البركة » وإذا لم يكن فيه بركة تشتت من غير أن يقضى الحاجات ، وقالوا فيه قلّت بركته . وكذلك فى الأعمار فهم يقولون : إن العمر إذا كان مباركا أنفق فى كثير من وجوه الخير ، وإذا قلّت بركته أنفق فى غير طائل . وكذلك فى الأشخاص ، فالرجل المبارك هو الذى يكون مصدر سعادة لمن حوله ، وغير المبارك من لم تكن منه هذه السعادة ، وهكذا فى كثير من الأشياء .

وسموا نوعاً من البذور حبة البركة تيمناً بها . فهى فى اعتقادهم تشفى كثيراً من الأمراض ، وزيتها كذلك ينفع خصوصاً فى أمراض الصدر

وسموا بركة ومبروك وبركات ؛ وقالوا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والتحيات المباركات ، وبارك الله فيكم الخ ... ويقولون عند الزواج والتهنئة بالشىء « مبروك » . ومن دعائهم « بارك الله فيه » . ويستعملون الكلمة فى الفرحة بالاستغناء عن الشىء فيقولون : والله بركة ؛ فى شىء يستغنى عنه فى سرور . وإذا وجدوا المسجد مغلقاً قالوا : « بركة يا جامع اللى جات منك وما جاتش منا » .

برمكى وبرامكة

فى لسان المصريين تطلق كلمة « برمكى وبرامكة » على الذين فقدوا الغيرة وأتوا بأعمال جنسية مشينة ، مع أن البرامكة فى عهد الرشيد كانوا من خيار الناس وكانوا أبعد عن هذا المعنى . ولكن يظهر أن الرشيد لما نكل بهم كان أتباعهم يختفون ويتبرءون منهم ، وما زالوا كذلك يتناسلون حتى سقطوا فى الرذائل . وسبب آخر ، وهو أن البرامكة كان لهم مغنون ومغنيات أيام عزهم ، فلما نكبوا تسكع رجالهم ونساؤهم على البيوت للإيجار فسقطوا من أعين الناس ورموا بهذه الشنائع . وفى التاريخ بعض الأمثلة على هذا ؛ فمن القبائل التى نزلت الفسطاط فى عهد الفتح قبيلة تسمى « بالعتقاء » ولكن يظهر أن القبيلة سقطت بعد ذلك فى البؤس والفقر ، فأطلق على مصلح النعال القديمة « عتقى » . وكذلك « حرام » كانت قبيلة مشهورة بالشدة والبأس ، تنازعها الشدة قبيلة أخرى مثلها تسمى « سعد » . فما زالت « حرام » تنحط حتى قيل لكل لص حرامى .

بَشْرَقَة

يقولون « إن صح العيش ، يبقى الباقى بشرقة » أى يكون ترفا . ويقول الطفل « هات قرش أتبشرق به » ، أى أتنزه ، ويسمون اللب الذى يقزقزونه للتسلية أو الفستق أو ما ماثل ذلك « بشرقة » .

بصاص

يقال للجاسوس « بصاص » من بص بمعنى نظر .

البصبصة

لنا فى تخريجها رأيان : الأول أنها مأخوذة من بص بمعنى نظر ، تكررت فصارت بصبص . ورأى آخر وهو أن أصلها وصوص ، والوصوصة نوع من النظر بالعين ، يقال وصوص الكلب إذا نظر . وللمصريين خصوصاً فى العهد الماضى شهرة فى البصبصة هذه قد اعتادوها فى النساء واعتادها النساء من الرجال . ولذلك تتزين المرأة وتتجمل كأقصى ما يكون ، وتتخلع فى المشى خصوصاً أمام الرجال ، وتمعن النظر فى المرآة حتى تتأكد من أن زينتها وهيأتها على ما ترغب . ثم تمشى فى الشارع ، أو قل تتعمد المشى فى

الشوارع المملوءة بالحوانيت والمقاهى ، فيتعرض لها السوقة بألفاظ تدل على الاستجمال والاستحسان والاستلطاف . فيقول الرجل مثلا : الله الله ، يا عينى يا عينى ؛ يا حافظ يا أمين ، إيه دا الجمال ده ؛ والله مافيش كدا أبدا ؛ والله مافيش غيرك ؛ قتلتنا والنبى ترحمى ؛ آدى الغزال ؛ آدى الجمال ؛ هز يا وز ؛ ماشاء الله ؛ يا ست ؛ يا باشا ؛ يا روحى يا قلبى ؛ يا بخت اللى قالى . . وإذا كانت سمينة قالوا لها : يا تخت ؛ يا جمل ؛ يا مربرب ؛ فتزيد هى فى خلاعتها . وإذا لم تسمع مثل هذه الكلمات رجعت إلى بيتها حزينة ونظرت فى المرآة لترى ما جعل الرجال يعرضون عنها . وكل هذا دليل على غلبة الشهوة على هؤلاء وهؤلاء .

ومن النساء من تبصبص للنساء ، فإذا رأت المرأة امرأة جميلة غازلتها أيضاً ولاغت عليها وقد تحتك بها . ويعجبنى قول بعضهم فى النساء المصريات بعد أن ذكر غيرهن من الأجناس ، فقال : إن المصريات ألطف كلاما وأرق طبعا ، وأحسن وجوها ، وأعذب منطقا ومحادثة ، وأكثر شبقا من جميع النساء . والبدويات أكثر متعة للرجال . . . الخ مما لا يصح أن نذكره .

ولهذه الشهوات كثر العشق والغرام والتغنى بهما ، فلا تكاد ترى أغنية لم يصف فيها العاشق رغبته فى الوصال ، وألمه للهجران . ولذلك ألف السيوطى وهو عنوان المصريين كتباً كثيرة فى هذا الباب أستحى من ذكر أسمائها ، وهو معذور فى ذلك لأنه كان فى وسط مملوء بهذه الشهوات . وربما اكتسحت المدنية كثيراً من هذه العادات ، واخترعت أساليب أخرى كصور النساء العارية ، وحسن الحديث الخاص ، والتلميح البعيد فى التغنى بجمال المرأة ورشاقتها وحسن حديثها إلى غير ذلك .

بصل

إنما أذكره لأذكر شيئاً عن عادات المصريين فى البصل ، إن الجن إذا صحبت إنساناً وأرادت أن تهدى إليه شيئاً أهدت إليه قشر بصل ، فإذا طلعت الشمس انقلب ذهباً . ومن فوائده عندهم أنهم يعصرون البصل وينقطون نقطاً منه فى العين إذا كانت مقروحة ، فتشفى بإذن الله . وأحياناً يضعون من قطرة البصل هذه فى عين الأرمد بعد أن يضاف إليها قليل من الشيح ، ويداوون من هذه القطرة المغمى عليه بوضع شىء فى أنفه . وفى زمن الأوبئة يكثرون من أكل البصل وشمه ، ويعتقدون أن الإنسان إذا دخل بلداً جديداً كان أول ما يأكله

البصل . ومن أمثلتهم فى ذلك قولهم : « بصلة المحب خروف » .

ومن الأمثال أيضاً « بصل بخمسة وبخمسة بصل» . تقوله إذا ذكرت كلاما لمعنى خاص وذكر من تكلمه كلاما طويلا لا يخرج عن هذا المعنى . أى : إن معنى هذا الكلام هو معنى ذاك . ويقول أهل الجزائر « الحج موسى ، موسى الحج » ويقول الأتراك : « يا على يا ولى يا ولى يا على »

ويستعمل البصل كثيراً فى ليلة شم النسيم ويعلق على أبواب البيوت وعلى السرير وعلى الغرفة اعتقاداً بأن الأرواح الشريرة إذا حضرت وشمت البصل ذهبت ولم تعد .

بضلة

يطلقونها على الرجل البليد الجامد المغفل ، وهى تركية الأصل — أصلها بودالا .

بط

البط معروف ، فيقولون : بط الفطير أو بطبطه أو بططه ، إذا قطعه وخبطه بيده ليساويه قطعاً قطعاً قبل خبزه . ويسمون المرأة القصيرة الممتلئة « بطة » . وربما كانت محرفة عن بضّة . والبط طائر معروف بمصر يستخدم فى الأكل كثيراً . ولهم فى طهيه تفننات كثيرة وخصوصاً أهل دمياط . ويصفون الأسود منه للمرضى بالشلل وخصوصاً أكل كبده .

البطاطة

هى أشبه ما تكون بالبطاطس إلا أنها أطول منه وأحلى . والمصريون يكثرون من أكلها من غير خبز ، مشوية ، ومسلوقة . وهى طعام كثير من الفقراء ، يأكلونها فيستغنون بها عن الخبز — وكثيراً ما ترى فى شوارع القاهرة عربات محملة بالبطاطة ينادون عليها .

وقد يضع بعض الباعة على عرباتهم فرناً صغيراً فيبيعونها ساخنة ، لأنها خير ما تؤكل ساخنة .

وقد اشتهرت بطاطة سيدى جابر لأنها على ما يظهر تجود فى الأراضى التى حوله فى الإسكندرية . وقد اشتهر جابر بشيئين : (١) هذه البطاطة (٢) ولحم الرأس ، إلا أنهم فى المناداة على لحم الرأس يقولون : يا جابر فقط من غير سيدى ، أما البطاطة فينسبونها إلى سيدى جابر .

وكثيراً ما تنسب المأكولات إلى المشايخ كنسبة الترمس إلى سيدى الامبابى ، والبطاطة إلى سيدى جابر ، والخص إلى المليجى والحلاوة للسيد . وهكذا .

بطن

يقولون فى شتائمهم : جاه البطن : أى الإسهال ، وفلان مريض بالبطن ، أى الدسنتاريا ، أى الإسهال المزمن ، ويقولون هذا الشىء بالبطن إذا كان رديئا ، ويقولون للنبات إذا قطع ونبت من جديد : إن هذه هى البطن الثانية أو ثانى بطن ، ويقولون خلاها بطن حمار — إذا أفسدها بسوء تدبيره . ويقولون لمن لم يغضب إن عنده بطنا كبطن السيد ، كأن بطن السيد فى زعمهم واسعة واسعة . ويروون أنه فتح فمه لأحد الذين اعترضوا عليه وأمره أن ينظر إلى حلقه فوجد فى بطن السيد دنيا أخرى ، فيها المدن والقرى والمزارع والأنهر والبحار والجزائر والأسماك والطيور والوحوش والملوك والأمراء . ويقولون على الطبقة الأولى من الموقوف عليهم البطن الأولى ، وعلى من بعدهم البطن الثانية ويقولون فى وقفيتهم بطنا بعد بطن ، أى جيلا بعد جيل .

وقبل أن يتثقف الشعب كان لا يخصص المريض عضواً من الأعضاء ، فيقول الرجل بطنى توجعنى ، سواء أكان الذى يوجعه معدته أو مصارينه أو كبده أو كلاه .

فلما تقدم الناس فى الثقافة الصحية اختفت هذه الكلمة فصار الرجل يقول : معدته تؤلمه ، أو كبده ، أو نحو ذلك .

ويقولون بطن الوادى لما ليس بعلاء .

بطيخ

البطيخ معروف . وأجود ما يكون من يافا . ولذلك يقولون بطيخ يافاوى . ثم استجلبوا اللب من شلى وزرعوه وسموه شِلَيْنْ ، فكان خيراً من اليافاوى . ويزرع من غير سقى . ويسمى ما يزرع كذلك بعليا . وهو أجود مما يسقى بالماء . وإذا كانت البطيخة طرية قالوا لها بطيخة ماوى ، يشربونها كما يشرب الماء . ويعتقد النساء أن البطيخة المشقوقة إذا شمها ثعبان بخ فيها سما ، فيكون فيها دود صغير ؛ ولكن إذا وضع فى قلب البطيخة سكين لا يقربها الثعبان ، وخير من ذلك اليوم وضعه فى الفِرِيجِدِير أو الثلاجة فيكون مثلجاً لطيفا . وإنما وجد الدود من الذباب يعف عليه لا من الثعبان . . وإذا قشر البطيخ وجفف فى الشمس كان منه دقيق يضعونه للدجاج أو الوز ، ولب البطيخ يجمعونه ويحمسونه فى الفرن أو على وابور الجاز ويضيفون إليه ملحا ويقزقزونه للتسلية ، وهى عادة مشهورة . واللب أنواع : لب البطيخ هذا ويسمونه لب أسمر ، ولب القرع الاسطمبولى ويسمونه

لب أبيض ، وقد يعملون من اللب الأبيض هذا مربى ، ويضعونه لمن ازداد عنده الضغط الدموى . وهم يستعملونه كثيراً عند السمر فى الليل ، أو الجلوس على القهاوى .

وفى مصر دكاكين كثيرة خصصت لبيع اللب الأسمر والأبيض والحمص والذرة المحمصة ، وتسمى « فيشار » . ومن أقوالهم « حط فى بطنه بطيخة صيفى » ، بمعنى أنه لم يكترث ولم يهتم .

بعبع

البعبع فى لسان المصريين مخلوق غريب مخيف ، يخوف به الأطفال . وزعموا أن هذا الاسم من اللغة المصرية القديمة وأنه عندهم اسم لعفريت مصرى قديم . وهو من الأشياء التى تخلع قلوب الأطفال من الصغر ، وتنشئهم جبناء . ومن أجل ذلك وأمثاله اشتهر المصريون بالجبن ، فكلما بكى الطفل خوف بالبعبع أو أبو رجل مسلوخة « والمزيّرة » . ونحمد الله أن زالت هذه الخرافات ، واختفى البعبع فكان النسل الجديد أشجع .

البغددة

هى صفة من صفات الرقة واللطف والظرف . فيقال للمرأة تبغددت إذا رقت ، وظرفت فى معاملاتها . وكان عندنا خادمة سوداء تسمى مبَغْدِدة .

بغلة

يقال للمرأة إذا عقمت « بغلت » لأن البغلة عقيم ، ويقولون للرجل الغبى « بغل » . ومما كان يدور على ألسنة العامة كثيراً حكاية « بغلة العشر » وهى بغلة كانت تظهر — فيما يقولون — فى العشر الأولى من المحرم ، وبعضهم يطلقها على العشر الأخيرة من رمضان ، وتدور فى شوارع القاهرة بعد منتصف الليل ، وعليها خرج مملوء ذهبا ، وفوق الخرج رأس قتيل ؛ فمن كان جيد الحظ عثر عليها ، يأخذ ما فى الخرج ويملؤه قشر بصل أحمر ، وإذا أسعده الحظ وأدخلها إلى بيته ، ربما اعتادت ذلك كل سنة . وقد تذهب البغلة إلى باب المحظوظ من نفسها وتدقه برأسها ، فيفتحون لها فتدخل وتلقى ما عليها . وادعى قوم أنهم رأوها ، ولذلك كثير ممن كانوا فقراء اغتنوا بلقياهم « بغلة العشر » .

ويحكون أن فلانا كان فقيراً ، واستيقظ وظل إلى قرب الفجر فخرج يريد المسجد فوجد الشارع كله مملوءاً سلعا ، وتقدم أحد الجن فقال له لا تخف ، وملأ له حجره قشر بصل وقشر ثوم ، فلما وصل إلى بيته رمى هذا القشر ، فلما طلعت الشمس وجده ذهبا وفضة .

وحدّث شيخ هرم قال : كنت جالسا مع ثلاثة من زملائى فى دار صديق لنا على

قارعة الطريق ، فى الليلة التى تظهر فيها بغلة العشر ، وقد عزمنا على تمضية الليل كله سهرا وفى الثلث الأخير من الليل سمعنا وقع حوافر ، فقلنا لعلها بغلة العشر ! وما خاب ظننا ، فقد وجدنا بغلة سوداء تحمل زكيبة ، فأدخلناها الدار وأمرنا بإحضار شىء كبير من القمح للبغلة ، ووجدنا الزكيبة محشوة ذهباً ، ثم طلع علينا عبد أسود ، وسألنا : ألم تروا بغلة ضلت عن الطريق فقلنا : لا ... فذهب بعد أن ملأنا الخوف .

ومن الاعتقادات الشائعة « أن البغلة إذا حملت وولدت فهذا دليل على انتهاء عمر الدنيا » .

وكان العلماء المطمطمون يفضلون ركوب البغلة على الحمار والفرس لسهولة سيرها ، وكانت فى ذلك تقوم مقام السيارة اليوم . وكان العلماء والعظماء يختصون لذلك بركوب البغال . ومن الأمثال المشهورة «أقول له بغلة ، يقول لى حمار » ، يقال لمن لا يفهم . ومن الأمثال للفرس : مَن أبوك ، قالت البغل خالى .

ووصف ظريف لطيف بغلة بطيئة السير فقال فيها :

لك يا صـديق بغلة
ليست تساوى خردلة
تهتز وهى مقيمـــة
فـكأنمـــا هى زلزلة

البـــق

البق حشرة صغيرة حمراء اللون ، مفرطحة ، تقرص ، وخصوصاً النائم ، فلا يستطيع معها نوما ، وهى أخبث من الناموس ومن البرغوث ، وتنتشر فى الحجرة القذرة خصوصاً إذا كانت فيها أخشاب ، فإنها تلبد فى ألواح الخشب . وقد قلّ البق باستعمال المطهرات والتزام النظافة ، وهو كثير الولادة .

ويقول العامة فى أمثالهم « زى البقة تولد مية وتقول يا قلة الذرية » .

ويعتقدون أنه يمكن التغلب عليه بالتعويذة الآتية : تكتب أربع أوراق وتلصق على أركان الغرفة « يس والقرآن — لو أنزلنا هذا القرآن على جبل — لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » إذهب أيها البق والبرغوث والنمل بإذن الملك الحق وبألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ويبخر الورق بعد كتابته بحصا ولبان ذكر .

بقر من غير قرون

يقولونها لمن كان جهولا شديد الغباوة ، كأنه لا فرق بينه وبين البقر فى عقله إلا القرون ، فإن البقر بقرون وهو بغيرها .

بقشيش

هو بمعنى منحة صغيرة تمنح لمن خدمك خدمة صغيرة . كأن يقدم لك قهوة أو يدلك على طريق أو يحضر لك عربة أو نحو ذلك .

وأحياناً يسمون البقشيش حق الدخان واعتاد الإنجليز عادة حسنة بأن يضعوا البقشيش فى طبق أو نحوه ، ويغطوه بورقة ونحو ذلك حتى لا يجرح إحساس آخذه ، وقد غالى فيه المصريون فكثر عندهم من يتطلب البقشيش ، فإذا زرت أحداً وخرجت إلى الشارع لتركب سيارتك وجدت من ينتظر البقشيش ، وهكذا فى كل خطوة . وقد وضع أحمد فارس الشدياق فى كتابه «الساق على الساق» مقامة لطيفة فى البقشيش فإن زوجته فى أول يوم طلبت منه بقشيشاً لأن جاراً له تزوج ، فلما كان اليوم الثانى ولد لبعض جيرانه ولد فطلبت البقشيش ، ولما كان الثالث قالت إن أحد جيراننا ختن ابنه وطلبت البقشيش ، ولما كان اليوم الرابع قالت إن بعض جيراننا ولد له ولد ، فلما كان اليوم الخامس قالت إن أحد أولاد الجيران قد ختم القرآن فلا بد من البقشيش ، ولما كان اليوم السادس قالت إن أخاه قد أحرز فى المكتب درجة ولا بد من البقشيش ، ولما كان اليوم السابع قالت إن جارتنا فلانة ذهبت إلى الحمام بعد نفاس ولا بد من بقشيش ولما كان اليوم الثامن قالت إن إحدى جاراتنا ليلة الحناء لها ولا بد من البقشيش ، ولما كان اليوم التاسع قالت إن أحد جيراننا قد قدم من الحج ولا بد من البقشيش ، ولما كان اليوم العاشر قالت إن أحد جيراننا قدم من سفر ولا بد من البقشيش ، فلما ضاقت به الحال قال : أيتها المرأة ارشدى واصغى واقصدى إما أن تكفى عن هذا الإنفاق وعن تكليفى ما لا يطاق ، وإلا فالفراق والطلاق والبقشيش إحدى المصائب الثلاثة المصرية وهى البقشيش ومعلهش وأنا مالى .

بكرة

تستعمل فى لسانهم بمعنى غدا ، والذى يريد أن يعد ولا يفى يقول بكرة . ومن أمثالهم : بكرة نقتل الغراب . تقال مثلا لمن يقول ولا يفى . وأصل المثل أن الضفادع تجتمع فى الماء ليلا وتنق ، ويزعمون أنها فى نقيقها تقول : بكرة نقتل الغراب . وقد استوحوا هذه الجملة من صوت نقيق الضفادع لأن الغراب إذا رأى ضفدعة اختطفها ، ويزعمون أن الضفادع تختفى بالنهار خوفا منه ولا تعمل شيئا ، فيطلقون المثل على من يقول

شيئاً ولا يفعله ، ويسمون هذا أيضاً « جخ » ومن أمثالهم أيضاً : « بكره نسمع و بعده نشوف » وهو أشبه بالمثل العربى القديم « عش رجباً تر عجباً » ومن أمثالهم أيضاً : « بكره نعد على الفرش ونتفش » يضربونه فى موضع أنهم سوف يتلاقون غداً ، ويظهر فيه كذب المدعى ، ومن أمثالهم أيضاً : « بكره يفتح السوق ويبان العطار من البيطار » . يعنون بذلك « ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً » .

ومن أمثالهم أيضاً « بكره العيرة ترجع لأصحابها » يعنون بذلك أن العارية لا ثبات لها وهى كقول ابن الوردى :

والروح فيك وديعة أودعتها
ستردها بالرغم عنك وتسلب

البلا

يطلق عادة على مرض الزهرى ، وكان اعتمادهم فى مداواته على شرب الزيت الحار النقى . وقد يعالجونه بأن يوضع شىء من الملح الجريش فى خرقة ، ويغلى الزيت الحار فى إناء ويغطس فيه الملح ، ثم يخرج وهو ساخن حار وتكوى به القرحة ، وأحياناً يملؤون مجمرة من الفحم حتى يحترق ، ويصير ناراً ، فيدخلونها إلى قاعة سدت كل نوافذها ، ويأتون بنرجيلة (أى شيشة) ويدخنون التمباك بالزرنيخ ، ويأمرون المريض أن يدخنها حتى تنتهى ، فيشعر بارتخاء فى المفاصل .

بلاش

أصلها بلا شىء ، ولكنهم جعلوها كلمة واحدة . مثل قولهم « البلاش كتّر منه » . ويستعملونها كثيراً فى معنى النهى . فيقولون : « بلاش هيصة » أى لا تهيص . و بلاش خبص . و بلاش جرسة . و بلاش فضيحة . و بلاش دوشة . و بلاش شيطنة . و بلاش إمارة . و بلاش كِذب . و بلاش لؤم . و بلاش بهدلة . و بلاش بهللة . الخ . . . .

البلاص

والأصح البلاصى ، لأنه نسبة إلى بلد فى الصعيد ، يقال لها البلاص . وهو يلعب دوراً كبيراً فى الأرياف ، خصوصاً لأنهم يملأون به الماء من الترع والأنهار كل يوم . وللفلاحة مهارة كبيرة فى كيفية وضع البلاليص على الرءوس . وكثيراً ما تغزّل الفلاحون فى النساء يحملن البلاليص ، ويعدن إلى بيوتهن تغنين .

بلانة

البلانة امرأة تغشى البيوت ، ويكون عملها مساعدة ربة البيت أو بنتها فيما يلزمها فى الحمام ، من نزع الشعر من على الوجه والعانة بحلاوة السكر المعقود أو نحوها . وهى التى تتولى شئون الفتاة عند زواجها ، فهى التى تدخل مع العروس فى الحمام ، وتهيئها وتنظفها . وهى التى تحنّى الفتاة فى ليلة الحِنَّاء ، وتجملها فى ليلة الزفاف .

وقد تكون واسطة إذا كانت هناك علاقة حب وغرام . وهى لا تكون عادة إلا فى بيوت الأغنياء ، والطبقة الوسطى الشبيهة بها .

البلح

هو فى مصر أنواع كثيرة : من أشهرها البلح الأمهات ، والبلح الحَيَّانى ، والبلح الزغلول ، والبلح السمانى ، و بلح ابن عيشة . ولأن البلح الحيَّانى كبير غليظ قالوا أحيانا فى المرأة « إنها صوتت صوتا حيَّانى » ، وأحيانا يستخرجون منه الخمر . ويأكله كثير من المصريين ، وهو غذاء طيب لطبقة كبيرة من الفقراء بأنواعه المختلفة . وقد ذهبتُ مرة إلى الواحات الخارجة ، فوجدت أكثر طعامهم البلح والأرز . ومن أشهر أنواع البلح ذلك الذى يأتى من الحجاز ، فأكثر الحجاج تكون هديته عبارة عن كمية من البلح الحجازى الناشف ، وكمية من ماء زمزم معبأة فى أوان من الصفيح . وكثيراً ما يضعون البلح فى فتلة ويعلقونها فى رقبة الطفل طلباً للبركة .

البلغة

البلغة حذاء من جلد أصفر واسع يلبسه بعض الرجال خصوصاً معلمى الصنايع ، كالبناء الكبير والمبيض الكبير وخصوصاً المغاربة أيضاً .

ويظهر أن أصله من فاس فى المغرب ، لأنهم ينادون عليها « البلغة الفاسى »

وكثيراً ما كنا نرى فى الشوارع وعلى القهوات منادين ينادون عليها ، ويعلنون عن جودتها ، بخبط أحد النعلين على الآخر .

والأحذية أيضاً فوضى كسائر أنواع الملابس ، فمنهم من يلبس البلغة هذه ، ومنهم من يلبس المركوب الأحمر المحنى مقدمه شبه المركب ، ومنهم من يلبس المركوب المستقيم ، والمحدثون يلبسون الجزمة . وعلى كل حال تعددت نعال الرجل بحسب أذواق لابسيها وحكم صناعتهم .

وفى القاهرة مكان يسمى التربيعة تباع

فيه البضاعات المغربية من بلغ و بطاطين ، وحرامات ونحو ذلك .

ومن غريب الأمر أنه كان فى هذه التربيعة تاجر يبيع البلغ والبطاطين المغربية ، فعثر على نسخة مخطوطة من كتاب أمالى القالى ، طبعها لأول مرة فى مطبعة دار الكتب .

بلطجة

يطلقونها على عدم الاكتراث وأكل حقوق الناس بالباطل . يقال فلان يبلطج إذا كان مثلا عليه دين فلم يؤده ، و بلطجى للشخص القوىّ الذى يأكل مال الناس ويستهتر و يعيش عيشة بوهيمية غير مكترث بأحد . وهذا الاسم مستعمل فى القاهرة ، وفى هذا المعنى يستعمل الإسكندرانيون كلمة « أبو أحمد » وهى نظير الكلمة القديمة التى كانت تستعمل فى هذا المعنى وهى « الفتوّة »

بلكى

يستعملونها بمعنى ربما أولعل ، فيقولون : بلكى كذا ، وهى فارسية الأصل للدلالة على الشك .

بليلة

هى قمح أو ذرة ، تغلى حتى تنضج ، والمترفون يضيفون إليها لبناً حليباً وسكراً ، وقد يضيفون إليها أيضاً زبدة .

وهناك بليلة شركسية ، وهى أن تسلق الذرة بكيسانها قبل أن تجف ، فتكون لذيذة الطعم . وكنت فى صباى أمر فى الشوارع ، فأجد بائع البليلة جالساً على كرسى وأمامه النار وعليها طشت كبير فيه بليلة ساخنة ، إما من القمح وإما من الذرة ، وبجانبه مقطف فيه سكر ، فأشترى منه بمليمين ، وهذا يكفينى . أما إذا كنت غنيا فإنى أعاف البليلة وأفطر فطيرة بسمن بقرش . وقد اندثرت هذه العادة إلا فى القليل النادر .

بنات الهوى

هو اسم يطلقه المصريون على العاهرات، وهو إطلاق لطيف ، لأنهن أصبحن أسيرات الهوى والضلال . والمراد بالهوى هنا العشق والغرام وما يلزمهما . وقد اطلعت على رسالة لمؤلف يهودى مصرى سماها : « باريس وملاهيها ، و بنات الهوى فيها » يقصد منها تعريف المصريين عن كيفية العشق والغرام ، فى أزهر مدينة أوربية ، ويحثهم على عدم إهمال الحظوظ فى الحياة والمبادرة إلى الانغماس فى المدنية الأوربية ، ويصف محلات أولئك النساء وطريقة محادثتهن .

بندر

تطلق على المدينة فيها أسواق تجارية ، وموظفو حكومة . وهى على ما يظهر كلمة فارسية ، بمعنى مركز تجارى. ولذلك يسمون رئيس التجار « شاه بندر » . ويقولون : شاه بندر التجار ، أى رئيسهم ، فكأن كلمة بندر رئيس القرى .

بندق

هو نوع من النقود يظهر أنه كان يضرب فى البندقية ؛ فالعامة تسميه بندق . ولا أدرى لماذا اعتقد فيه العوام أنه من أسباب المشاهرات ؛ فإذا دخل أحد ومعه بندق أصيبت المرأة بالمشاهرة ، أعنى بالعقم .

ولهذا تعتاد الوالدة أن يكون معها (بندق) ، حتى إذا دخل أحد ومعه بندق لم يضرها . وكذلك كان يعلقه فى رقبته من به مرض بعينه استشفاء به . وكذلك المرأة عند طهرها من الحيض تضع البندق فى وعاء وتصب عليه الماء سبع مرات لئلا تعاق عن الحمل .

ويزعم بعض الناس أن من فوائده أنه تحلب عليه النجوم ، وذلك أن بعض من يدعون السحر يضعون بنادقة فى الماء ويجلسون فوق السطوح ليلا ومعهم الإناء الذى فيه البندق والماء ، وعند طلوع نجم مخصوص يزعمونه يتلون العزائم ويشيرون إلى ذلك النجم ، فيدعون أنه ينزل ماء فى ذلك الإناء فيحافظون عليه جدا ، ويدعون بأنه دواء لكل الأمراض الجلدية ، تشفى منه دهنة واحدة من هذا الماء ، من جرب وزهرى وخراجات ونحو ذلك .

(انظر حلب النجوم)

بنديرة

قطعة من الرق تشد على وعاء من النحاس، سعة آنية الطعام ، المسماة « سلطانية » يضربون عليها بقطع من الجلد فى الأذكار ضربات متنوعة .

بِنِّى

نوع من السمك يقال له سمك بِنِّى ، ذنبه أحمر ، وشوكه الذى بجانبه أحمر ، وقد وضعت عليه العامة أغنيات من أشهرها :

بِنِّى يا سمك بِنِّى
متنقرش ومتحنى
طول الليل واما داير
وسمكى معى باير

طول الليـــل وانا بموت
حاطط رامى على الزعبوط
مستنى الحليــوة تفوت
يزول الوجـــع منِّى
بِنِّى يا سمـك بِنِّى

البهاء زهير

إنما أوردناه هنا مع إقلالنا من الأعلام لأنه كان شاعراً مصريا تغلب فيـه الروح المصرية والعبارة المصرية فى أشعاره.

ولذلك لا ينتظر القارئ منى تاريخاً لحياته، وإنما توضيحاً لرقته ورقة أسلوبه كقوله:

أرحنى منــك حتى
لا أرى منظـرك الوعرا
فقد صرت أرى بعـ
ـدك عنى الراحة الكبرى
فما تنفــع فى الدنـ
ـيا ولا تنفع فى الأخرى
لقـد خاب الذى كنـ
ـت له فى شدةٍ ذخرا

فكلمة منظرك الوعر، وفلان لا ينفع فى الدنيا ولا فى الأخرى، وبعدك راحة، كلها تعبيرات مصرية ظريفة. وقوله:

أوحشـتنى والله يا مالـكى
قطعت يومى كله لم أرك
هذا جفاء منك ما اعتدته
وليتنى أعرف ما غـيَّرك

فكلمة أوحشتنى، وأعرف ماغيرك، تعبيرات مصرية ظريفة. وقوله:

إن شكا القلب هجركم
مهد الحب عنــدكم
لو علــتم محلكم
بفـــؤادى لسركم
قصروا عمر ذا الجفــا
طوَّل الله عمــركم
شرفــونى بزورة
شرَّف الله قــدركم
كنت أرجـو بأنكم
شهركم لى ودهــركم
فنسـيتم وإنمـــا
أنا لم أنس ذكركم
وصــبرتم فليتـــنى
كنت أعطيت صــبركم
ورأيتم تجــلدى
فى هواكم ففــركم
لو وصـــلتم محبكم
ما الذى كان ضركم

مات فى الحب صبوة
عظم الله أجركم

فكلمة طوّل الله عمركم ، وشرّف الله قدركم ، وعظم الله أجركم ، كلها تعبيرات مصرية صميمة . وقوله :

لعن الله حاجة
ألجأتنى إليكم
وزمانًا أحالنى
فى أمورى عليكم
فعسى الله أن
يخلصنى من يديكم

فجملة : لعن الله حاجة ألجأتنى إليكم ، وربنا يخلصنا منكم ، كذلك تعبيرات مصرية . وقوله :

أنا أدرى بأننى
قلّ قسمى لديكم
فإلى كم تطلُّعى
والتفاتى إليكم
من رآنى يرقّ لى
ضائعًا فى يديكم
كان ما كان بيننا
وسلام عليكم

فكلمة ضائعًا فى يديكم ، وكان ما كان ، تعبيرات أيضا مصرية . وقوله :

أصبح عندى سمكة
وكسرة مدرمكة
أردت أن أحضرها
على سبيل البركة

فكلمة على سبيل البركة ، تعبير مصرى .

وقوله :

يا حسن بعض الناس مهلا
صيّرت كل الناس قتلى
أسرت جنونك بالهوى
من كان يعرفه ومن لا
يا هاجرى لا عن قلى
هجر ابنة المهرى طفلا
لم تلق غير حشاشة
من مهجتى وأخاف أن لا
ورسوم جسم لم يدع
منه الهوى إلا الأقلا
وبمهجتى من لا أسميـ
ـه وأكتمه لئلا
عانقت منه الغصن فى
حركاته قدًا وشكلا
وكشفت فضل قناعه
بيدىّ عن قمر تجلى
فلثمته فى خده
تسعين أو تسعين إلا

واهاً لها من ساعة
ما كان أطيبها وأحلى

فكلمة : أخاف ألا ، ولئلا ، من الاكتفاء فى التعبير شائع عند المصريين ، وكذلك قوله تسعين إلا ، فكلها تعبيرات مصرية . وقوله :

ويحك يا قلب أما قلت لك
إياك أن تهلك فيمن هلك
حركت من نار الهوى ساكناً
ما كان أغناك وما أشغلك
ولى حبيب لم يدع مسلكا
يشمت بى العذال إلا سلك
ملكته روحى وياليته
رق أو أحسن لما ملك
بالله يا أحمر خديه من
عضك أو أدماك أو أخجلك
وأنت يا نرجس عينيه كم
تشرب من قلبى وما أنبلك
ويا مهز الغصن من عطفه
تبارك الله الذى عدلك
مولاى حاشاك ترى غادراً
ما أقبح الغدر وما أجملك
مالك فى فعلك من مشبه
ما تم للعالم ما تم لك

فكلمة أما قلت لك وملكته روحى ، وتشرب من قلبى ، وتبارك الله الذى عدلك ، كلها تعبيرات مصرية وقوله :

حبيبى عينه قالوا تشكت
وذلك لو دروا عين المحال
أتشكو عينه ألما وفيها
يقال أصح من عين الغزال
ولكن أشبهت لون الحميا
كما قد أشبهتها فى الفعال

فكلمة عينه قالوا تشكت ، وتقديم عينه كما يقولون مثلا : الراجل قال راح ، والبيت قال باعوه ، تعبيرات مصرية .

وقوله :

وخلائق كالروض رق نسيمها
فسرى وذيل قميصه مبلول

فالجملة الأخيرة مصرية . وقوله :

وردوا نسيما جاء منكم يزورنى
فإنى عليل والنسيم عليل

وقوله :

رقت شمائله فقلت شمول
وحوى الجمال فقلت ثم جميل
وقسا ، فما للين منه مطمع
ونهى ، فما للقرب منه سبيل
أهواه : أما خصره فمخفف
طاو وأما ردفه فثقيل

ريان من ماء الجمال مهفف
أرأيت غصن البان كيف يميل
حلو التثنى والثنايا لم يزل
لى منهما العسال والمعسول
أحبابنا إن الوشاة كثيرة
فيكم ، وإن تصبرى لقليل
أيخاف قلبى غدركم مع أنه
جارٌ أقام لديكم ونزيل
سأصد حتى لا يقال متيم
وأزور حتى لا يقال ملول

وقوله :

بالله قل لى يا رسولْ
ما ذلك العتب الطويل
بالله قل لى ثانياً
فلقد طربت لما تقول
كرر لسمعى ذكرها
ودع الحديث بها يطول
بالله لما جئتها
هل كان رد أم قبول
إن عاد لى ذاك الرضا
فلك البشارة يارسول
لك مهجتى إن صح ذا
ك وإنها عندى قليل

وقوله :

أنت الحبيب الأول
ولك الهوى المستقبل
عندى لك الود الذى
هو ما عهدت وأكمل
القلب منك مقيد
والدمع فيك مسلسل
يامن يهدد بالسجـ
ـون نعم تقول وتفعل
قد صح عذرك فى الهوى
لكننى أتعلل
نفذت معاذيرى التى
ألقى بها من يسأل
حتام أكذب للورى
وإلى متى أتجمل
قل للعذول لقد أطلـ
ـت لمن تلوم وتعذل
أعتبت من لا يرعوى
وعذلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من
غضب الحبيب وأسهل

وقوله :

وقد طاب لنا الوقت
صفا من غير تكدير
فقم يا ألف مولاى
أدرها غير مأمور

وخـــــذها كالدنانير
على رغم الدنانـــير
أدرها من ســـنا الصبح
تزد نوراً على نور
عقاراً أصـــــبحت مثـ
ـل هباء غـــير منثور
بدت أحسن من نار
رأتهـــا عين مقرور
فسابقنـــا إلى اللهو
ووافينـــا بتبـكير
وفينـــا رب محراب
وفينـــا رب ماخور
ومن قوم مســـا كير
ومن قوم مساخــــير
ومن جـــد ومن هزل
ومن حق ومن زور
ورهبان كما تدرى
من القبط النحـــارير
وجـــوه كالتصاوير
تصـــلى للتصاوير
ومن تحت الزنانير
خصـــور كالزنانير
أتيناهم فما أبقـــوا
ولا ضنّـــوا بمذخور
لقد مـر لنـــا يوم
من الغر المشاهـــير
فقل ما شئت من قول
وقدر كل تقـــدير
(انظر ابن دانيال والبوصيرى)

بهـــدلة

معناها عدم اكتراث الإنسان بالملابس التى يلبسها، حتى يظهر منظره غير منسجم. ويقال بهدله، يعنى أنّبه وقرّعه. ويقولون: هدومه مبهدلة، وفلان بهدلنى. ويقولون: الفقر حشمة، والعز بهدلة، يعنون أن الفقير تكون ثيابه ملمومة عليه ومنظمة، أما الغنى فلغناه يوسع ثيابه ويطيلها، فتسمى بهدلة.

وتقول المرأة لزوجها إذا شنع عليها وذكرها بما يشينها: «بلاش بهدلة» أى فضيحة. وشاع فى الأيام الأخيرة قولهم: «الحب بهدلة»، أى أن الحب يجعل المحب غير مكترث بنفسه ولا بملابســه، إذ كل تفكيره فيمن يهواه؛ فهو مبهدل الثياب.

بهرجة

بهرجة الثياب حسنها ولمعانها ، ويقال للمرأة التي تغالى فى الزينة متبهرجة . وتستعمل أيضاً فى الكلام المزوق ، وخصوصاً المكذوب ، وهو أقرب إلى المعنى الأصلى للكلمة . فالدرهم المبهرج : المزيف .

بهلوان

البهلوانية طائفة معروفة يمشون على حبال تشد على عمد أو نحوها ، مرتفعة على الأرض بنحو خمسة أمتار ، ويمسكون فى يدهم عصا من الذهب تكون عادة ثقيلة ، لضبط موازنتهم .

وقد بلغ بعضهم فى ذلك حدًّا بعيدا من الإتقان ، فهم يأتون بحركات غريبة على الحبال ؛ بل قد يذبحون الخروف والشاة وهم واقفون عليها .

وعادة تستدعى هذه الطبقة فى الأفراح الكبيرة كفرح أنجال إسماعيل باشا .

بوز

يطلقونها على فم بعض الحيوانات . فيقولون بوز الكلب ، و بوز القرد ، وأحياناً يطلقونها على فم الإنسان لتحقيره . ومن عاداتهم إذا غضب أحدهم أن يمد فمه ، فيقال بوّز ، ويقولون « مالك مبوّز » .

البوصيرى

هو صاحب البردة المشهورة والهمزية المشهورة أيضاً . وكان كبير الكتاب ببعض المحاكم الشرعية . وقد وصف وصفاً بديعاً الكتّاب والقضاة فى زمنه ، وأخذهم الرشوة فيقول :

نَقَدْتُ طوائف المستخدَمينا
فلم أر فيهمُ رجــلا أمينا
فقد عاشرتُهم ولبثتُ فيهم
مع التجريب من عمرى سنينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفْنا
بهِمْ ، فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً
ولا شربوا خمور الأندرينا
وقد طلعت لبعضهم ذقونٌ
ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
تَنسّك معشر منهم وعدُّوا
من الزّهّاد والمتورّعينا
وقيــل لهم دعاء مستجابٌ
وقد ملأوا من السُّحت البطونا
تفقّهت القضاة فخان كلٌّ
أمانتــه وسمّوه الأمينا
وما أخشى على أموالِ مصرٍ
سوَى من معشر يتأوّلونا

يقول المسلمون لنا حقوقٌ
بها . ونحن أولى الآخذينا
وقال القِبْط نحن ملوكُ مصرٍ
وأن سواهم هُمْ غاصبونا

وهى طويلة فى غاية الحسن . وكان له أخت زوجة متزوجة تاجراً فى بحبوحة من العيش ، فكانت تعيّر أختها بزوجها الموظّف فى قصيدة لطيفة . وهو لذاك يطلب من الرؤساء منح الموظفين علاوة .

وعلى كل حال ، فقد وصف موظفى زمانه وصفا دقيقاً يدل على أن الناس هم الناس وأ كثرهم أنجاس .

بوظة

هى خمر الشعير فى الغالب ، فينقع الشعير فى الماء مدة ، ثم يخرج ويجفف فى الظل ، ثم يجفف فى الشمس ، فإذا جف يدق ، ويضاف إليه الماء ، ويترك فى المواجير حتى يختمر ، وهو مسكر ثقيل ، ويشربونه غالباً فى الأوانى الفخار ، وتسمى كل آنية قرعة ، ويتخذ الشاربون لها مزة من اللحم المسلوق ، مع بعض الفلفل والملح .

وأهالى السودان يأ كلون معها الكرشة والفشة والقلب ؛ تستخرج من الذبيحة عند ذبحها ، وتنظف ، وتدعك دعكا جيداً بالملح والشطة ، ويأ كلونها نيئة مع البوظة . والعامة تسمى موضع البوظة بوظة أيضاً . وهو مكان وخم ، وجلاسه وخمون ، يجلس أصحابه على حصر ، مع جيوش الذباب ، مما يعف على مواجير البوظة ، ويتردد إليها بعض النساء الساقطات فيثرن الشهوات ، وينطق الرجال إذ ذاك بألفاظ الفحش البذيئة ، وتكاد تكون البيرة ضربا خفيفا منها استعمله المدنون . والسوريون يسمون الداندرمة بوظة . وكثيرا ما حصلت من جراء ذلك مضحكات منشؤها جهل المصريين باستعمال السوريين ، فهم لا يعرفون البوظة إلا هذا المشهور الذى وصفنا .

بيت يوسف بك

هو أمير كبير من أمراء محمد بك أبو الذهب بنى بيتاً كبيراً على بركة الفيل ، وصرف عليه أموالا عظيمة ، وكان يبنى الجهة الكبيرة حتى يتمها بعد أن يبلطها ويرخمها بالرخام المزوّق ، ويسقفها بالأخشاب الجميلة ، ثم يوسوس له شيطانه فيهدمها ، لأنها لم تعجبه .

وهكذا كان يعمل ، وكان غنيا ، فكانت تأتيه من بلاده بالوجه القبلى ثمانون

ألف أردب من القمح يوزعها على أرباب المصانع فى بيته .

وكان لا يستقر فى مجلسه ، بل يقوم ويقعد ويصرخ ، وأحياناً يهدأ .

وصادف مرة أن وجد بعض التعاويذ ، مكتوباً على عضو خفى من أعضاء زوجته ، فسألها عنها ، فقالت : إن عجوزا دلتنى على شيخ يسمى الشيخ صادومة قد كتب التعاويذ ليحببنى إليك ، فنزل فى الحال ، وقبض على صادومة ، وقتله وصار يشهر بالفقهاء والعلماء والأولياء .

وهجم على بيت الشيخ صادومة ، وصادر ما فيه ، فوجد فيه أشياء شنيعة . وكان ذلك سنة ٩١١ هـ .

وكان يصادق الشيخ صادومة هذا ، الشيخ حسن الكفراوى العالم المشهور ، وكان الشيخ الكفراوى داعية له ، فشهر به أيضاً من أجل هذه المصادقة .

بيرق

هو العلَم ، والبيرقدار ، حامل البيرق .

وكان العامة يعتقدون أن عند السلطان العثمانى بيرقاً فى الآستانة إذا نشره وجب على كل مسلم الجهاد ، وبيع الأرواح بيع السماح ، فإذا تم ذلك كان النصر للمسلمين ؛ ولعل هذه الفكرة كانت من تقاليع السلطان عبد الحميد ، ويسمونه « بيرق السلطان » .

وكان فى القلعة فى مصر بيرق من هذا القبيل ، يستخرج من القلعة عند الأزمات ، ويحيط الناس به . وفى الثورة الفرنسية كان يخرج به المصريون ، يتزعمهم السيد عمر مكرم .

بير يوسف

هو البئر المعروف فى القلعة ، وتزعم العامة بأنه البئر الذى سجن فيه يوسف عليه السلام ، ويكثرون زيارته للتبرك ، والنساء يكثرن من النزول فيه للحبل . ويغلب على ظنى أنه منسوب إلى يوسف صلاح الدين الأيوبى ، لا يوسف النبى ، لأن صلاح الدين هو الذى بنى قلعة الجبل ؛ وربما كان مطموراً من عهد قدماء المصريين ، ثم أزال عنها الرمال صلاح الدين .

البير

كانت بيوت المتوسطين والأغنياء فى كل منها بير . وعليها بكرة ودلو ، يستعمل ماؤها للحموم ولغسل الأوانى ونحو ذلك . وقلما يستعمل للشرب . وإذا كان البيت يحتوى أيضاً على مجرور تخزن فيه القاذورات

ومواد البراز ، والبول ، وكان القاعان عميقين ، كان يرشح أحدهما على الآخر ، فيتلوث ماء البئر من هـذا المجرور . فيصاب أهل البيت بضرر كبير أو صغير .

وقد استغنى عن كل ذلك بالحنفيات والمجارى .

بيسارة

(انظر فول)

بيضة ثورة عرابى

فى أثناء الحروب بين عرابى والإنجليز شاعت شائعـة ملأت مصر بأجمعها وهى أن دجاجة وضعت بيضة مكتوبا عليها « نصر من اللهِ وفتح قريبٌ » . واعتقد فيها المصريون . وقريب من ذلك أن جماعة أهدوا لعرابى أثناء حربه ثلاثة مدافع : مدفعاً سموه مدفع السيد البدوى ، ومدفعاً سموه مدفع سيدى إبراهيم الدسوقى ، ومدفعاً سموه مدفع السيد عبد العال .

ولـكن لم تنفع البيضة ولا المدافع ؛ فمحال أن تصد المدافعَ القوية الأوهامُ الخفية .

بيض شم النسيم

فى يوم السبت الذى قبل يوم شم النسيم ويسمى سبت النور ، اعتاد المصريون أن يأكلوا البيض مصبوغاً صبغاً أحمر أو أصفر أو أزرق وهكذا . . . ويلعب بعض العامة مع بعضهم بخبط البيض بعضه مع بعض ، فمن كسرت بيضـته يأخذها صاحب التى لم تكسر . وبعضهم يتخذ بيضة من الحجر مخروطة كخرط البيض ، ويصبغها صباغا مثلها . ومن ذلك قولهم : فلان يلعب بالبيضة والحجر ، كناية عن الغشاش القادر على إخفاء غشه بحيله ، فهو يلعب بالحجر مكان البيضة يوهم أنه بيضة ؛ وربما أخذت عادة الاحتفال بالبيض وصبغه من الأقباط .

البيوت

كان للمصريين قبل أن يتفرنجوا نظام خاص فى بيوتهم ، يلائم معيشتهم الاجتماعية ويلائم جوهم الحار . فكان عادة منزل فسيح للأغنياء يبنى أساسه بالحجر والجير من الجبال المجاورة ثم من الآجر المطبوخ بالنار ، وكانت هـذه المنازل لا تتعدى الدور الأول إلا بالدور الثانى ؛ ولم تكن هناك ناطحات السحاب التى نشاهدها الآن تقليداً لأمريكا ، ولأن البيت كان لا يسكنه إلا أسرة واحدة

تقريباً ، قد يكون منها الابن وزوجته ، والبنت وزوجها . وكان البيت أعز شيء عند الناس ، يقضون فيه أسعد أوقاتهم ، لا يعرفون القهاوى ولا الخمارات ، فكانوا يتفننون فى تزيين البيوت لأذواقهم الخاصة ، وفى زخرفتها زخرفة توفر الهناء . وأكثر البيوت داخله خير من خارجه . وربما كان ذلك من أثر الاستبداد ، فيتظاهرون أن البيت حقير ، ولبسهم حقير ، لأن الغنى مظنة جشع الولاة ، وضرب الضرائب . وعلى البيت باب يفتح غالباً إلى الداخل ، وأحياناً إذا كان الباب كبيراً عمل فى وسطه باب صغير للدخول والخروج العاديين ، ولا يفتح الباب الكبير إلا عند الضرورة .

وعادة كانوا يبنون جداراً أمام الباب حتى إذا فتح الباب لم ير المارّ ما فى داخل البيت ، وكان الباب فيه ضبة ومفتاح ، على عادة القرون الوسطى ، لا قفل ومفتاح كما هو الشأن اليوم .

والضبة فيها مسامير تسقط ، ولا تفتح إلا إذا رفعت بمفاتيح فيها مسامير تقابل الأولى وترفعها وتفتحها .

ووجهة المنزل عليها شبابيك ركبت فيها قضب حديدية خوفاً من اللصوص ، وهذه القضب متشابكة ضيقة المنافذ لا تمنع الضوء والهواء من الدخول ، وتمنع الجار من رؤية ما يجرى فى البيت .

وإذا أنشىء دور ثان فوق الطبقة الأولى ، أخرجت منه خارجة حُملت على كتل خشبية عُمل حسابها فى السقف ، قد تكون متراً وقد تكون متراً ونصفاً .

وفى العادة يجعل فيها مشربية ، ويظهر أنها سميت بذلك لأن بروزها كان يكثر هواءها فتوضع فيها قلل الماء للشرب ، وهم يصنعون المشربيات من خرط دقيق من الخشب ، وربما صنعوها صنعاً فنيا رائعاً . وسطوح المنازل مسطّحة ، ولذلك سميت بالسطوح ، وليست جمالونية كسطوح الفرنج ، لقلة الأمطار فى مصر وتتخذ مناشر للغسيل ، وتسور عادة بسور نحو القامة . وقد يستخدم لجلوس الرجل وزوجته وأولاده فى الليل صيفاً .

وفى داخل الدار صحن يمد البيت بالضوء والهواء ، وحوله غرف يتخذ بعضها للخدم وبعضها للحيوانات كالدجاج والحمير ومنظرة للرجال ... ولكن الدور العلوى للنساء خاصة ، ويسمى الحريم . فزوّار الرجال فى المنظرة من تحت ، وزوّار النساء فى بهو كبير من فوق . وإذ كانت الهيئات الاجتماعية تفضل الرجال عن النساء كان نظام البيت مبنيا على تحقيق هذا الغرض . وقد تختلف

الدور ولكن لا تخرج عن هذا الوصف الأساسى .

وهندسة هذه البيوت توافق الذوق العربى ، ويحس الناظر إليها بانسجامها مع شكل المساجد والأسبلة ونحو ذلك .

وفى الدور الأعلى عادة تفتح فتحة فى السقف تصنع من زجاج وتفتح لتمرير الهواء .

وهناك أغنياء بالغوا فى تجميل منازلهم وأنفقوا عليها الألوف ، كبيت السحيمى . ثم دخل عليها تطور كبير فى الأيام الحديثة تقليدا للأوربيين .

هذه بيوت المدن ، أما بيوت الأرياف فتبنى عادة من طين نيء ، وهى فى الغالب عبارة عن قاعة ومكان للبهائم وفناء صغير . وقل أن يكون فيها شبابيك ، وإذا كانت فلا تفتح ، وفى بعضها أبراج للحمام .

وهناك شوارع كثيرة فى المدن مملوءة بالحوانيت ، وهى عبارة عما يشبه الحجرة فى البيت لها باب يغلق عليها ، وهناك قهاوى أخذت على نمط القهاوى الفرنسية ، وقد يكون فى الشارع سوق أو أكثر ، وكان فى القديم عبارة عن حوانيت سقفت . وهناك وخصوصاً فى القاهرة والإسكندرية وكالات ، وهى بنايات كبيرة للتجارة حول فناء مربع ، وفى وسطه حوض ماء ، وفوقها غرف كان ينزل فيها بالليل الغرباء من التجار .

وكانت البيوت مظهراً للسلطة الأبوية ، ففى البيت رجل كبير هو صاحب السلطة على زوجته وأولاده يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه ، ويرجعون إليه فى مشاكلهم ، وهو الذى بيده الإذن فى الدخول والخروج ، وبيده ميزانية البيت ؛ وله الخيار فيما يأتى به وما لا يأتى ؛ وعلى الجملة كان ملكا مستبدا . والأولاد تقبل يده ، وزوجته لا تجرؤ أن تأكل معه ، ولا يسمح لولد أن يدخن أمامه ، ويجب أن يجلس الولد أمامه فى أدب واحترام وهو الذى يزوجه إن شاء ، ويتركه إن لم يشأ .

وهكذا كان البيت مملكة صغيرة ملكها الأب ، ثم زال كل ذلك وانهار ، وحلت سلطة الأمومة ، محل سلطة الأبوة ، وهى أيضاً لها مزاياها وعيوبها .

حرف التـــاء

التار

التار بمعنى أخذ الثأر ، وهو أمر شائع فى قرى الأرياف وخصوصاً الصعيد ، وهم يتربصون بمن عاداهم حتى ينتظروا الفرص ويقتلوه . ويقولون لمن تقاعس عن ثأره : « الأحسن تلبس برقع » ويقولون : « من لم ياخذ تاره ، النار أولى به » . ويقولون لمن تجاوز عن التار : « النار ولا العار » .

التأكيد

للعوام أنواع من التأكيد منها إشارات ومنها ألفاظ ، فمن الإشارات أن يحرك رأسه إلى الأمام مع تلفظه بمعنى التأكيد . ومن الألفاظ التكرار للتأكيد ، فإذا سألت فلاناً هل سافر فلان ؟ يقول نعم سافر وسافر . ويقولون للشىء : هو حلو حلو ، أو حامض حامض ، أو حلو قوى ، وأنا أحبك كثير كثير ، وذكر العدد فيقولون اللهم صلِّ على محمد ألف مرة ، ومائة ألف مرة . ويستعملون فى التأكيد أيضاً الضغط على بعض الألفاظ عند النطق ، أو بعض حروف اللفظ ، ومن أنواع التأكيد أيضاً الحلف الكثير بالله وبالمشايخ . وعندهم أنهم إذا قالوا : والله (بكسر الهاء) كانت أشد . ولذلك يقولون والله بعقد الهاء . وقد يؤكدون المعنى أيضاً بالحلف بالطلاق مرة أو ثلاثا . فما تشعر المرأة فى بيتها إلا وقد طلقت بسبب خارج عنها . وكذلك يقولون فى التأكيد : إن عملتُ هذا أحلق شنبى ، أو أكون خارجا عن ملة الإسلام ، أو يحصل لى كذا أو نحو ذلك .

التبنى

التبنى اتخاذ المرأة أو الرجل غير ولده ولداً . ولذلك طرق كثيرة : منها أن القابلة قد تمكر مكراً غريباً فتأخذ معها امرأة أخرى وتكون هذه المرأة حاملة سقطاً جديداً ملفوفاً فى ثوب ، فإذا ولدت المرأة ، وخصوصاً إذا كانت فقيرة ، أخذت القابلة الولد وكتمت نفسه حتى لا يبكى ، وأعطته فى سرعة للمرأة التى معها وأخذت السقط ووضعته بدل الولد ، وادعت أنها ولدت سقطاً . وباعت الولد الجديد لأسرة بثمن كبير ، وهذه الأسرة تسميه باسمها وتربيه كابنها .

وثمة عادة أخرى وهى تبنّى أولاد اللقطاء ، يأخذونهم من ملجأ اللقطاء صغاراً ويربونهم ويسمونهم بأسمائهم ، ويلقبونهم بألقابهم ، فينشأون فى البيت وهم لا يعلمون . وقد لا يعلم هذا السر أحد إلا الرجل وزوجته ، وهم يخصونه بقسم كبير من ثروتهم .

التثاؤب والعطاس

يعتقدون أن التثاؤب من أعمال الشيطان ، فإذا تثاءب أحد قال أستغفر الله ، كأنه ارتكب جريمة ؛ وإذا عطس قال أشهد أن لا إله إلا الله ؛ وقال له من بجانبه يرحمك الله ، فيرد عليه العاطس : « غفر الله لى ولك » أو غفر الله ذنبك . وهم يتفاءلون بالعطاس ، ويتشاءمون من التثاؤب . وبعضهم يستعمل حركة العطاس فى النطق بالشهادة . فيقول أشهد .

التجـــارة

أكثر التجارة فى مصر ، خصوصاً فى الأزمنة القديمة ، كانت التجارة الداخلية . أما الخارجية ففى يد الأجانب . وأحياناً يشتغل المصريون فى الأعمال الصغيرة للتجارة كبيع الأدوات الصغيرة ، ويسمونها الخردوات . وأحياناً كانوا يتاجرون فى البقايا الصغيرة بعد أن يشتغل الأروام بالأعمال الكبيرة . فمثلا يدور بحماره وعليه كيس ليشترى بقايا القطن بعد أن يكون قد باع الفلاح المحصول للتجار الأجانب . وبعض المصريين كانوا يشاركون الأجانب فى شراء المحاصيل الكبيرة . ولهم أجرة القبانية والحزنجية ، وهم فى الغالب مغبونون يضحك عليهم الأروام والأرمن لجهلهم بالعادات التجارية ، ولجهلهم أيضاً بالحساب ، خصوصاً إذا كان البائع فلاحا جاهلا ، فإنهم يفرحون بالثمن العاجل ولو قليلا . فكانت نتيجة هذا غنى الأروام ، وفقر الفلاحين .

هذا إلى التلاعب فى الأوزان ، والغش بالقبّان . فلهم أساليب كثيرة متنوعة فى غش تلك الآلة . ومن أجل هذا عينت الحكومة قبانيين رسميين رحمة بالفلاحين . وكانوا أيضا مصيبة على الفلاح فى الغش والخداع . وأحيانا يتفق هؤلاء القبانيون الرسميون مع التجار الأروام . ويغشون فى حاصل جمع الأقطان الواردة كأنهم أخطأوا سهوا .

وكذلك فى استخراج صافى القطن ، فهم فى عمليات الطرح يتعمدون الخطأ . وكذلك تجارة الحبوب ، فبعض التجار المصريين يشترونها ويخزنونها ويحافظون عليها حتى تتحسن سوقها .

وكان أهم ساحل ترسو عليه السفن الآتية بالمحاصيل هو ساحل بولاق الذى حل محله فيما بعد روض الفرج .

ومن التجارة المنتشرة القماش ، من بفتة ، وشيت ، وقد كانت غالبا فى يد الأرمن أو الأروام . وكذلك تجارة الدخان

والصابون ... ويأتى الصابون فى الغالب من يافا ، وطرابلس ، ونابلس ، وأغلب وسطائه من السوريين .

وأما البقالة فأغلبها فى يد الأروام إلا ما كان منها وضيعاً هزيلا . وقلّ أن ينجح فيها وطنى ، لأن مصادرها فى الغالب من اليونان أو إيطاليا ، ويحسنها أيضاً بعض السوريين ، ويبيعون منها مايتصل ببلادهم . أما بعض أنواع البقالة فقد كان للمصريين نصيب كبير فيه ، كالتجارة فى السمن والزيت والجبنة البلدية . وهم يتاجرون أيضاً فى الأسماك والخزف والحلى والوراقة والخردوات والأحذية والأخشاب ، والفحم والجزارة ، والكتب العربية ، ونحو ذلك .

وقد كانت سمعة المصريين رديئة فى التجارة من ناحيتين : الأولى المساومة فى الأثمان ، فقد يكون ثمن الشىء خمسة فيقول التاجر عشرين أو خمسين ، والثانية سوء المعاملة خصوصاً مع الأجانب ، فقد يستوردون سلعاً ويُماطلون فى دفع ثمنها ، حتى كف بعض التجار الكبار عن معاملتهم . وقد تحسنت الحال فى هذه الأيام بعض الشىء لمخالطتهم الأجانب وشربهم من مشربهم .

تحفجى

كلمة يطلقها العامة على بائع المعاجين والمنازيل ؛ وهى مواد يدخل فيها الحشيش والأفيون ، ويحمل على تعاطيها تخدير الأعصاب عند الاتصال بالنساء . وكثيراً ما تكون هذه الأشياء سبباً فى فساد كثير من الرجال .

التحيات

فى الحديث : « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله ، وليقل له أخوه أوصاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له : يرحمك الله ، فليقل يهديكم الله ويصلح بالكم » .

والمصريون يقولون لمن عطس : يرحمك الله . فيقول العاطس : غفر الله لنا ولكم . ويقولون لمن سار فى جنازة : « شكر الله سعيكم » فيرد : « عظم الله أجركم » ويقولون لمن يتوضأ : « من بير زمزم » فيقول : « جمعاً » . ويقولون لمن حلق ذقنه عند الحلاق : « نعيما » فيرد عليه : « أنعم الله عليك » . ويقولون لمن عوفى : « بالشفا » . فيرد : « شفاكم الله وعافاكم » . ويقولون للمريض : « أجر وعافية » فيقول : عافاكم الله » . ويقولون للحاج : « بعودة » .

فيقول : «أعادها الله عليكم بخير » . ويقولون فى العيد : « كل عام وأنتم بخير » فيرد عليهم بمثل ذلك . ويقولون لصاحب الجنازة : «عظم الله أجركم » ؛ فيقول : غفر الله ذنبكم الخ » …

تختروان

هو عبارة عن نوع من الأعمدة الخشبية مغطى بالقماش ، يحمله بعيران . وهو عادة تركبه العروس يوم زفافها ، للانتقال من بيتها إلى بيت عريسها . ويركب مع العروس فى التختروان بعض صواحبها .

وكان يستعمل قبلا فى السفر إلى الحج ، وليس المحمل إلا صورة مصغرة منه .

التراجمة

واحدها ترجمان ، وهم قوم أغلب ما يكونون من سكان الهرم ، يصحبون السائحين ليروهم الآثار المصرية ، ويحكوا عنها بعض تاريخها .

ومنهم من يتكلم الإنجليزية ، ومنهم الفرنسية ، ومنهم الألمانية ، وهكذا …

وثقافتهم محدودة ، فهم وإن كان لسانهم طلقاً ، يتصفون بسرعة الكلام ، وإن كان فى كثير من الأحيان غير جار على قواعد اللغة .

وكثيراً ما نراهم على باب الفنادق التى يكثر فيها السيّاح ، وفى الأقصر وأسوان . وقد يتصلون بالسائحات اتصالا غير شريف ومنهم من يتزوج منهن .

وفى بعض القرى بجوار الأهرام تجد وجوه أطفال يخرجون لأمهاتهم الأوربيات فيكونون بيض البشرة ، صفر الشعر ، زرق العيون من جراء ذلك .

ولما شعرت الحكومة بجهل هؤلاء التراجمة أنشأت مدرسة تثقف طلبتها بالتاريخ المصرى القديم وما يلزمه من لغة هيروغليفية وغير ذلك .

تربية الأطفال

يتربى الأطفال فى البيوت ، ومن العادة الطبيعية أن يربى الطفل أول أمره أمه ، وأبواه يفرحان به ويعتنيان به ، ومن أجل ذلك نظر إلى المرأة العقيم نظرة سيئة ، واعتقد أن الله غضب عليها .

وإذا تزوج الرجل امرأتين ، كانت الولود أحب إليه من العقيم غالباً . وقد يكون من أسباب تعدد الزوجات عقم المرأة الأولى ، وتربية الأم أبناءها ليست مبنية على أسس التربية ، وإنما هى تربية حيثما اتفق . إن مرض عالجته بطب الركة ، وإن أراد الأكل

أكلته وإن لم يكن وقته . والعادة أن تبالغ فى تدليله ، وأن تطيل رضاعته ، ثم يعينها الأب حتى يذهب الطفل إلى المدرسة ، فيقل عبؤها ؛ وتحمل المدرسة أكثر عبئه . وقد يبالغ بعض الناس فى تدليل أولادهم ، من ذلك أنى شاهدت طفلا يدخن وعمره خمس سنوات ، وبنتا ترقص رقصاً غريباً وعمرها تسع سنوات . وبعض الرجال من الطبقة الوضيعة يعلمون أبناءهم السب والقذف ، ويسمحون لهم أن يضربوهم أو يشدوا ذقنهم أو يشتموهم ، فيخرج الولد عديم التربية ، قليل الأدب .

وفى الأسرات الكبيرة تحضر مربيات أجنبيات لتربية الولد ، ويعلم الطفل آداب الاجتماع والمعاشرة .

وفى البيوت المتدينة يعلم الأطفال الصلاة والصوم ، حتى ينشؤوا على الدين .

وفى الطبقات الوضيعة يعلمون الأولاد الحرفة والكسب قبل الأوان ، فترى طفلا فى السادسة يبيع الصحف فى الشوارع أو ينوب عن أبيه فى التجارة فى الدكان أو نحو ذلك .

وكلما زاد العلم حسنت التربية .

التربيعة

وهى أيضاً تمثل الحياة القاهرية فى قرونها الوسطى ، فيباع فيها العنبر المحلول ، وعطر الورد ، وعطر الزهر ، وأمثال ذلك .

والبائعون أيضاً يمثلون البائعين فى القرون الوسطى ، فقفطان من الشاهى من غير جبة ، ومركوب وحزام فى الوسط ، وتجد على وجهة دكاكينهم زجاجات مختلفة الأشكال والألوان مما أعدوه للبيع ، وطريقة بيعهم أيضاً بالممارسة كأهل القرون الوسطى .

وربما كان هذا الحى من مبدأ المغربلين إلى سيدنا الحسين ، مطبوعا بالطابع الشرقى البحت ، فمن أراد معرفة الناس قديماً فليبحث عنهم فى هذا الحى ، فطائفة فى الكحكيين والفحامين تبيع البُلَغ ، وطائفة تبيع العقاقير المختلفة الواردة من الهند وغيره . وطائفة تبيع الغوايش والحلقان الخ .

ترترة

قطعة صغيرة من المعدن مخروقة من الوسط خرقا صغيرا ، يستعمل لتزيين ثياب المرأة إذ تضوى بالليل وتلمع ؛ ويضرب مثلا فى ضيق العين ، فيقال : عينه زىّ الترترة . ويوضع أيضاً على مناديل الرأس ، ويكثر النساء من استعماله فى زينة العروس . ومما قيل من الفوازير فيه « قد النص وعينه بتبص » .

ترمس

هو من النباتات التى تنبت فى الأراضى الرملية ، وهو قديم العهد فى مصر ، وينقع فى الماء حتى يطرا ، وتزول مرارته . وأكثر ما يستعملونه للتسلية بعد العصر ، كلب البطيخ واللب الأبيض . ويستعمل أيضاً لغسل اليد كالصابون . ويدق ويدعك به الجسم مداواة للبثور التى تظهر فى زمن فيضان النيل ، وتسمى حمو النيل ، ومن أمثال العامة :

النذل ميت وهو حى

ما حد حاسب حسابه

هو كالترمس النىّ

حضوره يشبه غيابه

وقد يسمى ابن البحر لأنه ينقع فيه .

واشتهرت امبابه بالترمس ، فكثيراً ما يقولون : الترمس الامبابى ، وينسبونه إلى سيدى الامبابى ، فيقولون فى المناداة عليه : يا امبابى مدد !

التسالى

اعتاد المصريون أن يتسلوا بأشياء صغيرة بين الأكلات ، مثل قزقزة لب البطيخ ، واللب الأبيض ، وهواب القرع الاسطمبولى ، والفشار ، وهو حبوب الذرة المشوية ، والترمس ، والفول المقيلى ، والفستق ، وأنواع النُّقل ، وخصوصاً فى ليالى رمضان كالجوز واللوز والبندق ، ويسمونه فطْرة . وكذلك يتسلون بكيزان الذرة ، فتجد كثيرا من الباعة ، وأمامهم النار يشوون عليها كيزان الذرة ويبيعونها ، وفى الأيام الأخيرة أصبح من التسالى أيضاً أبو فروة ، يشوونه كما يشوون الذرة ، ويشوونه فى الأسواق كما يشوونه فى البيوت . ومن التسالى أيضا البطاطة ، ومص قصب السكر .

تسخير الجان

للمصريين اعتقاد كبير فى العفاريت والجن وقدرة بعض الناس على تسخيرهم لمصلحة من أراد ، سواء فى ذلك خواصها وعوامها ، وأغنياؤها وفقراؤها ، ومسلموها وأقباطها . ويرتزق كثير من الطوائف بهذه الدعوة . ويستغرب الزائر لدار الكتب من كثرة الكتب التى تحتويها فى هذا الموضوع وكثرة استعارة هذا النوع للمطالعة .

ومن غريب الأمر أنهم يعتقدون فى الكتاب المخطوط أكثر مما يعتقدون فى الكتاب المطبوع ، والمكتوب حديثاً أقل بركة وفائدة من المكتوب قديماً . ومن أشهر ما ألف فى قواعد هذا الفن القصيدة المشهورة المعروفة بالجلجلوتية ، ومنها :

بدأت بباسم الله روحى به اهتدت
إلى كشف أسرار بباطنه انطوت
وصليت فى الثانى على خير خلقه
محمد من أزاح الضلالة والغلت
سألتك بالإسم المعظم قدره
بآج أهوج جلجلوت هلهلت
بصمصام طمطام وبالنور والضيا
بمهراش مهراش به النار أخمدت
وصبّ على قلبى شآبيب رحمة
بحكمة مولانا العظيم فأنطقت
فسبحانك اللهم يا خير بارئ
ويا خير خلاّق ويا خير من بعت
ألا واحجبنى من عدو وحاسد
بحق شماخ أشمخ سلمة سمت
ألا واحرسنّى يا ذا الجلال بكاف كن
بنص حكيم قاطع السر أسبلت
الخ ...

وهم يعتقدون فى أن للحروف أسراراً ويكتبونها صوراً مخالفة للحروف المألوفة ويسمونها حروفاً روحانية أو علوية نظير هذه العلوم التى فى العالم السفلى ، ويزعمون أن لكل حرف خداما يحافظون عليه ، ويزعمون أن لكل يوم من أيام الأسبوع جناً تغلب عايه ويعرفها من هو أهل لها ، ففى كل ساعة من ساعات الأيام برج مخصوص له السلطان ولكل برج مواليد تتأثر به سعادة أو شقاء وهم يعملون الأحجبة على حساب هذه الطوالع . وهذه صورة حجاب من الأحجبة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، شهد الله أنه لا إله إلا هو الآية . له معقّبات من بين يديه ومن خلفه الآية . الله لا إله إلا هو الحى القيوم الآية . اللهم قنا سيئاتنا وسيئات أعمالنا وسيئات ما يمكرون ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١١٥١١ عوج واعوج يا عوج ما عوج » . وهكذا كثير من أنواع الأحجبة لقضاء المصالح المختلفة . وعندهم لوح يسمى لوح الحياة ولوح يسمى لوح الممات على هذه الصورة :

لوح الحياة

١	٢	٣
٧	٨	٩
١٣	١٤	١٥
١٩	٢٠	٢١
٢٥	٢٦	٢٧

لوح الممات

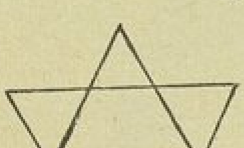
٤	٥	٦
١٠	١١	١٢
١٦	١٧	١٨
٢٢	٢٣	٢٤
٢٨	٢٩	٣٠

ولحساب المريض أو الغائب أو الحاجة تقضى أولا :

يحسب اسم الطالب واسم أمه بالجمل والحاجة ومن هى عندهم ، ويزاد على الحاصل اسم اليوم المسئول فيه . ويضاف إلى المجموع ما مضى من الشهر العربى ، ويسقط من المجموع ٣٠ — ٣٠ وما بقى ينظر فيه : هل هو من لوح الموت أو من لوح الحياة ، فإن كان فى لوح الحياة فهو خير ، وإن كان فى لوح الممات فهو شر . ولهم فى ذلك حساب طويل . ومن أراد أن تخدمه الجن فإنه يصوم أربعين يوماً فى خلوة لا يأكل إلا خبز الشعير والزبيب الأسود ، ولا يأكل إلا كل أربع وعشرين ساعة ، ثم يتلو العزائم ويستحضر بها الخدام ، والخادم الأول عبد أسود فى يده حجر أحمر ، وعزيمتـه يا بنوح دردموخ أجيبوا بحق سمعاط شموع برهوت برهين اسحيم . تقرأ ألف مرة وكذلك بقية الخدام الأربعين .

ومنهم من له قدرة على إخراج الصوت من بطنه يزعم أن ذلك من عمل الجان ، ولهم فى ذلك كتب مطبوعة فى الصلوات والدعوات ، واشتهرت بذلك المغاربة على الخصوص .

وهم يعتقدون فى خاتم سليمان وهو على هذا الشكل :



وبواسطته تستخدم الجان ، وهو الذى بواسطته استخدم سليمان الجن فحملت له

البساط ، وبنت له البلاد ، وقطعت له الأحجار ، وفجرت له الأنهار والآبار . ومن الكتب المشهورة فى هذا « السر الربانى فى العلم الروحانى » ، « شموس الأنوار وكنوز الأسفار » ، « البهجة اللماعة فى تسخير ملوك الجن فى الوقت والساعة » و « الفتح الرحمانى فى العلم الروحانى » وهكذا .

وكلما أوغل الناس فى قراءة الكتب التى من هذا القبيل وسماع أحاديث العفاريت قلت عقولهم وزادت خيالاتهم وأوهامهم . روى لى بعض من أعرفه أن أباه كان لا يؤمن بالزار ولا رؤية الجن ولا شىء من ذلك ، ولكنه جلس ليلة وانقسم الحاضرون إلى فريقين فريق يؤيد رؤية الجن وفريق ينكره ومنهم أبى ، واشتد الجدل إلى الساعة الواحدة بعد نصف الليل . قال : « فلما قام أبى لينام صحا فى الساعة الرابعة فوجد كأن أحداً ينبهه فانتبه فرأى عفاريت كثيرة فى أجسام صغيرة ، ورأى من يكلمه ويحادثه فقام مذعوراً ونبه أهل بيته ليحيطوا به خوفاً مما رأى فى النوم . وهذا من غير شك نتيجة لما كان من أحاديث قبل النوم ، وهذا يدل على أن المخ إذا شغل بهذه الأشياء تراءت له وانعكست له صورة الأحاديث فى نفسه .

قال : ولذلك عزم أبى على ألا تذكر سيرة العفاريت أمامه وخصوصاً قبل نومه حتى لا يشغل ذهنه بها .

التسليم

إذا قابل مسلم مسلماً فالتحية بينهما أن يبدأ أحدهما : السلام عليكم ، ويرد الآخر : عليكم السلام ، إما برفع اليد إلى الرأس أو بدونها . والعادة أن يبدأ فى التسليم الراكب على الماشى والقائم على القاعد .

وإذا كانا قبطيين أو أحدهما قبطياً فالتحية أن يقول أولهما : نهارك سعيد ، أو ليلتك سعيدة فى المساء . ويقول الآخر : نهارك سعيد مبارك . أو ليلتك سعيدة ، وبين النساء عادة تقول إحداهما : صباح الخير ، وتكون الإجابة : يسعد صباحك . وفى المساء مساء الخير ، وتكون الإجابة مساء الخير عليك . أو يسعد مساك .

التسميم والتحريق

اعتاد الفلاحون إذا عادى بعضهم بعضاً أن يسمموا بهائم بعضهم بالزرنيخ ، أو يحرقون محصوله بإشعال النار فيه ، فيقابله الآخر بمثله أو يزيد ، فيسمم أيضا بهائمه أو يحرق زرعه . ويفضل أن يفعل ذلك على شكواه عند

العمدة أو عند أحد كبير أو عند الحاكم . ولذلك لا يخلو يوم من أخبار فى الجرائد عن تسميم أو تحريق أو تقليع .

وفى السنة الماضية كان لى صديق ذو مقام كبير موظف فى الحكومة وظيفة كبيرة أبى أن يؤجر للفلاحين أطيانه المزروعة موزا ، فجاءه الخبر فى الصباح أنهم وجدوا زراعته مقلوعة ، حتى الفسائل الصغيرة . فخسر بذلك آلاف الجنيهات .

التشبيهات

يستعمل المصريون كثيراً التشبيهات ، وأداة التشبيه عندهم كلمة « زى » . فيقولون مثلا أحمر زى البلح ، أزرق زى النيلة ، أبيض زى اللبن ، أخضر زى البرسيم ، أصفر زى الكركم . ويقولون فى وصف الرجل : طويل زى المارد ، طويل زى المادنة ؛ قصير زى العقلة ، رفيع زى السنارة ، تخين زى البرميل ، تقيل زى الدستور ، وهو « حجر معروف » ؛ خفيف زى ريش النعام ، حلو زى الشهد ، مُرّ زى العَلقم ، حادق زى المش ، حراق زى الفلفل ، شديد زى الحصان ، حلو زى المملوك ، حَمُول زى الجمل ، يستحى زى البكر ، تِلِم زى المزين ، أحبه زى عينى ، أكرهه زى الموت . زى اللى أنا اجوزت أمه ، وشه زى القمر ، وشه زى ليالى آخر الشهر .

وقد يحذفون « زى » كما يفعل العرب فى الاستعارة ، فيقولون : نهاره لبن ، نهاره قشطة .

التصغير

للعامة طريقة فى التصغير والتمليح لا تعرفها العرب ، فيقولون فى نفيسة نفوسة ، وفى زينب زنوبة ، وفى خديجة خدوجة ؛ وأحيانا يقولون حبوب لحبيب ، وشطوره ، أى شاطرة وأحيانا يستعملون صيغة المؤنث للمذكر فيقولون : حوشة فى حوش ، أى حوش صغير ، وكباية فى كوب ؛ وأحياناً يضيفون كلمة حتة فيقولون : حتة عيل ، أى عيل صغير ، وحتة قماش ، أى قطعة صغيرة ، وحتة أرض ، أى أرض صغيرة .

التصوف

التصوف كان فى الأصل معناه لبس الصوف زهادة فى الدنيا ، ثم صار فى أغلب الأحيان ، إلا فى القليل النادر ، صناعة لكسب العيش .

وتتطلب هذه الصناعة عمامة خضراء وسبحة طويلة غليظة ، والتظاهر بذكر الله ، ودعوى مخاطبة الأولياء والاتصال بهم عن

طريق الروح . وقد ذمهم كثير من الناس ومن الشعراء .

وقد انتقد الجبرتى أعمالهم ، وكلما جاءت مناسبة شنع عليهم ، فيقول مثلا :

« فى سـنة ١٢٥٠ فى عمارة مسجد زين العـابدين ، على يد عثمان أغا قال : فعمّره وزخرفه ، ونادى على أهل الطرق الشيطانية المعروفين بأرباب المشايخ ، وهم ينسبون أنفسهم للأحمدية والرفاعية والقادرية فاجتمعوا بأنواع الطبول والمزامر والبيارق والخرق الملوّنة ، حتى ملأوا الأسـواق ، وساروا ، ولهم صياح ونباح ، وجلبة وصراخ ، وهم يتجاوبون بالصلوات ، والآيات يحرفونها ، ونداء أشـياخهم بأسمائهم كقولهم : يا هو يا هو ، يا بدوى ، يا دسوق ، يا بيومى ؛ والأغا راكب معهم ، والفقهاء المعممون ؛ والطبول تضرب ، والستر المصبوغ مركب على أعواد من الخشب وحوله الرجال والنساء والصبيان يتمسحون ويتبركون ، ويرمون عليه الخرق والطرح لتحصيل البركة ، ولم يزالوا سائرين على هذا النمط والخلائق يزدادون حتى وصلوا إلى ذلك المشهد » .

وسمعت فى زمننا أن شيخاً كبيراً من مشايخ طرق الصوفية أعطته وزارة الأوقاف أربعمائة جنيه ليصرفها على الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فحجز عليـه لأن تاجراً مشهوراً حجز عليـه بدين له ثمن صناديق مشروبات روحية .

هذه طائفة كبيرة من المتصوفين . ولسنا ننكر أن هناك طائفة قليلة صدقت نيتها ، وزهدت فى الدنيا ، ولـكنها لا تحب أن تُعرف ولا تُعلن عن نفسها بشىء من هذه الألاعيب ، إنما قصروا علاقتهم على ربهم وأخلصوا له ، وباشروا أمور الدنيا كما يباشرها رجال الدنيا ، وقصروا تصوفهم على قلوبهم ، وقليل هم .

التعذيب

نذكر هنا أنواع التعـذيب التى كان يستعملها الأتراك فى عهـد ولايتهم ؛ فمنها الخازوق ولم أره ، والشنق والضرب بالسيف ، والصلب ، والخنق ، والضرب بالـكرباج على الرجلين والظهر . وكان بعضهم يأمر بإذابة الملح ووضعه على مكان الضرب نكاية للمضروب .

ومما يروى أن تركيًا اتهم أمَة له فأنكرت ، فأمر بوضع الجمر على كفيها وعمل القهوة على الجمر حتى تعترف .

وأحياناً يضعون يدى المتهم فى الفلقة ويأمرون بضربهما بالـكرابيج ، وأحياناً

يستمرون فى ذلك حتى تقع أصابعه وكفوفه من الضرب . ومنهم من يضع بوقاً فى فم المتهم ثم يأمر بسقاء ذى قربة فلا يزال يصب فى البوق حتى تمتلئ بطنه ويقع ، وبعضهم يغلى الماء ويصبه على المتهم . ومنهم من يقطع أذن المتهم أو أنفه أو يقلع عينه . ومنهم من يغلى « الزفت » ويصبه على رأس المتهم . ومنهم من يعرى المتهم ويربطه بجذع شجرة طول ليلة شاتية . وبعضهم يستعمل التخشيب ، وهى قطع ضخمة من الخشب يفصل بينهما ، ويوضع المتهم بينهما ثم يطبقون القطعتين ويسمرونهما . وأكثرها تعذيباً الضرب بالكرابيج كما يأمر الحاكم التركى ، من خمسمائة زوج أو الألف ، أو ألف وخمسمائة . واشتهرت فى ذلك الكرابيج الزعر ، وهى القصيرة المقطوعة الطرف ، ويصفون الرجل بأن كرابيجه زعر .

ومن ذلك الزخم الجلد . ومن المصريين من كانوا يقلدون الأتراك فى هذه الأعمال ثم قضى عليهم . ومن التعذيب إركاب المتهم على حمار بالمقلوب ، أى وجهه إلى وراء الحمار ، وأمامه الطبل والمزمار ، والأطفال تصفق وراءه ، ويوكل به من يلطشه . وهذا ما يسمونه « بالتجريس » ومن ذلك ربطه بالحبال وجرّه إلى مخزن القاذورات بالمساجد ، ونتف الذقن شعرة شعرة ، والتعريض للشمس طول النهار فى أيام الصيف .

التعصب

فى بعض المصريين نوع من التعصب شديد ، كالتعصب لقومه أو لبلده أو دينه . ومن عهد قريب كانت كل قرية تنقسم إلى حزبين : سعد وحرام . وبينهما حروب ومشاجرات ، حتى كان الفريق لا يستطيع أن يسكن بجوار الفريق الآخر ، فأحيانا يفصل الحكام بينهما بشارع ، وأحيانا ببلدة قد صارت خراباً من كثرة القتال .

وقد تبرأ قسم حرام من هذه التسمية ، لأنه لما سقطت دولتهم سمى كل لص حرامياً ، فكانوا يسمون فى الشرقية بالنعامنة . ويحكى أن امرأة من النعامنة هؤلاء ذهبت إلى ساقية لتملأ جرتها فأراد أحد السعديين أن يعتدى عليها فصرخت ، فجاء النعامنة وتجمهروا على الرجل حتى قتلوه ، وقام السعديون لأخذ الثأر وهكذا . وكان هناك تعصب آخر يشبه هذا ، وهو التعصب لأبى زيد الهلالى وزغبة ، وكان هناك محدثون يطوفون بالبلاد ، منهم من يحفظ سيرة أبى زيد ، ومنهم من يحفظ سيرة زغبة ، وتنصب للمحدث نصبة وتتلى فيها

الأشعار ، فإذا انتصر أبو زيد فى حروبه جمت النقطة له ممن يتعصبون لأبى زيد . وأحيانا يقع الفريقان فى قتال من أجل تعصب كل فريق لصاحبه . ولما جاءت المدنية الحديثة تعصب كل فريق لحزبه مع العداء الشديد بين سعدى ووفدى وحُرّ دستورى ، من غير عداء بين المبادىء ، وإنما هو تعصب بين الأشخاص من غير مهادنة ولا مسالمة ...

ولما جاءت الحرب الأولى وحارب الإنكليز والفرنسيون والأمريكيون من ناحية، والألمان والإيطاليون من ناحيـة أخرى ، تعصب أكثر المصريين للألمان ، وذلك لأن الأتراك المسلمين كانوا بجانب الألمان .

والتاريخ من عهد هيرودوت إلى الكندى إلى الجبرتى يصف مصر بأنها بلد العجائب والغرائب .

التعميرة

التعميرة فى لسان العاميـة عبارة عن غابتين ركبتا على جوزة من جوز الهند أو شبيهها ، ثم يوضع على إحدى الغابتين قطعة من الفخار أو نحوه ملئت جمراً ووضع على الجمر (تمباك) أو حشيش أو حسن كيف (انظر حسن كيف) فيأخـذها الشارب ويتنفسها حتى تحترق المادة المذكورة فى الجمر . وفى العـادة خصوصاً فى الحشيش يتبادل الحرّيفون الجوزة حتى تنتهى . وفى أمثالهم المشهورة « الـكيف مناقلة » . ثم للحشيش على الخصوص محلات خاصة يسمى كل منها « غرزة » يكون فيها الحشيش والجوزات والنار وكل ما يتصل بها ، وأكثرها للعامة وأشباهها . وهناك غرز أرستقراطية خاصة فرشت أحسن فرش ، وهيئت أحسن تهيئة ، يغشاها علية القوم الـكييفون ، وقد استترت عن الأعين بستار كثيف حتى لا يراها البوليس.

ومما يلاحظ دائما أن هذه الجوزات تصحبها النـكت البارعة والنوادر اللطيفة ، لما اشتهر عن الحشيش من تجليته للذهن وتظريفه للحديث .

التغيـيرة

اصطلح أهل الأزهر على تسمية الملازم التى يستعيرونها من كتاب للمطالعة ثم ردها «تغييرة» . وأولاد البلد يسمون البلغة المستعملة أو المركوب المستعمل « تغييرة » . وبعض أولاد البلد اعتاد ألا يلبس إلا البلغة الجديدة فإذا مضت عليها أيام غيَّرها ببلغة أخرى جديدة.

وهناك على العكس من ذلك من لا يلبس إلا « التغييرة » ، وقد يدفع فى ثمنها أكثر من الجديدة ، لأنها وقد قدمت وعاشت دلت بذلك على متانتها وجودتها .

التفاؤل والتشاؤم

يكثر المصريون من التفاؤل والتشاؤم ، فيتفاءلون مثلا بالأسماء كسعد وبخيت ، ويتفاءلون باللون الأخضر ، ويقولون فى دعائهم لمن سكن بيتاً جديداً « جعله الله عليك سلقا أخضر » . ويجتهدون فى أن يدخلوا أول ما يدخلون بشىء أخضر . ويتشاءمون من الأسماء القبيحة مثل «صعب» ويتشاءمون من الإناء الفارغ ويطلقون عليه (ملآن) ، ويتشاءمون أيضاً من الكنس بعد الغروب ومن بيع الإبرة بعد العصر ، ومن الأعور إذا اصطبح به ، وهكذا ... ويعتقدون أن التشاؤم فى ثلاثة وإن لم يقتصروا عليها وهى مشهورة ، كقولهم : أعتاب وأقدام ونواص ، كما ذكرنا . ويقصدون بالأعتاب الدور ، وبالأقدام الماشية . فحمار سعيد يجلب السعادة ، وحمار شقى يجلب الشقاء . وكذلك الغنم ، ويقصدون بالنواصى الخيل . وليس الأمر متعلقا بالجمال والقبح ، فقد يكون الشىء جميلا وبخته سيىء ، وقد يكون قبيحا وبخته حسن . ويتفاءلون ويتشاءمون خصوصاً إذا رأوا القمر على وجه إنسان سعيد تفاءلوا أثناء الشهر ، أما إن رأوه على وجه إنسان شقى شقوا به طول الشهر كذلك . والناس عندهم قسمان : وجوه سعيدة ، ووجوه شقية ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة . ويتشاءمون أيضاً من صوت البوم بعكس صوت الحمام أو اليمام . فالبوم إذا تغنى فذلك نذير الخراب . ويكرهون أيضاً صوت الطاووس . ولا نطيل فى ذلك ، فلهم فى التفاؤل والتشاؤم أمور كثيرة .

التقريفة

يصاب الإنسان أحياناً بميعان النفس ، وميلها إلى القىء ، وذلك قد يكون لتحرك العفونة أو من النظر إلى شىء مستقبح ، فهم يعالجون ذلك بالليمون الحامض أو يعلقون شيئاً أصفر على رأسه يتدلى أمام عينيه ، ونحو ذلك .

تلاوة القرآن

اشتهر أبناء مصر بحفظ القرآن ، فيبدأ فقهاء الكتاتيب بعد تعليم القراءة والكتابة أن يحفظوا القرآن فى اللوح ، فيحفظ الطفل ما فى استطاعته طوال الأسبوع . ثم لسيدنا يومٌ يسمع فيه للطفل الماضى . ولا يزال كذلك حتى يتمه .

وبعض الناس يتخذ تلاوة القرآن حرفة ؛ فيقرأ فى البيوت كل يوم جزءاً ، ويقرأ على المقابر أيام الأعياد ويقرأ فى المآتم ، وبعضهم إذا ساءت حاله يقرأ فى

الشوارع ، وخصوصاً العميان منهم . وكثيراً ماترى فى الشوارع بعض الفتيات المكفيفات يقرأن القرآن .

ويعتقد المصريون أن قراءة القرآن من الفقهاء فى البيوت أو فى الدكاكين يجلب إليها البركة ويبعد الشياطين . والعلماء يلجأون إلى قراءة القرآن عند الحرب أو عند نزول كارثة بالبلد .

وتجد فى بعض المساجد والأضرحة طاولة عليها مصاحف القرآن قد وقفت على من يريد أن يقرأ منها .

ولما انتشر الراديو وكان من نظامه قراءة فقيه فيه فى الصباح قلت عادة إحضار الفقهاء للقراءة فى البيوت .

وقد اعتاد الأغنياء والمتوسطون أن يحضروا فى رمضان فقهاء يقرأون القرآن إلى السحور كل ليلة .

وإذا مات ميت أحضر بعض النساء لقراءة القرآن على النساء صباحا ، وأحضر الفقهاء من الرجال لقراءته على الرجال عصراً وبعد العشاء مدة ثلاث ليال . كما أن الميت قبل أن يدفن يستحضر بجانبه فقيه يقرأ عنده القرآن إلى أن يدفن .

ومن أسباب حضور الفقيه أن النساء يمتنعن عن الولولة والعويل متى قرئ القرآن ولذلك يستعان على صدّهن عن الولولة والصراخ بإحضار الفقيه . والفقيه أيضاً يقرأ فى المسجد كل يوم جمعة قبل صلاتها سورة الكهف . وفى الحفلات الكبيرة كثيراً ما يدعى فقيه يقرأ قبل الخطباء عَشْرًا من القرآن ، كما يقرأ فى آخر الحفل ، سواء كانت الحفلات حفلات فرح ، أو تأبين ، أوحفلات سياسية . وكان العميان يكاد يتحدد موقفهم ومستقبلهم بحفظ القرآن وقراءته ، وإذا منح القارئ صوتاً جميلا كان ذلك باب رزق له كبيراً . وقد اشتهر بعض الفقهاء بحسن الصوت فاستدعوا للمآتم والأفراح والقراءة فى الراديو ، فدر عليهم ذلك مالا وفيراً ، وهم يستدعون أيضاً للقراءة فى الأرياف للمناسبات .

وقد اعتاد الفقهاء فى المآتم والأفراح أن يقرأوا جزءاً من سورة البقرة عصراً ، وأن يقرأوا سورة يونس وهود ويوسف والرعد والحجر والنحل والإسراء بعد العشاء ويختموا بالسور القصار .

التمثيل

جاءت من الشام إلى الإسكندرية فرقة تمثيل عربية برياسة الشيخ خليل القبانى ، ومثلت بعض تمثيليات منها رواية « نكران الجميل » و « هرون الرشيد » . وكان هذا التمثيل بدائياً ، فلم يسمح بظهور النساء على المسرح ، فكان إذا اضطر الممثل لتمثيل امرأة اختار شاباً من الشبان ليمثل المرأة .

وقد مثلت كذلك روايات كان قد عربها المرحوم محمد عثمان بك جلال من فولتير وغيره ؛ وارتقى التمثيل ببناء الخديوى إسماعيل الأوبرا ، ودعوة فرقة إيطالية لتمثيل رواية وضعت لهذا الغرض ، وهى التى تسمى « عايدة » كما ارتقى فيما بعد على يد فرقة قومية . ومن التمثيليات ما اشتهر من تمثيليات ابن دانيال الموصلى قديماً .

فقد امتاز ابن دانيال بفنّ طريف وهو التمثيليات المسرحية . ومما يؤسف له أن مؤرخى الأدب العربى لم يُعنَوْا بتاريخ هذا الفن مع أنه أصل من أصول الأدب . وكانت تمثيليات ابن دانيال تمثل على خيال الظل ، وكانت تسلية للطبقات السفلى ، ولكن لم يمنع هذا من عرضها على الكبراء ، تنتقل إليهم ، ولا ينتقلون إليها . فحكوا أن صلاح الدين كان يرى هذه التمثيليات ومعه وزيره القاضى الفاضل ، وأن السلطان سليمان الأول كانت تمثل أمامه تمثيليات فى خيال الظل ، وكذلك الخديوى توفيق .

وشاع أن خيال الظل كان سائداً منتشراً منتشراً فى أيام المماليك ، وروى الشىء الكثير عنه ابن إياس .

وقد أخذ السلطان سليم أحد الممثلين لتمتيع ابنه به وهو الذى صار بعد ذلك سلطاناً ، وهو السلطان سليمان .

وقد وجد الباحثون بعض هذه التمثيليات فى بعض قرى النيل الصغيرة .

وكان ابن دانيال يؤلف تمثيلياته باللغة الفصيحة ، ويميل إلى السجع — على نمط مقامات الحريرى — وهى مملوءة أيضاً بالأشعار والزجل .

وقد أمضى بعض المستشرقين الألمان كالأستاذ جاكوب سنين طويلة فى دراسة تمثيليات ابن دانيال . وقد عثر له على تمثيليات ثلاث : الأولى اسمها « طيف الخيال » وهى تصوّر الحالة السياسية والثقافية بمصر على عهد السلطان بيبرس . والثانية رواية « عجيب وغريب » وهى غير المعروفة بهذا الاسم فى السوق ، وهى تمثل سوقاً كبيرة يدخل الممثلون

فيها واحداً بعد واحد ، يعرضون فيها بضائعهم . والثالثة اسمها « المتيّم » وهى تصوّر عشق المتيم هذا لليتيم . وفيها تحريش الديوك بعضها على بعض للقتال ، ونطاح الكباش والثيران . وعلى كل حال تشهد لابن دانيال بالفضل وسعة الخيال ، والقدرة على الفكاهة .

وفى التمثيلية الأولى يعرض المؤلف لعصره وما فيه من المفاسد ، وأمر السلطان بإزالة الفساد ، فصوّر ذلك ابن دانيال بقتل الشيطان . وفى هذه التمثيلية أيضاً إشارة إلى ما حدث فى مصر من وصول الخليفة العباسى من بغداد وتنصيبه خليفة فى مصر ؛ إلى آخر ما هنالك من إشارات إلى حوادث حصلت فى أيام الظاهر بيبرس . فابن دانيال يصوّر تصويراً دقيقاً الحياة المصرية الشعبية فى ذلك العصر ، وهى ناحية أغفلها المؤرخون .

وهو كما قلنا يعنى بالسجع ، فيقول مثلا : « إن الغريب مرحوم ، والمرء يسعى والرزق مقسوم . والمفلس يجمع الدينار ، والصدقة بالحبّة هيّنة على ذوى الأقدار . فاركبوا غوارب الإلحاح ، « يخاطب الشحاذين » والبسوا دروع الوجوه الوِقاح . وتعاموْا مبصرين ، وتطارشوا سامعين . وركّبوا على جلودكم الجلود المسلوخة ، واشربوا نقيع التِّبن ، لتصبح وجوهكم مصفرّة ، وبطونكم منفوخة ... » الخ .

ولكن مع استعماله للغة الفصيحة لا يتحرّج أحياناً من ذكر كلمات شعبية . أما المتيّم ففيها وصف للحب ، وحِيَل المحبين ، فيمثل شخصاً هيّجه الغرام ، وبكى فى انتحاب ، ويقول :

أهلَ الغرام تجمّعُوا
وتوسّلوا وتضرّعوا
موتوا تعيشوا فى الهوى
وتمزّقوا وتقطّعوا
وخذُوا حديثَ متيّمٍ
عمّن سِوَاهُ أو دَعُوا
صبٌّ سماه دُمُوعه
من صبّها لا تُقلِع
لم يبق إلا أضلُعٌ
من سُقْمِهِ تتقعقع
وَادِى العَقِيقِ بجَفْنه
والدمع منه يَنْبُع

ثم يقول :

« أوّاه أوّاه .. وا حُبّاه .. وا قلباه ..! المتيّم مسكين . . جُرِح من غير سِكّين . . من أرسل ناظِرَهْ . . أتعَبَ خاطِرَهْ . . والعاشق كل شىء يذكّرهْ . . لَمَعَانُ البرق

يؤرِّقه . . وإذا دنا الليل منهْ . . يهربُ النوم عنهْ . . » الخ .

* * *

وعلى كل حال وُجد واضعون للروايات قبل ابن دانيال و بعده ، وما أحقها بالتاريخ ، فإنها تضيف باباً لطيفاً إلى أبواب الأدب المعروفة . (انظر ابن دانيال)

تنبل

يطلقونه على البليد الكسلان . والكلمة فارسية . وقالوا : تنبل ، واشتقوا منها فعلا ، فقالوا : تَنْبَلَ الرجلُ ، أى تبلَّد .

تنميل الرجل

ورمش العين ، وأكلان الكف

هى حوادث طبيعية ، ولكن العقل الخرافى يجعلها علامة لأشياء ، فإذا رمشت العين اليمنى دل ذلك على خير يحدث ، و إذا رمشت العين اليسرى ، دلت على الشر ، و إذا أحس الإنسان بأكلان فى كفه اليمنى زعم أنه سيسلم على أحد ، و إذا أكلته يده اليسرى ، دل على أنه سيقبض فلوساً من أحد ، وهكذا .

حرف الثـــاء

اعتاد المصريون أن ينطقوا الثاء تاء وأحيانا سينا ، فيقولون تقيل فى ثقيل ، والتار فى الثأر ، وكقولهم سواب فى ثواب ، وهكذا . ولذلك لم نذكر شيئاً من الكلمات المبدوءة بها

حرف الجيم

جابر

ينادى المصريون على لحم الرأس بياجابر، وهم يحملون طبلية فيها لحم الرأس وخبز وطرشى. وكل من سمع يا جابر، فَهِم أنهم يبيعون لحم الرأس. ولا أدرى سبب هذه التسمية، إلا أنى رأيت فى نوادر أبى زيد أن الخبز اسمه جابر، وأنهم ينادون عليه يا جابر، فهل هذا هو السبب؟ أو هو نداء باسم الصحابى المعروف؟ ولماذا؟ لاأدرى... وأما البطاطة فينادى عليها بسيدى جابر، لأنها تجود فى الأرض التى حوله.

الجَبَا

يستعملها العامة بمعنى هدية، فإذا دخل القهوة رجل وكان فيها من يعرفه فإن ذلك الصاحب ينادى صاحب القهوة ويأمره بأن يعطى الداخل القهوة على حسابه، فيقدمها صاحب القهوة ويضعها أمامه ويقول له بصوت مسموع: جَبَا من فلان! فيقول هذا فى الحال: عاش الجَبَا وصاحبه.

ويقولون: «أنا باطلب منك حقى. مش باطلب منك جَبَا»، ويقول الرجل لآخر: إنت جبيت علىَّ إمته؟ مالكش جَبَا علىَّ... الخ.

جحا

ليس يهمنا إن كان جحا شخصاً تاريخياً أو خرافياً، تركيًا أو مصرياً، فهو على كل حال شخصية فى أذهان المصريين، من أهم عناصرها أنها مضحكة حكيمة. ومن عهد قديم نسبوا إليها كل ما يصدر عن للمصريين الفكهين المجربين من حكايات ونوادر. وكم ملأ جحا المجالس والمسامرات بحكاياته الرائعة ونكته اللاذعة. فإذا صادف أحدهم أن حكى حكاية من حكاياته أتبعه الآخر بحكاية أقدح منها وهكذا. وكل من جرّب تجربة فى الحياة واستطاع أن يصوغها فى قالب فكاهى وضعها وحكاها، ونسبها الناس إلى جحا وتناقلوها عنه فيما بعد.

ومن اللطيف أن حكاياته تؤثر فى أعمال الناس، كما كان الشعر يؤثر فى الحياة العربية، فمن تردد فى أمر أيعمله أم لا يعمله ذكر حكاية من حكايات جحا لخمسته أو أقعدته. ولجحا كتاب منسوب إليه مملوء بالحكايات عنه. وقد طبع مراراً.

جــدع

يقولون للشاب إذا كان ماهراً ذا مروءة : « جدع » وأصله : جذع . وهو من النوق ... ويجمعونه على جدعان .

وفى القاهرة طائفة ممن اشتهروا بالمهارة فى الضرب وانقطعوا للحماية من استجار بهم يسمون « جدعان » مثل « الصعاليك » عند العرب . ويخشاهم البوليس وقد يغض النظر عنهم . ومنهم من يفتح قهاوى للحشيش . وفى الغالب يكونون أهل مروءة قد تحتمى بهم المومسات والحشاشون والأفرنج من أصحاب القهوات ونحو ذلك . ويظهر أنهم كانوا طائفة كبيرة ذكرهم الجبرتى كثيراً فى تاريخه ؛ وذكرهم على الخصوص عند ذكره « كفر الطماعين » و « كفر الزغارى » وقال إن سكانهما يميلون إلى التعصب والتخريب ويسمون «فتوات» . ويتحالفون على المغالبة والمضاربة بالعصى ، وكل طائفة منهم لها كبير يدعونه العم ، ويناديه كل منهم « ياعمى » وهو يدعوهم بالمشاديد ، يتبعونه إذا نازل خصومه . وعندهم أن السجن شرف ومروءة يتفاخرون به . وقد يوعز الجدع منهم إلى صديق له أن يفعل فعلة يسجن عليها ليستأنس به فى السجن . ويتحاشون أن يغازلوا فتاة إذا عرفوا أنها صديقة أحدهم . حُكم على واحد منهم ، بالسجن شهرين ، فلما دخل السجن ورأى ما فيه من الراحة والنظام ، ورأى كثيراً من أصحابه ، تشاجر مع أحد السجانين رغبة فى طول المدة . وقد قيل لرجل منهم وهو ذاهب إلى السجن : كيف فعلت هذا مع أنك غنى تستطيع الإنفاق على نفسك فى بحبوحة ؟ فنظر إليه نظرة ازدراء وقال : إن الله أمدنى بالصحة والقوة ، فكيف لا أستعمل مواهبى فيما خلقت لها وهى الضرب والعبث ؟

جدوار

نبت يأتى من الهند ، ويذكر كثيراً فى كتب الطب كتذكرة داود وابن البيطار . وهو مخدر كالحشيش ، ويستعمل بدله إذا غاب ، ولكنه أشد منه ، فيصاب متعاطيه بالذهول والغيبوبة

الجديد

لعبة يلعبها الأطفال خصوصاً ، وهى أن يوضع شىء فى إحدى اليدين بطريقة إخفاء ، ثم يسأل عنها اللاعب الآخر ، فإن عرفها أخذها ولعب بها ، وإلا كان للاعب الحق فى أن يضربه .

ويطلق على نوع صغير من العملة

المصرية فيقال : ليس معه ولا جديد . ويظهر أن هذا الاسم أطلق عليه فى أول العهد بضربه ، ثم بقى استعماله حتى بعد أن قدم .

الجراية

هى خبز من القمح كان يوزع على مجاورِى الأزهر وعلمائه ، فبعض المجاورين والعلماء لهم مقدار معين من الخبز كل يوم ، من ثلاثة إلى أكثر ، يذهب كل يوم ويتسلمها . وبعضهم بعد استلامها يقف على بعض أبواب الأزهر ليأتدم بثمنه أو يدخره .

وقد بطل هذا اليوم ، وحل محله قليل من المال يعطى بدلها . وقد استعار بعض الناس هذه الكلمة فأطلقوها على كل مرتب معين ، كالخباز يحضر راتب الخبز ، والجزار يحضر راتب اللحم ، وهكذا .

الجَرَب

مرض معلوم يداويه المصريون بالكبريت المسمى بكبريت العمود ، يدقونه أحياناً ويضيفون عليه السكر ويتعاطونه . وبعضهم يجعل من مسحوقه مرهماً . ويصيب الجمال أيضاً ويسمونه « حك » . وقد كان هذا المرض منتشراً فى القاهرة بسبب القذارة ، وعدم الاحتياط فى الاختلاط .

وكان شائعاً عندهم أن منشأ هذا المرض الجامع الأزهر لكثرة ما فيه من الأتربة والقمل والبق .

وفى سنة ١٢٩٣ انتشر هذا المرض فى القاهرة بشكل وباء ، ونسبوه أيضاً إلى الأزهر ، وكان يعم كل من فى البيت أحياناً . وكان السودانيون إذا أصيبوا به ، وظهرت قروح على أيديهم يأتون بشقفة فخار ويحكّون جلدهم بقوة ، حتى يسيل الدم ويسلخ الجلد ، ويأتون بملح ناعم ويذرّونه عليه ، ويربطونه بشاش ، وبعد أيام يجف الملح ، وتجف القروح . . . وهو علاج فظيع .

الجَرَّة

اعتاد المصريون أن يكسروا جرّة أو قلّة وراء الخارج من البيت أو المسافر إذا كان مكروهاً . ويقولون : « كسروا وراه قُلّة » . ويعتقدون أنهم إذا فعلوا ذلك فلن يعود . واعتاد بائعو الترمس والفول (المِقيلى) أن يصففوا على عربتهم قللاً صغيرة لمن يريد أن يشرب كأنها سبيل لله ، كما اعتاد بائعو حب العزيز أن يبيعوه بزفّة . وقد كان من عادة بعض الناس أن يصففوا أمام بيوتهم

قللا نظيفة ملأى فى رمضان ليشرب منها المارون وقت الإفطار . وشبهوا الكمثرى بقلل الشربات ، فقالوا : «زى قلل الشربات يا كمثرى» ، كما شبهوا التين الشوكى بكيزان العسل ، وجنبة البلح ببير العسل . واشتهرت قنا بالقلل إذا حرقت تكون ذات مسام واسعة ، تساعد على تبريد الماء . وكان بعض الناس يبيع قلل سمنود على أنها القلل القناوى ، فإذا ضبط ذلك المحتسب أوقع العقوبة على البائع .

ويحكون أن أحد الأتراك وهم من طبعهم حب السلطة ، أحيل على المعاش ، فأتى ببعض القلل يسقى بها الناس إحساناً ، فإذا أراد رجل أن يشرب من قلة زجره وأمره أن يشرب من الأخرى ، إظهاراً لسلطته ليس إلا . وأهل الشام يقولون : « زى قلل مصر لا كسم ولا خصر » . وكان للمصريين عناية بالقلل تدعك كل يوم بالرمل ، وتنظف وتوضع فى صينية الماء . وتوضع الصينية فى المشربيات لتبرد .

وكثيراً ما كانت تملأ من الأزيار لتزيد برودتها .

الجزّار

فى ليلة العيد الكبير ، وفى صبحه بعد صلاة العيد تسمع منادين : جزّار ، جزّار ؛ يناديهم الناس ليذبحوا ضحية العيد . وبعد ذلك بقليل تسمع منادين آخرين ينادون : فروة للبيع ، جلد للبيع . فيشترون جلد الخروف المسلوخ وفروته بثمن بخس .

وقد جرت عادة لطيفة ، وهى أن يتبرع المضحون بها لجمعية الإسعاف ، وهم يبيعونها بأثمان معتدلة تضم إلى مالية الجمعية . وهذه الفراوى والجلود تدبغ فى المدابغ العامة . فتستعمل الفراوى فى البيوت للجلوس عليها شتاء ، أو تحت أرجل المترفين فى السيارات . أما الجلود فتدبغ لاستعمالها فى النعال .

الجرسة

تستعمل فى اللغة العامية بمعنى الفضيحة . يقولون : « دى تبقى جرسة وهتيكة » . وقد كانت فى الزمن الماضى إحدى العقوبات ؛ فكان الحكام الأتراك إذا أرادوا التشهير بمذنب أركبوه ووجهه إلى ذيل الحمار ، ويصيح الأطفال صيحات مناسبة ، فإن كان لصا جعلوه يمسك الحلى أو النقود التى سرقها ويقولون : الحرامى أهوه ... ونحو ذلك ...

وإذا كانت الجريمة زنا ، شهروه بكلمات تدل على عمله .

ويظهر أن الكلمة مأخوذة من الجرس ، وهو الصوت .

وقد انصرفت الكلمة فى هذه الأيام إلى التشهير بالمجرمين فى الجرائد الهزلية بذكر أسمائهم وأفعالهم .

الجزع

يستعملونها أحياناً بالمعنى اللغوى وهو شدة الحزن ، وأحياناً يستعملونها استعمالا آخر فيقولون : جزعت نفسى ، أى جاشت . وهم يداوون هذا الجزع بليمونة ، قد يضيفون قليلا من الملح أو من غير الملح بها . ويداوونه أحياناً دواء خرافيا ، وذلك أن يضعوا قشة فى لباس رأس كعمامة أو طربوش أو طاقية ويأمروا صاحبه بتحديد النظر إليه ، يقصدون بذلك أن يحصر نفسه فى النظر إليها من غير أن يفكر فى هذا الجشيان .

وأما الجزع بالمعنى الأول فهو ظاهرة من ظواهر المصريين نتيجة للغلو فى العاطفة ، سواء فى السرور أو الحزن ، فإذا فرحوا (هيّصوا) وأنفقوا كل مالديهم . وقد يستدينون لإظهار فرحهم ... وإذا حزنوا أفرطوا فى حزنهم حتى بلغوا حد الجزع ، وأقاموا المآتم وبالغوا فى النواح . ولذلك قال بعضهم : « ثلاثة تشق بها الدار : العرس ، والمأتم ، والزار » .

جعيـــدى

الجعيدية ، طائفة تطلق عليهم هذه الكلمة ، ولا أدرى من أين جاءت . وهى طائفة سافلة حقيرة من الناس ، صناعتهم غالباً الشحاتة ، يسير اثنان مع بعضهما فى الغالب ، أحدهما يحمل دربكة صغيرة ، والآخر يحمل « صاجات » ، ويلبسان ثوباً قصيراً لايتجاوز الركب ، حفاة بلا سراويل ، وعلى الرأس إما طربوش قديم أو عمامة قديمة أو طاقية قديمة ، ويغشيان المحلات ، أحدهما يطبل على الدربكة ، والآخر على الصاجات ، ويغنيان أغنيات خاصة أكثرها بذىء .

ومن هؤلاء طائفة تسمى الأدباتية ، وهم يقولون زجلا لطيفاً بعضه محفوظ وبعضه منشأ إنشاء يناسب المقام . وقد ينشئون زجلا فى موضوع خاص فيجيدون فيه .

وقد يلبسون طربوشاً ويحركون زره حركة دائرية ليثيروا الضحك .

ومن أقوالهم المشهورة :

أنا الأديب الأدباتى

أحب العيش تحت بطاطى

وقد حدثت حادثة كبيرة مع السيد عبد الله نديم رواها فى مجلته « الأستاذ » ، وقال إنه نازلهم وتصدى لرؤسائهم وتحداهم ، وقد كان جالساً فى المولد الأحمدى ، فجاء بعض هؤلاء الأدباتية ، فقال لهم النديم صارفا لهم : أقول لك امش ماتمشيش

يطلـــع علىّ حشيشى

وما زال بهم حتى صرفهم . و بلغت القصة مدير الغربيـة فجمعهم فى حفل كبير وساجل بينهم ، فغلبهم النديم حسبما روى .

وأحياناً يستغفلون الناظر إليهم بألعابهم فيسرقون ما معه .

قال لى صديق : إن شابا يعرفه كان جالساً على القهوة فجاء بعض هؤلاء الأدباتية فلعبوا أمامه ألاعيبهم ثم استغفلوه وسرقوا كيس نقوده وفيه مائتا جنيه ، فسقط الشاب مغشيا عليه ، فرآه رجل فسأله عن قصـته فحكاها له ، فطمأنه .

وكان الرجل صـديقاً لشيخ الأدباتية فأخذ الشاب وذهب به إلى حى السيدة زينب وقصد معه إلى شيخ الأدباتية فوجداه فى منزل ضخم ، ودعاهما إلى الغداء ، وغداهما أصـنافاً مختلفة من الطعام ، حتى إذا جاء المغرب حضر أدباتية البلد فاستوضحهم وسألهم عن الكيس فأحضروه له ، فسلمه لصاحبه ، وأراد المسروق منه أن يعطى شيئاً للرئيس فمنعه صاحبه ، وأفهمه أنه فعل ذلك مروءة على حسب عادته .

جلاب اليسير

لقب للسيد البدوى ، يزعمون أن من خصائصه أنه يذهب إلى بلاد الكفار حيًّا و بعد وفاته ويجىء بمن عندهم من أسرى المسلمين . و يصعد خدَمَتُه إلى مئذنته صباحا فيجدون هؤلاء الأسرى فوقها ، وفى أيديهم وأرجلهم سلاسل الحديد . ولتأكيد ذلك يكون فى مولد السيد عشرة أو أكثر لابسون البياض وفى أيديهم أو أرجلهم الأغلال ، يدّعون أنهم أسرى السيد . و إذا استغاث أحد بالسيد قال : ياباب النبى يا سيد ، يا جلاّب اليسير يا سيد !

الجلّبية الزرقاء

أكثر لبس العامة الجلاليب الزرقاء . وهى عبارة عن بفتة مصبوغة بالنيلة فتكون زرقاء . حتى يطلقها بعض الإفرنج على أهل الجلاليب الزرقاء . وأكثر من يلبسها الفلاحون الذين يعملون فى الغيطان .

الجـــلة

كانت الجلة ولا تزال هى وقود الفلاحين يطبخون عليها وعلى عيدان الذرة ويحمون بها الأفران . وهى عبارة عن روث البهائم مخلوطا بالتبن .

ومن غريب الأمر أنهم كانوا يبيعونها فى القاهرة ، يضعونها فى جنبتين على الحمار وينادون عليها بالجلّة الصيفى ، أيام كان الناس يعجنون بأنفسهم ويخبزون فى أفرانهم الخاصة ، قبل أن يطاف بالخبز على البيوت .

الجلجلوتية

هى قصيدة من العزائم السحرية ، يعتقدون أن من قرأها قضيت حاجته .

(أنظر تسخير الجان) .

الجمل والغزالة

قصة مشهورة منظومة شائعة بين العامة فى ذكر معجزة من معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام . أولها :

فى أول القول مدحك يا نبى استفتاح .
يا من تسلم عليك الشمس كل صباح .
نطق الجمل والغزالة واسلم أبو مسعود .
على يد ابن رامة صفوة المعبود ...
كان النبى والصحابة جالسين صفين .
مجتمعين بابن رامة سيد الكونين .
إلا أتام جمل يبكى بدمع العين ...
نطق وقال السلام منى عليك يا زين .
قال له عليك السلام يا جمل مالك .
لابد ماجيت تشكى من عيا حالك . الخ القصة .

الجنـــازة

أحياناً تطلق هذه الكلمة على جمع من النساء يجتمعون فى بيت الميت للبكاء والعويل والولولة والصياح واللطم وخمش الوجوه ، ويسمى المأتم . وأحيانا تطلق الكلمة على مجموع السائرين بالنعش فى الطريق ، فقهاء ومعزين . ومن عادة المصريين وخصوصاً المصريات الغلوّ فى عواطف الفرح والحزن . فكان إذا مات رجل عظيم فكل نساء بيته يغطين رؤوسهن بالأسود وأوجههن بالوحل أو بالنيلة ، وهى عادة قديمة ذكرها هيرودت عن المصريين القدماء فى تاريخه .

فهن يكثرن من الدفوف والدق عليها بنغمات خاصة ، والقرع على الصدور بالأيدى . وقد يضربن صدورهن بالأحجار ، ولا يلبسن الملابس إلا إذا كانت سوداء .

وإذا كان الميت عزيزاً صبغن كل غطاءات الفراش والوسائد بالسواد ، وقلبت

البسط والسجاجيد ، ووضع وجهها على الأرض . والنجف والشمعيدانات تلف بقماش أسود . وتستدعى طائفة من النساء تسمين المعددات وتغنين أغانى مخصوصة بنغمات حزينة . وتمتنع الزوجة إذا مات زوجها عن اللحوم .

وإذا كان للميت فرس كان يركبها يقص ذنبها ويوضع الشعر على السرج ، وتقاد أمام النعش .

ومن اعتقادهم أن روح الميت تبقى بجوار الجثة وهى فى البيت قبل الدفن لا تفارقها

ولا يصح إدخال السمك ولا الفاكهة فى بيت الحزن إلا بعد الأربعين ، ولا يصح أن يوضع السكر على القهوة أيام المأتم ، ولابد من إضاءة السراج مدة ثلاثة أيام فى الحجرة التى مات فيها . ولا بد أن يفرش النعش تحت الميت بشىء كلحاف ونحوه . وإذا كان الميت من الأغنياء لف النعش بشال من الكشمير . ولا بد أن يكون ماء الغُسل والصابونة والليفة التى يغسل بها الميت من خارج البيت . ويفرش فى المقبرة حيث يوضع الميت حناء ، إذا كان الميت عزيزاً أو غنياً .

وإذا قورن مانسمعه من ضبط بعض الإفرنج عواطفهم الحزينة أخذنا العجب ! فقد حكى لى أن أستاذاً ألمانيا كبيراً كان يدرس فى مصر ثم ذهب فى إجازة وأراد مرة أن يتسلق جبلا مع أحد تلاميذه فزلقت رجله ومات . فلما أخبرت زوجته وكان عزيزاً عليها وصادف أن أباها زارها من الريف ليقضى عندها ليلة ، صبرت وكتمت عنه الخبر لئلا ينزعج . وكانت تدخل الحجرة وتغلقها على نفسها وتبكى ، فإذا خرجت إليه لم يشعر منها بشىء غير عادى حتى أتى الصباح فأخبرته ، وخرجت إلى المستشفى وتسلمت زوجها لتدفنه . وأخبرت أن عميد جامعة أمريكية فى بيروت قتل ابنه الوحيد فى الحرب العالمية الثانية ، فلما ذهب بعض الأصدقاء ليعزوه هو وزوجته لم يلاحظوا عليهما أى شىء غير عادى ، فظنوا أن الاسم مغلوط ، وأبوا أن يعزوهما ، حتى لا يقعا فى خطأ ، ثم تأكدوا من أن الخبر صحيح وأنهما هما المنكوبان ، فعجبوا من ضبط عواطفهم .

وكان لنا جارية ومات أحد أقاربنا وكان عزيزاً علينا فحلقت شعرها وظلت أربعين يوماً لا تأكل إلا الزيتون الأسود ، ولا تنام إلا على حجر ، ولا تشرب القهوة إلا سادة ، وتدعى أن فى ذلك وفاء للميت . وقد زال كثير من تلك العوائد اليوم

الجناس اللفظى

يولع المصريون فى كلامهم العامى بالجناس اللفظى يستعملونه فى نكتهم وفى أغانيهم كثيراً مثل قولهم فى الأغانى :

محبكم داب وانتم لم دريتو به
والنار بترعى فؤاده وانتم لم دريتو به

وهى متجانسة اللفظ . ومعنى الشطر الأول أن المحب ذاب من حبه ، وأنتم لم تدروا به ، ومعنى الشطر الثانى أن النار ترعى فؤاده ، وثوبه لم يدر بالنار ... وأعرف صديقاً كان يسير فى الشارع فقابله رجل يعرفه فسأله : ماذا فعل فلان فى الامتحان ؟ قال له : ما نجحش ، فقال : ما أنا عارف . لكن هو عمل إيه ؟ فكانت نكتة ، لأن كلمة ما نجحش ، فسرها بمعنى أنا جحش .

جن

« جنّ » يقال فلان جنّ ، وجماعة جن ، للفرد والجمع ، بمعنى أنه أو أنهم أشرار . ومثله لفظ عفريت ، وعفاريت .

وقد أخذه المصريون من سورة الجن فى القرآن واعتقاد العرب فيهم ، وقول كل شاعر : إن له شيطاناً .

يقول أبو النجم العجلى :

إنى وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

ويزعم الفرزدق أن له شيطاناً اسمه « عمرو » ، ويزعم أعشى ميمون أن شيطانه اسمه « مسحل » وهو يقول فى قصيدته :

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له الخ ...

ويروى لحسان بن ثابت :

ولى صاحب من بنى الشيصبان
فحيناً أقول وحينـا هُوَهْ

وأغلب المصريين وخصوصاً الأطفال والنساء يزعمون أن الجن تظهر بالليل فى صورة كلب أو قط ، والأغلب فى صورة قط أسود ، ولذلك يتحاشون ضرب القطط والكلاب بالليل . وإذا صادف وجود قط غريب بالليل فى بيت من البيوت ، لم يشكّوا فى أنه جن ، وراقبوا حركاته وسكناته ، وفسروا كل حركة بتفسير ، وإذا تقدم القط إلى الأكل من أحد الأطباق فلا يطرد وإن خطف اللحم ؛ ويعتقدون أنه إذا ضربوه آذاهم .

وهم يزعمون أن الجن تفعل كثيراً مما يفعله الناس . فمثلا نسبوا إليها أنها بنت « تدمر » ، ويزعم القطامى أنها تغنى .

ويزعمون أيضاً أن للجن علاقة بالإنس ، فقد يعشق الجنى امرأة ، وقد تعشق جنيّة رجلا ، والفقهاء فى بعض كتبهم فرضوا صحة ذلك . وكنت أعرف رجلا شركسيا ، كثير الصمت ، قليل الكلام ، تبدو عليه كثرة

التفكير ، فكان يزعم أن جنية تعشقه ، وأنها لذلك منعته من التزوج ، وأنه يختلى بها كل ليلة ، وقد قضى حتفه ، رحمه الله ، سا كناً متبتلا معتزلا الناس .

وذهبت العرب إلى أن الجن لا تأكل ، ولكن المصريين يزعمون أنهم يأكلون ويشربون ، ولذلك اعتاد بعضهم إذا توهم أن مرضه جاء من غضب الجن عليه ، أن يذيب فى الماء نوعاً من السكر الأحمر ، فى إناء بعد صلاة العشاء ليلة الجمعة ، ويأخذ المريض ذلك الإناء أو ينيب عنه من يصعد به إلى سطح البيت وهو ساكت لا يتكلم ، ولا يلتفت وراءه وهو صاعد ، ويقلب الإناء بما فيه على الأرض ، ولا يذكر اسم الله وهو يريقه ، ثم يترك الإناء وهو فى مكانه ، وينزل كما صعد ... يزعمون بذلك أن الجن تشربه ، ويكررون هذا الأمر ثلاثة أسابيع على الأقل ، فقد يرضى عنه الجن فيشفى ...

ويزعم المصريون أن الجن قد تتعرض للإنسان إذا سار وحده بالليل ، وقد يتشكل الجنى بشكل حذاء قديم بال ؛ وأن الإنسان إذا لقى الجنى وضربه بسلاح أو رماه برصاصة فأصابته ، يصير نعلا قديماً . ولذلك يكثر استعمال النعل القديم تعويذة أو حجاباً يعلقونها على رأس الخيل أو الحمير أو الجمال ؛ وكثيراً مايعلقون حذاء قديما فى رقبة الأطفال يزعمون أنه يمنع تأثير العين ، ولا يصلح هذا النعل القديم لذلك إلا إذا وجد ملقى فى الطريق ولا يُعرف له صاحب ، وأن يوجد أحد النعلين فقط .

وقد يعتقدون أن سبب المرض جنية سوداء لبست الرجل أو المرأة ، فلا ترضى عمن لبسته إلا بالزار . وفى الزار هذا تدق للجنّى الأسود دقات على نغمات خاصة ، يفقر من أجلها مَن لبسته الجنّيّة ، فيأتى بحركات بهلوانية .

* * *

وعقب تولى محمد على مصر عرف كثير من الأتراك اعتقاد المصريين فى الجن ، فكانوا يلبسون بالليل ثياباً سوداء أو بيضاء ثم يخرجون ، زاعمين أنهم جن ، فيخاف المصريون ويهربون ، فيغتنم الأتراك هذه المسألة ويفعلون ما يريدونه .

وأعرف سيدة مقعدة تعتقد أنه لبسها الجن بسبب أن أحد خدمها ضرب قطاً أسود بالليل ، فعاد القط شديد الصياح ، ثم اختفى فخافت من أن يكون جنيّاً يؤذيها ، وكذلك كان .

وبعض المصريين والمصريات يزعمون فى بعض البيوت أنها مسكونة ، ومعنى أنها

مسكونة أن الجن سكنوها ، وخصوصاً إذا حدثت فى البيت حادثة قتل ، فهم أحيانا يسمعون أنيناً ، وأحيانا يضرب البيت بالحجارة ، ونحو ذلك .

وأعرف صاحباً لى اشترى بيتاً رخيصاً فى المعادى لأنه قتل فيه صاحبه ، فسكنته العفاريت ، فبيع بنصف ثمنه أو أقل .

ويتصل بذلك اعتقاد الناس وخصوصاً النساء بأن العفاريت تتقمص الرجال والنساء فإذا تقمصتهم نطق الجن على ألسنتهم بأصوات غريبـة ، ثم أخبروا على ألسنتهم بأخبار غريبة ، وتنبأوا بتنبؤات مستقبلة .

وكان فى زمننا يكاد يكون فى كل حارة أو جملة حارات شيخ أو امرأة من هذا القبيل

وحدث هذا للشيخ يوسف صاحب المقام المشهور ، فقد تنبأ مرات بأحد المغيبات أمام الوالى ، وصدق فى تنبؤه ، فادعيت له الولاية و بنى له مسجد كبير فى شارع القصر العينى ، ودفن فيه ، واعتقد فيه .

وحدث مرة أن ادعت امرأة أن الجن تقمصوها ، وذلك فى عهد محمد على باشا ، ففتنت الجنود ، وكثر اعتقادهم فيها ، حتى استفحل أمرها ، فخاف محمد على من ذلك فاستدعاها إلى قصره ، وكان الوقت ليلا ، فأمرت بإطفاء الأنوار ، وادعت أنها تحضر الجنّى ، فحضر ، وتكلمت بكلام رجل كأن الصوت يخرج من بطنها ، فأطراها محمد علىّ على فعلها وأمرها أن تقرب منه حتى يقبل يدها ، فلما مدت يدها قبض عليها وأمر بإضاءة الشموع ، فرأى أنهـا هى المرأة ولا جنّى ولا غيره ، ثم أمر بإلقائها فى النيل ، فجزع الجند الحاضرون ، وظنوا أنها ولية وأن هذا الأمر خارج عن الدين ، فقال لهم محمد على : لا تجزعوا ، لو كان الجن معها لأخرجوها من النيل ، ولو كانت مدعية ادعاء باطلا فقد استرحنا منها . فلما ألقيت غرقت واستراح الناس منهـا ، وكان فى حارتنا رجل يسمى الشيخ أحمد الصبان كان يبيع الفحم على باب الحارة ثم عمى وافتقر ، وسكن فى غرفة ضيقة ، فما لبثنا أن سمعنا أن جنًّا تقمصته ، وأنه يبين المخبآت ، ويتكلم بصوت غير صوته الطبيعى فقصده الناس من كل فج ، وصلح حاله .

جنينة الأزبكية

هى حديقة فى حى الأزبكية ، تبلغ نحو اثنى عشر فداناً . وهى الآن متنزّه يتنزه فيه الناس خصوصاً بعد العصر . وتصدح فيها الموسيقى العسكرية يومين فى الأسبوع هما يوم الأحد والجمعة ، ولـكن لها تاريخ طويل ، لا يهمنا منه إلا ما كان قبل عصرنا بقليل .

فقد عاصرت الاحتـلال الإنجليزى ، وتعوَّد الناس الحرية . وصارت كلمة الحرية تجرى على كل لسان ، فـكانت جنينة الأزبكية مظهراً لتلك الحرية التى فهم الناس منها الفجور والخمور والحشيش والقمار .

وكانت جنينة الأزبكية مَراد أصحاب الشهوات . فامتلأت بحانات الخمور والمراقص والمغنين والمغنيات ، وأماكن الحشيش والقمار والفساد ، وأمّها الناس من كل حدب ، حتى كان اسم الأزبكية دالا على الفسق والفجور بأنواعهما ، فما تبلغ الساعة الرابعة بعد الظهر ، حتى يتزاحم الناس على الأبواب للدخول شيباً وشبانا ، ورجالا ونساء يبغون الحظ والانشراح ، وتنتشر فى طرقاتها العاهرات . وبعد غروب الشمس يأخذ الأروام فى ترتيب حاناتهم ، وترى أمام الحانات من يحمل زجاجات الخمر وجوقات المغنين والمغنيات ترد تباعا ؛ فإذا أظلمت الدنيا أضيئت الثريات والفوانيس ، وتأخذ كل جوقة مكانها ، وترص الكراسى رصا ، ويملأ بعض صفوفها النساء العاهرات ، أمام كل واحدة مائدة ، عليها ثياب خفيفة رقيقة ينطقن بألفاظ الفحش ، ويتثنين تثنيا ملهبا للشهوات ، ويملن ذات اليمين وذات اليسار . وكل تخت فيه جمع من الآلاتية تتوسطه امرأة تسمى عالمة ، تظهر دلالها ، وفجورها ، كل بحسب طريقته ، ويقصدها كل ليلة الوارثون ؛ وتنظر إليهم العاهرة نظرة فيها تنهد ليعرف أنه المراد ، فيقع الواحـد منهم فى شركها ؛ وأصحاب تلك القهوات غالبا من الأروام ، فيحضر ويكثر من نعوت الباكويات والباشوية وسعادتك ، فيقول : « بلهجة الآمر ؛ « شوف الست « تشرب إيه ؟ فتطلب الشمبانيا من الصنف الغالى الذى كان فى وقتها يساوى عشرين فرنكا ، أى ثمانين قرشا ، وتشرب منها كأسا ثم تتركها وتطلب غيرها ، باتفاق مع الرومى ، وتصفّ الزجاجات التى طلبت على المائدة ؛ فإذا امتلأت وضعت الزجاجات تحتها . وكلما برعت المرأة كثرت الزجاجات التى تفتح لها ؛ وإذا عجزت المائدة عن الزجاجات من فوق ومن تحت صُفّت مائدة أخرى ، وهكذا . حتى ليبلغ عدد الزجاجات أحياناً مائة زجاجة أو مائتين . فإذا فعل الرجل ذلك أشارت إليه المرأة إشارة شكر . ولا يزال كذلك حتى يفرغ جيبه . وهناك موائد القمار لا ترى فيها كاسبا إلا الرومى صاحب الحان . وكان فى الجنينة جبلاية وبِركة . وفوق الجبلاية قهوة ملئت بالنساء العاهرات جلس بجانبهن الشبان .

وفى مكان آخر جوقة من الموسيقى .

وأما البِركة فكان فيها قوارب تحمل الرجل وخدنه ، والرجل وغلامه . وهنا وهناك تخت آلاتية يجلس فيه المغنّى على شلتة مربعة يتمايل يميناً وشمالا ، واشتهر من هذه التخوت تخت شاب يهودى يسمى داود اليهودى ، لا يتجاوز العشرين إلا قليلا ، جميل الوجه ، بدين الجسم ، وحوله جوقته ، ويغشى هذه الجنينة بعض الأتراك والألبان بغوغائهم وصلفهم ، ويكثر بين العشاق وعشيقاتهن الرسل يحملون الأخبار . ثم أزيلت هذه المساخر بعد أن تدفق فيها ملايين من الجنيهات ، وفسد منها كثير من الشبان والشابات ، وهدمت البركة ، وتفرق حول الجنينة الرواد . وبذلك لعبت جنينة الأزبكية دوراً هاما .

ومن ذكرياتها أن عبده الحمولى المغنّى المشهور ، كان فى نشأته خريج إحدى تلك التخشيبات .

والله مغيّر الأحوال ... فقد مضى عليها زمن كانت مقابر ، وأحياناً كانت مساخر ، وأحياناً كانت مسرحاً للغيد والغلمان ، ومعرضاً للغناء . ثم زالت كل تلك الأحوال .

جهاز العروس

اعتاد المصريون أن يغالوا فى جهاز العروس ، وأن يضعوه على عربات مكشوفاً ، وكلما كانت العربات أكثر كان الزهو بالجهاز أكبر . ولذلك يضعون على العربة مرتبة ولحافاً فقط ، أو بضع مخدّات فقط ، حبا فى التظاهر بالكثرة . وفى أفراح الأنجال ، أى أنجال إسماعيل ، كان جهاز كل من عروس البرنس حسين وحسن منسّقاً فى ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالى للعرض على الأنظار ، من حلى مرصعة بالجواهر والألماس . وقد عرض جهاز العرائس الأربع محملا على عربات تحت حراسة جند ، تتقدمها فرقة موسيقية لإرسالها إلى بيوت العرسان .

الجوقة

يطلقونها على جماعة من الناس ، وعلى الأخص الجماعة يكونون مع المغنّى .

حرف الحـــاء

الحاء

يقولونها مقصورة لزجر الحمير ، والحث على السير ، ويستعملونها أيضاً فى اللغة العامية مقصورة أو من غير ألف للدلالة على الفعل يحصل فى المستقبل القريب .

فيقولون : حاقرأ ، وحا كتب ، وحامشى ، أى سأفعل ذلك سريعاً . وربما كان اختصاراً من كلمة حالا ، أى حالا أكتب ، وحالا أقرأ ، وحالا أمشى .

الحاتى

أصلهم عائلة مصرية ، والحاتى لقب لهم . وقد اشتهر من بعض هذه الأسرة جماعة عرفوا بصناعة اللحم المشوى ، يسمى الكباب ، يصنعونه فوراً عند الطلب ، وينضجونه بسرعة . ومن عوامل نضجه بسرعة أنهم يضيفون عليه بعض المواد كملح النطرون ، ومن غلبة هذه الصنعة عليهم أن صاروا يسمون كل من يصنع الكباب : « حاتى » . حتى اشتقوا أيضاً من الكلمة أفعالا ، فقالوا : «حتاه» ، و «يحتيه» ، بمعنى أكل مخه ، وضحك على عقله ؛ وهذه إحدى الكلمات التى شاهدنا تطورها فى حياتنا ، فانتقلت من اسم أسرة إلى اسم صناعة إلى الدلالة المعنوية .

* * *

ومن لذة الكباب ، أن شبهوا الطعمية به إذا كانت لذيذة ، فقالوا طعمية كباب . وكنت أعرف بائعاً للطعمية لا يرضى أن يقال له هات طعمية ، بل لا بد أن يقال له : هات كباب ، اعتزازاً بطعميته .

ومن مشهيات أكل الكباب إتقان أنواع السلطات ، فسلطة طحينة ، وسلطة لبن وسلطة قوطة الخ ...

وقد صار طعام الحاتى هذا مشهوراً عند المصريين ، كالفول المدمس والطعمية ، والبسارة . وإذا أتى أجنبى وأراد أن يعرف الأطعمة المصرية ، كان فى مقدمتها الكباب الذى يصنعه الحاتى ، والفول المدمس ، والطعمية ، والكنافة .

ومما يتظرف به بعض المصريين أن يجعلوا مائدتهم كلها من هذه الأطباق المصرية البحتة .

حادثتان

خصصتهما بالذكر لأنهما كانتا مؤثرتين في نفسي وفي نفس معاصريّ وفي الرأي العام . وتدلاّن على مقدار حساسية الرأي العام في بعض النواحي دون بعض . الأولى حادثة زواج الشيخ علي يوسف ، وهي حادثة لو وقعت في البلاد الأوربية ما اهتمت بها ، ولا التفت إليها الرأي العام أيّ التفات . . ولكنها كانت في مصر كبيرة الشأن جداً ، حتى أن الرأي العام اهتم بها أكثر مما اهتم بمصائب الاحتلال الإنجليزي ، بل ربما كان الاحتلال قد وسّعها ليلهينا بها عن أعماله فينا . وخلاصتها أن الشيخ علي يوسف صاحب جريدة « المؤيد » تزوج بالسيدة صفية بنت الشيخ السادات ، وهي حادثة تحدث كل يوم ولا تحرك ساكناً ، ولا تلفت ناظراً ، ولكن هذه الحادثة أقامت مصر وأقعدتها ، وملأت الصحف والمجلات ، وحركت مشاعر الشعراء فشعروا فيها ، والمتندرين فتنادروا عليها ، حتى سموا عامها عام الكفء ، كما سموا عاماً قبلها عام الكف . وشغل بها الناس من الخديوي إلى البائع الجوّال . ذلك أن الشيخ علي يوسف ، وهو رجل كهل ، تزوج بنتاً بلغت سن الرشد ، برضاها دون رضا أبيها ، واعترض أبوها على هذا الزواج . فما أهمية هذا الحادث ؟ ولكن لعبت الخصومات السياسية ، فقد كان للشيخ علي يوسف صاحب جريدة « المؤيد » أعداء كأصحاب « المقطم » وجريدة « اللواء » للحزب الوطني ، ومحافظة المصريين على حرمة الزواج وعدم التعدّي على تقاليده المتبعة ، وفراغ عقول الناس جعل هذه المسألة مسألة الرأي العام .

وقد رفعت قضية من الشيخ السادات لطلب فسخ عقد الزواج لعدم تساوي الزوجين في الكفاءة ، إذ هي شريفة من نسل النبي ، وهو ليس شريفا .

واشترك في هذه المعمعة القضاء والسياسة والأدب والأخلاق . فجلسات المحاكم وما دار فيها من مرافعات تطلع على الناس في الجرائد ، والشعراء يضعون المقطوعات الظريفة ، والجرائد الهزلية تنشر النكت اللاذعة ، والباحثون يبحثون في سلسلة نسب الشيخ علي يوسف ، هل هو من الأشراف أو لا ، والشيخ علي يوسف يدّعي الشرف ، ويستخرج من نقابة الأشراف سلسلة نسبه ، فإذا أحد أجداده يلقب بالخواجة فلان ، فيُبحث : هل الخواجة لا تطلق إلا على النصراني أو لا ؟ وهكذا من سخافات .

وقد كانت هذه الحادثة سبباً فى انتشار الجرائد بين الناس ليروا فيها كل يوم طريفة . وكان ذلك أيضاً سبب اتصالى بالجرائد بعد أن كنت لا أقرؤها .

والحادثة الثانية حادثة دنشــواى . ودنشواى بلدة فى المنوفية ، وكان قدخرجت فرقة من جنود الإنجليز مع ضباطها من القاهرة إلى الإسكندرية ، فلما وصلت إلى منوف انحرفت فى سيرها ، وقصد خمسة ضباط منهم بلدة دنشواى ، لعلمهم أن فيها حماماً يصاد ، فبينما هم يصيدون ، خرجت من يد أحدهم رصاصة أصابت امرأة فى الجرن ، وأشعلت فيه النار ، فهاج زوجها ولم يرد أكثر من أن يساق الجندى إلى المركز ، فاجتمع حول الضابط زملاؤه ، وجاء الرجال من أهل البلدة لإنجاد صاحبهم ، فأطلق الضباط الإنجليز النار على الأهالى ، فأصيب بعضهم ، فهجم الأهالى على الضباط وجردوهم من سلاحهم ، وضربوهم بالعصى الغليظة ، فأصيب ضابطان ، وجرى ثالث وهو جريح . وعدا مسافة طويلة ، ثم سقط على الأرض ميتاً . فلما علم الجنود الإنجليز بذلك حضروا وقبضوا على من حول القتيل من الأهالى وفرّ أحدهم فأطلق الإنجليز عليه الرصاص وقتلوه ، ومثلوا بجثته ، وقامت الدنيا لهذه الحادثة وقعدت . وتوعد الإنجليز أهل دنشواى بأشد العقاب ، وفعلا أقيمت المشانق فى دنشواى ، وقتل بعض الفلاحين وجلد البعض . ونستخلص من الحادثة الأولى :

(١) أن الرأى العام المصرى فى ذلك الوقت كان يتحرك للتوافه من الأمور ، ويغض النظر عن عظائمها ، كالاحتلال الإنجليزى ، والظلم الذى يقع على رأس الرعية من حين إلى حين .

(٢) أن مسألة الزواج عندهم مقدسة وخاضعة للتقاليد القديمة .

(٣) تدخُل السياسة فى الأشياء حتى البعيد عنها فتفسدها .

(٤) غلبة المسائل الشخصية على المسائل العامة .

ونستطيع أن نستخلص من الحادثة الثانية:

(١) محافظة الفلاح محافظة تامة على حرمة الزواج ، وحرمة ملكيته الخاصة لا العامة . فلو ضاعت البلد بأكلها ما أهمته ، ولكن لو حرق جرنه الخاص لسفك فيه الدماء .

(٢) نجدة الفلاحين بعضهم لبعض عند نزول الكارثة بأحدهم .

(٣) عسف الإنجليز وظلمهم .

(٤) أن هذه الحادثة تغلغلت فى أعماق نفوس المصريين حتى لم يزلها شىء . وكانت سبباً فى التفات بعض الناس إلى الوطنية ،

ومل‌ء قلوبهم ناراً لم يطفئها شيء إلى اليوم ، ومنهم كاتب هذه السطور وكثير من المصريين . وقد أطاحت هذه الحادثة باللورد كرومر عميد الإنجليز فى مصر وبغيره من المصريين والإنجليز.

ولكن كل ذلك لم يخفف من لوعتها .

ومن أجل هذه النتائج ذكرنا الحادثتين .

وأذكر أنى قرأت الجرائد يوم محاكمة بعض أهالى دنشواى ، وكنت معزوما فى الإسكندرية على العشاء ، فبكى الحاضرون جميعاً وتركوا مكانهم من غير عشاء .

حادى بادى

هى غنوة مصرية يتغنون بها ... يقولون : حادى بادى : سيدى محمد البغدادى : شاله وحطه ، كله على دى ... وهم يقولونها عند ما يلعب الولد مع الآخر أو مع البنت ، ويكون اللاعب قد مدّ يديه مفرودتين على الأرض ، فتقال كلمة من هذه الغنوة على يد ، والكلمة الأخرى على اليد الأخرى ، حتى إذا وقعت القرعة وهى آخر كلمة على إحدى اليدين ضُربت.

ونظير ذلك غنوة تقال فى أصابع اليد ، فيقال على كل إصبع جملة من هذه : آدى البيضة ... وادى اللى قشرها ... وادى اللى أكلها ... وادى اللى قال ... هات حته حتيته ... أحسن أقول لأم ستيته .

الحارة

هى بقعة على يمين الشارع أو شماله ، يسكنها قوم بينهم روابط ، والشارع يشمل حارات أو دروبا ، والحارة تشتمل على عطفات؛ وهى تكوّن الوحدة الاجتماعية بعد الأسرة . فالأسرة فى البيت والحارة تنتظم مجموعة من البيوت أو الأسر ، والشارع يمدّ الحارة بالوسائل التجارية ، وفيه الحمّام الذى يلزم للحارة ، والمسجد والمستوقد والسوق . وبين سكان البيوت فى الحارة الواحدة روابط متينة ، فيشتركون فى المآتم والأفراح ، ويتسامرون فى المنادر . وكل رجل فى الحارة يعرف بقية الرجال ، وكان فى القديم على كل حارة بوابة كبيرة وعليها بواب ، وفى وسط الباب الكبير باب صغير يفتح إذا جاء رجل واحد بالليل فيكون فتح الباب الصغير اقتصادياً . وكان الداعى إلى هذا عدم انتظام الأمن والهجوم بالليل ؛ فلزيادة الأمن يغلق باب الحارة حتى لا يمكن اللصوص الدخول ، وبها يعتز أبناؤها وإليها ينتسبون ، فيقولون نحن أولاد الحارة الفلانية ، كالعادة القديمة فى الافتخار بالقبيلة ، وعلى كل جملة حارات شيخ يسمى شيخ الحارة يزعمون أنه يعرف أهل الحارات التى فى اختصاصه ، فيشهد لهم إذا اتهموا بتهمة فى نظير

عشرة قروش أو نحو ذلك . وعليه التنبيه على من بلغ سن القرعة وضمان المشتبهين ونحو ذلك . وهو ليس له مرتب حكومى ولكنه يعيش على ماينفحه به بعض أهل هذه الحارات عند اللزوم كالمأذون ليس له ماهية ، ولكن ما يتقاضاه من المتزوجين والمطلقين .

حانوت

كلمة تقال على معنيين : على كل دكان وأحياناً تطلق على دكان محضّر الميت ، فهو الذى يغسله ويكفنه ، ويحضر من الدكان الخشبة ، ويحضر من يمشى أمام الميت وهكذا ... ويسمى الرجل (حانوتى) . ولعلها محرفة عن « حنوط » والرجل « حنوطى » . والناس يتشاءمون من هذا الدكان إذا مروا عليها ، كما يتشاءمون من ذكر الموت .

الحب

الحب والغزل شائعان بين المصريين ، وهما كثيران فى زجلهم وشعرهم ؛ وللعامة منهم اعتقادات ، ووصفات وأحجبة ، يزعمون أنها تحبب الأزواج فى الزوجات ، والزوجات فى الأزواج . وللنساء على الخصوص أحراز وحجب ووصفات كثيرة ؛ منها أن تأخذ المرأة قليلا من شعر رأسها وتمزجه بقطعة من العجين تخبزها فطيرا ، أوتعملها رغيفاً ، ليأكل زوجها شعرها . ومنها أن تأخذ من دم حيضها شيئاً قليلا تضيفه على الماء الذى يشرب به زوجها ؛ ومن الأحجبة أن يأخذن كاغدا أحمر ، ويكتبن فيه « يا ودود يا ودود ، يا عطوف يا رءوف » سبعين مرة ثم يكتب الخاتم الآتى :

٤ د	و ٦	د ٤	و ٦
٦ و	د ٤	و ٦	د ٤
د ٦	و ٦	د ٦	و ٦
و ٦	د ٤	و ٦	د ٤

ويجعل فيه تراب يؤخذ من تحت أقدام الزوج . وكان مشهوراً فى هذا الباب الشبشبة ، وستأتى فى الشين — ومن ولع المصريين بالحب أكثروا من ذكره وذكر الوصال والهجر فى أغانيهم وأمثالهم .

حَبَرَة

ثوب أسود كانت تأتزر به المرأة ، وكان منه مشجّر ومقلّم ، وسادة ومخرّق ، وهو يختلف فى التفصيل ، فمنه ضيّق الوسط ، واسع الذيل ، ومنه تفصيل فاضح : يظهر كشح المرأة ، وقد يخيط بعضهن على الحَبَرة شرائط حرير سوداء يسمونها « خروقا » ،

ويتخذها النساء الداعرات وسيلة لاجتذاب الرجال لحسن تفصيلها والتخلع فيها . وقد ذهب التمدن الحديث بهذه الحبرات وأشكالها وخلاعتها ؛ فقد أصبحت المرأة سافرة تخرج بالفساتين العادية ، وذهب جمال الحبرة وخلاعتها وفنها وصنعها .

الحج

فريضة من فرائض الدين الإسلامى ، ويحتفل به المصريون أكثر من غيرهم . فلهم المحمل الذى لا يساويه محمل آخر ، وهم الذين يعدّون كسوة الكعبة كل عام . وكثير من الناس لا يحجون إلا ليلقبوا بالحاج فلان أو الحاجة فلانة . وإذا عاد الحجاج عادوا بهدايا وخصوصاً ماء زمزم والبلح على شكل سِبَح ، والعنبر والدبل والخواتم الفضة والسُّبَح . وبعض العامة قبل حضور الحجاج يبيّضون بيوتهم من الخارج ويرسمون عليها رسما بدائيا شكل رجل راكب جملاً أو نحو ذلك ، ثم يستقبلون الحاج بالزفة ، ويقيمون الولائم ، وينصبون نصبة كنصبة الأفراح ، وكثيراً ما يؤثر الحج فى الحاج أثراً حسناً ، فيقلع عما كان يرتكبه من الجرائم ، ويعود صالحا لاعتقاده أن الله يغفر الذنوب جميعاً بحجه ووقفته على عرفات . وكثير من الناس يحرص على أن يلقب بالحاج دائما ، فيقال الحاج محمد ، والحاج على .

وبعض الناس يبالغ فى الحج فيحجّ سبع مرات أو أكثر ، وبعضهم يبالغ أيضاً فيحج على رجليه ماشياً ، وبعض المسلمين يُحج عنه عددا على قدر ماليته . ورأيت بعضهم يقف وقفاً على عشرة يحجون عنه كل عام . والحج يعلى عادة صاحبه بين أصحابه ومعارفه أكثر من الصلاة والصوم والزكاة .

وبعض الفقراء يقتصد من القوت الضرورى له ولأولاده ليتمكن من الحج . وكان الحج دائما على جِمَال ، ثم أصبح يحج الناس فى السيارات ، وبعضهم يحج بواسطة الطائرات .

حجاج الخضرى

كان من طائفة الفتوات ، طويل القامة ، مهيباً ، عظيم الهمة ؛ وكان شيخاً لطائفة الخضرية ، وله عليهم الصولة ، مسموع الكلمة . وقد بنى البوابة المعروفة بالرملة « المنشية » وسميت بوابة حجاج ؛ وقد زالت الآن . وقد شنقه الوالى مظلوماً ... قالوا إنه فعل به ذلك زجراً لغيره .

وشاهدت ابنته تسكن فى حارتنا تسمى حجاجة ، وكانت نحيفة القوام ولكنها غجرية ، ذات لسان طويل ، يخاف منها أهل الحارة .

حجر الكباس

هو من أحجار المشاهرة ، يحكونه للوالدة فى ماء يدهنون به جسمها ، وخصوصاً صدرها وثدييها ، منعاً للكبسة ، وسيأتى تعريفها . وتوجد أنواع كثيرة من الأحجار للاستشفاء بها ، منها حجر العقرب ، وقدمر الكلام عليه فى اصطبل عنتر ؛ ومنها حجر الدم ، وهو نوع من العقيق الأخضر فيه عروق حمراء ، يحملونه لمنع نزيف الدم ، ومنها حجر الحب .

وتحمله النساء وخاصة السودانيات ، وهو من نوع الزلط ، إلا أنه خفيف هش ، لونه أحمر قاتم ، إذا حك فى ماء تتحلل منه مادة بيضاء ، وهن يزعمن أنه إذا أراد إنسان أن يحبب فيه آخر ، يتحايل حتى يرش عليه ماء من الماء الذى حك فيه ذلك الحجر ، وأن يتدهن هو أيضاً به .

وقد قرأت قصة بهذه المناسبة أن امرأة فرنسية كان زوجها يضربها كثيراً بعد أن يشرب كثيراً من الخمر حتى يسكر ، فذهبت إلى عجوز وشكت إليها زوجها وطلبت منها أن تعمل لها شيئاً من السحر عساه أن يكف عن ضربها ، فوعدتها العجوز أن تعزم لها عزيمة حين تأتيها فى الغد ، فلما جاءت أعطتها زجاجة ماء ، وأمرتها إذا جاء زوجها أن تملأ فمها من الماء وتعمل ما يأمرها به الزوج ولا تتكلم ، و بعد أسبوع قابلتها وسألتها عن الحال فقالت إن سحرك نفع ، فلم يعد يضر بنى ؛ ثم تبين أن المرأة كانت ثرثارة كثيرة الكلام ، وكان زوجها يضربها لثرثرتها ، فلما أمرتها العجوز بإطاعة زوجها ، وملء فمها بالماء ، لم يعد هناك ما يدعو إلى الضرب .

حدوتة

هى تحريف لكلمة أحدوثة فى اللغة الفصحى ، ولا تطلق إلا على القصة باللغة العامية ، وهم عادة يفرشون لها فرشاً صيغته : « كان يا ما كان يا سعد يا إكرام ، ولا يطيب الحديث إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام » ونسرد هنا بعض الحواديت على نمطهم :

١ — كان فيه سلطان ولا سلطان إلا الله ، ولا نبى بعد رسول الله ، وكان للسلطان ثلاثة أولاد : الشاطر حسن ، والشاطر محمد ، والشاطر على ؛ وكانوا فرسان شطار ، ومتعلمين كل حاجة ، ونافعين أبوهم ومريحينه ، ومنظمين أمور المملكة .

و بعدين أمهم ماتت ، والسلطان تزوج بنت الوزير ، وكان الوزير يكره أولاد السلطان لأنهم مضيقين عليه ، ومش مخليين له كلام ، فسلط بنته ، وقال لها لازم تعملى

حيلة تخلى السلطان يكره أولاده .

قامت البنت احتارت تعمل إيه ، إلا ودخلت عليها مربيتها ، وكانت عجوز نحس وإبليس يتعلم منها المكر ، فقالت لها مالك زعلانة محتارة ، فقالت لها ياأمى العجوز ، الأمر فيه وفيه ، وأنا مش عارفه أعمل ازاى ؟ قالت لها : بس كده ! دا شىء بسيط ، وبكره الصبح ماتقوميش ، ولما يسألك السلطان قولى له بس عيانه شويه ، وبعدين يحلها ربنا ، نهايته ولا أطولش عليكم فى الصبحية قعدت تنازع ، قال لها السلطان مالك ، قالت له بس عيانه شويه النهارده ، فاتها وطلع لشغله ، جاتها العجوزة ومعها رقاق ناشف ، حطته تحت فرشها ، وصارت كل ما تتقلب يطقطق الرقاق ، وتقول هى دى عظامى بتطقطق ، وتنازع وتصرخ ، استعجب السلطان وجاب لها الحكما ، وهم مايعرفولهاش دوا .

شوية وفات واحد من تحت الشباك وكان دا ابن العجوزة ومعلماه وهو ينادى ويقول عيان نداوى ، مريض نداوى . قالت امرأة السلطان له : نادى الحكيم ده يمكن يعرف مرضى ، دخل عليها وبص كده وكده وفتح الكتاب ، وبعدين قال : يا ملك الزمان ووحيد العصر والأوان ، دا مرض الملكة مش من الأرض ، دا مرضها من الجان ؛

قال له السلطان إذا كنت عرفت مرضها اعرف لنا دواها .

قام فتح الكتاب وقال : دواهاميجيش إلا على بلبل الصباح . قال السلطان : وفين بلبل الصباح ؟ فقال له : فى البستان المسحور ، ورا السبع بحور ، ولا يجبوش إلا أولاد الملوك . قال السلطان : دا أمر سهل ، وأنا عندى أولادى ما شاء الله ما فيش أشجع من كده . وطلع حكى لهم على ما قاله الطبيب قالوا له : ياأبونا احنا فى خدمتك ، ومطرح ما تأمرنا احنا ما نتأخرش ، وأخذوا الزاد ، وركبوا خيولهم ، واعتمدوا على خالقهم ، وساروا على بركة الله ، وصلّوا على زين الملاح ومشوا الثلاثة ، بلد تشيلهم وبلد تحطهم ، لما دخلوا فى وسط الجبال ، انتهى بهم المسير إلى آخر الطريق ، ثم وجدوه ينقسم إلى ثلاثة شعب مكتوب على واحدة منهم دى سكة السلامة ، وعلى الثانية دى سكة الندامة ، وعلى الثالثة دى سكة اللى يروح مايرجعش ، وأخيراً انتظروا على أنهم يعملوا قرعة ، وكل واحد يمشى فى سكة ، فأما الشاطر حسن فمشى مشى و بعدين رجع لبلده ، وحكى لأبوه على ما كان ؛ وأما الشاطر محمد فتاه فى الطريق ومشى مشى ما لاقاش حاجة ورجع لبلده ، وأما الشاطر على ففضل ماشى طول النهار ،

وأخيراً لقى جنينة لا ليها أول يعرف ولا آخر يوصف ، وفيها كل أصناف الزهور والفواكه ، وفى وسطها قصر عظيم ، دخل جميع قاعات القصر ما عرفش حد ، فاستعجب ، وفى أوضه من الأوض لقى صفرة تامة من جميع الأصناف ، والكراسى مرصوصة حوالين الصفرة ، وقعد يستنى يستنى ما حدش جه .

فقال له عقله : قوم اتعشه ، فأكل لما شبع ، وراح غسل إيده وقعد جنب الشباك يشم الهوا ، بص على باب الجنينة لقى غول داخل ، فخاف وارتعش ، قام جرى يدوّر على مطرح يستخبى فيه ، واحتار ورجع تانى دخل الأوده اللى كان فيها ، واستخبى ورا الباب ، فالغول ضرب الحيطة وخبط بايده عليها ، انفتح فيها باب مسحور ، وجلس على السرير وقال : اطلعوا ، طلعت عشرة بنات زى النجف ، وقعد الجميع على السفرة ، وقعدوا ياكلوا ، ثم قال الغول : مين اللى رايحة تكون عروستى الليلة ؟ ما حدش رد ، قام وسحبهم من شعورهم ، ودخلهم أوده وقفل الباب ، قام الشاطر على وخرج فى الجنينة لقى العشر بنات مساكين ، قالوا له : إنت إنس ولا جن ؟ قال لهم : إنس ، قالوا له : إيش جابك هنا ؟ فحكى لهم على اللى حصل ، فخرجوا يلفوا فى القصر ، و بعدين لقوا دولاب فتحوه ، لقوا سلّم فضلوا نازلين أر بعين سلّمة ، فضلوا ماشيين لقوا بحر مالح ، وقعدوا على البحر يستنوا مراكبى ، ولما فات مراكبى شاوروا له بمناديلهم ، قالوا له : إحنا فين ؟ قال لهم : انتوا جايين منين ؟ وعزّم المراكبى عشان يأتى بالغول ، ومسك سيف ، ولما دخل الغول ، قال : باسم الله ، يا عزم أبوى وجدى ، وخبطه قسمه نصفين ، و بصوا لقوا دمه لهاليب نار ، وسأل الساحر الشاطر على ، فحكى له حكاية بلبل الصباح ، وأخيراً و بعد عذاب طويل رجع الشاطر لأبوه وحكى له الحكاية ، فلما سمع الملك هذه الحكاية شال الملكة من على السرير ، وفتش تحتها فلقى رقاق ، فسحب عليها السيف وقال لها : وحياة رأس أبويه إن ماقلتيليش على الحكاية أقطع راسك ، فحكت له الحكاية فقال لها : سامحتك ، وخرج على الديوان وقطع رأس الوزير وجهز موكب عظيم وركب الشاطر على وقعّدوه وأبوه متهنى لآخر عمره . وتوته توته فرغت الحدوته ، حلوة ولا ملتوته ، إن كانت حلوة ، عليك غنوة ، وإن كانت ملتوته ، احكى لنا حدوته .

***

٢ — أحدتك حدوته ، بالزيت ملتوته ، حلفت ما كلها ، حتى ييجى تاجرها ، تاجرها

فوق السطوح ، والسطوح من غير سلّم ، والسلم عنـد النجار ، والنجار عاوز مسمار ، والمسمار عند الحدّاد ، والحداد عاوز بيضة ، والبيضة فى بطن الفرخـة ، والفرخة عاوزة قمحـة ، والقمحة عند التاجر ، والتاجر عاوز فلوس ، والفلوس عنـد الصريف ، والصريف عاوز حنـّة ، والحنة فى إيديهم ، ضربة تكوّر عينيهم . وهى حدوتة لطيفة تدل على مبلغ اتصال الأعمال بعضها ببعض ، وهى فى معنى قول المتنبى :

الناس للنـاس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

* * *

وقد سمعها رجل صوفى فشرحها شرحاً صـوفيا قال : أحدتك حدوته ، بالزيت ملتوته ، يعنى السر الإلهى ؛ حلفت ما كلها ، أى أتناولها ؛ فإن القصد لا يتم إلا بالوسيلة . حتى ييجى تاجـرها ، المراد به المرشـد الكامل ، والمربى الواصـل . والتاجر فوق السـطوح ، لايذهب ولا يروح ، بل إليه يراح ، وبه تنتعش الأرواح . والسـطوح عاوزه سلم ، يتوصل به إليها ، حيث إن المدار عليه . والسلم عنـد النجار ، وهو الأستاذ الكامل ، والمسلك الواصـل . والنجار عاوز مسمار ، يثبت به سـلم القرب والوصول . والمسمار عند الحداد ، صانعه المخصوص به . والحداد عاوز بيضـة ، إذ لا يكون شىء بلا شىء ... الخ .

* * *

٣ — دخلت من عاطفة لعاطفة ، لقيت مغنّى بزفة ، لقيت حبيبى متكى ، على مخدّة فستقى ، قال لى خدى المفاتيح واسبقى ، أخذت المفاتيح وسبقت ، لقيت صبيّة لبيّة ، زى الشمس المضيّة ، متّـكيّة على مخدّة حرير طريّة ، لو كان بيتنا قريب ، كنت جبتلكو صحن زبيب ، تا كلوا لما تصلُوا على الحبيب ، فيجيب السامعون « ألف صلاة عليه » وهذا فرش الحدوتة ، ثم تبتدى فيها فتقول : كان يا ما كان ياسعد يا إكرام ، مايطيب الحديث إلا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام ، فيجيب السامعون : عليه الصلاة والسلام . ثم تقول : كان صلوا على النبى ، ثم تقول : كان وحّدوا الله . وكله تشويق للسامعين لكى تزيد فيهم رغبة السماع .

* * *

٤ — كان فيه واحدة جميلة فايتة فى السوق لقيت شاب جميل جالس وعلى دكانه يافطة مكتوب فيها : كيد الرجال غلب كيد النساء ، فاغتاظت من ذلك ، وذهبت إلى الدكان وأخذت تغازل الشاطر حسن صاحب الدكان

وأخيراً قال لها : أريد أن أخطبك من أبيك فمن أبوك ؟ قالت له : قاضى البلد ! ولـكن أبى لا يريد أن يزوجنى ، ولذلك يقول لمن جاء إليه يخطبنى : إن بنتى هتمة بأتب ، فقل له قابل . ولا أريد إلا شرف النسب ؛ فأخذ كام تاجر وياه العصر ،وذهبوا إلى القاضى وقالوا له : نريد أن نتشرف بالنسب إليك . فقال لهم : إن بنتى كذا وكذا كما ذكرت الفتاة ، فقال الشاطر حسن : قد قبلت لأنى أريد شرف النسب ولا أريد الجمال . وأخيراً عقد العقد ودخل الشاطر حسن على زوجته ، فلم يجد الفتاة التى رآها وإنما وجد فتاة شوهاء كما ذكرت ، فغطى وجهها وخرج ، وفى ثانى يوم جاءت الفتاة وضحكت ، فقال لها : ما المخرج ؟ فقالت: لا، حتى تغير اليافطة وتكتب : كيد النساء غلب كيد الرجال ، وأخبرته بأبيها الصحيح وقالت له : أحضر طائفة القردتية والغوازى والخولات واذهب بهم إلى القاضى ، وقل له : هؤلاء أقاربى ، فتضايق القاضى ، فقال له الشاطر حسن : وأنت شفت إيه ، دول لسه جايين طوايف من قرايبى . فقال للشاطر حسن : اعمل معروف خد فلوسك وطلقها . فأخذ فلوسه وطلقها ، وذهب إلى أبى الفتاة الحقيقى وتزوجها ، وعاشا فى التبات والنبات ، وخلفوا أولادو بنات ، وتوته توته فرغت الحدوتة .

٥ — وحدث فى عهد محمد على باشا أن كان رجل نخاس ، وكانت تجارة الرقيق منتشرة متزوجا بامرأة غنية بعض الغنى ؛ ثم أهملها ، فغضبت منه وعملت على الطلاق منه ، فعشقت رجلا فقيراً ؛ وفتحت له دكاناً بجوار البيت ، وكان فى البيت نخلة تتصل بمشربية ، يقفز إليه عشيقها كلما أراد ؛ فقفز إليها مرة ، وإذا بصاحب البيت يحضر ، فأمرت خدامها بأن رجلا عندها، فأخبروه. فدق الباب طويلا ، وصرخ : عشيق ، عشيق . .

فحضر الجيران ، وكسروا الباب ، ودخلوا فلم يجدوا أحداً ، وكان العشيق قد قفز إلى النخلة ونزل عليها إلى الأرض ، فتنمرت المرأة وقالت : هو يتهمنى فى عرضى كذبا ، وذهبت ثانى يوم إلى القاضى وحكت له ، وطلبت الطلاق ، واستشهدت بالشهود ، فرفض القاضى أن يطلقها . وفى مرة أخرى حضر العشيق كعادته ، وحضر صاحب المنزل ، فوجد عشيقها معها ، فأمسكته مع عشيقها وكتفته ووضعت منديلا فى فمه ، وسكينا بجانبه ، وهددته إن صاح أن تقتله ، ونامت مع عشيقها أمامه ، حتى إذا انتهيا

حليه ، وشالت السكين وأخرجت المنديل من فمه ، وصرخ الرجل : حرامى حرامى ! فجاء الجيران فلم يجدوا أحـداً ، فظنوا أنه مجنون ؛ فسألوه ، فقال لهم : حرامى ! فقالوا مسكين ! شفاك الله . وذهبت ثانى يوم إلى القاضى تطلب الطلاق ، فحكم بإرساله إلى مستشفى المجاذيب ؛ وأخيراً ظل سبعة أشهر وكلما زاره أحد حكى له حكاية اللص فيقول : لا زال مجنوناً ، شفاه الله ؛ وأخيراً و بعد تعب ، رضى أن يطلقهـا ، فأحضرته إلى البيت ، وأحضرت المأذون وطلقها .

٦ — كان فيـه شابة جميلة متزوجة تاجر ، فأراد التاجر أن يسافر ، فخاف عليها أن تخونه ، فأوصى بقالاً يفتح دكاناً تحتها أن يراقبها ويحافظ عليها ؛ وأمرها أن تدلّى حبلا فيـه مقطف كل يوم ، وأوصى البقال أن يضع لها اللحم والخضر فى المقطف كل يوم وهى تشده .

وفى مرة من المرات نظر إلى فوق فرأى المرأة فأعجبته ، فعشقها ، وكتب لها ورقة مع اللحم والخضار يخبرها بذلك فرفضت ؛ فمرض الرجل وجاءت إليه امرأة عجوز فحكى لها الحكاية ، فوعدته أن تسهّل له الأمور ؛ فذهبت العجوز إليها وادعت أنها خالتها ، وقبّلتها كثيراً ، وزعمت أنها مشتاقة إليها ، وكان معها كلبـة تُطعمها من حين لآخر وتعطفُ عليها — فسألتها المرأة مَن هـذه الكلبة فقالت لها إنها كانت شابة جميـلة ، وغضب عليها عاشقها فسحرها كلبة . فقالت : يا أمى إنى أخاف من البقال الذى تحتى أن يسحرنى ، فقالت لها العجوز : وماذا تعطينى إن رجوتُه ألاّ يسـحرك بشرط أن تنيليه ما طلب ؟ فرضيت ووعدتها أن تمنحها زوجاً من الأساور ، وعينت لها موعداً تستقبل فيه البقال ، فلما جاء الموعد تزينت وتجملت الفتاة وانتظرت العجوز البقال فلم يحضر ، وخافت أن تضيـع عليها الأساور ، فترقبت أن يمر عليها أى رجل مناسب ، وصادف أن مر التاجر زوج الفتاة ، وكان عائداً من سفره ، فاستوقفته وقالت له : ما رأيك فى فتاة جميلة تستقبلك ؟ فقال : لا بأس ، ولك الحلاوة . وقادته إلى بيت الفتاة ؛ فما كان من الفتاة إلا أن لطشته على وجهه وقالت له : أهكذا تفعل أيها الرجـل الخبيث ؟ فأخذ يعتذر لها ويسترضيها . . .

وتوتة توتة ، فرغت الحدوتة .

٧ — ومن حكاياتهم الدالة على إيمانهم البالغ بالحظ ، وأن الطمع لا يُفيد ، أنّ رجلاً فقيراً كان طيباً وكان عطوفاً على زوجته وأولاده . وطلبت إليه زوجته مرة أن يأخذ سلطانية

ويحضر لها سمناً لتصنع به كنافة . فلما ضاقت الأمور على الرجل ترك دكانه وهام على وجهه حتى بلغ شاطئ البحر . وركب سفينة أوصلته إلى جزيرة غنية انقطع أهلها عن العالم . وقُبض عليه وأرسل إلى الملك ، فسأله الملك : أصديق أنت أم عدو ؟ فقال الفقير : صديق . فقال الملك : ما دليل صداقتك ؛ فقال : الدليل أنى أهديك هذه وكانت سلطانية . فظن الملك أنها تاج عظيم ووضعها تاجاً على رأسه ، وأعطاه فى مقابل هديته ذهباً كثيراً ، وجواهر كثيرة ؛ وعاد الرجل إلى أهله وأوسع معيشتهم ومعيشته . فلما رآه بعض الطامعين الأشرار على هذه الحال غار منه واستفسره وذهب إلى هذه الجزيرة يحمل معه هدايا فخمة من ثياب مزركشة وعقود الخ ، فلما أهداها للملك فرح بها وأراد أن يهديه أعظم هدية فى نظره فأهداه السلطانية . وكان نصيبُه خيبة الأمل .

* * *

هذه نماذج من الحواديت التى تحكيها العجائز وخاصة بالليل حيث يجتمع الأطفال والنساء ، ولا تزال تحكى حتى يجىء موعد النوم .

وهى باب كبير من أبواب تربية الأطفال ، فالحدوتة الطيبة التى تدل على شجاعة أو صدق أو بطولة ، تنتج نتاجاً طيباً ، والعكس .

والحدوتة نمرة (٢) مثلاً تدل على معنى طيب فى التعاون . ولكن مما يؤسف له أن أكثر حواديتنا فى الجن ومكر النساء ولعب القدر كما رأينا . وحبذا لو جُمعت الحواديت الشعبية وقُيدت ثم دُرست ثم تبين أثرها .

حرامى

كان فى كل بلدة تقريبًا فى المدن أو القرى طائفتان : طائفة تنتسب إلى سعد ، وطائفة تنتسب إلى حرام ؛ فهذا سعدى أى منتسب إلى سعد ، وهذا حرامى أى ينتسب إلى حرام . ويظهر أن سعداً انتصرت على حرام ، فتدلى حرام حتى كان من نسبه لصوص ؛ وسمى اللص حراميا .

الحرب

للمصريين فى حال الحرب أحوال نفسية وأخلاق اجتماعية ، لعل خير ما يمثلها ما حكاه الجبرتى فى موقفهم عند الحالات الخصوصية

فإنه فى يوم من الأيام حضر إلى ثغر الإسكندرية عشرة مراكب إنجليزية ، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر ، وبعد قليل حضرت خمسة عشر مركبا ، وحضر عدد صغير مكون من عشرة ، وطلعوا إلى البرّ واجتمعوا بكبار البلد ، والرئيس

إذ ذاك السيد محمد كريم ؛ فاستخبرهم المصريون عن غرضهم ، فقالوا إنهم إنجليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس ، لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، وربما كان مقصدهم مصر ، وربما دهوكم فلا تقدرون على دفعهم ؛ فلم يقبل السيد محمد كريم ، وظن أنها مكيدة ، وجابهم بكلام خشن . فقال رسل الإنجليز : إننا سنقف بعيداً ، ولا نحتاج منكم إلاّ الإمداد بالماء والزاد بالثمن . فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا غيرهم عليها سبيل ، فاذهبوا عنّا ، فعادت رسل الإنجليز وأقلعوا من الإسكندرية ليمتاروا من غيرهم ؛ فلما عرفت هذه الأخبار بمصر حصل بها لغط كثير ، وتحدثوا كذلك فيما بينهم ، وكثرت المقالات والأراجيف .

وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكترثوا به ، اعتماداً على قوتهم ، وزعمهم أنه إذا جاءت الفرنج لا يقفون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم . ثم وردت مراكب الفرنسيس وعماراتهم الكثيرة ، فأرسوا فى البحر ، وأرسلوا جماعة يطلبون بعض أهل البلد ، فلما نزلوا إليهم ، عرّفوهم مقصدهم ؛ ولما دخل الليل تحولت مراكبهم إلى جهة العجمى ، وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الإسكندرية إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلدة ؛ فاجتمع الكشاف والعربان ، فلم يستطيعوا مقاومتهم ، واضطر أهل الإسكندرية إلى التترس فى البيوت والحيطان ، ودخل الفرنسيس البلد ، وأهله يدافعون عن أنفسهم ويقاتلون . فلما أعياهم الأمر ، وعلموا أنهم مأكولون بكل حال ، وليس عندهم استعداد للقتال لخلوّ الأبراج من آلات الحرب والبارود ، وكثرة العدو وغلبته ، طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم .

* * *

وعوّل أكثرهم على الفراق ، فلما علم بذلك الأمراء بمصر ، اجتمعوا هم والعلماء وقرروا أن يرسلوا مكاتبة إلى استانبول ، وجهّز مراد بك العساكر وخرج لملاقاتهم وحربهم ، وصاروا يصادرون الناس ، ويأخذون ما يحتاجون إليه من غير ثمن ، وأمروا بعمل سلسلة تخينة جداً طولها مائة ذراع وثلاثون لتمنع العبور من بحر النيل ؛ فلما خرج مراد بك بدت الوحشة فى الأسواق وكثر الهرج بين الناس والإرجاف ، وانقطعت الطرق . وأخذت الحرامية فى كل بلدة تطارق أطراف البلد ، وانقطع مشى الناس من المغرب ، ونادى الأغا والوالى بتفتيش الأسواق

والقهاوى ليلاً ، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين لإذهاب الوحشة .

ووردت الأخبار بورود الفرنسيس إلى دمنهور ورشيد ، وازداد الرعب ، وكانت العلماء عند توغل الفرنسيس يجتمعون كل يوم بالأزهر ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ الطرق الأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية والسعدية ، وغيرهم من الطوائف ، وأرباب الأشاير ، ويعملون لهم مجالس بالأزهر ، وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء . ولما وصل الخبر إلى الأمراء شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة إلى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد .

واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزّعونها على معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا البعض منها إلى بلاد الأرياف ، واستحضروا دواب للشيل وأدوات الارتحال . ولما رأى أهل البلد ذلك تخوّفوا وخرج الجميع لبرّ بولاق ؛ وكانت كل طائفة من طوائف الصناع يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خيامة ، أو يجلسون فى مكان خرب ، أو مسجد ، ويرتبون لهم ما يصرف عليهم وما يحتاجون إليه من الدراهم التى جمعوها .

وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر . ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح ، والأكل وغير ذلك . بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوّتهم . وخرجت الفقهاء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكلبات . وهم يدقون ويصيحون ، ويذكرون أذكاراً مختلفة . وصعد السيد عمر نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بيرقاً كبيراً سمته العامة « البيرق النبوى » ، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق ، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح . ولم يبق فى القاهرة إلا النساء والصغار وضعفاء الرجال ، والطرق مغفَّرة من عدم الكنس والرش .

وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على قدم وساق يقتل بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم بعضاً . وغارت العرب على الأطراف والنواحى وصار قطر مصر من أوله لآخره فى قتل ونهب وإغارة على الأموال ، وإفساد المزارع ، وغير ذلك من أنواع الفساد .

وكانت الرجال متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة أمراؤهم ، حريصين على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مغترين بجمعهم ،

محتقرين شأن عدوهم ، مرتبكين فى رويتهم ، مغمورين فى غفلتهم ؛ وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم ... الخ .

* * *

ويدل على أخلاقهم أيضاً فى الحرب ما ذكره محمد « باشا » شفيق فى الثورة العرابية ، إذ قال : « شعر عرابى « باشا » ورفاقه بالحيف الواقع عليهم وعلى أمثالهم من جراء التمييز بين المصريين والشراكسة والأتراك . فألفوا مظاهرة ، فازدادت قوتهم ، واختلف النظار بين معاملته هو وإخوانه بالشدة ، أو معاملتهم باللين والحسنى . واغتر عرابى بما كان يسمعه من رعاية الخليفة له وعنايته به ، واجتماع الناس حوله ، فاعتقد أنه زعيم مصر الأكبر ، وخيل إليه أنه صار صاحب الكلمة النافذة ، وأنه إليه يرجع الأمر كله دون الخديوى وحكومته ؛ وطاف فى البلاد يستميل الأهالى ويتألفهم ويبث فيهم دعوته .

ولم يقف غرور عرابى عند حد حكومته بل رسخ فى ذهنه أنه لا خوف عليه من وقوف فرنسا وإنجلترا فى سبيله ، لما بينهما من منافسة فى السياسة المصرية . مع أن الدولتين كانتا على وفاق فيما يتعلق بمصر . وبناء على ذلك أرسلوا لجناب الخديوى خطاباً مؤداه : أنهما يكفلان استمرار السلم والسكون فى البلاد المصرية وأنهما متفقان على الاشتراك فى السعى من دفع كل ما من شأنه أن يُحدث فى مصر ارتباكا . فأثارت هذه المذكرة غضب العرابيين ، وسخط الباب العالى ، وفهم عرابى من ذلك أن الخديوى توفيق قد انضم إلى الدولتين . ثم قامت الثورة ، فتدخل الإنجليز حربيا بدعوى إقرار السلام ، والمحافظة على سلامة الخديوى . وخشى العلماء وبطريرك الأقباط والأعيان والتجار استمرار الاضطرابات ، فأرادوا التوفيق بين الخديوى وعرابى فلم يمكن ؛ وأخيراً صار عرابى « باشا » الحاكم بأمره ، وقامت الثورة الفكرية ، وحدثت المذابح فى الإسكندرية ، واشتبك عرابى مع الإنجليز ، وانهزم العرابيون بعد قليل » . وقد ذكرنا من قبل ما أشيع فى أيام الثورة عن البيضة التى باضتها الدجاجة ومكتوب عليها ما يستفاد منه النصر ، والأعلام المنسوبة إلى السيد البدوى وإبراهيم الدسوقى وسيدى عبد العال

« ولم يقف جيش عرابى فى التل الكبير طويلا ، فقد انهزم جيشه سريعاً ، ووجد الإنجليز أن العرابيين أهملوا الطريق بين الصالحية والتل الكبير ، وتركوه خالياً من

نقط الدفاع ؛ ولم يطل القتال أكثر من عشرين دقيقة ، وأسفر عن انهزام العرابيين شر هزيمة ، بعد أن قتل منهم نحو ألفين ، وأسر نحو ذلك .

وما برح الإنجليز يتقدمون ، والعرابيون مستغرقون فى نومهم ، فحاول عرابى أن يستوقف الفارّين ، ويستفزهم إلى القتال والدفاع فلم يمكنه ذلك ، لأن الذعر كان قد دبّ فى قلوبهم ، ففرّ عرابى لينجو بنفسه . وكان الإنجليز كلما تركوا نقطة أقاموا فيها دوريّة للمحافظة عليها . ثم كان من أمر الثورة وفشلها ما كان » .

ويمكننا أن نستنتج من تلك العناصر ، مما ذكره الجبرتى وشفيق « باشا » النتائج الآتية :

(١) غرور المقاتلين المصريين ، واستهتارهم بعدوهم من غير دراستهم لحالهم .

(٢) عدم الاستعداد الكافى للحرب .

(٣) الهرجلة وعدم النظام .

(٤) الاعتماد على الأدعية والبخارى والأذكار مما ليس وسيلة حربية .

(٥) قلة الثبات أمام العدو .

(٦) عدم العلم بالأفانين العسكرية الحديثة ، والاعتماد على الأساليب القديمة فى الحرب ، وعدم معرفة شؤون الدنيا ، والجهل بالسياسة الخارجية وشؤونها .

(٧) فوضى الناس غير المحاربين وتعطيلهم لحركات الجيوش .

(٨) مساعدة بعض الناس الخيِّرين بكل ما يملكون من مال وقوة ، ولكن ذلك لم يكن منظما ولا خاضعاً للعقل .

(٩) عجرفة الرؤساء وشموخهم بأنوفهم من غير كفاية .

* * *

كل هذا سبّب فى الحربين الهزيمة السريعة مع الأسف الشديد .

ولكن ، والحق يقال ، إن المصريين حديثاً تعلموا من هذه التجارب ، فظهرت فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، وفى حرب القنال ، مظاهر رائعة تخالف التى مضت ، فكان من الشبان — وخصوصاً الإخوان المسلمين — مواقف عجيبة تستدعى الإعجاب ، من بيع الأرواح ، بيع السماح . وبالأمس سمعنا أن شابا غنيا يملك نحو الأربعمائة فدان تقدم للقتال وراح ضحيته . فما لبث أخوه الشاب أن حل محله فى الصف ... إلى كثير من هذه الحوادث التى تدل على التصميم والتضحية ، وهما العنصران اللذان لم يكونا

من قبل . هذا إلى القدرة على اكتشاف المؤامرات والدسائس التى كانت تجوز على المصريين فيما مضى ، والقضاء عليها فى حينها .

فإذا أضفنا إلى ذلك امتناع أكثر العمال المصريين عن معاونة الأعداء دلّ ذلك كله على تغير الحال فى السبعين سنة الأخيرة ، وأن فيهم من يصح أن يكون مثالا للجهاد والبطولة بما لا يقلّ عما يصدر من الأمم الحية الأخرى .

حرز

كلمة تطلق على الأحجبة وغيرها ، للاحتراز من الجنّ والحسد (انظر أحجبة) .

الحروف

يزعمون أن لكل حرف من حروف الهجاء سرّا ، وأن أسرار القرآن كلها وضعت فى سورة الفاتحة ، وأن الفاتحة وضعت فى البسملة ، وأن أسرار البسملة وضعت فى حرف الباء ، وهكذا .

وكل حرف له خواصّ ، وله أعداد . ومن ذلك حروف الجمل وتقابل أبجدهوّز الخ . فالألف بواحد والباء باثنين الخ . . وترابى ، وهوائى ، ومائى . ويقولون إن بعض هذه الحروف نارى . والأعداد للحروف كالأجساد للإنسان . وللحروف قوة فى باطن العلويات ، ولها هوة فى باطن السفليات . وبعضهم يجعل للحروف طبائع ، فبعض الحروف حارّ ، وهى ا و ى ل م ع . وبعض الحروف يابسة ، وهى س ق ب ج . وبعضها رطبة ، وهى هـ ر ش ص ط . والباردة هى ب هـ د ظ ص ض .

ثم إذا كان الحرف منصوبا فحار ، أو مرفوعا فيابس ، أو مجروراً فرطب ، أو مجزوما فبارد .

وللحروف أيضاً اتصالات بالبروج معقدة مما إذا ووفقت على طريقتهم تسبب عنها العداوة والبغضاء ، والسعادة أو الشقاء . ولهم فى ذلك حساب طويل ، وكتب خاصة .

الحسد

يعتقد المصريون كثيراً فى الحسد . وخلاصة هذه العقيدة أن بعض الناس عنده خاصيّة فى عينه ، إذا نظر إلى شىء أماته أو أتلفه . ومن غريب الأمر أن رجلا عظيما كابن خلدون يحكى مثل هذا ويقول إنه شاهد بعض الناس إذا نظر إلى خروف أو نعجة نظرة خاصة أماتها ، ثم إذا شرّحت وجد قلبها قد تحتّت . وقال إنه رأى فى بلاد المغرب جماعة من هذا القبيل يسمون « البعّاجين » .

ويعتقد المصريون أن الحسد يكون على أتمه إذا نظر الحاسد وشفع نظرته بالشهيق. وكان من الشائع عند النساء أنه إذا نظر رجل تلك النظرة أسرعت المرأة وقالت له: «وراك تعبان أو عقربة أو نار» فيلتفت وراءه لينظر إليه، وبذلك يذهب سحر عينه.

ويداوون ذلك بأن يأخذوا قطعة من طرف ثوب الحاسد ويبخروا بها المحسود، سواء كان إنساناً، أو حيواناً أو أى شىء آخر.

ويزيد الاعتقاد فى الحسد إذا اشتهى ما عند المحسود، كأن كان الحاسد فقيراً والمحسود غنياً، أوعند المحسود مواش أو أموال يشتهيها الحاسد، وكما إذا كان الحاسد ليس له ولد والمحسود كثير الولد. ويزعمون أن الحجاب يمنع العين. ولهم فى ذلك طرق. منها وضع قليل من الملح الجريش فى كيس يعلق فى عنق الأطفال، وكذلك ناب الذئب أو ناب الضبع، أو رأس هدهد عليه ريش، توضع فى قطعة من السختيان الأحمر وبخاط وأحيانا يداوون الحسد بالرُّقى. من ذلك رقية مشهورة وهى:

« بسم الله أرقيك، من كل شىء يؤذيك. ومن كل عين حاسد. بسم الله أرقيك، والله يشفيك، من كل نفس أو عين ».

ومن هذه الطرق أن يوضع قليل من الملح فوق جمر من النار، ويقف المحسود، ويجعل الجمر بين رجليه، وتتلى الرقية المذكورة. ثم تجعل الراقية وجهها فى وجه الذى ترقيه، وتتثاءب بشدة، حتى يتثاءب المحسود. ويحكون أن رجلا اشتهر بالحسد، فكان يجتمع إليه أصحابه، فإذا مرّ جمل اشتهوه، طلبوا إلى الحاسد أن يحسده، فيقع على شفا الموت، فيذبح ويؤكل.

ومن الرقى: بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله عظيم الشان شديد البرهان. ما شاء كان. حبس حابس من حجر يابس. وشهاب قابس. اللهم إنى رددت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، وفى كبده وكليتيه، ولحمه ودمه. فارجع البصر، هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرّتين ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسير.

وأحيانا تأتى بعض العجائز فتوقد ناراً، وترمى فيها شيئاً من « الشّب » وتذكر أسماء الذين يظن أنهم الحسدة، وتأخذ دبّوساً أو إبرة فتضعه فى عين الصورة التى تحوّل إليها الشّب، وتقول: فقأ الله عينها.

وقد تأخذ قطعة من الورق وتشك

فيها الدبوس مرات متعددة فى كل مرة تقول : من عين فلانة ، ومن عين فلانة ، ثم يبخر المحسود بهذه الورقة مع الملح .

والاعتقاد فى هذا الحسد شائع كثير .

ومن الأقوال المشهورة : « عين الحسود ، فيها عود » . (انظر قر)

حسن كيف

هو اسم غريب يطلقونه على نوع من السجاير وضعت فيه قطعة من الحشيش . وأحياناً يطلق على التبغ الذى يوضع فى حجر الجوزة ويوضع فوقه الحشيش ثم يدخن . وكيفية استعماله أنهم يقطعون التبغ قطعاً صغيرة ، ثم يأخذون قليلا من عسل القصب فى الكف ، ويفركون التبغ فيه حتى يلين ويمتزج بالعسل ، ويضعونها فى حق من الصفيح ، فإذا أرادوا تدخينها أضافوا عليها قطعة من الحشيش ، ثم يضعونها جميعا فى حجر الجوزة .

الحسوم

ويسمونها أيضاً الحسومات ، أو أيام الحسوم . وهى السبعة الأيام أول برمهات من الشهور القبطية ، ويمتنع فيها الفلاحون من بذر الأرض ، يزعمون أن ما يزرع فى هذه الأيام يخرج عليلا ضعيفا لا يأتى بمحصول . ويزعمون أيضاً أن ريحاً سامة خفيفة تهب فى تلك الأيام .

وفى القرآن : « سخَّرَها عليهم سَبْعَ ليال وثمانية أيام حُسوما » .

حش

حشّ البرسيم إذا قطعه من الغيط ، وحشّ القمح أو القطن إذا قطعه وهو صغير ، وعلى سبيل المجاز يقولون : « حشّ وسطه بالنبوّت » ، كأنه ضرب به فقسم وسطه إلى قسمين كما يفعل بالحشيش .

حشكلة

يقول الرجل لرجل آخر « بلاش حشكلة » ويعنون بها التملُّق . وربما كان أصله فارسيا ، ففيها الحشكل : الردىء . والحشكل : ماتطاير من الحديد .

الحشيش

الحشيش كيف قديم ، وربما نافس الخمر ؛ ويسمونه فى كتب الطب القديمة (القنّب) . يقول بعضهم : « إن أول من استعمله الشيخ حيدر فى سنة ٦٥٨ » .

ذلك أن الشيخ حيدر خرج يوما وقد اشتد الحر وقت القائلة منفرداً بنفسه إلى الصحراء ، ثم عاد وقد علا وجهه النشاط والسرور بخلاف ما كان يعهد من حاله . فإنه أخذ يحادث أصحابه ويؤانسهم ؛ فسألوه عن السبب ، فقال : خرجت إلى الصحراء وحدى ، فوجدت كل شىء من النبات لا يتحرك إلاّ نباتا له ورق ، فجعلت أقطف منه وآكل ، فحصل عندى من الارتياح ما شاهدتموه .

وكان هو القنّب . وقد نصح أصحابه باستعماله ، فاستعملوه . فاشتهر بالعراق ووصل إلى الشام ثم إلى مصر . وفى ذلك يقول بعضهم :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر
معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكها ظبى من الترك أغيد
يميس على غصن من البان أملد
فتحسبها فى كفه إذ يديرها
رقيم عذار فوق خدّ مورّد

وأحيانا ينسبونها إلى أهالى الهند ويقولون إنهم أول من استعملوها . قال الشاعر :

فقم فانف جيش الهمّ واكفف يد العنا
بهندية أمضى من البيض والسمر

وقال فيها آخر :

وخضراء كافورية بات فعلها
بألبابنا فعل الرحيق المعتّق
إذا نفحتنا من شذاها بنفحة
تدب لنا فى كل عضو ومنطق
غنيتُ بها عن شرب خمر معتق
وبالدلق عن لبس الحرير المزوق

وقوله « كافورية » ليس المراد نسبتها إلى كافور المشهور ، وإنما نسبتها إلى بستان فى القاهرة يقال له بستان كافور ، وكان يسمى البستان الكافورى ، نسبة إلى كافور الإخشيدى . وكان يزرع فيه الحشيش بكثرة ويستجاد . كالذى قال :

رُبّ ليل قطعته ونديمى
شاهدى وهو مسمعى وسميرى
مجلسى مسجدوشربى من خضـ
ـراء تزهو بحسن لون نضير
قال لى صاحبى وقد فاح منها
نشرُها مزريا بنشر العبير
أمن المسك؟ قلت ليست من المسـ
ـك ولكنها من الكافور

وقال آخر :

قم عاطنى خضراء كافورية
قامت مقام مدامة صهباء
يغدو الفقير إذا تناول درهما
منها له تيه على الأمراء

وقال بعضهم: «شر سكر سكر الحشيش»

وقال المقريزى : « ما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم » .

وقال بعضهم : إذا اعتدتها وجدتها تورث السفالة والرذيلة .

والفقراء يستعملونه على طارق شتى : فمنهم من يطبخ الورق طبخاً بليغاً ، ويدعكه دعكا جيداً باليد ، حتى يتعجن ، ويعمل منه أقراصاً . ومنهم من يجففه قليلا ، ثم يحمصه ويفركه باليد ، ويخلط به قليلا من السمسم المقشور والسكر ، ثم يسفه ويطيل مضغه . ومنهم — وهم الأكثر — من يدخنونه فى الجوزة أو فى السجاير باسم حسن كيف .

وبعض الأمراء كان يعاقب عليه بقلع الأضراس . وكان يزرع فى القاهرة فى أرض الطبّالة ، وباب اللوق ، وحكر بولاق ، ثم منعت الحكومة زرعه فى مصر ، فكان يزرع فى سفوح الجبال . وهو الآن أكثر ما يجلب من لبنان وما حولها .

وقد انتشر هذا الكيف فوقع فيه بعض الأغنياء وبعض الفقراء وبعض الموظفين ولما اعتاده بعض الأغنياء أقاموا له صالونات فخمة . وانتشر فى مصر انتشاراً كبيراً ، وتحايلوا على تهريبه ، واشتهر متعاطوه بالنكتة والخيال البارع ، ونسبت إليهم كثير من القصص اللطيفة، وحلّ المشاكل العويصة .

وقال من يتعاطاه ويتعاطى الخمر معاً : « إن الحشيش يجبن والخمر تشجع » وهذا طبيعى ، لأن الحشيش يخدر الأعصاب ويضعفها ، والخمر تنشط الدورة الدموية وتهيجها . وقال واحد من هؤلاء إنه إذا أراد مقابلة الحكام شرب الخمر ، لأنها تدفع عنه الخوف ، وإذا أراد الاتصال الجنسى استعمل الحشيش لأنه ألذ .

وللحشيش استعمالات أخرى كالمعجون والمنزول ، والمادة الأساسية فى كل ذلك هو الحشيش .

وقال مجرب للحشيش : « شعرت كأن جدران السكون انبسطت حولى ، وصدرت منه أصوات مطربة ، أزالت ما فى نفسى من هم وخوف ، وفتح أمامى فردوس النعيم ، وخضت فى بحر من البهجة والسرور ، وطفح الحب على نفسى ، وبعد ساعات قليلة أخذت هذه المناظر تقل ، وشعرت بجوع شديد ،

فدخلت مطعما أكلت فيه كل ما قدم لى من الطعام ، وأحسبه ألذّ ما ذقته ، ثم عدت إلى مخدعى ونمت نوما عميقا ، ولم يبق من تأثير الحشيش سوى اصفرار وجهى وتعب جسمى »

وقيل فى الحشيش موّال هو :

بلعت يوم بندقة فى لونها خضرة
رأيت بياض عينى صار عليه حمرة
وصرت عابر وخارج بيتنا ما أدره
وأنا ماباشوفْشِ جوه ولا بره

حطّ

بمعنى وضع ، يقولون حط رجله على السلم ، أى وضعها ، وحط فى عينه قطرة أى وضع . ولذلك يسمون القطرة والشَّشم « حطوطا » ويقولون حطّ السعر ، أى نزل وفى اصطلاح بعض التجار : الحطيطة ، وهى القدر الذى يتجاوز عنه التاجر لعميله مما اتفق عليه .

ومن الأمثال فى هذه الكلمة « حط ديله فى اسنانه » إذا أسرع ، « ويحطّ على الغلبان لما يستعجب القوى » والضمير فى يحطّ يرجع إلى القدر . ويقولون : « حط فلوسك فى كمك ، تشترى أبوك وأمك » ، « وحط إيدك على عينك ، زىّ ما توجعك توجع غيرك » وهى كقولهم : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . « وحط الفاس فى الراس » ، بمعنى أنه وضع الشىء فى مكانه . ويقولون « حط فى الخرج » عند الاستهانة بالشىء . « وحط ركّك على عافيتك ، وقول يا عينى يا حيلى » ، يقال لوجوب الاعتماد على النفس ، ويقولون : « شال الحمام ، حط الحمام » ، إذا أدرك الإنسان خير ثم ذهب عنه سريعاً .

الحظ

يؤمن المصريون كثيراً بالحظ ، ويسمونه الحظ أو البخت ، وأنه خير من الكفاية ؛ ومن أمثالهم المشهورة : « قيراط حظ ولا فدان شطارة » ، و يقولون : « إن الحظ قد يسوق الأرزاق لمن لا يدرك الخط فى الأوراق ويحرم صاحب البلاغة ولا يجد من القوت بلاغة » . و يقول الشاعر :

رزق التيوس يجيئها بسهولة
وذوو الفصاحة رزقهم مسجون
فإن كان حرمانى لأجل فصاحتى
أمُنّ علىّ من التيوس أكون

ويقول البوصيرى صاحب البردة موّالا :

ربّ الفصاحة عديم الذوق يقف أبلم
والأبلم التيس مصدّر ومتعظّم
يا رب إن كان حرمانى كما تعلم
أمن علىّ أكون تيس بن تيس أبلم

* * *

وقال الزاجل :

* * *

يا ابن آدم قِل طمعك
دى السعادة وعد سيدَك
لا تقل دا بالشطارة
أو تحصّلها بايدك
إنّ رزقك مثل ظلّك
إن مشيت مشى قبالك
من له فى الغيب شىء
لا يموت حتى يَناله

الحفا

الحفا : عدم لبس شىء فى الرجل ، والمصريون ربما كانوا أكثر الأمم حفاء . وخصوصاً الفلاحين نساء ورجالا . وهم من حفاهم قد يبس جلدهم ، لتعوّض الطبيعة عن النعل .

ومن قريب تأسست فى القاهرة لجنة لمنع الحفاء ، لأنها وجدته سبّة ، وتبرع ناس كثيرون بمبالغ طائلة لمنع الحفاء . ولكنه لم يدرس دراسة صالحة ، فلم ينجح نجاحا تاما . وربما أمكن استعماله فى المدن والقاهرة والإسكندرية . أما فى الفلاحين حيث يعمل الرجال طول النهار فى الغيط المسقىّ ماء وفى الزرع ، فلا بد من تفكير طويل لمكافحة هذا الحفاء .

حفلة التكنية

كانت تقام فى بيت شيخ السادات حفلة تسمى حفلة التكنية ، فى ليلة ٢٧ رمضان ، وهى ليلة القدر المعروفة ، يجتمع فيها كثيرمن الناس ، ويجلس فيها سيد السادات على منصة عالية وسط هذا الجمع ، وبالقرب منه كاتب أمامه سجل ، فإذا أراد أحد الحاضرين أن يكنى من شيخ السادات تقدم ومعه نقيبان من النقباء ، وتُقرأ الفاتحة ، وتمر برهة فى سكون وصمت يتوهم فيها أن شيخ السادات يستلهم السماء ، ثم يلقبه بأبى الأنوار أو أبى الوفاء أو نحو ذلك ، والمسجّل يسجل اسم الشخص وكنيته وتاريخه .

ومن المشاع أن من تكنى كنية لاتعطى الكنية لغيره . ثم بطلت هذه العادة .

الحفوف

اسم لعملية إزالة الشعر النابت على الوجه ونحوه ، بواسطة نوع من اللبان الأسود ، يسيحونه على النار ويأخذونه ساخناً ، تضعه المرأة على وجهها ثم تشده بقوة ، فيخرج معه الشعر من جذوره . يفعلن ذلك فى وجوههن وأعناقهن ، وبعضهن يزججن بواسطته حواجبهن . وهناك طريقة أخرى وهى أن يأخذن الرماد الحار يدعكن به الوجه دعكا شديداً ، فيكون له مثل هذا التأثير . وقد يعقدن العسل الأسود أو السكر على النار ، وبعد أن يعقد قليلا يستعملنه استعمال اللِّبان . وهو نوع من التجميل اعتدنه بين حين وآخر ، فإن المرأة لا تستلطف إذا ظهر فى وجهها أو عنقها أو نحو ذلك شَعر غزير .

حكم قراقوش

يضرب به العامة مثلا للحكم الظالم ، ولهم فى ذلك حكايات كثيرة عن قراقوش هذا . وللسيوطى « الفاشوش فى حُكم قراقوش » قال فيه : إنه سئل عنه سنة ٨٩٩ وهو يدرس بجامع ابن طولون فألّف فيه كتاباً يحتوى على عشرين ورقة .

وكان قراقوش هذا وزيراً للسلطان صلاح الدين ، والمعروف عنه أنه كان عادلا ، ولكنه شديد فى العدل ؛ يخضع للعقل لا للعاطفة ؛ و يظهر من سيرته أن اتهامه بالظلم ظلم ، وأنه كان مصلحاً عادلا معمّراً ، ولكن الناس ظلموه ، فنسبوا إليه كل حكم ظالم مستبد . ومن عادات السيوطى أن يفتخر بالسرعة لا بالتدقيق .

الحكومة المصرية

كانت مصر ولاية عثمانية وكانت تحكم بباشاوات من قبل السلطان ، وأحسن باشا فى نظرهم هو من ورّد لخزينة الدولة أموالا كثيرة . فكان يجور على الأهالى لتحسين سمعته عند السلطان . وكان يعين إلى فترة قصيرة ثم ينقل ، فكان ينتهز فرصة وجوده ليغتنى ، وليحسن سمعته و يصلح حال نفسه . ولذلك كان يبهظ المحكومين بالضرائب

والجبايات . إلى أن خرجت مصر من الحكم العثمانى وأصبح ارتباطها بها ضعيفا . وألفت للإدارة فروع مختلفة للبحرية والزراعة والتعليم وغير ذلك . وأنشىء مجلس عام يشمل كل المجالس الخصوصية يسمى مجلس الحكومة . ومن اختصاصه النظر فى جميع الأقسام ، فكان إذا عرض عليه أمر هام تدعى إليه جميع الحكام .

وقد قسم محمد على باشا مصر إلى سبع ولايات ، جعل على كل ولاية منها مديراً ، اثنتان فى الوجه البحرى ، وأربع فى الوجه القبلى ، وواحدة للقاهرة . وكل مديرية تنقسم إلى مراكز ، كل مركز عليه مأمور ، وفيه من يمثل الحكومة فى الزراعة ، وآخر للتعليم ، وثالث للصحة ، وهكذا . وكل مركز ينقسم إلى قرى ، وكل قرية عليها عمدة . والعمدة تحت رياسته مشايخ بلد ، وشيخ البلد هو الرئيس المباشر للفلاحين ، وكان على كل مأمور ومدير أن يبعثا بتقرير أسبوعى للداخلية يبينان فيه أعمالها اليومية .

ومما جد على مصر فى عهد محمد على اختيار كثير من المديرين والمأمورين من المصريين ، ومن الأقباط أيضاً بعد أن كانوا لا يعينون إلا من الأتراك ، وجعل لكل منهم إشارات خاصة لتميز كل واحد عن الآخر فى عمله ووظيفته .

وكان قبل عهد محمد على أكثر الأراضى ملكا للمماليك والحكومة ، والباقى للملتزمين والبعض موقوف على المساجد والجهات الخيرية . ويعرف بالرزقة .

وفى عهد محمد على غير هذا النظام وجعلت الأراضى كلها ملكا له إلا القليل المركون . وقد أبطل ملكية الملتزمين وعوضهم عنها بريع يدفع لهم كل سنة ، وبذلك زادت أمواله .

وكان هناك ضرائب على الأطيان وضرائب شخصية على الرؤوس ، وكانت تجبى هذه الضرائب على العموم بشدة وبظلم ، ومن أجل ذلك ورثنا نظر الأهالى إلى الحكومة نظرة المصيد للصائد . وورثنا أيضاً اعتقاد أن ما يمكن الاستيلاء عليه من مال الحكومة لا حرج فيه ، لأن الحكومة قد استولت عليه ظلما ، فمن استطاع أن يفر من الضرائب ، أو يأخذ قطعة أرض من أموال الحكومة فليفعل ، وهكذا ، كما ورثنا أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل .

وكان من أهم أعمال الحكومة القضاء أو المحاكم ، وكان فى القطر المصرى عدة محاكم بدائية ، بعضها للزواج والطلاق ، وبعضها للجرائم ، كالقتل والضرب والجرح وبعضها

للعقوبات . وتعتبر سلطة المحكمة مستمدة من سلطة الوالى ، فهو الذى يختار كبار القضاة ويعينهم ، وهؤلاء يباشرون تعيين مَن دونهم وكان السلطان يرسل قاضياً كل سنة إلى مصر ، وهو رئيس السلطة القضائية على اختلاف أنواعها . ولم يكن للعدالة وزن كبير ، فقد عرف عند المصريين عن القضاة أنهم يقبلون الرشوة ويحكمون بغير العدل ، وحدثت جملة حوادث تدلّ على هذا ، منها أن رجلا غنيا ترك بنتاً واحدة وترك لها نحو ستة آلاف جنيه ، فأراد أحد التجار أن يشاركها فى الإرث ، فأوعز لأحد البوابين أن يدعى أنه عاصب لها ويرث معها الميراث الشرعى ، واتصل بالقضاة ورشاهم فحكموا بذلك ، وكان الشيخ المهدى متغيباً عن المجلس ، فلما حضر شكت إليه الوارثة ، فقال لها لا يمكننى نقض الحكم إلا إذا وجدت فيه منفذاً ، ثم اطلع على القضية فوجد المنفذ وألغى الحكم ، وقضى لها بالميراث كله بحضرة الوالى ، وتذمر العلماء وكبير التجار ، وهكذا كان من بين المرتشين من يسمع لضميره ويحقق العدالة ... ومن الرشوة أن يكون أحد الخصمين وجيها والآخر غير وجيه ، فيقضى للوجيه لوجاهته لا لحقه . ومن المصائب أيضاً كانت شهادة الزور ، وتوسط النساء فى الأحكام ، وانتشار الرجاء ، وغير ذلك

ولم تكن الأمور منظمة ومرتبة ومحددة الاختصاص كما هى اليوم ، إنما كان نظاما بدائياً وأحكاما بدائية

حلب النجوم

عزيمة يزعمون أنها تحبب الرجل فى زوجته كالشبشبة .

ومن الغريب أن هذا الاصطلاح — وهو حلب النجوم — اصطلاح قديم ، استعمله أبو العلاء المعرى فى لزومياته .

حلق بلا اودان

إذا رأوا شيئاً وليس له ما يرتكز عليه قالوا حلق بلا اودان ، وذلك مثل كتاب فى يد أمّىّ ، أو أولاد ولا مال لتربيتهم . ومثل ذلك كثير . ويقولون فى عكسه : اودان بلا حلقان . وذلك إذا كانت هناك وسائل وليس هناك الغاية : كمال بلا صحة ، وامرأة جميلة بلا أولاد . ونحو ذلك .

ويتحسر بعض الناس فيقولون : لما كانت اودان لم يكن لنا حلقان ، فلما وُجدت الحلقان لم يكن لنا اودان ، كالرجل لما كان صحيحاً كان فقيراً ، فلما اغتنى جاء الغنى بعد أن فقد الصحة .

الحلم

يعتقد المصريون كثيراً فى صحة الأحلام ، وهناك بعض الفقهاء والعلماء قد شُهروا بتفسير الأحلام من عهد ابن سيرين ، ولا يزال كتابه فى تفسير الأحلام ، صدراً لهؤلاء العلماء والفقهاء . و بعض الأحلام مجرد هلوسة لا قيمة لها ، و بعضها يصدق . وفى ذلك يقول الشاعر :

وغزالة وعدت تزور محبها
في النوم كى تشفى بها الأسقام
فأجابها مستبشراً بوصالها
يا حبذا لو صحت الأحلام

والعامة يعتقدون بأن النائم تطير روحه فى النوم وهى فى لون أخضر ، فترى حوادث كثيرة ، فإذا رجعت إلى البدن تذكرت ما رأته . وكثيراً ما يفسرون الشىء على نقيضه ، فإذا رأى النائم نفسه فى ضيق دل ذلك على السّعَة ، و إذا رأى سعة فهو ضيق وشقاء . و يعتقدون فى ركوب الحمار فرجاً ، وفى ركوب الفرس عزاً ؛ و إذا أخذ شيئاً من ميت دل ذلك على طول العمر . والزواج موت ، ولبس الأبيض فرح ، والأسود حزن .

ويزعم بعض الناس أن أحلامهم لا تكذب . وأعرف تاجراً كبيراً خاصمه دائنوه ورفعوا عليه دعوى بالإفلاس ، فذهب إلى فقيه وقرأ له سورة ، فحلم أنه سيُحكم للتاجر بالبراءة ، وقد كان ذلك ، وحكمت المحكمة برفض دعوى الإفلاس .

ولى بنت تقيم فى لندن ، وهى شغوفة جداً بكسب الرهان ، فحلمت يوماً بأن الذى سيكسب فرس فرنسى اسمه كذا ، ولم تعلم من قبل ولا ورد ذلك الاسم على سمعها ، واشتهر عند الناس أن هذا الفرس لا يقدر له النجاح ، إذ هو فرس مغمور . ومن العجيب أنها وضعت بعض المال على هذا الفرس بعد التحذير ، ثم أعلنت النتيجة فى الراديو فى المساء فإذا هى الفرس الرابحة . وكثير من هذا يرويه كل إنسان فى تجاربه الشخصية .

و بعض الأور بيين يفسره باشتغال العقل الباطن فيما يعرض للإنسان فى الحياة ، فيجد فى المنام رموزاً تدل على هذه الأحداث ، و إن بعض الأحلام لا تصح ولا يذكرها الحالم ، و بعضها يتحقق ، وهو الذى يذكره .

الحماة

الحماة : أم الزوج ، وشهرتها فى عدائها لزوجة ابنها مشهورة فى الشرق والغرب . ومن الأمثلة المشهورة « الحَمَة حُمّى » .

ويقصون عليها الأقاصيص الكثيرة ، وقد قال بعض العوام فيها بعض الأزجال ، من ذلك قول بعضهم :

إن كنت داير وابن غرام
قِفْ واستمع واملا الأفهام
قصـــة ظريفة بالأحكام
اصح تكون عينك غفلانه
قلتها فى غيرة الحموات
لما رئيت منهم نكبات . .
لما تشوف ابنها نشوان
يقوم يعمل حالته زعلان
تقول له أمه زعلان على إيه
إن كان جواز قل لى عليه
وأنا أخطب لك بنت البيه
ست جميـــلة وأهل أمان
من لطشتها تقوم وتطبل
وتجمع العيـــلة وتهلل
يدخل جوزها يقف يتأمل
يلقى الدار بالفرح ملآنه
يقول لها جوزها جرى إيه
هو جنون جالك واللا إيه
الجرسة دى أمال على إيه
دى فضيحتنا بقت رنانه
وبعدها ينصبوا الأفراح
ثلاثين ليلة طوال ملاح
والهم عنهم راح وانزاح
وأم العريس تجرى فرحانه الخ

* * *

وقد اتخذت الحماة موضوعا للتنكيت على الألسنة .

الحمار

الحمار من أحسن وسائل النقل قبل اختراع الأتومبيلات . وكان يركبه الناس كثيراً فى التنقلات ، وخصوصاً النساء ، فكان يصنع لهن بردعة خاصة مريحة ويستحضر لهن كراسى للصعود منها على الحمار . وكان فى القاهرة لوحات زرقاء فى أنحاء مختلفة كتب على كل واحدة منها (موقف ستة حمير) . واشتهر الحمارون بالنكت والظرف لاستعمالهم الحشيش . كما يستعمل الحمار عادة فى حمل السماد فى الغيط ونقل المحصول ، وقلَّ من لم يكن عنده حمار أو حمير .

ويستعمل الحمارَ المصريون فى السب والشتائم دليلا على البلادة ، وهو سب للحمار ظالم ، لأنه صبور على الشدائد . وفى هذا المعنى الجيد لقّب آخر خلفاء بنى أمية بمروان الحمار ، لأنه كان جلداً صبوراً على احتمال الشدائد .

حَمَام

الحمام طائر معروف ، وقد كان كثيراً فى الديار المصرية ولكنه قلّ اليوم . فقد كان أغلب القرى لا تخلو من أبراج تصنع مخصوصاً للحمام ؛ فكنت ترى فى القرية عشرين برجا أو ثلاثين ، وتكون الأبراج مرتفعة من سبعة أمتار إلى عشرة . تبنى أولا مربعة بالطوب الأحمر ، كل ضلع منها نحو أربعة أمتار . فإذا علوا قليلا أبدلوا الطوب بقواديس الساقية ، ويجعلونها من الفخار صفوفا صفوفا ، ويجعلون فمها من الداخل ، ويصنعون حول الصفوف من الخارج عيونا بارزة ، لكى يقف عليها الحمام ، ويضعون أيضاً ألواحا من الخشب عريضة يستريح عليها . ويأتى الحمام من البرية ويقف على تلك الأبراج أو العيدان . والقواديس تصلح لتعشيشه ، فيتخذ له منها عشا ليبيض فيه ، ومتى اعتادها لا يفارقها ؛ ولا تمضى أشهر إلا وقد كثر فى البرج البيض . ومن عادة الحمام أن يبيض ويفرخ ويكون صالحا للذبح فى شهر تقريباً .

وقد يكون فى البرج نحو ألف زوج ، وربما ولد هذا العدد خمسمائة بيضة ؛ فيكون مصدر ربح كبير للتجار فيه ، وبعضهم يعتقد أن الجان تسكن بيوت الحمام .

وهم يصفونه للضعاف الناقهين من المرض . وفى الإنجيل : « كونوا حكماء كالحيّات وبسطاء كالحمام » . والحمام معروف بالحب والغزَل ؛ فإذا غاب أحد الرفيقين عن الآخر حزن عليه حزناً شديداً . وقد قالت العرب والمصريون فى ذلك أشعاراً كثيرة وزجلا كثيراً . وفى التاريخ كان لنوع من الحمام شأن كبير ، وهو حمام الزاجل ، لإرسال المراسلات ، قبل الوابورات والطائرات . وحمامة نوح التى أرسلها لتستكشف الأرض مشهورة معروفة ؛ فقد أرسل الغراب أولا فلم يرجع ، فعرف أنه لا يصلح لهذا الغرض ، فأرسل الحمام فرجعت وفى فمها ورقة زيتون .

وقد أخبر بعض الناس أنهم راقبوا الحمام فوجدوا أن الزوجين لا يخون أحدهما الآخر إلا نادراً . وحكى بعضهم أنه رأى

أنثى حمام خادنت غير زوجها فرآها الزوج بغتة فما زال ينقرها حتى أماتها . ثم خرج هائما ، وغاب يومين ورجع بأنثى جديدة .

ومن أمثال العامة « فلان زى الحمام ، يغوى كل يوم برج » ، ويضربونه للرجل المتقلب ، فإن الحمام قد يكون فى برج ، ثم يألف برجا آخر فيطير إليه . وعدو الحمام الثعبان . وهذا هو الذى دعا المصريين إلى وضع القواديس ونحوها . وقد تألف الثعابين برجا من الأبراج ، فيهرب الحمام حتى لا يعود فى البرج شىء . والثعبان يألف أبراج الحمام ، فيشرب بيضها ، ويقتل أفراخها . ومن أجل ذلك يتعهد أصحاب الأبراج البرج بالنظافة ، وكلما كبرت الأفراخ زادوا فى نظافته وبخروه بفاسوخ ، لاعتقادهم أن رائحته تبعد الثعابين .

الحمّام

قال أبو العلاء المعرى :

يعيب أناس أن قوما تجرّدوا
لحامهم نصب العيون الشواذر
لقد سعدوا إن كان لم يجر عندهم
من الوزر إلا تركهم للمآزر ...

وقال :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة
للزوج ؛ إنى إلى الحمّام أحتاج
وهمها فى أمور لو يتابعها
كسرى عليها يشين الملك والتاج

وهو يدل على أنه كان يرتكب فى الحمامات فى زمانه بعض الجرائم من نوع خاص .
ويكاد يكون فى كل حى مصرى حمام أو حمامات ، وخصصوا له بعض أيام للرجال وبعض أيام للنساء ، وكثيراً ما يذهب الرجال إلى الحمام صباح الجمعة بعد الجنابة للاغتسال واعتاد الرجال أن يناموا بعد الحمام فى ردهته قبل أن يلبسوا ملابسهم ويخرجوا .

وفى الحمام عادة رجل عريان مؤتزر إزارا يسمى « المكيِّس » لأن بيده كيسا من الجلد لا يزال يحكه على جسم المستحم ، فيتكون معه إفرازات يطردها ، وذلك قبل أن ينزل المستحم فى المغطس . واعتادت الآنسات قبل الزواج أن تذهبن إلى الحمامات مع من تسمى « البلانة » فتحميهن بعناية خاصة ، وذلك قبل الليلة التى تسمى ليلة الدخلة .

وفى الحمام أحجار خفيفة هنا وهناك يحك بها المستحم رجليه للتنظيف ، وكذلك هناك قوم وظيفتهم نتف الإبط والشعر . ومن الأمثلة الدائرة على لسان المصريين « حمام

بلا ميتة » يشبهون به الجماعة من الناس يتصايحون على غرض لم يتحقق ، وهم يعتادون أن يقول بعضهم لبعض « حمام العافية » ، يريدون أنهم يسألون الله أن يجعله حماما يذهب بالمرض ويسبل الصحة . وقد غزت فيما غزت المدنية الحديثة الحمام ، فصنع كل فى بيته حماما له ولعائلته ، واكتفوا بالبانيو عن مغطس السوق ، وصار لكل أسرة حمامها الخاص . وكم كنت أذهب مع أبى فى حمام حيِّنا ، وكان حماما كبيراً ، بجانبه مكان يسمى المستوقد ، من وظيفته أن يسخن ماء الحمام ، ومن وظيفته أيضاً أنه يدمّس قدور الفول المدمس للحىّ كله ، ثم يخلط الحريق ببعض التراب ، وتسمّى المادة بعد ذلك « القُصْرُمل » . ولا أدرى من أين أتت هذه الكلمة ، ويستعمل فى البناء مخلوطا مع الجير والرمل . ولا أدرى لماذا كنت أكره الذهاب مع أبى إلى الحمام ... ...

على كل حال كان الحمام مرفقاً كبيراً من مرافق الحى ، يتقابل فيه الناس ، ويتحدث فيه الأصحاب ، وأحياناً يقضون فيه بعض معاملاتهم . وكان لكل حىّ حمام ، ومسجد أو أكثر ، وسوق وكتّاب ... فسبحان مغيّر الأحوال .

الحمّصة والكىّ بالنار

شاهدت فى زماننا الحمّصة والكىّ بالنار لبعض الأمراض ، فالحمصة كانت عبارة عن أن المزين يفتح فتحة الذراع بمقدار ما يضع الحمصة ، ثم يضع الحمصة ويضع عليها ورقة من الورق المقوى ، ويربطها بمنديل أو شاش ، ويتركها هكذا ، وهى تمتصّ من الجسم بعض الفضلات . وكلما عطبت الحمصة غيّرها بغيرها وهكذا . ويعتقدون أنها تشفى من الصداع ومن أمراض كثيرة . وقد رأيت أبى يستعملها فى بعض الأحايين .

وأما الكىّ بالنار فيمهر فيه بعض الناس ، وخصوصاً بعض البدو ، ويستعملونه فى بعض الأمراض كعرق النسا والروماتزم . وهو علاج صعب استغنى عنه ببعض الأدوية الحديثة .

ولصعوبته قال العرب « آخر الدواء الكىّ » ولا يلجأ إليه اليوم إلا عند قليل من المعتقدين فيه .

وبلغنى عن بعضهم أن الكىّ نفع العلاج به فى أمراض لم ينجح فيها الطب الحديث .

حمل الأثقال

اشتهر المصريون بحمل الأثقال على ظهورهم وعلى أكتافهم ، سواء كانت أثقالا مادية أو معنوية ، فقد يحملون فوق وزنهم . وترى مثال ذلك إذا وقفت فى محطة السكة الحديد فى القاهرة والإسكندرية ، ورأيت مقدار ما يحملون ، كما يدلك على ذلك أيضا ما إذا وقفت على عمارة كبيرة تبنى ورأيتهم وخاصة الصعايدة منهم يحملون على أكتافهم الحجارة الثقيلة ومواد البناء . بل منهم من اشتهر بأنه يستطيع أن ينقل خزانة حديدية ثقيلة على ظهره ، وتدرك مقدار تحمّل المصريين الأثقال إذا رأيت بلاد الإنجليز مثلا ، فقد رأيتهم يستخدمون غالبا العربات الصغيرة فى نقل العفش والأمتعة ، كما يستخدمون الآلات المتنوعة فى البناء ونقل الأحجار والمؤن . وممن اشتهر بهذا أيضاً العربجية عند نقل عفش البيوت من بيت إلى مكان آخر ، فلهم قدرة عجيبة على حمل الأثقال .

الحملى

لقب يطلقونه على رجل يحمل على ظهره إبريقاً كبيراً من الفخار له بزبوز ، يسقى به من شاء .

وقد يمر على الدكاكين فيملأ لهم قللهم . وقد دعا إلى ذلك قديما صعوبة الحصول على ماء الشرب فى الطريق مع حرارة الجو .

ومن هذا القبيل ما كنت ترى فى كثير من الشوارع رجلا يحمل قربة لها بزبوز ويزعم معه الناس أن هذه القربة حلّت فيها البركة فهى لا ينتهى ماؤها .

فكلما فرغت امتلأت . وهو يلقى ماء حوله من القربة ليوهم الناس أن ما أفرغ منها كثير .

ويزعمون أنه يسقى الناس من الصباح إلى المساء وهى لا تنتهى .

الحمَّى

الحمّى معروفة وهى أنواع . وقد دلت تجارب العلماء على أنها ميكروبات مختلفة ، لكل نوع من الحمّى نوع منها يمكن الاستدلال عليه بالفحص . بعضها شديد وبعضها خفيف ، وبعضها مميت ، وبعضها لا يميت . ولكن العامة يعتقدون أنها نوع من الجن تلبس الإنسان فيمرض بها . وقد وصف المتنبى حمّى الملاريا وصفاً دقيقاً لطيفاً . وقد مرضت مرة بالحمى فمنعوا عنى كل أنواع اللحم حتى مرقته ، وغيروا كل أنواع الطبيخ حتى لا تصلنى رائحته ، حتى ضعفت وتعبت جداً . وفى اليوم الرابع والخمسين صممت على

الأكل ، فقدموا لى فرختين سمينتين وطبخوا لى ملوخيــة وتخوفوا من أكلى . ولـكن من الغريب أنى شفيت بعـد هذه الأكلة تماما . ويداوى العامة الحمى أحياناً بذبابة من ذباب الخيل ، وأحياناً يلصقونها بقطعة عجين ويلزمون المريض بأن يبلعها ، وأحياناً يسـتعملون الخل مع النشا دهاناً ، وأحياناً يلجئون إلى الأحجبة ويكتبون ورقة فيها لا إله إلا الله ، نارت واستنارت . لا إله إلا الله حول الوسن دارت . لا إله إلا الله وفى علم الله سارت . لا إله إلا الله أذنت الحمى وغارت ... وغارت ... وغارت ... وأحياناً يعلقون عظمة ميت كافر فى رقبـة المريض ، وأحياناً يكتبون حجاباً فيه (ا ح ا ك ك ح ع ح م م خ) ، لأن هـذا يميت العفريت فتذهب الحمى . وكم لهم فى ذلك من ضحايا .

ومن أمثلة العـرب المشهورة « الحمى أضرعتنى إليك » . يعنون بذلك أن الذلة التى يسببها مرض الحمى جعلتنى أتضرع إليك وأتذلل .

حنبلى

يقال للرجل المتشدد المتزمت : « حنبلى » ، نسبة إلى أحمد بن حنبل ، وهى نسبة خطأ ، لأنهم كانوا يعتقدون فيه أنه متشدد عن غيره من الأئمة ، كما يطلقونها على الموَسْوس فى الوضوء والصلاة ونحو ذلك ، كالرجل الذى يقول عند الدخول فى الصلاة نا نا نا نا ، نويو نويه، نويت الصـ ، نويت الصـ نويت الصلاة ، وهكذا . ويتوضأ ثم يتوضأ ثم يتوضأ .

كالذى يقول الشاعر :

ومُوَسْوسٌ عند الطهارة لم يزل
أبدا على الماء الـكثير مواظباً
يستصغر النهر الـكبير لذقنه
ويظن دجلة ليس تكفى شاربا

حنّـــا

لها شأن كبير عند العروس قبل الزفاف وفى ذلك ليلة تسمى ليلة الحنا سنذكرها فيما يأتى . وبعض النساء يضعن عليها مواد تجعلها خضراء أو سـوداء ، ثم ينقشن بها نقوشا مختلفة ، وأحياناً قليلة يستعملها الرجال ، وبعض الرجال يخضبون بها لحاهم إذا شاب الشعر ، ويمزجونها بالخل لتثبت ، ويضعونها على رأس المحموم لتخفف حرارته ، وخضاب

الحنا منتشر فى الشرق من قديم ، وفى ذلك يقول الشاعر :

خود كأن بنانها
في خضرة النقش المزرد
سمك من البلّور فى شبـ
ـك تكوّن من زبرجد

***

وروى لى بعض تلاميذ المرحوم الشيخ حسين المرصفى الأستاذ فى دار العلوم أنه كان واسع الاطلاع . دخل مرة فى أول السنة فصلا ، فسأل الطالب الذى أمامه عن اسمه ، فقال له الحناوى . فابتدأ الكلام فى الحنا وماورد فيها ، واستعمالها ، حتى انتهت الحصة . ثم سكت وقال : ذكِّرونى فى الحصة الآتية ، وما زال فى الحنا أسبوعا كاملا ؛ مما يدل على سعة الاطلاع وكثرة الاستطراد فى الأدب العربى . ومن الأغانى المشهورة عند المصريين

الحنّا يا الحنّا يا قطر الندى ...

وربما كانت الأغنية قديمة ترجع إلى قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون لما زفت إلى الخليفة فى بغداد ، وقد كانت الأغنية موجودة حتما فى عهد محمد على ، إذ سجل بعض المستشرقين نوتة لغنائها .

وزهر الحنا لطيف الرائحة يباع فى الأسواق . وشجرتها تزرع فى البساتين ، ويعتقد النساء أنه إذا أخذت جماجمها ، وهى الرءوس التى لم تتفتح ، وغليت فى الماء ثم شربت أسقطت الحمل . والله أعلم .

الحواشين

هى فى لسان العامة فريق من الأولياء يحوشون البلاوى عن الناس ، أى يمنعونها . يدل على ذلك القصة التى أرويها ، وهى أن رجلا من العراق جاء إلى مصر ، وكان من الأولياء ، وقابل ولياً من الأولياء ، وسأله عن القطب المتولى خفارة مصر ، فدله على جزار ، فذهب إليه وطلب منه رطل لحم فأعطاه فقال : هذا لايعجبنى ، فقطع له الجزار رطلا آخر ، فقال مثل الأول ، وما زال كذلك حتى قطع له الخروف كله . وذلك لأنه علم أن اللحم ضار ، فكان هذا الولى من الحواشين . ويقولون فى بعض استغاثتهم « حوشوا يا حواشين » .

حوش

هى كلمة تطلق على وسط الدار ، وتطلق أيضاً على بناء يبنى حول المقابر ، وتبنى فيه غرف ولوازمها حتى تمكن الإقامة فيها فى المواسم والأعياد . ويطلق ثالثا على البيت الكبير يشتمل على مساكن أرضية كثيرة يسكنها فقراء الناس وأخلاطهم . ولذلك يقولون عن أدنياء الناس « حوشى » أو « حوشية » . واشتهر من هذه الأحواش حوش « بردق » فى المنشية ، لأن سكانه كثيرو النزاع كثيرو الخصام ، لا تمر عليه إلا وتسمع غوغاء . ولذلك إذا رأى الناس زيطة قالوا : « زى حوش بردق » ويقولون حاش بمعنى « منع » « فحاشه من الضرب » أى منعه ، (وحوّش) بمعنى جمع .

(انظر الحوّاشين)

حرف الخاء

الخاطبة

هى امرأة اعتادت أن تدخل البيوت بصفة بلانة أو دلالة ، فتتعرف إلى نساء البيت وفتياته ؛ وهى توصى عادة بالبحث عن زوج للفتاة ، أو زوجة للفتى ، فتكون صلة التعارف بينهما . وكثيراً ما تبالغ فى جمال البنت وغناها ، أو تبالغ فى جمال الشاب وغناه ؛ وذلك نظير جعل تتقاضاه منهما بعد أن يتم الزواج ؛ ولما تقدمت المدنية شاهدت هذا العام فى إحدى قهاوى رمل الإسكندرية امرأة قيل لى إنها خاطبة ، يوسطها من شاء من الشبان والشابات فتجمع بينهما ، لنظر بعضهما إلى بعض ، فإذا أعجب كلٌّ الآخر تم الزواج وإلاّ لا .

وإذ كان السفور معتاداً أمكن نظر كل منهما إلى الآخر وتقابلهما مراراً حتى يتم الزواج أو يتم الانفصال .

وكان ينشأ فى العهد القديم من الخاطبة متاعب كثيرة ، فقد يتبين أن الزوجة ليست كما وصفتها الخاطبة من جمال أو غنى ، أو أن الفتى ليس كما وصفته من استقامة أو غنى ، ولكن يكون ذلك بعد انتهاء العقد وتمام الروابط ؛ وكان هذا فى أيام الحجاب أشدّ وأعنف

خان الخليلى

إنما ذكرناه دون غيره من أحياء القاهرة لأنه محتفظ بصفته الشرقية ، فهو حق فى شكل بنائه من عقود ووكالات على الجانبين تحتها دكاكين على الصفين ، يمثل حالة التجارة فى الشرق فى العصور الوسطى ؛ وتباع فيه السجاجيد العجمية والسبح الكهرمان ، والصوانى النحاسية المنقوشة أو المكتوب عليها آيات قرآنية ، ونحو ذلك

ولذلك إذا جاء السائحون فى القاهرة كان من أهم برامجهم زيارة خان الخليلى ، فيشترون منه بعض السلع الشرقية تذكاراً لهذه الزيارة ، ويشاهدون فيه نوع التجارة فى القرون الوسطى ؛ وبائعوه أجناس : منهم الأتراك والشوام والعجم وغيرهم .

الختان

يولى المصريون الختان أهمية كبرى ، حتى لقد بلغنى أن قبيلة سودانية أرادت الدخول فى الإسلام فكتب رئيسها إلى بعض علماء الأزهر يستوضحه الإسلام وما يفعله أفراد قبيلته لدخولهم فى الإسلام ، فكتب إليه العالم الأزهرى قائمة بما يجب أن يعملوه ؛ فكان أولها الختان ، فرفضت القبيلة أن تسلم ؛ وقد كانت هذه المسألة قلة ذوق .

والختان عادة تشمل الذكور والإناث جميعا ؛ فللأطفال حلاقون يتولون ذلك ، وللبنات دايات يقمن بهذه العملية ؛ وقد يتولى الأطباء هذه العملية فى بيوت الأغنياء وقد جرت عادة الأطباء أن يختنوا أولاد الأغنياء .

وربما كان المصريون أحرص الناس على الختان ؛ وقد ثبت أن قدماء المصريين كانوا يختتنون ، وربما كان هذا هو السبب فى حرص المحدثين منهم على ذلك ، وقد زعموا أنه ينجى الأطفال إذا ما كبروا من الأمراض .

وقد جرت العادة أن يكون الختان فى نحو السابعة من العمر ، وهم يحتفلون به ويؤلفون لهذا الغرض موكبا يجتمع فيه الأصدقاء والمحبون ، ويُركبون الغلام جواداً أو عربة بعد أن يلبسوه لباسا فخما وأمامه الموسيقى أو الطبل والمزمار ؛ وقد يزينون الولد بزى الفتاة الصغيرة ، ويطوفون به فى الشوارع القريبة من بيتهم على هذه الحال . وتقام مأدبة كبيرة ؛ والعادة أن يختن الطفل عقب هذه الحفلة .

والختان يفصل بين حياة الطفولة وحياة المراهقة ؛ وفى هذه الأيام من حياتى ، أعنى فى سنة ١٩٥٠ وما بعدها ، نادى بعض الناس بقصر الختان على الذكور دون الإناث ، وحجتهم فى ذلك أن ختان البنات قد سبب انتشار عادة تعاطى الحشيش والمنزول والأفيون ونحو ذلك . وذلك بسبب أن البنت إذا اختتنت ثم كبرت فختانها يقلل من لذتها الجنسية ، فيضطر الرجل إلى استعمال المخدرات التى ذكرناها لغيابه عند مضاجعتها ، فنادوا بعدم ختانها حتى لا يضطر الرجل إلى مثل هذه المخدرات ؛ ولم تلق هذه الدعوة فى أول أمرها كثيراً من الاهتمام .

والمصريون يسمون الختان طهارة كأن الفتى والفتاة يتطهران بهذا العمل .

وكثير من الناس ينتهز فرصة زواج بنت أوشاب فى البيت فيختن أولاده اختصارا لكثرة الحفلات ، فيكون الموكب مكوناً عادة من عربة للعروس وعربة للطفل المراد ختانه .

وبعضهم قبل الختان يزوّر المختتن شيخا من الأولياء كالإمام الشافعى . وعادة تجرى حفلة كبيرة فى ساحة الإمام للختان العام الذى يشترك فيه عدد كبير ، خصوصاً من أولاد الفقراء ، وتكون هذه الحفلة العامة عادة عند فتح الخليج فى النصف الثانى من أغسطس أو الأول من سبتمبر . ويعتقدون أن هذا الوقت من أنسب الأوقات ، فقد خف الحر ولم يهجم الشتاء ، وامتلأ الجو بالرطوبة مما

يساعد على التئام الجرح . وقد جرت الطبقة الكبيرة والوسطى على أن تلف القطعة التى فصلت من الولد فى منديل وتضع عليها ملحا حتى لا تتعفن ويربط المنديل فى عنق الولد على شكل عقد حتى إذا شفى من هذه العملية رماها فى النيل أو فى الخليج .

الخـــدم

كان الخدم فى الأزمنة القديمة يملأون البيوت من رجال ونساء حتى قد يفوق عددهم عدد أهل البيت . وكانت توزع أعمال البيت عليهم . فلكل خادم اختصاصه . هذا يعمل القهوة وهذا يحضر الأكل ، وهكذا ...

وكان قبل دخول أنابيب الماء فى البيوت يحضر الماء السقاء ، ويسمى سقا الحريم ، وكانت أجورهم رخيصة . وكثيراً ما وقعت من بعضهم أحداث شائنة . وكانوا كثيراً ما يتطلعون إلى البقشيش من كل من دخل البيت من الغرباء .

فما زالت أجورهم تعلو وعددهم ينقص ، حتى صعب الحصول عليهم . وهم اليوم كالكبريت الأحمر . وقد هجر كثير البيوت الواسعة للشقق الضيقة لقلتهم ، فقد أفسدهم كثيراً استخدام الأجانب لهم ، لأنهم يعطونهم الأجرة الكثيرة ، وخصوصاً فى أيام الحروب ، ويعاملونهم معاملة الإنسان الحرّ ، ولذلك كانوا يفضلون الخدمة عندهم على الخدمة فى بيوت المصريين . وكل من كان من بلد أحضر خادمه أو خادمته من بلده ، ومن لم يكن من بلد ، أحضرهم له طائفة تفتح دكاكين فى مصر ، يسمون المخدّمين ، وبعضهم يعمل أيضاً عمل ما ذكرنا فى الياسرجى .

(انظر الرقيق)

الخرافات والأوهام

الحق ان المصريين يفوقون غيرهم فى الخرافات والأوهام . والاعتقاد فيها عادة يلازم الجاهل سواء كان متدينا أو غير متدين ، فإذا زال الجهل زالت ، فإن كان غير متدين اعتنقها ، وإن كان متدينا حوّل العقائد إلى خرافات . فكم لهم من عقائد فى رؤية الجن مبثوثة فى ثنايا هذا الكتاب ، فهم يظهرون أحيانا فى صورة قطط أو كلاب ويحدفون الطوب من البيوت الخربة ، حتى ليكاد كل شر فى الدنيا منهم ، وحتى كأن كل شىء فيه جنىّ أو جنيّة ، وهم يسكنون الشوارع ، وخصوصاً فى الظلام ، والمقابر والآثار القديمة . وهم يحبسون فى رمضان ويطلقون فيما عداه . وإلى جانب الجن الأولياء . وكل شاذ ناقص الخلقة ولى من أولياء الله ،

تستجاب دعوته وتلتمس منه البركة ، وكل ميت منهم له سر باتع .

وقد يكون بعض هؤلاء مجانين أو مجاذيب . فهم يعللون جنونهم أو انجذابهم أو إتيانهم الأعمال الشاذة باتصالهم بالله وملائكته . والقاهرة مملوءة بالمشايخ : كالمتولى فى باب زويله ، وسيدنا الحسين بجانب الأزهر ، والسيد البدوى فى طنطا ، والدسوقى فى دسوق ، وتقام الموالد لهؤلاء الأولياء يأتون فيها بالعجائب .

ويعتقدون فى العين وأثرها ، فهم يخشون منها فى كل شىء ، فإذا أعجبوا بشىء قالوا ما شاء الله ! اللهم صلّ على سيدنا محمد .

ويعتقدون فى البخت والقدر ، وينسبون كل أفعال الخير والشر إليهما ، والأحجبة وأهميتها وأشكالها وألوانها ، وتبركهم بحدوة الحصان ، والكتابة على الدكاكين بأنها فى حماية الله ، ويعتقدون أشكالا وألوانا فى الأحلام ، وفى أيام السعد وأيام النحس .

ويعتقدون النحس فى يوم السبت ، والخير فى يوم الجمعة ، فيقولون : يوم الجمعة يوم الفضيلة ، ويتشاءمون من ساعة فيه ويقولون إنها ساعة نحس ، ويذهبون إلى العرافين ليخبروهم بالماضى ، ويتنبؤوا بالمستقبل ، من وَدَع ، وقراءة كف ، واعتماد على الزايرجا ، واعتماد على الحروف وجمّلها ، والاستخارة وأشكالها .

ومن قديم من عهد الفراعنة أتقنوا فن السحر ، يستحضرون الأرواح ويستخدمون الأطفال فى المندل ويعتقدون فى التنجيم ، وأن السعادة والشقاء مرتبطان بالنجوم . وتفتح الجرائد إلى اليوم فترى خصائص من ولد فى أكتوبر وفى كل شهر وفى كل أسبوع من الشهر ويعتقدون فى الكيمياء والقدرة على قلب المعادن إلى ذهب والخرافات حول ذلك ودوران الغَجَر على البيوت ينادون : نبين زين ! والذين يستحضرون الثعابين من البيوت ، والمناداة على الرُّقى فى أيام عاشوراء ، والذين يحاربون بالبخارى الخ الخ ... حتى ليكاد الإنسان يرى فى كل خطوة خرافة . وهذه كلها تزول تدريجا مع العلم .

وبعبارة أخرى تزول مع زوال الجهل . ولذلك ترى أنه كلما أغرقت قرية من القرى فى الجهل كثرت فيها الخرافات .

الخرج

الخُرْج وعاء من صوف أو قطن ذو جنبتين ، يوضع على الحمار أو الحصان أو الجمل أو الكتف ، ويأخذه معه من أراد سفرا أو خروجا إلى مكان بعيد ، فيملؤه من الأشياء التى يريد إهداءها لبيته : ككيزان ذرة أو شمام أو بطيخ أو نحو ذلك .

وقد اعتاد الأطفال المصريون أن يغيظوا التجار الشوام الذين يحملون على أكتافهم الصابون ينادون عليه فيقولون : « محمود فى الخرج » فيغتاظ البائعون من ذلك ؛ ولا أدرى ما سبب هذه الكلمة .

وقد يبالغ الأغنياء فى الخُرْج فيطرزونه بالذهب أو الفضة ، ويتخذون منه آلة للزينة والزهو . وكثيراً ما يتخذ الخرج أداة من أدوات الحاج عند سفره إلى الحج ، ليعود وخُرْجُه مملوء بالهدايا ، كماء زمزم وبعض التمر الجاف وبعض الهدايا الفضية ، كالدبل والخواتم والسبَح ؛

خرزة البقرة

يزعم النساء أنه توجد فى عنق بعض الأبقار أو بطونها قطعة شحم لها وصفة عجيبة وهى تسمين الهزيلات . ولذلك يرجو بعض النساء الجزارين فى البحث عنها ، وهى شهيرة عندهن .

وربما كانت أسهل هضما من المفتقة .

وقد يصنع بعضهم الحلبة مطبوخة بالعسل بدل خرزة البقرة والمفتقة . ويضيفون عليها أيضاً البندق المقشور والسمسم ، وهى أخف منهما وأصح لقلة لَخْبطة الأصناف .

وطريقة أكل هذه الأشياء فى الغالب أن يؤخذ نصف الرغيف أو ربعه ويحمر ، ثم توضع ملعقة أو ملعقتان من المفتقة أو خرزة البقرة أو الحِلْبة على ظهر الخبز ، أو فى داخله ، ثم يؤكلان معاً قطعة فقطعة .

الخزام

حلقة كان يضعها نساء بعض الطبقة الدنيا وبعض الفلاحات ، خصوصاً أهل مديرية الشرقية ، فى الأنف ؛ وقد ورد الخزام فى غناء بعضهم ، وهو زينة ليست بالجميلة . وعند الأغنياء يكون هذا الخزام من الذهب .

الخس

اعتاد المصريون أن يأكلوا بين الأكلات أشياء خفيفة يسمونها (شبرقة)، كاللب والحمص، ومن ذلك الخس والملانة وهى الحمص الأخضر. وقد اعتادوا أن يأكلوهما فى ليلة شم النسيم، فيحرصون على أكل البيض الملوّن يوم السبت الذى قبل شم النسيم، ثم الملانة والخس ليلة شم النسيم. وفيها يشمون البصل الأخضر ويعلقونه على رؤوسهم إلى الصباح. ثم يأكلون الفسيخ ظهراً، ويشترك فى ذلك المسلمون والنصارى جميعا، فهو يوم شعبى.

وقد ترى الناس يأكلون الخس وهم يمشون فى الشوارع، أو يقزقزون الملانة أو اللب، أو يمصون القصب ويرمون قشره مما يقذر الشوارع كثيرا.

وإذا نظرت إلى كناسة الشارع يوم شم النسيم رأيت عجباً من بقايا هذه الأشياء

ومما تصنعه الطبقة الوضيعة يوم شم النسيم غير أكل الخس والملانة شرب الخمور، وهم بعد شربها يتصايحون فى الشوارع، ولذلك يمتنع خيار الناس عن الخروج فى ذلك اليوم اتقاء للأضرار.

وكثيراً ما يستعملون الخس فى السلطة مع بعض البقول، وقد اشتهر بالخس سيدى المليجى فى مليج، ولذلك ينادون عليه «خَسَّك يا مليجى» كأنه من اختصاصه، كاختصاص الإمبابى بالترمس.

الخشبة التى تطير

يعتقدون أن الولى إذا مات ووضع فى خشبة الميت وأريد أن يدفن فى مقبرة لا يرضاها ثقل جداً على الحاملين له حتى لا يستطيعوا السير به. وكثيراً ما شوهد ذلك فى القاهرة والأرياف. وقد شاهدت مرة ميتاً فعل به ذلك. وكلما مشى به حاملوه توقفوا، فإذا غيّروا وقف الجدد أيضاً، ثم أراد الحاملون أن يضللوا الشيخ فلفوا بالخشبة جملة لفات حتى لا يعرف الشيخ أين يتجهون، ثم ساروا بالخشبة فسارت بهم.

وهناك منظر آخر نشاهده فى هذا الباب وهو أن يدّعوا أن الشيخ يريد أن يسرعوا به إلى الدفن فيجروا بالخشبة ويزعموا أن الشيخ يطير.

وقد نشر فى الجرائد منذ أيام عن تنازع بلدين على الشيخ فى أيهما يدفن، وقد فصل بينهما الشيخ الميت باتجاهه إلى مقابر أحد البلدين، وبذلك حسم النزاع.

الخصاء

هو عملية جب المذاكير، والذى كبر منهم يستخدم فى البيوت لحفظ الحريم ومراقبتهن ولا يطلع عليهن من الرجال غيرهم . وهى عادة قديمة تكلم عنها الجاحظ فى كتابه « الحيوان » . ويقوم بهذه العملية فى مصر فى الأغلب مدينتا أسيوط وجرجا — يقوم بها جماعة من الأقباط . وعاصمة هذه العملية قرية قرب أسيوط تسمى زاوية الدير . ويموت من هـذه العملية نحو ٢٥٪ من أثرها . ومن الخصيان من بلغ مبلغاً عظيما كخليل أغا ، وهو أغا والدة الخديو إسماعيل . فقد كان يترأس فى الحفلات حتى على الوزراء ، وقد أشرف على بناء مسجد الرفاعى وبنى له مدرسة هى التى تسمى إلى الآن مدرسة خليل أغا . وقد رفع السلطان محمود أحد أغواته إلى رتبة باشا . والخصاء هذا يميز صاحبه ، فترى جسمه مترهلا وصوته رقيقاً وعينه ذابلة . وكأنه يريد أن ينتقم مما فعل به فيكون فى العادة جباراً . ومنهم من لم يمنعه جبه عن فجوره وفساده ، فيكونون أحياناً وسطاء بين سيداتهم وأحبائهن . بل أحياناً يتصلون بالنساء . ومنهم من يتزوجون على هذا الوجه . وفى التاريخ أعمال كثيرة لهؤلاء الأغوات بعضها عظيم وبعضها فظيع .

الخضاب

اعتاد بعض المصريين من رجال ونساء أن يخضبوا ، وقد كان الخضاب أولا بالحنّاء ، ثم صاروا يخضبون باللون الأسود بمستحضرات من الأجزاخانات ، يسترون به الشيب ليدلوا على صغر سنهم أو سنهن ، ومنهم من يجيد الصبغ حتى يُرى أن المصبوغ طبيعى .

الخضر

يعتقد بعض الأولياء أنهم رأوا الخِضر فى يقظتهم ، وخاطبوه وخاطبهم ، وهو عبد صالح كان مع موسى ؛ ويزعمون أنه شرب من عين الحياة ، فلم يمت من عهد موسى إلى اليوم ، وأن الأولياء الصالحين يرونه جهاراً ويخبرهم بالمغيبات ، وإذا ذكروه قالوا : عليكم السلام ! إيهاما بأنه مرّ عليهم وسلّم عليهم .

الخطوة

يقولون خطوة عزيزة ، إذا غاب الزائر — الذى يدّعى أنه عزيز — مدة ثم حضر . وتستعمل الخطوة بمعنى آخر : فيقال أهل الخطوة . وهم قوم يزعمون أنهم قادرون على قطع المسافة فى خطوة ، فيكون مثلا فى لحظة فى مصر ، وفى اللحظة الأخرى فى الحجاز ، لا يعوقهم بحر ولا جبل . ولهم فى ذلك حكايات غريبة ، كحكايتهم عن قوم يقيمون فى بلد ، ثم هم يصلون كل صلاة فى وقتها فى الحرم المكى والمدنى . ولذلك إذا كان رجل بعيد وحضر فجأة قيل له : هل أنت من أهل الخطوة ؟

وتستعمل بمعنى المسافة القريبة ، فيقال بينك وبين المكان الفلانى خطوة ، أى مسافة قليلة ؛ ومثلها فى هذا الاستعمال « فركة كعب » . ويستعملونها فى الدلالة على اعتقادهم فى القضاء والقدر : فيقولون بين الخطوة والخطوة يفعل الله ما يشاء . ولا تمشيش خطوة على خطوة إلا بإذن الله .

وسموا بعض الناس أبا خطوة . ويعتقد النساء أن المرأة إذا كانت عقيما وتخطت قتيلا زال عقمها .

خلخال

حلية تلبسها المرأة فى الرجل ، وقد يكون من ذهب ، وقد يكون من فضة ، وقد يكون من نحاس مطلى بالذهب .

والمرأة المستهترة تلبس الخلخالين فى رِجل واحدة ، فإذا مشت كان للخلخال صوت يلفت إليها الأنظار ... وقد بَطَلَ استعماله فى المدنية الحديثة .

الخلوة

كان فى بعض المساجد حجرة منعزلة يأوى إليها بعض الناس للخلوة أياما معدودة يكثر فيها من التأمل والذّكر .

وقد اعتاد بعض الصوفية أن يخصصوا أياما للاعتكاف فيها وقضائها فى العبادة .

وقد سمى بعض الصوفية لذلك بـ (الخلوَتى) ، وهناك طريقة صوفية تسمى الخلوَتية .

الخليج

كان يشق القاهرة فى العهد القريب خليج ، يفتح له ماء النيل عند فيضانه ، ويسمى ذلك فم الخليج .

وكان طويلا تبنى على ضفتيه بيوت الأغنياء للاستمتاع بمنظره ورطوبة الجو .

وقد تمد منه أنابيب لهذه البيوت لتستقى منه .

وكان كثير الأضرار ، إذ لم يتعفف بعض الناس من أن يصبّ فيه القاذورات أو يرمى فيه الحيوانات الميتة المتعفنة ، أو ترمى فيه لحمة الختان .

ولعذوبة الماء كان يسرع إليه الفساد ، فإذا شرب وملئت منه القلل مرض شاربه ، كما أنه فى أيام الفيضان كان يحمل الطمى الضار بالشرب .

ولذلك صنعت الحكومة خيراً بردمه ، خصوصاً وأنه كان أيضاً عرضة لتوليد الناموس والحشرات إذا أخذ النيل فى الانحسار . وإلى الآن ترى فى القاهرة شارعاً يسمى شارع الخليج ، يجرى فيه الترام بعد أن كان يجرى فيه الماء .

الخماسين

الخماسين أيام خمسون بعد شم النسيم تهب فيها رياح شديدة من الجنوب ، وتكون سموما حارة . فإذا هبت الرياح اصطبغت السماء بالحمرة قليلا أو كثيراً ، وقد تمتد حتى يتعثر التنفس على الإنسان . ويشيع المصريون أنها أبادت قوافل برمتها فى الصحراء . وقبل هبوب الخماسين يخرج المصريون إلى المزارع لشم النسيم . وهم يعتقدون أنهم إذا شموا النسيم فى ذلك اليوم وهو اليوم المعروف بشم النسيم ، اتقوا شرور الرياح الخماسينية .

خمسة وخميسة

هى عبارة عن كفٍّ فيها خمسة أصابع ، وتصنع عادة من عاج أو من فضة أو من نحاس مطلى . ويزعمون أنها تستلفت النظر فتقع عين الحسود عليها ، فلا يؤذى الشىء الذى وضعت عليه ، لأن عين الحسود لم تقع على الشىء إلا بعد أن تقع على الخمسة والخميسة . ويعلقونها على كل من يخشون حسده ، خصوصاً إذا كان جديداً ، كسيارة جديدة ، أو فرش جديد .

الخواجة

الخواجة فى لسان المصريين هو أوربى يلبس بدلة وبرنيطة ، سواء كان روميا أو إيطاليًا أو إنجليزيا أو غير ذلك .

وهو يحترم فى مصر ، ويخاف منه ، ويعتقدفيه العلم والأمانة أكثر من المواطنين ، وخصوصاً فى الزمن الماضى . فإذا قدم طبيب وكان خواجه اعتقد أنه طبيب أمهر من الأطباء المصريين مهما كانت شهادته وضيعة . وإذا كان تاجر يونانى ببرنيطة استطاع أن يشترى من الفلاّحين قطنهم أكثر مما يستطيع التاجر المصرى مهما غشهم وخدعهم . وإذا وعد المصرىّ الخواجة اعتقد أنه يفى بوعده أكثر ممّا يفى المصرى . وكم ضحك الأوربى على ذقن المصرى ، لا لشىء إلا لأنه خواجة . وسبب هذا أن الخواجات الأوربيين هم الذين غزوهم وفتحوهم ، فأجلوهم جميعاً ، وخافوا منهم من غير تفرقة بين إنجليزى وغيره ...

ومن أسباب ذلك أيضاً المحاكم المختلطة وما كانت ترهب به المصريين ؛ ولهذا كان كثير من العقلاء يتوقى الدخول فى هذه المحاكم .

وقد أوجدت هذه الحالة مركب النقص فى المصريين ، فاحترموهم واعتقدوا فيهم الكمال فى كل شىء ، مهما كان الخواجة ساقطا . ولما كثر غش بعضهم وأدركوا ألاعيبهم ورأوا أنهم ناس كسائر الناس يخدعون ويكذبون قلّ احترامهم لهم ، ولم تعد لهم المنزلة الأولى التى كانت لهم .

ونشاهد أن منزلتهم فى الإسكندرية أقلّ من منزلتهم فى القاهرة لكثرة اختلاطهم بهم ومعرفتهم إياهم .

ولا يطلقون الخواجة إلا على من كان نصرانيا ، ولكن الأتراك قد يطلقونه على بعض المسلمين أيضاً . ولما ثارت مسألة زواج الشيخ على يوسف وطُعن فى كفاءته لبنت السادات أحضر نسبه ليدفع به عن نفسه ، فكان من ضمن أجداده من يسمّى الخواجة فلان ، فطعن فى نصرانية أجداده .

خيّال

يستعملونها بمعنى كفءْ ، ويقولون أنا خيّالها ، أى كفءْ لها . وتقول النساء عن التى يتأخر زواجها : « خلّيها لما ييجى خيّالها » .

خيال الظل

(انظر قراقوز)

حرف الدال

الدراويش

يطلق هذا الاسم على الصوفية ، وهم كثيرون فى مصر ، ويُحترمون كثيراً . وأكثرهم احتراما من كان من الأشراف أو من بيت أبى بكر ، ويلقب بالبكرى ؛ وعمر ، ويلقب بالعُمرى . ويلقب رئيس الطائفة بشيخ السّجّادة ؛ وتعتبر السجادة العرش الروحى . وفى مصر أربع سجاجيد كبيرة . وأشهر طوائف الدراويش هى الرفاعية نسبة للسيد أحمد الرفاعى ، وعمامتهم سوداء ، أو من الصوف الحالك الأزرق .

واشتهروا بالإتيان بالأعمال العجيبة : كغرز المسامير الحديدية فى أعينهم من غير أن يقاسوا ألما ، وابتلاع الجمر والزجاج ، وخرق أجسامهم بالسيوف ، وخدّهم بالمسلاّت .

وأحياناً يحرقون قطعة من جذع النخل ويحشونها بخرَق غمست فى الزيت والقطران ، وإشعالها ، ثم وضعها مشتعلة تحت الإبط .

ومن الدراويش فرقة السعدية وأعلامها ، وعمائمها خضراء ، واشتهروا بإمساك الثعابين السامّة والعقارب بلا خوف . ويركب شيخ السعدية فى المولد النبوى والموالد الشهيرة حصاناً ويسير به على بعض أجساد أتباعه ، ويسمى هذا الموكب بالدوسة . ومن الطوائف طائفة القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلانى . والأحمدية نسبة إلى السيد أحمدُ البدوى . والشعراوية ، نسبة إلى مؤسسها الشيخ الشعراوى . والبيومية ، نسبة إلى السيد على البيومى . والبراهمة ، أو البرهامية ، نسبة إلى سيدى إبراهيم الدسوقى ، وأعلامهم خضراء .. الخ .

وهم كثيرون ، وقد نشروا فى البلاد الخرافات والأوهام . وكلما كان الرجل مجنوناً أو قليل العقل اعتقدت فيه الولاية .

الدربكة

هى نوع من الطبل يوقع عليه المغنّيات نغمات خاصة بدائية ، ويمتاز بذلك السودانيات . وربما أخذ من نغماتها « الجَزْبَنْد » الحديث ، فهو يشبه هذه النغمات السودانية .

دستور

يطلقون الدستور على الحجر المنحوت تبنى به البيوت . ويقال : بنى بيته بالدستور . ويطلقونه أيضاً على القانون الأساسى لنظام الحكم ، ويقال : هذا موافق للدستور ، وهذا مخالف له . ويستعملونه ثالثاً إذا مرّ رجل على امرأة ليعلنها بالتحجب ، فالرجل إذا طلع السلم على الحريم قال دستور أو يا ساتر ،

فتسمع المرأة ذلك فتحتجب . ويستعمل أيضاً عند زيارة الأضرحة والمشايخ ، فيقول الرجل أو المرأة : دستور ياسادة ، كأنه يستأذن فى الزيارة ... وكذلك إذا أرادت سيدة أن تكبّ ماء قذراً مثلا فتقول دستورا! تحذيراً للمارة ، وكذلك احتراساً من أن الشىء يصب على الجن فيتأذون ويضرون الفاعل ، فهذه الكلمة تمنع منه .

دغرى

يقولون : امش دغرى ، بمعنى امش مستقيما ؛ وهى تركية أصلها طغرى .

الدَّلاَّلة

امرأة تشترى البضائع المختلفة الخاصة بالنساء ، كالمناديل وقمصان النوم والزيت والصابون والروائح العطرية ونحو ذلك . ثم تدخل بيوتا خاصة اعتادتها ، وتبيع هذه السلع بأثمان أكثر مما اشترت . وهى عادة تنقل أخبار البيوت وسرائرها باتصالها بالخدم ومعرفة أسرار البيوت منهم .

دودة الأنف

يزعم العوام أن فى الأنف دودة صغيرة ، وأن بعض الناس عندهم عزائم إذا تلوها وحكّوا الأنف نزل الدود منها . وشاهدت ذلك بنفسى وجُرب بالفعل معى . والغالب أن هذا الرجل دجّال ، وأنه يستحضر فى كمه بعض هذا الدود ، ثم بحركة خفية ينزل هذا الدود من كمه على أنف الطفل ، فيُظن أنها نازلة من الأنف مباشرة ، والله أعلم .

الدين

إنما نتكلم عليه لأن له أثراً كبيراً عميقاً وظاهراً فى الحياة الاجتماعية المصرية . والحق يقال إن المصريين معروفون من قدم بالتديّن حتى من لم يتديّن منهم يتحمس للدين إذا مسّ ولو مساً خفيفاً . وأكثر المصريين مسلمون ، ولكن أكثرهم يعتنق الإسلام بعد أن امتلأ بأوهام من الديانات الأخرى ، وبعد أن تسربت إليه عادات وتقاليد ليست منه فى الأصل . وترى الدين الإسلامى فى شتى المظاهر : فأنت إذا فتحت الراديو سمعت تلاوة القرآن والأحاديث الدينية ، وإذا مررت فى الشوارع رأيت المساجد ومآذنها العالية ، وإذا عشت رمضان فى مصر ، رأيت الحياة

البيتية تتأقلم برمضان . فاحتفال بالإفطار وإحسان إلى الفقراء ، وسهر للسحور والمسحراتية ، ومدافع الإفطار والسحور ، والإمساك ، وكثرة الابتهالات ، وإخراج زكاة الفطر قرب العيد . وإذا حضرت موسم الحج رأيت الرغبة فيه والاحتفال به والدعوة إليه ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وإذا نظرت إلى بيوت المصريين القدماء رأيت الحريم منفصلا عن مواضع الرجال ، لما يعتقدونه فى الإسلام من الحجاب ورأيت الناس يعملون رغبة فى الجنة وخوفا من النار . ومن ناحية أخرى ترى الاعتقاد فى الجن وتأثيرهم ، وفى الذِّكر وفى الأولياء ، ولا يعملون عملا إلا إذا قالوا إن شاء الله ، ولا يخرجون من عمل حسن إلا إذا قالوا الحمد لله . ثم هم يعتقدون كثيراً فى القضاء والقدر ، ويؤثر ذلك فى عدم التطلع لما هو آت وعدم الحزن على ما فات .

ويعتقدون فى البعث ويوم الحساب . وكثير ممن يأتون بالفضائل كالصدق والصبر والكرم والشجاعة يعتمدون فيها على الدين ، ومنهم من تدين حتى ترى الدين فى كل حركاته ، وحتى من تربوا فى المدارس الأجنبية دعاهم اختلاطهم بالنصارى إلى التمسك بالدين فالإسلام يتغلغل فى أعماق نفسه ولو لم يؤد شعائره ظاهراً . وقد ظن بعض الآخذين بالظواهر من الأجانب تنصير من تفرنج من المسلمين ثم خاب فألهم . ثم هم كانوا يعاملون الأرقاء معاملة حسنة امتثالا للدين ، ويعاملون الحيوانات معاملة حسنة امتثالا للدين ، وليس الإسلام دين تبشير ، ومع ذلك يدخل فيه الوثنيون أفواجا لبساطته واعتماده على كلمتين : « لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله » ولكن لمخالطة المسلمين لأمم أخرى كالأقباط واليهود أخذوا عنهم بعض التقاليد وأعطوهم البعض الآخر ، وعلى العموم يكاد الإسلام يتغلغل فى الحياة المصرية إلى حد كبير .

وقل أن ترى من بعضهم عملا إلا والإسلام عنده باعثه والمطالب به . وكذلك إذا تجنبوا عملا فالإسلام هو الباعث على تجنبه والكف عنه .

حرف الذال

الذقن

تنتج بعض أشجار اللبخ شيئاً أصفر أشبه بالقطن المندوف ، له رائحة خفيفة طيبة ، ومن ظرف المصريين أنهم يسمونه ذقن الباشا ، كأن منظره يذكرهم بالباشا العظيم الترف إذا كان له ذقن بيضاء .

وقد يتجمع الأطفال حولها للهو واللعب . ومن الأمثال المشهورة فى الذقن « واحد شايل دقنه والتانى تعبان ليه » يضربونه مثلا لمن يحمل هماً لآخر وليس له شأن فيه . ومن أمثالهم أيضاً « أردب ماهولك ما تحضر كيله ، تتغبَّر دقنك ولا ينو بك إلا شيله » ، وكلا المثلين يحرض على اهتمام المرء بنفسه دون تدخل فى شؤون غيره ، جريا على القاعدة السخيفة التى تبنى عليها معاملتهم ، ويفسرها قولهم دائما فى كل شىء : وأنا مالى .

ذمـــة

يسمى المسلمون النصارى واليهود الذين يدفعون الجزية أهل ذمّة ؛ أى هم فى ذمة المسلمين ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . ويقولون للرجل الفاسد : خرب الذمة ، وذمته واسعة .

وأنشأ بعضهم مجلة فكاهية وسماها كلمة مشهورة وهى « السبعة وذمتها » ولا أدرى أصلها .

وكذلك يقال للرجل الفاسد : ماعندوش ذمة : وللرجل الراحل إلى الدار الآخرة : فى ذمة الله . وإذا أراد رجل أن يستحلف آخر يقول له : أذمّتك هل حصل كذا .

الذوات

كلمة تطلق على الطبقة الغنية ، أصلها ذوات الحيثية ، ثم اكتفى بالقسم الأول . والحيثية نسبة إلى حيث ، أى حيث يكون لهم شأن . وأولادهم يسمون أولاد الذوات .

وهى كلمة تدل على إباحية واستهتار ، وإفراط فى الخمر والنساء ، وما إلى ذلك .

والحق أنه فى مصر تتميز الطبقات تميزاً كبيراً ، فمنهم من يملك عشرين ألف فدان أو أكثر ، ومنهم من لا يملك شيئاً : حتى جاء قانون الملكية ، فحصرها فى مائتين ، والناس يقدرون بعضهم بمقدار ملكيتهم . ولذلك كثيراً ما يسألون عن الرجل فيقولون عنده كام فدان ، وعليه كام طين . وكانت هذه الطبقة ذات شأن كبير فى مصر ، حتى كأنها فوق القانون .

فهى التى تنشىء العادات والتقاليد ، وهى التى تتحكم فى الأسعار . ومن العجيب

أن نسبة ذريتها تكاد تكون نسبة عكسية مع أطيانها وعقاراتها .

فالأغنياء قليلو الذرية غالبا بعكس الفقراء. كأن الترف يُقل نسله . وهم فى حياتهم الاجتماعية متميزون ، يغالون فى المهر وفى النفقة ، وفى العادة لا يعرفون كيف يحسنون تربية أولادهم . فالاعتماد فى التربية على أبناء الفقراء وأبناء الطبقة الوسطى .

وأعرف صديقاً لى كان ابنه وابن حاجبه فى كلية الحقوق ، فكان ابنه يرسب فى الامتحان وابن حاجبه يكون الأول عليه . والطبقة الوسطى عادة تقلدهم ، وتشرئب إليهم ، وتتشبه بهم .

ولذلك تتكون العادات من أعلى إلى أسفل . وقد شهروا بالفخفخة وحب السيطرة، وكانوا أشبه بأصحاب الإقطاعيات . والفلاحون عندهم كأنهم عبيد مملوكون كالأرض .

وقد ساعد على ذلك ما كان فى مصر من قلة الضرائب ، فكان أكثر المحصول يذهب إليهم أو إلى جيوبهم ، وأقله يذهب إلى الفلاحين . ولذلك يقولون لمن تكبّر وتجبّر « عامل ابن ذوات » . وهناك شوارع فى القاهرة كأنها وقف عليهم لا يستطيع سكناها غيرهم . ومصلحة التنظيم تعاملهم أيضاً فى الكنس والرشّ والنور معاملة ممتازة .

وهم عادة مع غناهم يشترون السلعة بأقل مما يشتريها الفقير ، لأنهم يشترون كل شىء فى إبانه ، ويختزنونه على مدى السنة ، من سمن و بصل وغير ذلك .

وهم لم يحسّوا أثناء الحرب بالحرب ، فرزقهم واسع وهم فوق التموين وقوانينه ، وقد زال كل ذلك فى العهد الجديد .

ومنهم تنبع الأمثال الدالة على احتقار المال ، لأنهم لا يتعبون فى تحصيله . ومن غناهم وفقر غيرهم تكوّنت الاشتراكية ، إذ رأى الاشتراكيون أن الحالة فى الأمة لا تجرى على عدل ، فالأغنياء فى ذروة لا يتميزون بذكاء ولا حسن تجارة ولا عمل .

وإنما أغلب غناهم نشأ من إرث ، أو مساعدة المقادير ، ولذلك بدأت تخف الفوارق شيئاً فشيئاً بين الأغنياء والفقراء .

والناس سائرون فى كل العالم إلى ذلك .

الذوق

اشتهر القاهريون بالذوق . يظهر ذلك فى نكتهم ، وأناقة ملبسهم ، وطرق حديثهم (انظر ابن ذوق)

حرف الراء

الراية

يكثرون من استعمال الرايات الحمراء أو الخضراء للدلالة على الفرح ، تمييزاً له عن المأتم . وإذا لم يقيموا صواناً علقوا رايتين كبيرتين على باب البيت للدلالة عليه .

ويستعملونها أيضاً فى الموالد . وإذا كانت عصاها كبيرة سميت بيرقا .

وعندهم عقيدة أن هناك بيرقا يسمى بيرق النبى ، يستخرجونه إذا جدّ الجدّ ، وحزب الأمر . وفى هذه الحالة يحمله عظيم وينشره ، فيلتف حوله الناس ، كما فعله السيّد عمر مكرم فى حرب المصريين مع الفرنسيين .

وكانوا يعتقدون أنه عند السلطان عبد الحميد بيرق نبوى إذا نشره وجب على كل مسلم الخروج للجهاد .

الرّبط

الرّبط هو عمل سحرىّ يعمله الشيخ ويتلو عليه عزائم ، يزعم الناس أنه يعوق الرجل عن الإتيان بالأعمال الجنسية . ولذلك يلجأ المربوط إلى هذا الشيخ أو شيخ آخر ، يحلّ هذا الربط ، فإذا حلّ عاد الرجل إلى طبيعته الأولى .

ويكثر ذلك فى القرى . ويسمى المصريون الحكام القابضين على زمام الأمور : أهل الربط والحلّ ، وأحياناً أهل الحل والعقد .

ويسمون الأولياء الذين يتولون حكم الأقاليم فى زعمهم أهل الحل والربط أيضاً .

الرتب

هى الألقاب التى يعطيها الخديوى أو نحوه لمن أراد أن ينعم عليه ، من بيك درجة ثانية ، وبيك درجة أولى ، وباشا . ومثل الرتب العسكرية كالصاغ واللواء والفريق ونحو ذلك . وقد كانت هذه الرتب مستعملة فى عهد إسماعيل وتوفيق ، ولكن رتبة « الأفندى » كانت أعظم مما هى اليوم . ولذلك كان النساء إذا عظّمن سيدة قلن إنها الست أم الأفندى ، ولا يقلن أم البيه ولا الباشا .

وفى عهد الخديوى عباس أصبحت الرتب فوضى ، ولها سماسرة يقبضون شيئاً لأنفسهم وشيئاً لغيرهم ، وحدد تقريباً سعر لكل رتبة يدفعه الطالب . فلرتبة بيك من الدرجة الثالثة ٢٥٠ جنيها ، والثانية مع لقب بيك ٣٠٠ جنيها مصريا ، وذلك أيام كان الجنيه جنيه ، حتى ضج الناس من ذلك .

وألغتها أمريكا ، ولم يبق لها شأن إلا فى مصر وشرق الأردن . وخاصم الإنجليز الخديوى فى شأنها ، خصوصاً بعد أن أراد

الخديوى الإنعام برتبة على موظف فى ديوان الأشغال كان قد رفت للاختلاس . وتدخل اللورد كرومر فى الأمر ، وكلف بطرس باشا غالى إلغاء الرتبة ، فألغيت بعد أن نشرت فى الوقائع المصرية ، بدعوى أنه حدث خطأ فى الاسم ، وهكذا من الفضائح . وقد ألفت العراق والشام هذه الألقاب ، بعد أن ألغاها الغرب وألفتها أمريكا . واليوم نحمد الله على إلغائها جميعاً فقد كانت سبباً من أسباب الفساد وتمييز الطبقات .

وللصوفية رتب تشبه رتب المدنية ، فالمريد والشيخ والمتولى والقطب والغوث الخ ... ولكل اختصاص .

رضا الوالدين

يعتقد المصريون اعتقاداً جازماً أن من أهم أسباب سعادة الإنسان موت والديه وهما راضيان عنه ، فإذا لم يرضيا أو رضى أحدهما ولم يرض الآخر ، كان ذلك سبباً للشقاء . ولذلك إذا رأوا رجلا موفقاً فى الحياة ناجحاً قالوا : « يستاهل ، أبوه وأمه داعيين له » ، وإذا رأوا فاشلا فى الحياة شقيًا قالوا : « أبوه وأمه ماتوا غضبانين عليه » . ولهم فى ذلك أمثلة كثيرة .

وقريب من هذا ما يعتقدون أن ما تفعله المرأة مع حماتها تفعله زوجة ابنها معها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . ويحكون أيضاً على ذلك القصص الكثيرة التى لقيت فيها الحماة الجديدة ما فعلته مع حماتها .

وقريب من هذا أيضاً ما يعتقدون من أن الرجل أو المرأة إذا ارتكب جريمة ارتكب معه مثلها . ومن ذلك قولهم : « القاتل يُقتل ولو بعد حين » واعتقادهم أن مَن زنا بامرأة زُنِىَ بامرأته ، ومَن غازل امرأة غُوزل بامرأته ، وهكذا ... وهو اعتقاد قديم كالقصة التى روتها ألف ليلة وليلة : « دقة بدقة ، ولو زِدْنا لزاد السقة » .

الرقص

للمصريين نوع من الرقص يخالف الإفرنجى ، والرقص المصرى أكثر تحريكا للشهوة . وربما شابهه بعض الشىء الرقص الإسبانى ، لأنه ربما أخذوه عن العرب ، ويسمونه أيضاً الرقص البلدى ، وقد أخذ المصريون نوعا من الرقص الإفرنجى وأحلوه فى مدارس البنات وسموه الرقص التوقيعى . ويتميز الرقص الإفرنجى أيضاً بأنه رقص نساء مع رجال ، أما الرقص البلدى فهو رقص نساء وحدهن ، أو رجال وحدهم .

واشتهر بين المصريين رقص العوالم ، ورقص الغوازى ، ورقص المحترفات . وهو

على العموم رقص فظيع لما تثيره حركات المرأة من الشهوة . والمصريون إذا نظروا إلى هذا الرقص لا يخجلون منه ولا يستحيون . ويعدونه من وسائل الفرح والابتهاج . وهو منتشر فى البيوت ، فيتعلم بعض الفتيات من النساء الرقص ، ثم يرقصن وحدهن مع صواحبهن من غير أن يكون معهن زوج أو أب أو أخ . ثم هؤلاء العوالم أو الغوازى لا يُجدْن الرقص إلا مع توقيع موسيقى ، لأنه يضبط حركتهن ؛ فالعوالم وأمثالهن يرقصن ، والرجال أو النساء خلفهن أو جانبهن يوقعون على الآلات الموسيقية لهن ، فإذا كانت الحفلة حفلة نساء فقط ، وقّع بعض النساء على طبلة ، أو دربكة أو نحو ذلك . ومن حين لآخر توزع على العوالم والموسيقيين أقداح الخمر ، وكثير منهن يسرفن فى الشرب فيقعن مغمى عليهن ، وكثير منهن فتيات جميلات ، يستهوين النظر خصوصاً برقصهن ، وفى المحلات العامة بعد أن يرقصن يجلسن مع الرجال ، أو على حجورهم ويناغشنهم ، ويبلغ بعضهن بالرقص إلى أنواع الفجور ، وهن يلبسن ألبسة خاصة ، كثيراً ما تحلّى بالترتر ليلمع فى ضوء الليل . وتتميز ملابسهن بأنها تظهر جسم المرأة على حقيقته ، وهن فى العادة يحتفظن بثبات السيقان ، وتحريك الوسط أو الأرداف ، وأحياناً يحركن أذرعتهن على شكل دائرة . وهناك نوع من الرقص يسمى « رقص النحلة » ، فتزعم الراقصة أن هناك نحلة حلّت فى ملابسها ، وتتحرك حركات كأنها باحثة عن النحلة ، وهى ليست إلا فى مخيّلتها ، فإذا لم تجدها خلعت ملابسها شيئاً فشيئاً بدعوى أنها تبحث عن النحلة ، حتى تتعرى تماما ولا يسترها إلا ستار بسيط ، والنساء حولها يصفقن ويقلن : النحل يا هو ... ومن الرقص رقصة تسمى رقصة الصلاة ، فتبدأ كبيرة الراقصات بأن تقول الصلوات وتزعم الراقصة أنها تصلى ، وتتشبه بالمصلين والمصليات ، وهى إذ ترقص تقول : بصلّى بصلّى ، صبح بصلّى ، ظهر بصلّى ، عصر بصلّى ، والنبى بصلّى ، ياخويه بصلّى ... إلى أن تنتهى الرقصة .

ومن المناظر الشائعة التى يحرص بعض الأجانب السائحين على رؤيتها منظر هذا الرقص البلدى ، حتى أحياناً تجد الراقصة المشهورة ربحها الكثير فى أن تسافر إلى أوربا وأمريكا لعرض مناظر الرقص البلدى .

والمحترفات من العوالم والغوازى يجلبن فى العادة ثروات كبيرة من النقوط ومن الأجور . وفى عهد محمد على كانت الغوازى يرقصن فى الشوارع فيثرن شهوات المارة ،

فصدر أمر بمنعهن من الرقص فى الشوارع ، فخبأ فى الرقص كان يرقص بدلهن الخولات ، وهم طائفة من الرجال فقدوا رجولتهم ، وتأنثوا فى كلامهم وحركاتهم ، فكانت البلوى أفظع ، والمنظر أسمج .

و بتغير الزمان نظر إلى الراقصات نظرة لا بأس بها ، على أن رقصهن فن جميل ، وأخذ الرقص البلدى ينكمش شيئاً فشيئاً ليحل محله الرقص الإفرنجى على الجاز بند .

رُقيـــة

الرُّقية تعويذة يستعاذ بها من الشر وقد تكون الرقية من عين حاسدة ، ولهم فى ذلك طرق كثيرة ؛ من ذلك أن تؤخذ قطعة من طرف ثوب صاحب العين وتحرق فى النار ، وتُتلى عليها التعويذة .

ومن الرُّقَى المستعملة كلمات تقال بعد وضع قليل من الملح فى كيس صغير و يعلق فى رقبة الأطفال . وهناك رقية خاصة تقال فى أيام عاشوراء ، وهى فى العشرة الأولى من المحرم ، فتعدّد الأشياء التى فى البيت ، وتضاف إليها التعويذة ، حتى لا تحسد . وهناك رقيات كثيرة لا داعى للإطالة بذكرها ومن ذلك تسميتهم « رُقيـــة » ، وهى تصغير رُقَيّة .

الرقيق

كان الرقيق منتشراً فى مصر ، وكان أنواعا ، منه ما هو أسود وهو أقل قيمـة ، ومنه ما هو أبيض ، وكان يستعمل فى الطبقات الراقية . وأذكر أن والدى كان قد اشترى جارية سوداء بـ(خمسة ونتو) ولكن لم تطق والدتى بقاءها لغيرتها ، فاضطر أبى أن يبيعها .

وكان قصر عابدين فى عهد الخديوى إسماعيل مملوءاً بالجوارى البيض ، لكل زوجة من زوجاته عدد كبير من هؤلاء الجوارى ، ولهن ألقاب وأعمال ، فطائفة منهن كانت تسمى القلفاوات ، ومنهن مَن وظيفتهن تنظيف البيت أو تدبيره ، أو تقديم القهوة عند غياب الخصيان ونحو ذلك . وكانت السراى ترسل إلى استامبول من يختار هذه الجوارى .

وفى آخر عهد إسماعيل وزعت الجوارى التى فى السراى على كبار الموظفين والأغنياء . وكان الخديوى يمنح كل جارية تتزوج مقداراً من المال تتجهز به فى حدود خمسمائة جنيه ذهبا . و بعض النسل من البيوتات الكبيرة اليوم من هؤلاء الجوارى ، وفيهن فى الغالب المنجهية التركية والأرستقراطية التى عهدناها .

وكانت هذه الجوارى الشركسيات مستبدات بأزواجهن ، لا يرضين حتى يخضعنهم لأوامرهن . وقد حدثت حوادث طلاق من هذا القبيل بسبب استبدادهن ، وكان أزواجهن يلاقون عذابا شديداً بسبب طلاقهن . وأعرف حادثة غريبة فى هذا الباب ، وهى أن شابا جميلا مُنح امرأة شركسية من هذا القبيل ، وكان يحضرها فى العادة إلى بيت الزوج أغا من أغوات السراى فلما كشف عن وجهها وجدها عجوزاً شمطاء شوهاء مسلولة ، فخطر له فى الحال خاطر غريب ، وقبّل يدها بدل أن يقبلها ، وجلس أمامها باحترام ، فاندهشت وسألته عن السبب ، فقال إن أبى كان تركيا ، وقد وصف لى عمة تركية وصفا دقيقا ينطبق عليك ، ولذلك أحترمك كعمتى . فقالت إنه ليس لى أخ ، ولكنه أصر ، وما زالت تكذب هذا الخبر وهو يصر حتى يئست منه ودعت الأغا فأخذها وذهب بها إلى السراى . فغضب الخديوى واستدعاه . وما زال يلح عليه فى قوله الحقيقة حتى قالها . فضحك الخديوى وأعجب بذكائه ، واختار له جارية أخرى شابة من شباب القصر جميلة .

وكان فى القاهرة أسواق كثيرة لبيع الرقيق بنوعيه ، من أشهرها دار قريبة من باب الخلق يشرف على كل بيت منها نخاس وله مساعدون ؛ والمشترى للجارية له الحق فى تقليبها كما يشاء ، حتى فى كشف عورة الأنثى ، وبعضهم كانوا يضعون الجارية فى طشت مملوء ماء ليعلموا إن كان جسمها يمتص الماء أم لا .

ولكن والحق يقال كانت معاملة الملاك للرقيق معاملة حسنة ، فكانوا يعتبرون كأحد أفراد البيت . وهن من جانبهن كن يخلصن لأسيادهن ، ولكن لا ننسى أنهن كن أحيانا سبباً لشقاء البيت ، فقد كان مباحا للرجل طبقاً للشريعة الإسلامية أن يتصل بجاريته ، وكان هذا مثاراً للزوجة الحرة ، وكثيراً ما ينسل من الحرة ومن الجوارى فيكون العداء بين الأولاد ، وبذلك يكون البيت شعلة من نار .

وأخيراً أبطل الإنجليز عادة الاسترقاق وحرروا العبيد والإماء وقاوموا الرق بعنف ، حتى أنهم انتقموا من شريف باشا انتقاما شديداً ، وقادوه إلى المحاكمة بسبب شرائه لبعض الجوارى بعد صدور القانون بإلغاء الرقيق ، وأهانوه إهانات كبيرة ظاهرها أنهم يحافظون على الحرية ، وباطنها أنهم يشفون غليلهم من موقفه السياسى الذى كان يناهض به سياسة رياض باشا . فقد كان رياض باشا يتهم بممالأة الإنجليز ، أما شريف باشا فكان لا يمالئهم ويطالب بالدستور ونحو ذلك .

فكانت هذه الحادثة فرصة للانتقام

منه ... ومع هذا فقد خوّفت كبار المصريين ومتوسطيهم من امتلاك الرقيق .

ويسمى المصريون تجار البيض « الياسرجيّ » وتجار السود « الجلابين » ؛ وفى بعض الأحيان كان الياسرجيّ هذا يعمل عمل القوادين ، فيختار أجمل الفتيات لفاسدى الأخلاق من الأغنياء ، ويرسلهن إليهم بدعوى أنهم يرونهن ليشتروهن ، وبعد أيام يردونهن بدعوى أنهن لم يعجبن . ويقوم بهذا العمل فى العصور الحديثة بعض الخدّمين

الركة

يزعم بعضهم أن الرّكة فى لسان العجائز قطعة من الخشب ينفض عليها الكتان ، وكان يعهد بها إلى النساء ، فكن يجتمعن حول الركة هذه للقيام بما فرضه عليهن أزواجهن أو أسيادهن ، وكل امرأة تصف وصفة نجحت فى الشفاء .

ومن ثمّ سمى الطّب المستند على وصفات العجائز « طب الركة » وقد ألف فيه بعض الكتب .

الرهن

ينتشر بين الفلاحين الرهن ، وقد اعتادوا أن يرهنوا أرضهم ، فيضع المرتهن يده على الأرض ويستغلها . ومنه النوع الذى يسمى بيع الوفاء ، فإذا مضت المدة المعينة ولم يدفع الراهن ما عليه مَلَكه المرتهن . وقد يكون الرهن على نصف الثمن أو أقل من ذلك ، فتضيع الأرض على صاحبها .

وكان فى القاهرة دكاكين كثيرة أكثرها للأرمن مملوءة بنحاس مرهون أو صيغة ، أو نحو ذلك .

روضة المدارس

ربما كانت روضة المدارس أولى المجلات الرسمية .

فقد أنشأتها وزارة المعارف ، واستكتبت فيها كثيراً من الكتاب . وكانت عنايتها كبيرة ببابين سمجا اليوم ، وهما : الألغاز ، والتواريخ فى آخر شطر من القصائد . ومن أحسن ما فيها أنه كانت تقال فى إحدى القاعات بعض محاضرات قيمة فى شتى العلوم ، ثم تنشر هذه المحاضرات فى المجلة . وكانت تختار فى كل حين وآخر كتابا حديثا تنشر منه ملزمة كل أسبوع لتجمع هذه الملازم فيما بعد فى كتاب مستقل . وكان يرأس تحريرها فى بعض أوقاتها على فهمى رفاعة . وقد خدمت مجلة روضة المدارس العلوم والفنون عهداً طويلا ، قبل أن تعرف مصر المجلات الحديثة . وهى تدل على الحركة العلمية والأدبية فى ذلك العصر .

حرف الزای

تسمى شيخة الزار الكدية ؛ فتقوم الكدية وتضع كرسيا فى وسط المجلس وتجلس عليه صاحبة المنزل الذى أقيم لها الزار ، وتحضر فرختين وديكا ، وتربط أرجلها ، ثم تضع الديك على رأسها والفرختين على أكتافها ، ثم تتلو قراءات معهودة ، وتنشد أناشيد والفراخ تقابل نشيدهن بالزعيق ، وجميع الحاضرات يقلن « دستور يا اسيادى مدد يا أهل الله يا اسيادى » ، والكدية وأعوانها يضربن بالدف وينشدن الأناشيد على نغمات مختلفة ، ثم يقربن من صاحبة المنزل ، ويسرعن فى الدق وصاحبة المنزل هذه تركع أمام الضاربات ، ثم تجىء إحداهن ومعها ملابس الأسياد ، وهى عباءة مزركشة بالقصب وطربوش مكلل باللؤلؤ ، وسيف وخنجر ملبسان بالفضة ، فتتقلد السيف وتمسك الخنجر بيدها ، وتقف متمايلة أمام ذلك الجمع ، والآلات تضرب ، والأناشيد تنشد ؛ ثم تقف صاحبة المنزل وتقول : السلام عليكم ، فيقال لها أهلا وسهلا ، من أنت ؟ تقول هى : أنا الشيخ عبد السلام ، مثلا ، فتضرب حين ذلك على الدف نغمات تسمى الشيخ عبد السلام ، فترقص صاحبة المنزل رقصاً عجيباً يناسب الشيخ عبدالسلام ؛ حتى إذا فرغ الدور قامت الكدية ، وكبّست صاحبة المنزل ، فينصرف الشيخ عبد السلام إلى حاله ، ثم تدعى صاحبة المنزل أنه قد لبستها زوجة الشيخ عبد السلام ، فتقول بصوت رفيع : السلام عليكم يا ستات ! فيحضرن لها ملابس نسائية تناسب زوجة الشيخ عبد السلام ، كل بدلة من الحرير ، ولها لون خاص ، وخواتم وخلاخيل وأساور ، ثم يضربن لها الضربات التى تناسب الشيخ عبد السلام ؛ وكل ذلك وهم فى وهم .

ولنذكر الآن بعض الأناشيد المستعملة فى الزار :

(١) فاتحة الحفلة والصلاة عليه ، صلوا عليه ، النبى العربى ، صلوا عليه ...

ماما الهدى ، آه يا ماما ، بدر التمام يا محمد ، نصبوا الكراسى لماما ، برّ السماح لماما ، برّ الهدى يا ماما ، صاحب العوايد ماما ، صاحب الدبايح ماما ، نصبوا الميدان يا ماما ، آه يا زهر الورد يا ماما ... الخ .

(٢) سلام على أم غلام ، يا مرحبة يا أم غلام ، سلام على أم غلام ، يا مرحبة بأم غلام ، ردو السلام على أم غلام ، يا بنت ماما يا أم غلام ؛ يا أم الغلام والعفو منك ، يا أم الغلام بيّنى برهانك ، يا أم الغلام واشفى عيانك ، يا أم الغلام والطبل طبلك ، يا أم الغلام والليلة ليلتك .

الزّايرجة

يستعينون بها على عمل التنجيم ، وهى جدول ينسب إلى إدريس . ويقسم الجدول إلى مائة خانة صغيرة فى كل منها حرف ويتلو من يستشير الجدول الفاتحة وآية : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلخ ... ويضع بعد أن يغمض عينيه إصبعه على الجدول فيقع على حرف ، فيقيده ويدوّن الحرف الخامس بعده ، والحرف الخامس بعد الحرف الثانى له ؛ وهكذا حتى يكوّن جملة يقرؤها لتبيّن الطالع ... ولهم فيها تعاليم كثيرة لا حاجة لذكرها .

الزبرجد

الزبرجد حجر من الأحجار الكريمة أحمر ، أكثر ما يستخرج من جزيرة بالبحر الأحمر تسمى جزيرة الزبرجد ، وقد كان الزبرجد يسرق من الجبل ، حتى تعاقد جماعة فى سنة ٩٠٥ من بينهم عبد الرحمن بك كامى من أعيان السويس . ومسيو مكسيوس ، على أن يستخرج الطرف الأول الزبرجد ويرسله للأخير لبيعه فى جنيف ، على أن يأخذ ثلاثين فى المائة من الأرباح الصافية ، وعلى أن يتعهد الطرف الثانى بأن يفحص المناجم ، ويتصرف فيها بما يراه ملائما ، ويتولى بنفسه طلب امتياز استخراج هذا المعدن والبحث عنه .

وقد كان المصريون يستعملون الزبرجد فى حليهم كثيراً ، ولذلك كانت تجارته تجارة رابحة .

الزجل

نظم من الشعر العامى على أوزان خاصة . وقد كثر عند المصريين الزجل وتنوعت أشكاله . وللمصريين أزجال ظريفة ، خفيفة الروح خفيفة الوزن . واشتهر منهم فى الأيام الأخيرة الشيخ النجار ، والشيخ القوصى ، وعبدالله نديم ، وحسن الآلاتى ، وإمام العبد ، وغيرهم . ولطائفة من العوام وهم المسمون «بالأدباتية» أزجال لطيفة يسألون بها الناس ؛ ويقولون بعضها ارتجالا . ولعبدالله نديم قصة مشهورة فى مولد السيد أحمد البدوى ، إذ جاءه بعض الأدباتية هؤلاء ، فنازلهم بالزجل حتى غلبهم كما تقدم ، ولا نطيل فى ذكر أمثلة منها ، فله كتب معروفة .

الزراعة

الزراعة هى الحرفة الأولى للمصريين من قديم الزمان ، وأما ماعدا ذلك من تجارة وصناعة فثانوى بالنسبة لهم . و إذ كان القيام بالزراعة قديما أتقنها الفلاحون على مر الأيام ، فهم يتقنون الزراعة ولوازمها . ويساعدهم فى ذلك جودة الأرض وسهولة زرعها ، ولكنهم مع الأسف يلتزمون الزراعة على الأنماط القديمة ، من غير أن يدخل العلم الحديث تحسيناً كبيراً ؛ فالآلات الزراعية لا تزال هى الساقية والشادوف ، ولا يزالون فى ريهم وحرثهم ودرسهم و بذرهم يسيرون على النمط القديم .

ولم تدخل الآلات الزراعية الحديثة إلا فى أطيان الأمراء والأغنياء ، والمنتظر أن تعم هذه الآلات .

والفقراء عادة يعتمدون على النيل فى الرى ، ولكن هذا لا يكفى إلا الزراعة النيلية ، فاتجهوا أخيراً إلى الآبار الارتوازية .

ولا لزوم لوصف الزراعة وآلاتها ، فهى معروفة عند الكافة . والزراعة عادة تنقسم إلى قسمين : يسمون أحدهما زراعة شتوية ، كالقمح والشعير والفول والعدس والترمس والحلبة . وزراعة صيفية ، كالقطن والذرة والأرز والكتان . وأهم ما يزرع الآن القطن ؛ وقد أدخله محمد على باشا على زراعة مصر فأتت الأرض بخير أنواعه . ولا يزال يعد المحصول الأول ، والقمح هو المحصول الثانى .

و إذ كان الفلاح شقيا تتوالى عليه المظالم من كثير من العمد وشيوخ البلاد والملتزمين والصرافين والكشافين ، والوجبات والمال ونحو ذلك من قديم الزمان ، ورث أهل مصر الذل لأن أكثر البلاد حتى المتعلمين أبناء فلاحين ، فللفلاحة أخلاق خاصة استلزمها نوع المعيشة .

وفى الأيام الأخيرة زاحمت الصناعة الزراعة فتغير تبعا لذلك خلق الأهالى (انظر فلاح وكشاف وملتزم ووجبة) . وكثيراً ما تصاب الزراعة وخصوصا القطن بدودة صغيرة تتلف محصوله قليلا أو كثيراً ، وتأمر الحكومة الأهالى بتنقيتها قبل استفحالها ، لأنه على محصول القطن تتوقف ثروة البلاد . ولم يعن من عهد محمد على إلى الآن بدراسة هذه الدودة علميا وكيف يقضى عليها . والفلاحون لا يزالون يعتقدون أن الزراعة إذا نجت من الدودة فمن الله ، و إذا ساءت فمن الله ؛ ويسمون ذلك ندوة . وهم معذورون فى ذلك بعض العذر ، لأنهم يشاهدون أنه قد يكون هناك قطعتان متجاورتان من الأرض

تنجح إحداهما وتسوء الأخرى . ولكن الحكومة تعتقد أن من نجحت منهما فلسبب على ، ومن لم تنجح فلسبب آخر على . ومع ذلك فلم تعتمد الحكومة على إخصائيين يعرفون أسباب الدودة وعلاجها .

الزغرودة

اعتاد النساء فى مصر أن يزغردن عند المناسبات السارة كوجودهن فى الفرح ، أو عند سماعهن خبرا سارا ، أو لرؤيتهن المحمل على جمل ، وإذا حضر حاج من الحجاز ، أو نحو ذلك .

ولهن فى الزغردة طريقة يلعب فيها اللسان ، فيفهم من لم يسمعها أن هناك شيئاً سارا حدث .

وهن يسمين النغمة الأخرى الحزينة « صواتا » ، وربما كانت الكلمة تحريفا عن الأصوات ؛ وهى نغمة أخرى يعلم من سمعها أن هناك حادثة وفاة أو خبرا محزنا .

والأذن المصرية يمكنها أن تفرق بين الصوتين بسهولة ، فتعلم أن هذا دليل فرح أو حزن . وعلى كل فالصوت سواء كان صوت زغردة أو صَوت صُوات يحمل الناس المتجاورين من رجال ونساء على تجمعهم لاكتشاف سر الخبر .

الزلزال

يعتقد بعض العوام أن الدنيا طبقات ترابية على طبقة مائية ، وأن هذه الطبقة المائية على طبقة صخرية ، والطبقة الصخرية محمولة على ثور ذى قرنين ، يحمل هذه الطبقات على قرن واحد ، فإن تعب من حملها نقلها إلى القرن الثانى ، وهذا الانتقال يسبب الزلزال ، وهنا ينتقل الذهن إلى الثور الذى يحمله فيقولون إنه محمول على القدرة .

ومن لطيف ما فى الأمر أن صديقاً كان له صديق ذو بغلة ، وكانت البغلة رديئة . فقال له :

لك يا صديقى بغلة
ليست تساوى خَرْدَلَهْ
تهتز وهى مقيمة
فكأنما هى زلزلَهْ

الزنا

يقولون إن فلاناً ابن زنا ، أى أنه خبيث شرير . والعامة تعتقد أن ابن الزنا يأتى شريراً خبيثاً . وهم يقولون أيضاً : « ابن الزنا إما قواس أو مكاس » ، وهما وظيفتان دنيئتان .

فالقواس هو السايس الذى يجرى أمام فرس سيده و يصيح لإفساح الشارع له . وأحياناً يكون السائس من أبناء العرب والسيد تركيا فيصيح السائس بكلمات فى سب سيده ، فقد بلغنى مثلا أن السائس الذى كان يجرى أمام قاسم باشا ناظر الحربية كان يقول بأعلى صوته « أوعى يا واد التور السنارى جاى » و يوجد إلى الآن من يطلقون عليه اسم قواسين يجلسون مع الحجاب ويلبسون ثو با من البفتة مصبوغاً بلون أزرق وتقتصر وظيفتهم على قضاء مصالح وقتية داخل ديوان المديرية أو ديوان المركز .

وهذه الوظيفة آخذة فى التلاشى ، خصوصاً وقد كرهها الأور بيون وعدوها عادة همجية وحشية . وهذا المثل وضع أيام سلطة هاتين الوظيفتين ، فكان القواس يلازم باب الرئيس من أكبر مصلحة إلى أصغرها ، وكان يطلع على أسرار الرئيس كلها كما يطلع السكرتير الخصوصى ، وكثيراً ما يكون الواسطة بين الناس و بين الرئيس فى أخذ الرشوة ، و إنهاء العمل مع الحاكم . وكان فى القرى يشمخ بأنفه ، ويتعجرف فى كلامه ، ويتجبر و يسب اعتمادا على سلطة سيده . و إذ كان الحاكم فى القديم حاكما مطلق السلطة فقد كان قواسه صورة مصغرة من سيده . وأما المكاس فهو مأخوذ من المكس ، وهى دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق . ويطلق اسم المكاس فى الوقت الحاضر على أولئك الإخوان الذين يقفون عند مدخل المدن لجباية الضريبة المفروضة على ما يدخلها من حاجيات الغذاء ؛ وكان اسمها الرسمى الدخولية ، وكان فيها كثير من الظلم والجور والعسف والغش .

وقد أدركتُها فى آخر أيامها ، وكان أبى رحمه الله يشترى من الإمام الشافعى الفراخ ، و يشترى البيض أربع عشرة بقرش صاغ . وكان عند الإمام مكاس يلبس بدلة زرقاء ، وكان يعتقد فى أبى الصلاح ، فإذا وصلنا إليه سمح لنا بالدخول من غير ضريبة ، وهذه كانت مكسبنا ، ثم أبطلت تلك العادة . وقد كان منهم سفلة يعرون النساء بدعوى أنهم يفتشونهن لعل فى لباسهن شيئاً مهربا ، و يحسسون على بطن الحبلى ليتحققوا إن كان

فى بطنهن جنين أو شىء مما تؤخذ عليه الضريبة . ولهذا اعتبرهم اليهود أمام دواتهم أنجاسا ، وسموهم العشارين . ولم يسمحوا للمكاس أن يدخل الهيكل أو أن يشهد المجالس ؛ ولهذا قالوا فى المثل : إن ابن الزنا إماقواس أومكاس . وأراحنا الله من القواسين والمكاسين . وللزنا أساليب مختلفة ، وللنساء فيه حيل غريبة ، وقصص عجيبة . وقد كثر فى مصر لحرارة الجو وقوة الشهوة البهيمية ، ولم يمنع منه حجاب أو سفور ، وقد كان هناك فى المدن بعض أحياء للعاهرات تعطيهن الحكومة ترخيصات ، وأخيراً ألغتها وحرمتها بعد أن أعدت العدة لتسريحهن .

الزواج والطلاق

الزواج عادة شائعة فى جميع الأمم ، وقد اشتهر عن المسلمين تعدد الزوجات ؛ ولكن والحق يقال إن تعدد الزوجات بين الطبقة الراقية والوسطى قليل فى مصر . ولا يفشو إلا فى الطبقة الدنيا ، وكان لا يصح فى عرف المصريين أن يرى الزوج زوجته قبل زواجها ، ولكنهم يرسلون الخاطبة ، وقد يرسلون أمهاتهم أوأخواتهم لرؤيتها ، حتى إذا ارتضينها يرسل الزوج الشبكة ، وهى هدية قبل العقد ، ثم يعقد العقد ، وحينئذ يحل له أن يراها .

وجرت عادات قبل الزواج فى إقامة العرس ، منها ليلة الحنا وليلة الدخلة ، وسنذكرهما فى محلهما .

والزواج يختلف اختلافا كبيراً بين الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة ، فإذا كانت الطبقة غنيّة بالغ أصحابها فى نفقات الأفراح وبذل الأموال من غير حساب ، سواء فى المآدب أو معالم الأفراح ، ولا يكتفون بليلة الدخلة بل يقيمون ثلاث ليال قبلها ؛ وكان العريس يجمع فى منزله قبل يوم الزفاف أصدقاءه الأخصاء ممن يجيدون الغناء والعزف على الآلات الموسيقية ، ويسمون هذه الليالى ليالى الضممة ؛ وفى ليلة الزفاف يرسل العريس العربات الفخمة مع والدته لأخذ العروس من بيت أهلها ، وتكون العربة المخصصة لها، مزينة بالشيلان الكشميرى والورود والأزهار ، يجرها اثنان أو أربعة من جياد الخيل ، ويخفرها اثنان من الفتوات ، وأحياناً من رجال مخصصين لذلك يسمون الضوّية . وهما يرتديان شيلاناً من الكشمير ثم تتقدم والدة العريس على العروس لتقودها إلى المنزل ، ثم تتلوها والدة العروس ؛ ويسير هذا الموكب خلف الموسيقى فى بعض الشوارع العامة ، ثم يعرج على منزل العريس ، فيتقدم العريس لاستقبال عروسه فتتأبى وتمتنع ؛ ولا تنزل

إلا بعد إلحاح ، ثم تنحر الذبائح على عتبة الباب . ويسير العريس مع عروسه إلى داخل البيت محجوزين بالشيلان الكشميرية حتى لا يراهما الناس ، ثم يستقبلهما العوالم ويَسِرْن أمامهما إلى الكوشة ، وهى عرش مزخرف أعد خصيصا للعروسين ، وفى أثناء ذلك تبدر البدر ، وهى عبارة عن نقود ذهبية صغيرة من ذات الخمسة قروش ، أو فضية من ذات القرش الواحد ، يبدرها العريس أو أقارب الزوجين ؛ والغرض من ذلك صرف الحاضرات عن النظر للعروسين منعا للعين . ويخرج العريس بعد تناول العشاء يحوطه جماعة من أصدقائه يحملون باقتين من الورد ، ويتقدمه بعض الأصحاب يحملون الفنابير . ويؤلفون موكبًا يسمى زفّة ؛ وتسمى الزفة زفة العريس تسير أمامهم الموسيقى ، ويسيرون جميعا إلى المسجد حيث يصلى العريس ركعتين ، ثم يعود بموكبه إلى المنزل . ويدخل على العروس فيرفع ما على وجهها من نقاب ، ويراها لأول مرة ، ويجلس بجانبها . وعند ذلك يقدم لهما الشربات ثم يختفيان عن العيون .

أما الزواج فى الطبقة الفقيرة فكان وضيعاً ؛ فتحمل المشاعل بدل الفنابير والطبل البلدى بدل الموسيقى ، والبوظة بدل الشربات والخمر ، ويرقص النـاس رقصاً بلدياً أمام المزمار ، ويتزاحم الفتوات على الرقص أمام المزمار ، وتمشى العروس فى ناموسية بدل الشيلان الكشمير ، وتركب التختروان إلى منزل العريس . وربما كان أفخم زواج وأفراح — أفراح الأنجال ، والمراد بالأنجال أنجال الخديوى إسماعيل — وقد كان ذلك فى عهد أبيهم إسماعيل . وإلى الآن يسمى شارع فى المنيرة بشارع أفراح الأنجال . وقد زوج إسماعيل أولاده توفيق وحسين وحسن . وقد ابتدأت هذه الحفلات بعقد العقد ، حضره الوزراء والعلماء وكبار الأعيـان فى سلاملك القصر العالى ، وكان يرأسهم خليل أغا ، وهو أغا والد إسماعيل . وهذا مايدعو إلى العجب ، إذ كيف يترأس هذا الأغا على هؤلاء كلهم . ولكن كانت سلطته عظيمة ، وهو الذى أشرف على بناء مسجد الرفاعى ، وإنشاء المدرسـة المعروفة باسمه « مدرسة خليل أغا » وقد ابتدئت الحفلة بالقرآن الكريم ، ودخل الشهود على باب العروس المسدول عليه الستار وسألوها : هل تقبلين أن يكون فلان زوجك ؟ ولا يزالون يكررون هذا حتى قبلت . ودامت الحفلات أربعين يوماً كاملة ، يأكل الحاضرون ويشربون ويهرج الطلبة فيها كما يشاؤون ، وتنوعت فيها موسيقى الغناء ، وغنّى فيها عبده الحمولى

والمظ وغيرها ، وأقيمت فيها الملاعب البهلوانية وعرض جهاز كل عروس على المتفرجين ، من حلى مرصعة بالألماظ ، ومفروشات ثمينة ، وغير ذلك .

والأغوات يستقبلون المدعوات وتضرب لهن الموسيقى ، الحريم وكان من المدعوات بعض الأفرنجيات ، وكان يستقبلهن بعض من يعرف لغاتهن . وهكذا . . . و بطلت تلك العادة كلها حتى أصبح العريس يقود عروسه بعد الحفلة البسيطة ، فيذهب بها حيث شاء من غير زفة ولا غيرها .

وكلنا نعرف أن الشريعة الإسلامية تجيز تعدد الزوجات فى حدود . والعادة أن يمهر الزوج الزوجة . وفى الطبقة العالية قد يبلغ المهر ألف جنيه ، وفى الطبقة الفقيرة يمهرها نحو خمسة جنيهات .

والذى يدعو إلى اقتصار أغلبية المصريين على زوجة واحدة هو تساوى عدد الرجال بالنساء تقريباً ، والطلاق هو حل عقدة الزواج ، وهو جائز فى نظر المسلمين ؛ ومن أسباب الطلاق أنه قديماً كان الأب بصفته ولياً يزوج ابنه أو بنته فى الصغر ، فإذا كبر لم يوافق الزوج هذا الزواج ، فأدى ذلك إلى الطلاق ، وقلّ ذلك الآن . ومن الأسباب أيضاً أن تكون المرأة مصابة بعقم أو بمرض شديد ، أو أن تخلف بنات فقط ، فيستحل الزوج لنفسه أن يتزوج غيرها .

وقد تعاون تعدد الزوجات ومِلك اليمين على فساد الأسرة ، والعداوة بين الأولاد من أمهات مختلفة . والرجل الشرقى فى العادة حاكم مستبد فى بيته . والنظر إلى المرأة كان نظراً وضيعاً ، وكانت تعتبر أحط منزلة من الرجل إلا فى القليل النادر . وهذا أفسد نفس الأبناء ، لأنهم لا يجدون جو محبة يسود البيت .

وتعدد الزوجات آخذ فى القلة لانتشار العلم ، وكثرة الطلاق كذلك آخذة فى القلة أيضاً لرؤية الزوجة قبل الزواج ، ونفوذ الرجل آخذ فى القلة بسبب تعلم المرأة .

حرف السين

السائس

هو رجل يلبس صديريا وسروالا ويتحزم على السروال ، ويمسك بيده عصا طويلة ، وكان يتقدم عربات الأغنياء ويقول : وسّع ، وسّع ؛ يحمى الراكب من الزحام ، ويسهل له عقبات الطريق .

وقد بطل ذلك فى الغالب بسبب السيارات . ومن أعماله أيضاً أن يغسل العربة وينظفها ، وقد يعهد إليه أيضاً أن يتعهد الخيول التى تسير بهم . وهم فى الغالب يحسنون العَدْو .

وقد تستخدمهم السيدات فى الذهاب بهن إلى بيوت لا يحببْن أن تعرف ، فيتخذن منهم أمناء على الأسرار .

السّباب

معجم المصريين فى السباب معجم واف ، ذو ألفاظ متعددة ، وكلما مضى زمن زيدت هذه الألفاظ .

وكثيراً ما يستعملون فى السباب أسماء بعض الحيوانات كالخنزير والكلب والحمار ، وربما كان من أشنع السباب عندهم السباب بالدين ، كابن النصرانى وابن اليهودى ، ويا كافر . وبعض أنواع السباب فاحشة يخجل منها المثقف .

وأشد من ذلك كله التظاهر بالبصق على المسبوب .

سبارس

ترى كثيراً من الأطفال ذكوراً وإناثا يمشون فى الشوارع وبيدهم كوز صغير يلمّون فيه أعقاب السجاير . ويسمون « أولاد سبارس » ، ثم يفركون هذه الأعقاب ويبيعونها لمن يصنع من دخانها سجاير جديدة ؛ وهى ضارة جدا ، لأنها فضلا عن ضرر الدخان قد تكون محملة بالميكروبات التى سرت إليها من شرب المريض أو من الأرض .

وأيضاً فهم يقولون إن الأعقاب تتجمع فيها أكثر مضار الدخان . ولهؤلاء الأطفال تقاليد متعارفة بينهم فى الاختصاص بالشوارع وفى ترابطهم ، وكثيرا ما يكون لهم كبير يرجعون إليه فى منازعاتهم .

ومنهم من يجمع إلى هذه الحرفة النشل ، وهم يتحينون الفرص فى أماكن التدخين كالقهاوى ونحوها ، وفى مركبات الترام .

السبحة

عقد يكون عادة من تسع وتسعين حبة ، أو ثلاث وثلاثين . وقسمت هذا التقسيم ليقال عليها إحدى عشر مرة ، أو ثلاثاً وثلاثين : سبحان الله . وفى القسم الثانى : الحمد لله . والثالث : الله أكبر . ويختمونها بلا إله إلا الله .

وتستعمل أيضاً فى الاستخارة ، فيأخذها الآخذ حيثما اتفق ؛ فإذا انتهت بما يدل على العمل كان معناها العمل ، وإذا انتهت حباتها بما يدل على النهى كان معناها عدم العمل .

وتستعمل أحياناً لمجرد الذكر . وهى تكون عادة من أحجار وأخشاب مختلفة ؛ فالفقراء يستعملونها من طين ملوّن بالأسود ، والمتوسطون من حب أسود يسمى يسراً ، يعتقدون أنه ييسر الأمور ، أو من خشب العرعر . والأغنياء يستعملونها من الكهرمان أو من نوع يسمى « البنزاهير » وهو حجر يجلب من بعض جبال الأفغان .

وتستعمل كلمة السبحة أيضاً فى جماعة من الفقهاء ، وخصوصاً كفيفى البصر ، يجتمعون ويقرأون السبحة ؛ وهى سبحان الله . يقولونها مئات المرات ، ويختمونها بأسماء الله الحسنى وبعض الأدعية ؛ وهى فى العادة تقال لميِّت مات وتُوهب لروحه .

وجرت عادة المصريين أن يعملوا يومها « لقمة القاضى » وهى نوع من العجين يقطع قطعاً ويقلى بالزيت ، ويأكل منها قارئو السبحة ، ويوزع منها على الأقارب والجيران .

سبعة

يقدّس المصريون عدد سبعة ، لأن الله خلق الدنيا فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع كما يقولون ؛ والسموات سبع ، والأرضون سبع ، وأيام الأسبوع سبع . ولذلك يجرى هذا العدد على ألسنتهم كثيراً فيقولون : « السبعة وذمّتها » ، و « الديب فات فات ، وذيله سبع لفات » ، « وسبع صُنع فى إيديه ، والهمّ حاطط عليه » ، ويتكلم بالسبع تلسن ، ويغنّون : « سبع سواقى بتنعى لم طفولى نار » . وهكذا .

وكثير من الأدعية تطلب من صاحبها أن يكررها سبع مرات . وقد نال بعض هذه المزية عدد السبعين فيقولون : « ستين سنة ، وسبعين يوم » . وفى القرآن الكريم : « إن تغفر لهم سبعين مرة » الخ ...

السبوع

هو اليوم السابع من ولادة الطفل ، فالطبقة الوسطى والعليا يعتنون بذلك اليوم فيطبخون فيه كشكا بفراخ . ومن أمثالهم : هو فرخة بكشك ، أى أنه عزيز كالمولود ، لأن الكشك بالفراخ يذكّر بذلك المولود ، ثم يدقون ملحاً فى هاون ، ليعتاد الطفل سماع الصوت القوى . ويرشون فى ذلك اليوم ملحاً فى البيت حفظا له من العين ، ويغنّون : برجالاتك ، برجالاتك ، برجالاتك ، حلقة ذهب فى اوداناتك . والرجالات جمع رجل .

ويظهر أن الأغنية مأخوذة من أغانى البدو ، كما تدل عليه صيغة الغناء ، أى برجالك برجالك ، تلبس الذهب . والبدو يجمعون الرجل على رجالات ، والودن على الودانات .

وفى يوم السبوع وقبله وبعده يُشرب المفات ، وهو نبات هندى أميل إلى الصفرة ، ويزرع الآن فى مصر أيضاً ، يُدق وتوضع عليه بعض عقاقير يعرفها العطارون حتى يصير ناعماً ، فإذا أريد عمله حمّر فى السمن ، ثم أضيف عليه الماء حتى يغلى ، ثم يضاف عليه بعض من اللوز المقشر المكسّر والسكّر ، ثم يعبأ فى فناجين ويُشرب .

ويعتقدون أنه نافع للوالدة لأنه يشدّ أعصابها التى أنهكتها الولادة .

وعلى العموم فاليوم السابع فى كثير من الحالات له تقديس خاص كسبوع الزواج وسبوع الميت ، إنما لم يشتهر كسبوع الطفل عند الولادة .

السبيل

اعتاد الناس أن يتقربوا إلى الله ببناء سبيل لشرب الماء لأنه كان عزيزاً ، وكانوا يخزنون الماء فى الصهاريج ، ثم يرفعونه لشرب الناس ، وأحياناً يتفننون فى عمارته تفنناً جميلا ، ويبنونه على شكل ضخم جميل « كسبيل أم عباس » ، ويكتبون عليه بالذهب ، ويجعلونه دورين ، وأحياناً ثلاثة . ويكون هذا السبيل ملجأ للعطشى .

وقد يبنون بجانبه كتّاباً ، وأحياناً يبنون هذا السبيل لشرب الحيوانات كالأحصنة والأفراس والحمير والبغال ، مما يدل على الرأفة بالحيوان ، والتقرب إلى الله بأكله وشربه .

وفى القاهرة أسبلة كثيرة من هذا القبيل ، وهذه حسنة من حسنات المصريين .

السجاد العجمى

أولع بعض المصريين بالسجاد العجمى ، يفرشونه فى الحجر ، ويعلقون القطع الصغيرة منه على الحوائط ، ويفرشون منه قطعاً صغيرة للصلاة عليها . وبالغ بعضهم فاقتنى مجموعة منها وصرف فيها أمواله مع كثرتها . وكلما كانت السجادة أقدم عهداً بالغ فى ثمنها التجار ولو كانت مهلهلة . وقد مات الدكتور على باشا إبراهيم رحمه الله قريبا ، وكان كل ماليّته سجادا .

وهم يفضلونه على السجاد المصرى والسجاد الإفرنجى ، لأنه أمتن وأجود .

وقد اتجه قوم حديثاً إلى السجاد المصرى لما أحسن وأتقن ، واستغنوا به عن السجاد العجمى .

السحلب

من مشروباتهم فى الشتاء السحلب ، وهو نبات يأتى من الهند ، يدقونه حتى يكون ناعما ، ثم يضيفونه على الماء والسكر فيربو ويسبّب الدفء .

وقد يضيفون عليه القرفة المدقوقة على وجهه ، وقد يستعملون اللبن بدل الماء . وهو كثير الاستعمال عندهم فى الشتاء .

السخرة

السخرة كانت تطلق على نوعين : تسخير الأهالى من غير أجر فى المصالح العامة كحفر الترع وحراسة الجسور ، خصوصاً أيام الفيضان ، من طغيان ماء النيل ، وإما تسخير الأهالى فى أطيانهم ، كأن يؤخذ الفلاح ومحراثه ومواشيه لحرث أرض الغنى بلا مقابل ؛ كما تؤخذ امرأته لتساعد ، وتؤخذ حمارته ليحمل عليها التبن والعليق لمواشى الغنى ، ويؤخذ ابنه ليقف على المحراث ، حتى إذا رأى كومة من الحشيش اقتلعها ، وتؤخذ بنته لتساعد أمها فى تجهيز الطعام لوالدها ...

ولهذا كان يهرب الفلاحون من أجل هذه السخرة ، وسموا سنة من السنين كثر فيها هذا الظلم فى التسخير بسنة «الطفشة» ؛ فكانوا يؤرخون بها ، ولا تسمع واحدا يذكرها إلا وهو يتحسر أو يبكى . وكان من أنواع السخرة والمظالم « الملح » ، فقد كانت الحكومة تحتكره وتفرضه على القرى ، وكل قرية عليها مقدار من الملح محدد تحضره إلى العمدة ، وكنت ترى أسرابا من الفلاحين يسيرون فى الطرقات نحو المركز حاملين الأكياس والمقاطف ، أو آخذين نصيبهم من الملح المخصص لهم . وإذا لم يأخذ رجل ملحه اتهم بأنه يستعمل الملح الخارج عن

احتكار الحكومة ، وهى تهمة فظيعة . وقد أبطل رياض باشا أيام كان رئيسا للوزارة فى عهد توفيق باشا السخرة بأنواعها ، وعاقب من سخر الناس فى مزارعه ، ولو فى مزرعة الخديوى ، ولذلك كرهه الأغنياء ونقموا عليه ، واتهموه بأنه خسر الفلاحين عليهم ؛ كما يتهم اليوم من يريد تعليم الشعب . وفر كثير من بلادهم وتركوا أوطانهم هربا من الضرائب المتوالية ، رسمية كانت أو غير رسمية ؛ أو هربا من السخرة . وكان من نتائج هذا أن تظاهر الناس بالفقر ، فيرتدون الثياب القديمة ويسيرون على أقدامهم بدل الركوب خوفا من أن تلمح الحكومة فيهم الغنى فتثقل عليهم الضرائب .

السرطان

يطلقونه أحيانا على حيوان ردئ يكون فى البرك ، يدخل فى بطونهم مع الماء فيكبر فيها . ومن أجل ذلك لا يشبع صاحبه مهما أكل .

وهو ما كانت تسميه العرب قديما « الصفر » . وفى الحديث « لا عدوى ، ولا هامة ، ولا صفر » . وربما أطلقوه على ما يسمى هذه الأيام بالدودة الوحيدة . ثم أطلق هذه الأيام على نوع من الورم الخبيث لا يزال ينمو حتى يموت صاحبه . ولم يوقف للآن على دواء له .

السّرّية

السرية ، والجمع سرايا ، هى الجارية التى يملكها الإنسان ، ويحل له أن يتصل بها ، وقد تنسل منه أولاداً فتسمى إذ ذاك أم ولد ، وكثيراً ما تعتق الأم عند ما يفطم الولد إرضاء لها . وبعض الزوجات تمنع أم الولد من الدخول فى البيت بعد ذلك غيرة منها ، ولكى ينساها الولد ولا يتعلق بها .

(انظر جارية ورقيق)

سعة الرزق

من أراد أن يوسع عليه فى رزقه ويقبل عند الخلق ، فليدع هذا الدعاء عقب كل صلاة ، خصوصاً بعد صلاة الجمعة :

بسم الله الرحمن الرحيم ... يا ألله ، يا واحد ، يا موجود ، يا جواد ، يا صمد ، يا باسط يا كريم يا وهاب ، يا ذا الطول والإحسان يا حنان ، يا منان ، انفحنى منك بنفحة خير ، تغننى بها عمن سواك إنك على كل شىء قدير . إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ... ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . إن ينصركم الله فلا غالب لكم . نصر من الله وفتح قريب ... اللهم يا غنى اكفنى بحلالك عن حرامك . واغننى بفضلك عمن سواك واحفظنى بما

حفظت به الروح فى الجسد ، وانصرنى بما نصرت به الرسل ، ولا تشمت بى أحداً إنك على كل شيء قدير .

ولهم حكايات شعبية كثيرة تدل على أن الاعتماد على الله والطلب منه خير من الطلب من الأغنياء ، كما أن لهم حكايات تدل على الاشمئزاز من سعة الرزق ، كالذى سمعته أمس من أن امرأة رجل غنى عاتبته فى أنه يشتغل طول يومه فى الأعمال ولا يسعد أهله فى الجلوس واللعب معهم ، وأرته رجلا فقيراً وزوجته يسكنان فى كوخ أمام القصر ، كان يصنع المزامير من الغاب ويعطيها لامرأته تبيعها ، وبعد أن تبيعها تحضر له خبزاً وفجلا فيأكلان ثم يغنيان ويرقصان . فناداه الغنى وعاتبه على أنه لا يزوره ، فقال له : نحن قوم فقراء ، وإذا طلبنا شيئاً فمن الله ولا حاجة لنا إلى مخلوق . والعيشة معدن ولله الحمد . فنفحه الغنى بثلاث ورقات بثلاثمائة جنيه ، وقال له : حسن بها حالك ، فذهب إلى زوجته وأخذا يقلبان النظر فيما يتاجران فيه : إنْ تاجرا فى البيض فقد يمشش ، وإن تاجرا فى الغنم أو البقر فقد تموت ، وهكذا ظلا يقلبان النظر فيما يعملان . وعلاهما الهم وتركا الزمر والرقص . وأخيراً ذهب الفقير إلى الغنى ورد له الثلاثمائة جنيه؛ وعاد يزمر ويرقص!

السفر

السفر قطعة من العذاب ، وهم يكرهونه ويكرهون الرحلة من بلدهم إلى بلد آخر ولو فى قطرهم ، فلا يرضون أن يرحلوا ولو ضاقت بهم المعيشة ؛ ولذلك قل أن تجد مغامراً يذهب من جهة إلى جهة أخرى . وقد كان اللورد كتشنر يريد أن يعمر جزءاً من أراضى البحيرة فحبب إلى الفلاحين الانتقال إليها ، ورغب كل أسرة بملك خمسة أفدنة ، وتسهيل الزراعة عليهم ، فلم يفلح مشروعه لالتصاق الفلاحين بالطين . وكل يوم نسمع بكاء وشكوى من موظف انتقل من القاهرة إلى بلدة قريبة منها أو بعيدة ، ومصالح الحكومة كانت مملوءة بالرجاءات من هذا القبيل . وكثير من أوقات الوزارة وكبار الموظفين كانت ضائعة فى هذه الرجاوات . بل قد كنت يوماً منتدباً فى وظيفة بوزارة المعارف فكنت أرجي كثيراً فى نقل موظف من شبرا إلى السيدة زينب ، ومن العباسية إلى شبرا ، ليكون الموظف بجوار بيته ؛ وكنت أغتاظ من ذلك غيظاً شديداً . وحُدثت أن هذه العادة موروثة عن قدماء المصريين ، فقد كانت هذه أخلاقهم . وصادف أن لى ابناً أرسل فى بعثة إلى إنجلترة فكانت أمه تطيل البكاء عليه ولو كان فى

هذا مصلحته . وتود لو استطاعت أن يوظف بجانبها .

وتسمع الغرائب فى مغامرات الأوربيين وحبهم للارتحال ، وربما كان من أسباب ذلك أيضاً أننا أمة لم تتعود الحروب والأسفار والهجرات التى تتطلبها ، وربما كان أيضاً من الأسباب أن أكثر المصريين فلاحون زراعيون، والزراعة تتطلب القرار ، والالتصاق بالأرض . ويكثر فى أغانيهم الرغبة فى الرجوع إلى الوطن والشكوى من الغربة . ويكثر المصريون أيضاً من شكوى فراق المحبين فى شعرهم وزجلهم مثل أغنية « يا وابور قوللى رايح على فين » ونحو ذلك . وربما كانت هذه عادة المحبين دائماً قديماً وحديثاً .

السفرجية

السفرجي هو الذى ينظم المائدة عند تحضير الأكل ، ويقدم أطباق الطعام ؛ وهو منسوب إلى سفرة ، نسبة تركية ؛ والسفرة عند الأتراك المائدة .

والغالب أن يكون أكثر السفرجية من النوبيين لإتقانهم هذا الباب .

السقَّا

كان يحترف توزيع الماء على البيوت قبل دخول الحنفيات فيها . والسقاءون يحملون القرب على ظهورهم من الجلد مملوءة بالماء الحلو أو المالح . وقد يحملونها فارغة ومعهم برميل كبير مملوء بالماء ركبت فيه حنفيات من الخلف ، يجره حصان أو حمار . فإذا ناداهم أحد فتحوا الحنفية وملؤا القربة . والسقاء ينادى « سَقَّا عوض » ولا أدرى معناها . وهو يعامل أصحاب البيت بإحدى طريقتين : إما بشرطة على الباب كلما أتى بقربة خط خطًا ، وهذه عرضة المسح ؛ وإما بخرزات زرقاء يعطيها لصاحب البيت — كلما أتى بقربة أخذ خرزة ، فإذا انتهى الخرز علم أنها أخذت عشرين قربة مثلا . وقد كان سقاء الحريم هو رئيس الخدم وقد زالت هذه الحرفة بانتشار الحنفيات فى البيوت وإنشاء حنفيات عمومية . ومن عادة المصريين إذا رأوا بيغاء أن يقولوا له : « أبوك السقا مات » . ومن أمثالهم أيضاً « جوزها سقا وتبات عطشانة » ؛ وأحياناً يحمل السقاء قربته على حمار ، أو قربتين أو أكثر على عربة صغيرة .

سكران طينة

يقولون للمفرط فى السكر : سكران طينة ولعلهم يريدون أنه سكر وأفرط فى السكر إلى أن صار فاقد الشـــعور كالطينة . أو يريدون أنه لفرطه فى السكر قد صار فاقد الشعور فيقع فى الطين . وقد ورد هذا الاستعمال فى بعض الشعر المتقدم .

السلطان سليم

هو السلطان سليم العثمانى ، وإنما عنينا بترجمته لأن ما نال مصر على يده ويد خلفائه أثر فيهم تأثيراً كبيراً ، حتى إن كثيراً مما نراه فى أخلاق الشعب المصرى إنما هو أثر من آثارهم . وقد أتى بعد المماليك الشراكسة (انظر شركسى) .

وقد دخل القاهرة فى جنود كثيرة وموكب عظيم . وقد جمع الأمراء الباقين على الحياة وأمّنهم على حياتهم بعد أن وبخهم على مقاومتهم ، وبصق فى وجوههم ، وأمر بحبسهم فى القلعة ، ثم أمر بضرب أعناقهم . وفى يوم آخر قتــل أربعــة وخمسين أميراً ، وصارت أجسامهم مرمية على الأرض تنهشها الكلاب والذئاب وتفســد الجو ، حتى صار النساء يعطين المشاعلية «حمالى المشاعل» أموالا كثيرة لدفن أزواجهن . وفى تلك الأيام زاد الطين بلة هجوم البدو من العرب للسلب والنهب والقتل فى البلاد ، وأغاروا على عدة بلاد من بلاد الشرقية ، ونهبوا ما فيها من مواش وأدوات ، وسـبوا النساء والصبيان وباعوهم بأبخس الأثمـان . حتى قال شاعرهم :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
بيـع الهوان ربحت أم لم تربح
قدّم وأخّر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منه تستحى

وشنق بعض الأمراء ، وكانوا محبوبين فـكثر عليهم الحزن والأسف . وقد خلت البلاد للسلطان سليم وتمـكنت الدولة العثمانية من الديار المصرية فصارت مصر ولاية بعد أن كان سلطانهم أعظم السلاطين . ذلك أن السلطان سليمان أناب عنـه (خير بك) ، وترك بمصر خمسة آلاف فارس وخمسمائة من رماة البنادق والرصاص . ولما خرج خرج معه ألف جمل محملة من الذهب والفضة ، غير التحف والنحاس والصينى والخيول والبغال والإبل وقد سلبت رجاله ووزراءه من مصر وبلادها ما لا يدخل تحت حصر .

ولحق مصر من الضرر الشامل مدة إقامة عساكره بها ما لا يوصف ، وعمت البلية ، و بطل منها نحو خمسين صنعة . ولم يجلس فى القلعة ، ولا أنصف مظلوماً من ظالم ، بل كان مستغرقاً فى لذته وسكره ، مقيما فى المقياس بين الصبيان المرد ، وترك الحكم لوزرائه ، ولم يكن يظهر إلا وقت سفك الدماء ، وعساكره دنيئون قذرون يأكلون فى الأسواق على ظهور الخيل ، و يتجاهرون بقلة الدين وشرب الخمر ، وغالبهم لا يصلى ولا يصوم ، وليس لهم أدب ولا ذمة ، ومع ذلك فقد أسعده الحظ ، واتسعت مملكته من الفرات إلى مصر . وأخذ معه ابن السلطان الغورى . وقد أرسل إلى القسطنطينية قبل خروجه كثيراً من علماء مصر وأشرافها وتجارها ، وعدداً من أهل كل حرفة ، فتعطل بمصر كثير من المصالح . ومن خوف الناس من جنوده كان الأعيان يستأجرون بعض العثمانيين ليحفظوا بهم بيوتهم ، وصار هؤلاء الجند العثمانيون إذا رأوا رجلا ماشياً فى الطريق قالوا إنه شركسى يريدون الفتك به ، فيستشهد بالناس أنه ليس بشركسى ، وإنما هو مصرى ، فيقولون له : اشتر نفسك من القتل بدفع شىء من المال ، فيفعل ذلك ؛ وصار كل من عادى عدواً من المصريين دس إليه عند العثمانيين . ونهبوا القماش والسلاح والخيل والبغال والجوارى والعبيد من كل شىء جليل ، ونهبوا الذهب والسروج الذهبية والبلور والعقيق والخلع المطرزة بالذهب ثم تغالوا حتى أخذوا أموال الأوقاف ، ولم يردعهم أحد ؛ فغالوا فى الضرائب ، وأخروا صرف ماهيات الشراكسة نحو ثمانية أشهر ثم دفعوا لهم منها شهرين ؛ وقتلوا الكلاب الكثيرة حتى قال قائلهم :

تأملوا ما جرى بمصر
من حادث عم بالعذاب
فما رعى الترك فى دماء
فكيف يرعوا دم الكلاب

وقد نظم ابن إياس فى ذلك قوله :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى
من حادث عمت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى
غمض العيون كأنها سنة الكرى

(يريد بالأتراك الشراكسة الذين أزال ملكهم العثمانيون)

وأتى إلينا عسكر سيماهم
حلق الذقون ولبس طرطور يرى
لا يعرف الأستاذ من غلمانه
وأميرهم بين الأنام تحقرا

جل الإله مصدقا عما حكى
فى سورة الروم العظيمة أخبرا
ولاه رب العرش سلطانا على
مصر وهذا الأمر كان مقدَّرا
لهفى على الأبواب كيف تكسرت
وخلت أماكنها وصاحبها سرَى
لهفى على نهب القماش وبيعه
وبأبخس الأثمان صارت تُشترَى
لهفى على فك الرخام ونقله
من كل بيت كان يبدو مزهرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الفرسان كيف تقطعت
أعناقها بيد العدو إذ افترى
صارت على الطرقات من أجسادهم
ربما حكت عيد الضحىَ الأكبرا
لهفى على ذاك الحريم وهتكه
من بعد صون فى الحريم مخدَّرا
لهفى على عيش بمصر وقد خلت
أيامه كالحلم ولّى مدبرا
يا رب إنّا بالنبى المصطفى
والأنبياء وكل سادات الورى
نسألك كشفاً للكروب بسرعة
واعف عن الإجرام عفوا واغفرا

قد جاء لابن إياس شعر قاله
لكن منه النظم يحكى جوهرا الخ

وقد توالى على مصر ولاة طغاة يعينون من قبل السلاطين العثمانيين . ونقرأ تاريخهم وأحداثهم فى مصر فنرى مع الأسف سلسلة من المساوئ ، ونقرأ تاريخ ابن إياس فيفزعنا ما يقول . وقد كان إسلام أكثرهم إسلاما ظاهريا ، فالإسلام عندهم جلوس فى أدب عند سماع القرآن ، ووضع مصحف صغير فى علبة ذهبية أو فضية من غير مراعاة لعدل ولا صرف . وأكثر ما ترى فى تاريخهم سفك فى الدماء ، وإسراف فى المال والشهوات ، وكثرة المصادرات ، ويعتقدون أنهم يستطيعون أن يكفروا عن كل هذه السيئات ببناء مسجد أو سبيل ، كالذى حكى أن أحدهم عمّر مسجدا اغتصب أكثر مواده من حجارة ورخام وأخشاب من مساجد وبيوت أخرى ، حتى أطلق عليه المصريون الفكهون « المسجد الحرام » .

فقال ابن إياس : « إن المصريين طويلو الألسنة ؛ نعم إنهم طويلو الألسنة كثيرو التندر قصيرو الفعال » . وقال مرة أخرى لرجل منهم إنه ظلم ظلما كثيرا ثم حج . معتقدا أنه كفّر بذلك عن سيئاته ؛ فقال قائل :

حججتَ البيت ليتك لا تحج
فظلمك قد فشا فى الناس ضجوا
حججت وكان خلفك حمل ذنب
رجعت وفوق ذاك الحمل خرج

(انظر بدائع الزهور لابن إياس)

ثم كان الولاة الذين تولوا بعده ظلمة قساة جبارين نهابين مرتشين مما أذل المصريين ، وحقّر نفوسهم ، ولا تسأل عما كان يفعله الكُشّاف والملتزمون وغيرهم من الأتراك العثمانيين ، حتى إن العوام أكثروا من الأمثلة وتناقلوا الحكايات التى تدل على ظلمهم وغبائهم ورشوتهم وتدينهم دِيناً ظاهريا ونحو ذلك .

نعم إنهم امتازوا عن المصريين بالنظافة والجمال والأناقة فى المعيشة . ولكن هذا لا يقاس بجانب جبروتهم وسوء سلطانهم ، فربما كان تأثيرهم السيء فى المصريين أكبر أثراً .

وقد حكموا قروناً طويلة قابلها المصريون بصبر عجيب ، حملهم عليه فى الغالب طبيعتهم واتحادهم فى الإسلام . ولذلك لم يتحملوا جزءاً منه من الفرنسيين لمخالفتهم للمصريين فى الدين ؛ فظلت كل يوم ثورات تقض مضاجعهم حتى خرجوا . وكذلك الأمر مع الإنجليز .

لقد لقى المصريون كثيراً من العذاب والذل فى العصور المختلفة ، من فراعنة ، ويونان ، ورومان ، ومن ابن طولون فى عسفه وفخفخته ، ومن الإخشيديين فى ذلتهم وضعتهم ، والفاطميين فى تخريفهم وكثرة سفكهم للدماء ، والأيوبيين فى الخلافات الشديدة بينهم وزجهم المصريين معهم ، والمماليك فى طيشهم وغرورهم . ولكن هذا كله لا يساوى ما لقى الشعب المصرى من العثمانيين . فقد حط عليهم من الهم والغمّ والذل ، والنفخة الكذابة ، والخنوع للألقاب والرتب ، وتقويم الناس بحسب أطيانهم لا بحسب ملكاتهم ، ما لم يكن له نظير وما بقى أثره إلى اليوم .

ولذلك كان انفجارهم فى العهد الحاضر انفجاراً عظيما ، يدل على تحملهم الكثير .

السن

كان المصريون قبل هذه الأيام يحترمون السن احتراماً كبيراً ؛ فالصغير يحترم الكبير والأولاد يحترمون آباءهم ، فلا يدخنون أمامهم ، ولا يرفعون صوتاً عليهم ؛ وأكبر الإخوة عادة يقوم مقام الأب . وإذا دخل كبير الأسرة عليهم وكانوا يدخنون أخفوا السجاير . وكانوا في القديم إذا مر مسن محترم على رجل وهو يدخن شبُكا وضعه بجانبه لإخفائه . ومن هذا القبيل احترام الرؤساء . فمن لم تكن له رتبة احترم ذوي الرتبة ، والفلاح يحترم العمدة أو شيخ البلد ، وإذا مر فوجد العمدة نائما على الباب لم يستطع أن يمر عليه ، وإذا كان راكباً نزل عن ركوبته . وعلى العموم يحترم من هو أقل سنا من هو أكبر منه سنا ، ومن كان من طبقة ، الطبقة التي هي أعلى منه ، وهكذا ... ويظهر أيضا هذا الاحترام في المخاطبات ، فمن كتب لمن هو أكبر سنا أو جاها افتتح خطابه بقوله أبي أو سيدي أو والدي ، وإن كان نظيره قال له أخي . ومن هذا القبيل تعاظم الجنس ؛ فقد كان الإنجليز في السودان يحرّمون على أهل البلد أن يسيروا أمامهم وهم ركوب ، بل لا بد أن ينزلوا عن ركوبتهم احتراما لهم .

وبعض الأوربيين عادة يأنفون من ركوب بعض «الملوّنين» معهم في السفينة أو في قطار أو في مطعم .

وهذه العادات كلها سائرة إلى الفناء . ومن هذا القبيل ما كانت عليه المرأة من المبالغة في احترام زوجها ، وقد كانت منذ سنين تقف أمامه لتتلقى أوامره وتدعوه يا سيدي ، ولا تستطيع أن تأكل معه ، وقد تقف أمامه عند الأكل بالكباية فيها الماء وتخضع له أكثر من خضوع الخادمة له ، وتتخذ كل الوسائل لنيل رضاه وتوفير أسباب السعادة له . ثم تغير الحال فبدأت بالمساواة ، ثم بخضوع الرجل للمرأة .

والله بالمستقبل عليم .

السهرات

كان في الزمان الماضي تقام سهرات خاصة في بيوت خاصة ، يدعى إليها نخبة من الفتيان والفتيات ، يقضون لياليهم في البيوت في أنس ، وسمر ، وترف ؛ وقد يقودون بعض أصحابهم معهم .

ولكي يحتفظوا بسرية هذا كانوا يعصبون أعينهم ويركبونهم عربات إلى البيت المقصود ، فإذا وصلوا فكت العصبة ،

وبعد الانتهاء يعودون كما جاءوا ، لئلا يعرفوا في أي مكان كانوا ... وكانت تذاع أخبار غريبة عن رجال من الجيش يدعون إلى بيت كبير ، يتوصل إليه بسرداب ثم لا يظهر لهم أثر بعد . وقد أخافت هذه الشائعات أناسا كثيرين من إجابة الدعوات إلى هذه السهرات السرية .

سوارس

كان في القاهرة عربات كبيرة مسقوفة تحمل الركاب من شارع إلى شارع ، يجرها جياد ، وربما سميت سوارس باسم منشئها ، كميدان سوارس الذي سمي باسمه ؛ وكثيراً ما يكون الركاب على الجانبين ، وفي الوسط توضع الزكائب والأخراج والقفف فيصعب على المارّ أن يتخطاها . وكثيراً ما تحدث منازعات بسبب ذلك . وقد حدثت لي شخصياً حادثة من هذا القبيل ، إذ كنت أحمل بيدي كتاباً من أربعة أجزاء وأردت أن أخطو القفف فلمست رجلي امرأة فسبّت ، فلما زجرتها صوّتت ، وكان ما كان مما لست أنساه . وقد جرت الحادثة إلى المحاكم .

سور القرآن

يعتقدون أن سور القرآن وآياته ليست للدعوة الإسلامية ، ولكن لكل سورة خواص ، كالشفاء من الأمراض ، والسعادة ، ومواجهة الحكام ، فيقولون مثلا : إن من أراد أن يصلح بين زوجين أو أخوين متخاصمين ، فليكتب في قرطاس بماء ورد وزعفران وشيء من مسك : بسم الله الرحمن الرحيم . يحمد فلان بن فلانة لفلان بن فلانة ، أو فلانة بنت فلانة طاعة لله ولفاتحة الكتاب . مالك يوم الدين الخ » ... وهكذا . ويكون في حالة الكتابة بخور عودولبان ذكر . ويقولون في آية الكرسي مثلا : من قرأ آية الكرسي عقب كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت . ومن قرأها عند النوم لم يقربه شيطان تلك الليلة . ويقولون إنك إذا أردت هلاك عدو أو خراب داره فاقرأها عدد حروفها ، وقل بعد ذلك . ياقاهر ياذا البطش الشديد .

ويقولون في الوقاية من العين (يكتب ويحمل بعد البسملة) : خرجت عين الحسود من أحداق بيض وسود ، قل أعوذ برب الفلق الخ . . .

ومما يكتب للعين والنظرة ويعلق على

الرأس هذه السور الثلاث التى ليس فيها كاف سورة العصر ، ولإيلاف قريش ، وقل أعوذ برب الفلق . وهكذا لكل سورة وآية فوائد .

ومن ذلك أيضاً إذا أريد حبس المطر فى أوقات الضرورة « فليقل إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا . يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء . اسكن أيها الغيث كما سكن عرش الرحمن ... وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم » وقد ألف فيه كتب كثيرة . وفى تفسير الزمخشرى فى آخر كل سورة بيان لفوائدها .

وقد اشتهرت على الخصوص سورة يس والواقعة وتبارك وقل هو الله أحد لقضاء أغراض شتى .

السوق

يكاد يكون لكل حى سوق ، يكون فيه البقال والجزار والخضرى والفكهانى و بائع السجاير ونحو ذلك .

وهناك أسواق عامة كبيرة للأحياء كلها . وربما كان السوق لشىء خاص دون غيره ، كالصاغة لبائعى الحلىّ ، والتربيعة لبائعى الدهانات والعطور . والسكمكيين لبائعى البلغ . والغورية لبائعى العقاقير ، والموسكى لبائعى الأقمشة . وهكذا ... فمن أراد شيئاً قصد سوقه واشتراه .

والبيع والشراء تغلب عليهما المماكسة ، فالشىء إذا كان بخمسة قروش قال البائع إنه بثلاثين ، فيقول المشترى إنه بخمسة ، فلا يرضى البائع ولا يزال المشترى يزيد قرشا فقرشا حتى يكتفى ، وذلك كمماكسة الإنجليز عند المعاهدات ؛ ولا أدرى أأخذوها منا أم أخذناها عنهم .

ويلحق بذلك الباعة المتجولون وهم يبيعون أكثر الأشياء ، فمنهم من يبيع المأكولات ، ومنهم من يبيع المشروبات ، ومنهم من يبيع الملبوسات ، ومنهم من يبيع الخردوات . وهم أكثر من أصحاب الدكاكين مماكسة . وهم عادة يبيعون الأشياء أرخص ، لأنه ليس عليهم إيجار دكان ، ولا إيقاد أنوار ، ولا أجرة عمال ، ولا دفع ضرائب . وكل ذلك موفور عليه . وبعضهم ماهر فى المماكسة والخداع ، وأكثرهم من الصعايدة .

سوق العصر

كان فى جوار بيتنا بالمنشية سوق يعقد بعد عصر كل يوم ، ومن أجل ذلك سمى سوق العصر ؛ وهو خلف جامع السلطان حسن . وكنت ترى فيه أنواعا مختلفة من السلع ، فهذا يفرش فرشة عليها مطاوى ومقصات وفتاحة علب وسكاكين وقطع من الحديد المختلفة ، وهكذا . وهذا يبيع مأكولات كالكرشة والسقط ، وهذا يبيع

البيض والسميط ، وآخر يبيع النحاس ، وحاو يجمع الناس عليه ، وآخر يبيع المراتب والألحفة والأسرة ، وآخر يسن السكاكين والمقصات ، وهذا يلعب الكتشينة لعبة ماهرة ، حتى قلّ أن يصيب اللاعب فى لعبه . وهكذا كان السوق معرضاً صغيراً للأدوات والمأكولات والمفروشات المنزلية وينعقد إلى المغرب كل يوم .

وكان لى فى المرور على البائعين تسلية كبيرة وإن لم أشتر شيئاً خصوصاً فى عصر رمضان .

السيد احمد الكنفانى

كان رجلا بديناً يبيع الكنافة عند باب المتولى ، يلبس قفطاناً وعمة من غير جبة ، واشتهرت كنافته بالجودة ، واشتهر أيضاً بأنه عنده دواء يشفى الإجزيما والقوبة . وحدّث أحد الأطباء الكبار أن خادماً له أصيب بالإجزيما واشتد عليه المرض فوصف له العلاج فلم ينجح ، ولكن عجوزاً ذهبت به إلى هذا الرجل ، ومن الغريب أنه شفى تماما . وربما كان علاجه نوعاً من الأدهان تنفع فى هذا المرض ولكن الغريب أن الذى يقوم بهذا العلاج هو « كنفانى » .

سيدى الأربعين

عند القاهريين شيخ مشهور ، يسمى سيدى الأربعين . يدعون أن له أربعين مقبرة ، والأربعون كناية عن الكثرة ، وليس المراد بها العدد المخصوص . والسبب فى كثرتها أن صاحب البيت إذا وجد الناس يبولون فى ركن من أركان بيته أو حارته فمنعهم فلم يقبلوا احتال بين ليلة وضحاها فادعى أن فى هذا المكان سيدى الأربعين ، وبنى ضريحا صغيراً ، وادعى أن فيه شيخا ، فامتنع الناس عن البول فى هذا المكان . ولذلك تراه كثيراً فى أركان القاهرة .

حرف الشين

شال

هو أنواع كثيرة : منها الشال الكشميرى نسبة إلى كشمير . ويستعمل الشال الكشميرى فى مناسبات كثيرة ، كلفّ خشبة الميت ، وتغطية العروس عند دخولها إلى بيت زوجها ويلبسه بعض العلماء للتدفئة فى الشتاء ، ويهدى للمأذون إذا عقد عقداً لقوم أغنياء ، والأمراء والأغنياء يحتفظون بصندوق مملوء بهذه الشيلان للإهداء منها فى المناسبات .

وهناك شيلان أخرى غير كشميرية ، فشال من نسج رفيع يتعمم به ، وشال من قطن أو صوف تلفه المرأة على رأسها أو تضعه على كتفها فى الشتاء ، وقد يلبسه الرجال فى الأرياف .

ويتغزل الصعايدة فى المرأة تلبس الشال ، ومن أغنياتهم المشهورة هذه الأيام : « يا أم شال أحمر قطيفة يا أم شال » . ويسمون بعض الشيلان الشال الغابانى ، وأصله يابانى ، وهو مشجر كالشال الكشميرى ، ولكنه أرخص منه .

شبشب

(انظر حب) .

الشبك

عود خشبي طويل ، ركب فى آخره قطعة من الخشب القوى مجوفة كالبلوط ونحوه يوضع فيها الدخان ، وقد كان منتشراً فى مصر ، وكثيراً ما كنا نرى الأغنياء يخرجون ووراءهم الخادم يحمل الشبك ليستعمله سيده إذا جلس فى الدكان أو فى البيت . ويبلغ طول الشبك نحو متر ، ويتفنن فيه أصحابه ، فقد يغطى بالحرير الذى تحليه سلوك ذهبية .

ويكون فمه عادة عند الأغنياء من الكهرمان ، وقد يرصع بالأحجار الكريمة ، وكان يحترف كثير من الفقراء حرفة تسليك الشبك . فيسمى محترفوا هذه الحرفة « المسلكاتية » فكنت تراهم فى الطريق يحملون مقطفا أو وعاء فيه سلوك ممتدة . ومن هذا القبيل الشيشة أو النرجيلة ، وكان يقضى المصريون فى شربه أوقاتاً طويلة .

وقد أطلق على مصلح الشبك للأغنياء ، الشُّبكشى . وهى نسبة تركية . ولا يزال إلى اليوم عائلات كثيرة تسمى بالشبكشية .

شجرة العذراء

هى شجرة عتيقة فى جهة المطرية . يحج إليها المسلمون والنصارى على السواء ، ويتبركون بها ويدعون الدعوات لاعتقادهم فى استجابتها عندها .

الشحاذون

ينتشر الشحاذون فى مصر انتشاراً كبيراً على أشكال وأنواع . فمنهم من يتجوّل فى الشوارع والحارات ، ومنهم من يقف على أبواب الأولياء والمساجد ، ومنهم من يترقب غفلة الناس فيأخذ النذور وليس عملهم إلا نوعا من الشحاذة . وهم كثيراً ما يستخدمون الدين فى الشحاذة . فيدعون دعوات دينية تدعو إلى الكرم والإحسان . وقد يستخدمون وسائل موسيقية كالضرب بالدف ، والتغنّى بمدح النبى صلى الله عليه وسلّم . ومنهم فى العصر الحديث من يتخذ حرفاً شكلية لا قيمة لها كالوقوف أمام السيارات ، وعند الخروج من الملاهى ونحو ذلك . وكان مقتضى جوّ مصر وإمكان الاكتفاء بقليل من المأكولات ومقتضى ثروة البلاد أن يكون الشحاذون أقل من هذا ، ولكن كثير منهم اتخذها حرفة . وهم يكثرون عادة عند ما يستطيعون أن يستفزوا عواطف المسلمين للإحسان كأوقات زكاة الفطر ورمضان والعيد الكبير وغير ذلك . ومنهم من يدخل المساكن ويستجدى ، ويتصنع الفقر والبؤس إما بالعرج أو بالعمى أو بآفة نزلت به ، كالجرب والبرص أو بحادث نزل به كقطع يده ورجله ونحو ذلك

وكلما جهدت الحكومة أن تمنعهم بالتقنين بمنع الشحاذة وجمعهم فى الملاجىء ذهبت أعمالها فى هذا السبيل أدراج الرياح وعاد الشحاذون كما كانوا .

وهناك شحاذة أخرى أرقى من هذه وهى الرجاوات لتعيين نسيب أو قريب فى الحكومة أو نقله من مكان بعيد إلى القاهرة

وهناك أنواع أخرى كالذين ينتظرون ترقية شخص فيكتبون له قصائد فى التهنئة أو المديح . ومن ينتظرون مؤلفا يخرج كتابا فيرجون فى إهدائه لهم . ومرة طلب إلىّ أحدهم أن أهديه كتابى فجر الإسلام وادّعى أن حرامياً سطا عليه وأرسل إلىّ زجلا يقول فيه :

طبق فى البيت ولا خلى
طبق فى البيت ولا حلّى

ويعتذر بذلك عن عدم قدرته على شراء الكتاب . ومثل ذلك الموظفون فى المكتبات

العامة ، فلا يسمعون بمؤلف إلا ويطلبون منه إهـداء كتبه كأن المؤلف ألفها للإهداء إلى غير ذلك .

واشتهر شحاذو السيدة زينب والسيد البدوى بالإلحاح فى الطلب ، فيقولون إذا رأوا ملحّا « زىّ شحاتين السيّدة ، أو شحاتين السـيد » . و بعض الشحاذين يظهرون الفقر و يلبسون الأخلاق البالية مع أنهم قد يكونون جمعوا من شحاذتهم أموالا طائلة ، ثم هم لا يكفون عنها كأنها حرفة شريفة . والعادة أن يسأل السائل بألفاظ كثيرة مثل أعطنى حسنة لله . فيجيب الآخر بالعطاء أو يقول له : الله يحنن عليك — وعلى الله ، إذا أراد أن يصرفه . ومما يجرى من حكايات الشحاذين أن أحدهم يقول إنها حرفة مربحة ، فهو يستطيع أن يسأل ألفى شخص فهب أن ألفاً وستمائة مسئول قال على الله . فيبقى أربعمائة يعطيه كل رجل قرش تعريفة ، فتصير مائتى قرش .

وقد جرت العادة أن بعض المحسنين يحسن بالطعام واللباس خصوصاً فى رمضان ، و بعضهم كان يحسن بالمليم ، فلما فقد المليم قيمته صار أقل مايحسن به القرش . وأصبح الشحاذ يأنف أن يأخذ مليما أو مليمين . و ينسبون إلى الأتراك أنهم قد يقعون فى الفقر و يسألون فى عظمة وغطرسة . ومن الأمثال الشائعة أنهم يقولون : « حسنة وأنا سيدك » .

و يحكون أن تركياً افتقر فأتى بإبريقين ليشرب منهما المارة و يعطونه إحساناً . فكان كلما تقدم أحد من إناء ليشرب منه زجره وأمره بالشرب من الآخر ، إظهاراً لعظمته وسيطرته .

ومن هـذا الباب الشحاذة بالقرآن أوالقصائد النبوية ، فكثيراً ماتجد فى الشوارع رجالا وفتيات يقرأون القرآن للشحاذة وكثيراً ما تجد فى الحارات رجالا ينشدون القصائد النبوية ومعهم الدف يضربون عليه للسؤال .

الشربات

من المعتاد أن يقدم « الشربات » فى المناسبات المفرحة وهم يصنعونه من أشياء كثيرة من الماء مذابا فيه السكر مع ماء الورد أو ماء زهر البرتقال أو عصير البرتقال أو الليمون الخ . و يستعمل المصريون خصوصاً بعد الأكل (الخشاف) وهو ماء محلى بالسكر وضع عليه الزبيب والصنوبر والتين والبلح والعنب .

وقد يباع هذا الشربات فى الطرقات كما يباع أيضاً الخروب والعرقسوس ، وهم عادة

يقدمونه فى الأفراح ككتب الكتاب ويسمون بائعه الشربتلى . وفى المدن دكاكين كثيرة يباع فيها الشربات . وأحيانا يسقونه وفاء لنذر كمريض نذر أهله إن شفى أن يسقوا الشربات . وقد غزته أخيراً الكولا والبيسى كولا . ويقولون دمه شربات أو كلامه شربات إذا كان خفيف الروح .

الشركة فى البهائم

اعتاد الفلاحون أن يشتركوا على الجاموس والبقر والعجول . وقد يشاركهم الحضريون فى ذلك ، فإذا فعلوا فقد اعتادوا أن يكون للفلاح الذى يطعم البهيمة لبنها وعملها فى نظير إطعامه لها ، فإذا ولدت مولوداً فهذا المولود مناصفة بينهما . وكثيراً مايحدث النزاع بسبب هذه المشاركة خصوصاً إذامات البهيم .

الشركس

نوع من الترك وقد حكموا مصر مدة ١٣٩ سنة . وأولهم برقوق ويليه فرج وربما نسبت إليه الفرجية . وقدعرفوا بالجمال والقوة وقد أورثوا أخلاقهم لبعض المصريين . وكثير من العائلات الشركسية كانت تسكن مصر . وبقى الحكم فى أيديهم إلى أن أخذه منهم السلطان سليم العثمانى ، وكان يجلب إلى مصر كثير من الشركسيات الجميلات ، يسترققن ويبعن فى الأسواق للأمراء والأغنياء .

وفى الحكم العثمانى كان منهم جنود كثيرون يسمون الشراكسة ، ومن غريب أمر هؤلاء الجنود أنهم انقسموا قسمين : قسم يقال له الفقارية ، وقسم يقال له القاسمية وبينهما عداء ، كما انقسم الفلاحون والعربان إلى سعدية وحرامية .

وقد كانت الفقارية مشهورة بالغنى والكرم ، والقاسمية بالغنى والبخل . واختص الفقارية باللون الأبيض ، فمراكبهم وأوانيهم وكل شىء يستعملونه أبيض بعكس القاسمية فقد تميزوا باللون الأحمر فبيرقهم أحمر وأوانيهم ومفروشاتهم حمراء . واشتدالنزاع بين الفريقين كما اشتد بين السعدية والحرامية . وكثر الخراب بسببهم ، وهكذا انحلت الأمة المصرية من قديم .

وقد ورثنا عنهم إلى الآن نوعا من الإدام يسمى الشركسية ، وهو طعام عماده الرز والفراخ . ولا يزال إلى اليوم عائلات كثيرة فى مصر من أصل شركسى ، يتميزون ببياض الوجه وحمرته وطابع خاص بهم ، ونظافة فى بيوتهم وغير ذلك .

الشَّعر

الشعر معروف . ولكنهم يعتقدون أن كل جزء من الإنسان كقص الشعر والأظافر والختان يجب أن يحفظ ، وإلا كان عرضة لأن تأخذه امرأة فتعطيه لرجل يسحره ؛ لأن من يريد أن يسحر غيره كان من خير وسائله أن يحضر له خصلة من الشعر أو الأظافر .

الشِّعر

للشعر المصرى طبيعة خاصة تشيع فى الرجز وفى الأغانى ، وفى النكت . وهذه الخصائص هى :

(١) خفة الروح وحسن الذوق .

(٢) العناية غالبا بالجناس اللفظى .

(٣) استعمال التعبيرات المصرية ، مثل للحيطان آذان ونحو ذلك .

(٤) الذوبان فى الحب من بكاء على القطيعة ، وغزل فى العيون والقدود وبكاء على أيام الوصال ، وحزن على المشيب ونحو ذلك .

(٥) تسلط النغمة الحزينة على النغمة المفرحة .

وهذه الخصائص الخمس تجدها فى الشعر كما تجدها فى الزجل وكما تجدها فى الأغانى .

ويظهر أن توالى الظلم عليهم وانغماسهم فى التهتك واللذائذ ورقة ذوقهم طبعتهم بهذا الطابع الذى لا نظير له . ومن الأدلة على ذلك أن قرأت مرة قصيدة لطيفة ، فأعجبت بها ورأيت فيها الطابع المصرى فقلت لابد أن تكون هذه مصرية ، ثم قرأت ترجمة صاحبها فإذا هو مصرى حقاً . ونسوق الآن بعض هذا الشعر المصرى للدلالة على ما نقول :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى ... ما فى يدى من فاقة إلا يدى

فى منزل لم يحو غيرى قاعدا ... فإذا رقدت رقدت غير ممدد

لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ... ومخدة كانت لأم المهتدى

ملقى على طراحة فى حشوها ... قمل كمثل السمسم المتبدد

والفار يركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الأديم وأجرد

هذا ولى ثوب تراه مرقعا ... من كل لون مثل ريش الهدهد

ومثل :

دعوتنى للعرس ياسيدى ... فكدت أن أحضر من أمسى

وها أنا الليـــلة فى داركم
فالـكلب ما يهرب من عرسِ

ومثل قول الآخر :

جمعك ابن الـكثيب والغُصُن
فرّق بين الجفون والوسن
يا فتنـــة ما وقيت صرعتها
مع حِذْرى دائماً من الفتن
باللفظ واللحظ كم ترى أبداً
تسخر بى دائماً لتسخرنى

ومثل :

أرى شعرة بيضاء فى الخد نابتهْ
لها لوعة فى صفحة الصدر ثابته
ومن شؤمها أنى إذا رمت نتفها
نتفت سواها وهى تضحك شامته

(انظر البهاء زهير وابن دانيال)

الشعور الوطنى

نذكره لأنه ظاهرة من ظواهر الأمة الاجتماعية وأصبح عاملا مؤثراً فى حياتها ، ولم يكن موجوداً إلا فى الأيام الأخيرة بعد الاحتكاك بالأجنبى وتقليده . فلما هاجم الفرنسيون مصر لم يكن الشعور الوطنى ظاهراً ، وإنما كان الموجود الشعور الدينى ، فلذلك أراد الفرنسيون أن يضحكوا على عقول المصريين ، بدعوى دخول بعضهم فى الإسلام كعبد الله منو ، وربما ادعى نابليون نفسه ذلك .

ولكن لم تجز الحيلة على المصريين ، فظلوا فى عدائهم للفرنسيين بحكم مخالفتهم لهم فى الدين .

وهذا هو الذى يفسر طاعتهم للترك وسكوتهم عن مظالمهم لاتفاقهم مع الأتراك فى الدين .

ويظهر أيضاً الشعور فى كل حركاتهم ، وسكناتهم . وحتى عرابى « باشا » نفسه استغل هذا الشعور الدينى فى ثورته . فكان يستعين على نجاحها بحمل العلماء على قراءة البخارى ، وحمل الدراويش على إقامة الأذكار . واستُغل الشعب ببيضة ولدتها فرخة فى طنطا زعموا أنها مكتوب عليها : (نصر من الله وفتح قريب) ، وبالمدافع الخشبية الثلاثة ، وهى مدفع السيد البدوى ، ومدفع سيدى عبد العال ، ومدفع سيدى إبراهيم الدسوقى . ولكن يظهر أن الشعور القومى ظهر إذ ذاك . فحركة عرابى نفسه فى بدئها كانت مطالبة بمساواة الضباط والجنود المصريين بأمثالهم من الشراكسة ، وهذه نزعة مصرية لا إسلامية . ولكن يؤخذ

على الثورة أنها كانت مصحوبة بغرور الزعماء ، بل إن هذا الشعور كان من قبل ذلك . فيؤثر عن مراد بك عند مهاجمة الفرنسيين أنه قال : « إنهم إذا جاءوا مزقت شملهم » وكذلك كان عرابى يستخف بالإنجليز، ولذلك لم يحصن البلاد التحصين الكافى .

وشىء آخر وهو عدم فهم المصريين للألاعيب السياسية ، والدسائس الخفية ، مثل إرشاء بعض المصريين بالأموال للتفريق بينهم ونحو ذلك

وعلى العموم ، فقد كان الذين يساعدون عرابى وطنيةً يحصرون على الأصابع ، ولما كسروا واحتل البلاد الإنجليز ، ظهر المقت والغضب ، ولكن كان يلطفهما الإيمان بالقضاء والقدر . وأن الله سلط الإنجليز علينا لظلمنا وعصياننا . ولما جاء مصطفى كامل كان من مزيته تقطير الشعور الوطنى إلى الشعب بعد أن كانت نزعة الوطنية أرستقراطية ، وذلك بجريدته وخطبه ، فاشتد إقبال الناس عليهما وتأثرهم بهما .

وكثر أيضاً اتصال الشبان بالأوربيين عن طريق البعثات وقراءتهم الكتب الأجنبية فى الوطنية ، ورؤيتهم مشاعرهم وأعمالهم . ولذلك لما مات مصطفى كامل نبض له قلب مصر لأول مرة ، كما قال قاسم بك أمين .

ومع ذلك ظل الشعور الدينى يغلب الشعور الوطنى بدليل أنه لما نادى أحمد لطفى السيد فى الجريدة بالدعوة إلى المصرية لا العثمانية ولا غيرها ، كره الناس قوله وشنعوا عليه . ثم لما جاء سعد « باشا » زغلول كان من أثره إيصال الشعور إلى الفلاحين إذ كان نابعاً من أنفسهم ، وكان خطيباً مفوها . وطالب بتوقيع توكيل من الفلاحين أيضاً فاجتمعت البلاد كلها حوله .

وشىء آخر ينسب إليه ، وهو فهمه وتفهيمه ألاعيب سياسة الاستعمار وسد الباب فى وجهها . فإذا أرادوا أن يفرقوا بين مسلم وقبطى جعل فى الوفد أقباطا يوقّعون معه عرائضه ، ودعا إلى تعانق المسلم والقبطى . وإذا أرادوا الإغراء بالمال والسلطة أبى عليهم ذلك .

وشىء ثالث كان له الفضل فيه وهو عدم الخوف من التهديد ، فقد كان المصريون قبله يخافون أشد الخوف ، وكان إرسال إنجلترا مركباً حربيا واحد كافياً فى حل كل إشكال ، فهدد هو بالنفى إلى سيشل ، فقبل عن رضا واطمئنان . وأصبح الأسطول لا يكفى فى الإقناع .

وتسرب الشعور الوطنى بفضله وفضل السيدة زوجته إلى النساء ، كما حدث فى مظاهرة السيدات ، وأخيراً زاد الشعور القومى من كثرة المظالم ، فقد فشت الرشوة والنهب والسلب ، والفساد من كل نوع ، فلما قام الجيش بتغيير هذا النظام انضم الشعب إليهم وأيدهم ، ولو لم يكن الشعور القومى قوياً ما نجحوا .

وقد كان لى صديق كلما شكوت له كثرة الفساد ، قال دعه ، فإن شعور المصريين لا يظهر إلا بكثرة الفساد .

ومن الغريب أن الشعور يتنبه لأشياء دون أخرى ، فالفلاح مثلا يتنبه وعيه إذا اعتُدى عليه فى ماله وحريتـه ، والناس يتنبهون لاغتصاب مالهم ، ولا يتنبه شعورهم كثيراً ضد الرشوة .

وينقصه عدم الغرور أيضاً وحاجته إلى الوعى الزائد ، وتقـدير الشخص بعمله لا بحزبه ، والإكثار من العمل لا القول ، وغير ذلك . والزمان كفيل بهذا كله إن شاء الله .

وفى حرب القنال الأخيرة مثل رائعة على ما نقول . أكثر الله من أمثالها .

الشمس

هى من المعبودات القديمة . وكانوا يقيمون لها شعائر العبادة ويسمونها (رع) وقد بقيت بقايا من عبادتها . من ذلك أغانى الفلاحين ويطلقون على الشمس فيها (البهيّة) ولا يزال عندنا من بقايا هذا أن الطفل أو الطفلة إذا خلعت سنّا من أسنانه أو أسنانها قذف بها فى الشمس وقال :

« يا شمس يا شموسه ، خدى سنّ الحمار وهاتى سن العروسة » وفى بعض أغانى الصباح تمجيد الشمس مثل « الشمس طلعت ، نامت وصحيت » الخ ...

الشمـــع

يستعملونه للإضاءة . وإذا أرادوا كثرة الإضاءة أكثروا من الشمع ، وأحيانا يصنع شمع كبير يغيب زمنا طويلا . ويستعملونه أيضاً فى فوانيس رمضان ، ويعلقون شمعة على رأس الطفل المولود حديثا . ويحتفلون عادة فى عيد الميلاد فيستحضرون شمعا بعدد سنى المحتفل به وهى عادة أفرنجيـة . وتضاء به مقامات المشايخ . وتضاء به المصابيح فى زفة العريس .

الشهور القبطية

كثيراً ما يستعمل الناس وخصوصاً الفلاحين الشهور القبطية بدل الشهور العربية والأفرنجية لأنها ثابتة تتبع الشمس . فيمكن أن يرتبوا عليها مزارعهم ومحاصيلهم وصيفهم وشتاءهم . وقد اعتادوا أن يضعوا لكل شهر خاصة تخصه . ويتذا كرونها بمناسبة ، فيقولون (توت) الكتكوت يا كل و يموت ، دليل على أنه فى هذا الشهر تصاب فيه الكتاكيت بالأمراض وهو يساوى أكتوبر . (بابه) ادخل واقفل البوابة ، لأن الحبّ خزّن فى البيت فيخشى عليه من اللصوص . وهو يساوى نوفمبر . (هاتور) أبو الذهب المنثور . و يعنون بالذهب حبوب الذرة التى نضجت . وهو يساوى ديسمبر (كياك) صباحك مساك ، تقوم من فرشك تحضّر عشاك ، دليل على أن فيه يكون النهار أقصر ما يكون وهو يساوى يناير . (طوبة) تصيّر الصبية كركوبة ، كركوبة أى عجوزة دليل على شدة البرد ، حتى أن الصبية القوية تكون بردانة كسلانة كأنها امرأة عجوز : وهو يساوى فبراير .

(أمشير) يقول للزرع سير سير ، لأن فى أمشير يسخن بطن الأرض و يبتدىء الزرع فى النموّ . وهو يساوى مارس .

(برمهات) روح الغيط وهات . دليل على أن الزرع يكون نضج ، والمحصول استوفى . وهو يساوى أبريل .

(برموده) دقوا الشعير بالعمودة ، ولا يبقى فى الغيط ولا عوده ، لأن المحصول انتهى وطاب واستحق أن يدق . وهو يساوى مايو .

(بشنس) اكنس البيت كنس . لنفاد المحصول المخزون . واستقبال المحصول الجديد ، وهو يساوى يونيو .

(بؤونة) يسمون بؤونة بؤونة الحجر ، أى أنها من شدة حرّها تؤثر فى الحجر وهو يساوى يوليو .

(أبيب) يقولون أحيانا من يأ كل الملوخية فى أبيب يجيب لبطنه طبيب ، لأن عودها يكون صغيراً . وقد يختلط بعيدان أخرى ضارة .

وأحيانا يقولون أبيب ، طباخ العنب والتين ، إذ يظهران أول ما يظهران فيه وهو يساوى أغسطس .

(مسرى) فى مسرى تجرى كل ترعة عسرة ، من كثرة الفيضان وهو يساوى سبتمبر ، و يسمون ليلة ١١ طوبة ليلة الغطاس وهم يتوقعون فيها مطراً ولو خفيفاً ، فإذا لم تمطر

السماء غضبوا . ويقولون غطست يانصرانى ، صيفت يا مسلم بعد أربعينين . ويسمون الرياح الشديدة التى تكون فى أواخر طوبة زفة أمشير .

الشيب والشباب

يبكى الشعراء كثيراً شبابهم لأن النساء لا يقبلنهم بشيبهم ، وملئ الغزل المصرى بهذا مما يدل على حياة الغزل عند المصريين وكره النساء للمشيب ، ولذلك بكى الشيب شبابهم لأنه هو الذى كان يرضى النساء .

ومن الحوادث الكثيرة فى مصر أن يتزوج الشيخ فى سن الستين أو السبعين زوجة شابة ، وكثيراً ما يكون هذا سبباً فى خروج المرأة واستغفالها الرجل مع الإكثار من صبه للمال بين يديها . ولكن كيف يغنى المال عن قوة الشباب .

ومن الأغنيات المشهورة :

تجوزونى للشايب ليه
هو أنا وحشة والاّ إيه

ومن الأمثال المشهورة « « أبرد من الشايب عند الصبايا » و «أبرد من الشيب إلى الغوانى » ويقولون للشيخ إذا تصابى وزلّ « شايب وعايب » . ومن الأغانى :

« عمى يا شايب ما بحبّكش
دقنك البيضة شكشكت وشّى

ويقولون عن الشايب « رجله والقبر »

ويقولون لمن أسنّ كثيراً « طلعتله الأسنان الخضر » . ويظهر أنه إذا كبر جداً وسقطت أسنانه أكل على لثته فتجمدت فظنوها أسناناً وقالوا إنها خضر ، بمعنى اللينة ؛ لأن كل ليّن يقولون عنه أخضر . فالثوب إذا لم يتم جفافه قيل له أخضر ، ويقولون فى الأرض إذا رشّت ولم تجف إنها خضراء . وهكذا ... وربما حدث فى التاريخ شواذّ من رجال أسنّوا فنبتت لهم أسنان جديدة تشبه أسنان الطفل .

ويقول أبو العلاء المعرى :

إذا ما أسنّ الشيخ أقصاه آله
وجار عليه النجل والعبد والعرس
وأكثر قولا والصواب لمثله
على فضله أن لا يحس له جرس
يسبّح كيما يغفر الله ذنبه
رويدك فى عهد الصبا ملئ الطرس
فأصبح عند الغانيات مبغّضا
كأنّ خزه خزى وعنبره كرس

الشيشة

كانوا يستعملونها كثيراً هى والشبك حتى قد يخصصون لها بعض الخدم ، فيضعون الماء فى إناء زجاجى أو بلورى ، ثم يركبون فيه أنبوبة طويلة لينة ، ويضعون حجراً من الفخار يملؤونه فحما وعليه نوع من الدخان يقال له (التمباك) . والرجال البلديون يستعملون (الجوزة) بدل الشيشة . وهى عبارة عن غابتين بينهما جوزة أو ما يشابهها مملوءة ماء .

ومن التمباك نوعان مشهوران : تمباك يسمونه حِمِّى ، نسبة إلى حماة ، وهو محرف عن حموى . وتمباك عجمى .

حرف الصاد

الصالونات

كان فى مصر صالونات كثيرة ، يتحدث فيها فى السياسة والأدب والاجتماع ونحوها .

وهذه الصالونات بعضها كان صالونات أرستقراطية كالصالون الذى كانت تقيمه نازلى هانم فاضل وكان يحضره مثلا الشيخ محمد عبده وسعد باشا زغلول ، وإبراهيم بك الهلباوى . وكان فى عابدين أمام باب باريس

وكانت موضوعاته الجدل فى أدق المسائل السياسية والاجتماعية ، وكان وسيلة للفت أنظار بعض الحاضرين واستفادتهم .

وكصالون الآنسة مىّ وكان يحضره كثير من الأدباء . وأكثر حديثهم فى الأدب وما إليه .

وهناك صالونات ديمقراطية كاجتماع بعض العلماء والأدباء فى صالون حلاق أو فى دكان بائع سجاير ، أو فى دكان شربتلى فيتذاكرون الأدب ويتناشدون الأشعار .

وقد يعرضون لأحاديث فى النقد الأدبى .

كذلك كان هناك صالونات هى عبارة عن المنادر ، يجتمع فيها بعض أهل الحىّ ويتسامرون فى الأدب ، وأحوال البلاد وشؤونها . ومنها صالون لجنة التأليف والترجمة والنشر . ويقام مساء كل خميس من كل أسبوع ويتباحث فيه فى السياسة والأدب والاجتماع ويغشاه كثير من مثقفى القوم ، مصريين وغير مصريين . وكان يقام فى مركز اللجنة فى عابدين ، ثم انتقل إلى مركز اللجنة فى شارع سعد زغلول . ومثله صالون الأستاذ كامل كيلانى وهناك منتديات سياسية أخرى .

وقد تخرج من هذه الصالونات بقسميها عدد كبير من البارزين فى السياسة والأدب .

ولو دوّنت محادثاتها لكانت سجلاً عظيما يصوّر الآراء الشائعة فى زمانها ، ويُبيّن كيف تعرض الآراء المختلفة . ولأصوّر للقارئ صورة من صالون ديموقراطى كان يُعقد كل ليلة فى مندرة بيت بجوارنا : كان يجتمع فيه أصدقاء صاحب البيت ، فأحياناً بعد العشاء يتسامرون ، وأحياناً يأتون بفقيه ذى صوتٍ حسن يقرأ لهم القرآن الكريم ، وأحياناً يتحفهم ساكن البيت بجوقته ، إذ كان هو نفسه يضرب على الدف ، وأحياناً تُقص القصص اللطيفة ، وتسمع بعدها ضحكات من مكان بعيد . وهكذا كان فى كل حارة مندرة كهذه أو أكثر . ثم غزت هذه الصالونات القهاوى المختلفة . وحل اللعب بالنرد والشطرنج محل هذه المسامرات . ويروى لنا التاريخ الحديث أن كثيراً من الأدباء كعبد الله نديم وحافظ إبراهيم كانوا من

خريجى هذه الصالونات ، سواء فى شعرهم أو فى ثقافتهم ؛ وقد قلت عادة هذه الزيارات وإنشاء المنادر بسكن الشقق فى العمارات حيث لا تتسع لمثل ذلك . ومن خير الصالونات التى شاهدتُها صالون المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق بعابدين بجانب سراى نازلى هانم . فكان هذا الصالون مثالاً للبيوت القديمة ؛ فكان يجتمع معه المرحوم حسن باشا عبد الرازق الكبير والشيخ محمد عبده ، وحسن باشا عاصم وغيرهم وكان يجتمع مع ابنيه المرحومين حسن باشا عبد الرازق ومحمود باشا عبد الرازق رجال السياسة يتناقشون فى المسائل السياسية . وكان يجتمع مع المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق وعلى باشا عبد الرازق رجالُ العلم ، إذ كانا عالمين من الأزهر ، فكان يغشى مجلسهما رجالُ العلم فى الأزهر ، والمثقفون العصريون وبعض السيدات الإفرنجيات ، فيتكلمون فى العلم وفى الاجتماع ، وأحيانا قليلة فى السياسة ، فكان مجلساً ظريفاً . وقد اعتاد هذا البيت أن تقام فيه موائد عامة للغداء والعشاء يُدعى إليها من حضر ، ثم تنصبُ حلقات الحديث والمناقشة ، وقد تستمر إلى ما بعد منتصف الليل ، ويُستمع فيها أعتق الآراء وأحدثها ، فكانت بذلك مثارَ جدالٍ شديدٍ ثم مبعث تقريبٍ بين هذه الآراء . وتكاد كل صحيفة كبيرة اليوم وكل هيئة يكون لها ناد ينصب من حين لآخر فيجتمع فيه خيار المثقفين ويتبادلون الآراء وقد تلقى إذ ذاك بعض المحاضرات .

الصداع

الصداع داء معروف . وإنما سقناه هنا لأن كثيراً من الدجالين يعالجونه بعلاجات خرافية ؛ من ذلك قطع الشريان الصدغى الفكى ، ويسمونه ضرب العرق ، فإذا نزل الدم زعموا أنه يزيل الصداع . وقد يعالجونه بخرافة أخرى ، وهى رسم صليب بالريق على صدغ المصدوع . ومن طرق العلاج أيضاً عزيمة يتلوها المعزّم فيكون فيها الشفاء حسب زعمهم .

الصعايدة

هم سكان الوجه القبلى ، وقد عرفوا بالصبر على العمل واحتمال شدائده ؛ وهم كثيرو الرحلة إلى المدن كالقاهرة والإسكندرية ، ولشدة أعمال البناء بنيت البيوت والعمارات الكبيرة على أكتافهم .

وأكثر الباعة المتجولين منهم كتجار الفاكهة وغيرهم . وهم شديدو الغيرة على نسائهم ، وكثيرو التعصب على غيرهم . ويظهر ذلك أشد الظهور فى مجاورى الأزهر ،

فإذا تعدى بحراوى على صعيدى تعصب هؤلاء لصاحبهم ، وهؤلاء لصاحبهم .

وشهروا كذلك بالكرم أكثر من من البحاروة ، فإذا نزل عندهم ضيف أكرموه غاية الإكرام ، كما شهروا بالشدة فى المعاملة ، ولذلك يخافهم الناس . وقد يثور بعض الصعايدة على بعض ، وقد تحدث من مضارباتهم ومؤمراتهم بعضُ المجازر : وربما كان عددُ الأقباط فيهم أكبر نسبة مما هو عند البحاروة . وربما كان الدم المصرى فيهم أوضح منه فى البحاروة ، وذلك لقلة اختلاطهم بغيرهم . واشتهر منهم علماء وسياسيون كثيرون كان لهم يدٌ فى الحركات السياسية والاجتماعية ، كرفاعة رافع الطهطاوى ، ومحمد باشا محمود ، وحسن باشا عاصم ، والدكتور على باشا إبراهيم ، وغيرهم ، وهم كثيراً ما ينزحون من بلادهم يبيعون الفاكهة أو الأشياء الصغيرة كأمواس الحلاقة ، ثم يعودون إلى بلادهم فى مواسم الزراعة . وقد يتزوجون وينسِلون ويتركون زوجاتهم وأولادهم فى بلادهم ، ثم يبيعون ما يبيعونه فى المدن الكبيرة ويعيشون وحدهم من غير عائلاتهم .

وقد اشتهروا بأغانٍ خاصة بهم كالواوات ، واشتهر من زجاليهم الشيخ عبد الله لهلوبة ، والشيخ القوصى ، وكانت لهما أزجال ظريفة ، كما اشتهر من شعرائهم فى العصر الحديث الشيخ محمد عبد المطلب ، ولهم أغانٍ يستظرفها القاهريون ويغنونها مثل :

يا أم شال أحمر قطيفة — يام شالْ سلِّمْ على ... ومثل : يا وابور يا مْقَبِّل على الصعيد ... الخ

ويكثر فى أغانيهم كلمة (يابوى) وهم يفضلون الأخذ بالثأر بيدهم على الشكوى إلى الحكومة . وقد تمر سنون طويلة وهم يكمنون فى أنفسهم المطالبة بالثأر حتى يتمكنوا ، وتجرى فى ذلك حوادث فظيعة فى منتهى الوحشية ، وأكثر أسبابها الغيرة على النساء والتعدى على الزرع والحيوان .

وتعد أسيوط عاصمة الصعيد . ولذلك عقدوا فيها المؤتمر القبطى . ولهم لهجة خاصة بهم يستعملون فيها الجيم المصرية بدل القاف ، مثل : جال فى [قال] ، وجلنا فى [قلنا] ؛ كما أن لهم كلمات خاصة بهم واستعمالات وأساليب لا يشاركهم فيها غيرهم ، وقد تغمض لغتهم وخصوصاً فيما هو أعلى من أسيوط حتى ليصعب على القاهريين فهمها .

كما أن لعامتهم ملابس خاصة ، فإذا رأيت من يلبس جلباباً أسود ويتحزم عليه ويتلفع بشال على رأسه استدللتَ من ذلك على أنه صعيدى صميم . ويسكن على أطراف

بلادهم كثيرٌ من البدو وقد تخلقوا بأخلاق الصعايدة ، وتخلق الصعايدة ببعض أخلاقهم . وكثيراً ما أتعب هؤلاء البدو سكان الحضر بسلبهم وغزوهم ونهبهم .

وهم مشهورون بنوع من السمك يخللونه ويملحونه (ويسمى الملوحة) كما أنهم مشهورون بنوع من الخبز منه العيش الشمسى والبتاو المرحرح .

الصفا

كان شَعر النساء قبل الموضة الجديدة لا يُقص ، ولكن يجدل ضفائر .

وقد اعتدن أن يضفرن شعرهن ضفائر بعدد فردى : إحدى عشرة ضفيرة أو ثلاث عشرة ، وكل ضفيرة تربط بثلاث خيوط من الحرير الأسود ، تعلق بها قطعة ذهبية أو شىء يشبه الذهب رقيق كالورق يسمى الصفا ، ويقص الشعر فوق الجبهة ، فتتدلى منه خصلتان على الصدغين .

وكنت ترى فى سوق المغربلين صفا يتلاعب به الهواء يباع للنساء من أجل هذا . ويكثر استعماله فى أيام الأفراح .

الصناعة المصرية

فى مصر صناعة وصناعون ، ولكن صناعتهم كانت بدائية ، وقطعت فى الأيام الأخيرة خطوات واسعة ، فالسائحون فى عهد محمد على كانوا يقولون إنه إذا خربت ساعتهم لم يجدوا من يصلحها لهم إلا إذا كان أجنبيا ، واشتهر الأطباء الأجانب وزاحموا الأطباء الوطنيين ، وكان الكبراء إذا أرادوا صناعة شىء استجلبوه من الخارج ، وكانت الصناعات المصرية حقيرة ، تشتغل فى المهن الغذائية ، كعجن الدقيق وخبزه ، وذبح البهائم وجزارتها ، ومعامل الدجاج وتربية البيض ، وتحضير الفول المدمس ، والفطاطرية وكانوا أيضاً يحضرون الملابس تحضيراً بدائيا فيغزلون باليد القطن والحرير ويصبغون الملابس ويفصلونها ويخيطونها ونحو ذلك .

وشهر فى القاهرة سوق تسمى سوق العقادين ، كانت تباع فيها شلّات الخيط والزراير ونحوها .

وكذلك يعملون فى تشييد المساكن من بناء ونجارة وتبليط ونحو ذلك .

ولما جاءت الحرب الكبرى الأولى وامتنع ورود البضائع من الخارج اتجه بعض الناس إلى ترقية الصناعة الداخلية فربحوا

كثيراً ، وكان من نتائج ربحهم تشجيع همة بعضهم للرقىّ بالصناعة ، فأصبحت تجد من الصناعة المصرية موبليات فاخرة وجلوداً عظيمة ، لا يفرق بينها وبين الصناعة الأجنبية إلا حسن الصقل .

وقد اشتهرت بلاد مصرية بصناعات مختلفة كالغزل فى المحلة ، والقلل القناوى فى قنا ، والقدور الإسكندرانية ؛ ودمياط بالجلد والموبليات ؛ وأسيوط بالكراسى ونحو ذلك

ولا يزال المدى فسيحاً فى الصناعات المصرية حتى توازن الصناعة الأجنبية . وقد حارب الإنجليز الصناعة المصرية كثيراً ، وفرض اللورد كرومر على المنتجات المصرية ضرائب كثيرة شلت حركتها ، وأوهموا المصريين أنهم أهل زراعة لا صناعة ، ثم أثبتت الأيام فيما بعد أنهم صالحون للصناعة أيضاً .

ولكن مع الأسف شأنهم شأن غيرهم من العلماء ، صناعتهم صناعة تقليد لا ابتكار ، وهو مرض عام شامل فإذا ابتكر هؤلاء ابتكر هؤلاء . فهم إذا رأوا عربة سكة حديد ، استطاعوا أن يقلدوها ولكن لم يستطيعوا أن ينشئوها على نمط جديد .

الصوان

فى الغالب إذا أقيم مأتم لميت أو كان هناك استعداد لجنازة أو فرح كبير أقيم صوان على قدر صاحبه فى الكِبَر والصِّغَر ، فنصبت الخيام الملونة بالأبيض والأحمر من الداخل ، وسقفت بخيام أيضاً إذا كان الوقت شتاء ، ويقام على عروق من الخشب الطويلة ، وأضىء بالكلُبّات أو الأنوار الكهربائية الحديثة ، وفرش بالسجاجيد ، وصفت الكراسى على الجوانب . وإذا كان فرحاً أقيمت الرايات ، وزيد فى الكلُبّات أو الأنوار الكهربائية .

والذى ألجأ إلى ذلك عدم اتساع البيوت المصرية وعدم احتمالها لهؤلاء المشيعين أو المعزين أو المهنئين ، وربما كانت الأسرة فقيرة لا تحتمل نفقات هذا الصوان ، ولكنهم يرونه ضروريا على كل حال . وقد كانت العادة أن يستمر هذا الصوان ثلاثة أيام أو أكثر مما يضلع أهله ، ولكن الأغلب اليوم فى عصرنا الاكتفاء بليلة واحدة ويكثر عمل الصواوين فى الموالد ، مثل مولد النبى ؛ وكان فى عهدنا تقام صواوين صغيرة متنقلة للقراجوز والرقص ، ثم زالت هذه بدور السينما ودور المسرح المشيّدة . وتُنشأ فى بعض المديريات صوانات عامة للمناسبات ، كقراءة القرآن فى رمضان . وإذا مات ميت فى مكان بعيد نصب له أهله صواناً فى وسط البلد شفقة على المشيعين .

حرف الضاد

الضبة

كانت العادة قديماً أن يغلق الباب بالضبة ، وهى خشبتان على شكل صليب تقريباً وهى مخروقة خروقا أربعة أو أكثر . إذا أغلقت نزل فيها أربعة مسامير مقطوعة الرأس فلا يمكن فتحها إلا بمفتاح فيه مسامير كذلك ، ترفع المسامير التى سقطت فى الخروق فتفتح . واشتهر من ذلك ضبة باب أولاد عنان ، وهو مسجد شهير قرب محطة السكة الحديد ، فيذهبون إليه خصوصاً يوم الجمعة عند الأذان ويتمسحون بهذه الضبة ، ويدعون دعوات لشفاء الطفل ، ويفتحون الضبة ويغلقونها على رأس الطفل ، ويقولون يا ضبة ضبِّبيه ، يا تعيّشيه يا تموّتيه ! ويعتقدون أن الجن قد تبدل الأطفال فتأخذ الصحيح وتبدل به السقيم ، وأن الضبة كفيلة بإرجاع الطفل الصحيح ؛ ولذلك يقولون العبارة السابقة . ويكررون ذلك ثلاثة أسابيع ، ولما تجدد المسجد والنظامُ الجديد فى البناء والتجارة ليس فيه ضبة وإنما فيه قفل ومفتاح أعاد خدمة المسجد تركيب الضبة لاستفادتهم منها ، وتضليل العامة بها . وهناك من يكتب الأحجبة تبركا بأولاد عنان ، ويكون عادة مكونا من (١) بلحة صغيرة يسمونها بلحة الغيرة (٢) قطعة كبريت عود (٣) قطعة من عود الصليب ، وتجلد بجلد أحمر ويعلق حجابا للطفل . فهذا يجعل الجن يغيّرون أبناءهم . ومن أمثالهم « الخير يبان على الضبة » دلالة على أن البيت إذا كان سعيداً ظهر ذلك فى كل شىء حتى فى الضبة ، وإذا تمزق الثوب طولاً وعرضاً قالوا « تمزّق ضبة ومفتاح » أى تمزيقاً يشبههما . وإذا شج أحدهم رأس الآخر طولا وعرضاً قالوا : « شجّه ضبة ومفتاح » .

الضرائب

ألف المصريون من قديم حكاية الضرائب . ويسمون الضرائب على الوارد من الخارج جمركا ، وعلى الضريبة الداخلية مكسا ، وكان فى زمننا موظفون يقفون عند مدخل القاهرة فى جملة نواحيها ، فإذا جاء أحد يحمل سلعة قدروا عليها ضريبة . وكانت هناك ضرائب مختلفة على الرؤوس وعلى السلع ويظلم فيها بعض الناس كثيراً ، ويحابى بعض الناس كثيراً . والعامة تسمى بعض الضرائب وخصوصاً على الرؤوس « فردة » ولا أدرى من أين أتت . ولما احتل الإنجليز مصر أرادوها بلدا زراعيا لا صناعياً ، ولذلك لما أنشىء مصنع مصرى لعمل البفتة فرضوا عليها ضرائب كثيرة حتى تكون

أغلى من البفتة التى تأتى من الخارج فبارت. ومع هذا كانت الضرائب فى مصر أقل منها فى الخارج. ولذلك كان كثير من الإفرنج الذين عاشوا فى مصر كتجار أجانب ومستشارين أجانب يفضلون أن تكون أموالهم فى مصر ليهربوا من ضرائب بلادهم.

وفى العهد الأخير كثرت الضرائب بأشكال مختلفة حتى كأن كل شىء عليه ضريبة. ويدعى بعض الماليين أن الضرائب فى مصر أصبحت أكثر منها فى إنجلترا. والذى دعا لفرض الضرائب رؤيتهم أن المصريين منهم أغنياء جداً، ومنهم فقراء جداً. فلا بد أن يؤخذ من الغنى لإصلاح حال الفقير، ورفع مستوى عيشته.

والضرائب بهذا المعنى تتقبل فى سهولة وعن رضا لو كانت تصرف حقا فى مصلحة الفقير، لأن الفقير فى مصر كالفلاح سيىء الحال جداً، لا يسكن مسكنا نظيفا، ولا يشرب ماء نظيفا، ولا يأكل أكلا مغذيا، فمن المصلحة أن يقابل ترف المترفين بتحسين حالة الفقراء المدقعين. ومع أن الضرائب كثيرة فى مصر فهى لا تأتى بمحصول يناسب كثرتها، لأن المصريين يعتقدون من عهود الظلم أن الهرب من الضريبة لا بأس به، وكلما استطاع الإنسان أن يهرب فليهرب. ولذلك تقدر الضريبة بمبلغ من المال ثم تصل بالفعل، وفى النهاية إلى نصفها أو ربعها. ويحملهم على الهرب ما يرون من أنها كثيراً ما تصرف فى غير محلها.

وسمعت أن مصرياً كبيراً كان غنيا وأراد أن يشترى بيتاً من إنجليزى، فقال له: بكم تبيعه؟ قال الإنجليزى: بألف جنيه. وكان ثمناً معقولا. فقال له ذلك الكبير المصرى: أنا أقبل شراءه بالألف ولكن لى عندك رجاء واحد: هو أن يكتب فى العقد صوريا أنك بعتنيه بستمائة جنيه. قال الإنجليزى: ولماذا؟ قال: لأفر من بعض الضريبة. قال الإنجليزى: مع الأسف لست أبيعه لك ولا بألفين؛ لأن من أراد أن يسرق حكومته لا يستحق أن يعامل.

ضرب الرمل

يشتغل به فى الغالب بعض المغاربة والسودانيين. فكثيراً ما تراهم بجانب الشارع وأمامهم منديل فيه بعض رمل أصفر ويزعمون أنهم ينبئون بالمستقبل، فيرسمون على الرمل خطوطاً بأصابعهم بعد أن يرمى الطالب شيئاً من النقود يسمونه «بياضاً» ويعبرون عن ذلك بقولهم: «إرمى بياضك!» ثم يزعمون له أشياء يقولونها له، إما عن طريق التنويم المغناطيسى أو عن طريق الفراسة. وقليلا ماتصح، وكثيراً ما تكذب.

ضرب الودع

أكثر ما يحترف هذه الحرفة الإماء السود ؛ تجلس الأمة على قارعة الطريق وأمامها جملة من الودع ، وهى بيوت حيوانات بحرية حلزونية ، وقطع من القروش وقطع من المعادن حمراء وخضراء وسوداء ، فمن حضر عندها شكى لها ، إما من جفاء زوجها أو زوجته ، أو من عدم الحمل ؛ فتقول لها العجوز السوداء : إن الودع يقول كذا أو كذا . وأحياناً يكون ضرب الودع هذا سبباً من أسباب الشقاء بما تخبره هذه كأن تقول لها : إن زوجك يحب غيرك ، أو أنك تحتاجين إلى أعمال كثيرة لتحبلى ، أو نحو ذلك .

الضرّة

اعتاد بعض المصريين ، وإن كانوا قلائل ، أن يتزوجوا أكثر من واحدة ، وقد يجمعون بينهما أو بينهن فى بيت واحد . وقد اشتهرت الضرة بمعاكسة ضرتها وعداوتها .

وبذلك يصبح البيت فى الأعم الأغلب عبارة عن جحيم . فلا يزال الرجل يسمع شكوى من هذه وشكوى من تلك ، واتهاماً لهذه واتهاماً لتلك ، ولذلك لا يقر للبيت قرار . وفى الغالب تتلاشى اللذات التى تحدث فى أول أيام الزواج ، ويحل محلها الشقاء . ويزداد الأمر سوءاً إذا خلف منهما فإن الأولاد أيضاً يتعادون ويرضعون مع لبنهم هذه العداوة . وفى الغالب يفضل الأب إحدى الضرتين فيفضل أولادها ، فيؤجج نار العداوة فى الآخرين .

الضريح

هو عبارة عن تركيبة مربعة أو مستطيلة من الخشب أو النحاس ، توضع على قبور الأولياء الصالحين . ومن الأسف أن ليس كل من وضع عليه ضريح يكون ولياً صالحا فقد يكون ولياً صالحا كما يقولون ، وقد يكون غير ذلك .

ومن هؤلاء الصلحاء من ثبت تاريخياً علمهم وصلاحهم ودفنهم فى هذه البقاع كالإمام الشافعى ، ومنهم من رئى فى المنام موضعه ولم يثبت دفنه فى هذا المكان ، كضريح السيدة زينب ؛ فقد كان معروفاً أن موضعه كان قناطر الماء ، ولذلك يسمونه مشهد السيدة زينب ؛ وبعضهم لا يستحق الولاية ، ولا عرف بالصلاح ، كالذى حكاه على باشا

مبارك عن الشيخ صالح أبى حديد فقد قال :
« إن الشيخ صالحا كان فى مبدأ أمره قاطع طريق ، وكان له صاحبان ملازمان له ، أحدهما الشيخ يوسف المدفون فى شارع قصر العينى ، والثانى لم أقف على اسمه ، وإنما كان يجلس بحارة درب سعادة على مكسلة بيت متخرب هناك ويتزيّى بزىّ الدراويش وللناس فيه اعتقاد كبير ، ويزعمون أنه من الأولياء فيتبركون به ويقبّلون يده . وكان يستمر جالساً إلى الليل ، وكلما مر عليه رجل بمفرده يقول يا واحد ، فيخرج فى الحال من البيت جملة رجال يحتاطون به ويدخلونه البيت قهراً عنه فيقتلونه ويسلبون ما معه .

واستمروا على ذلك الفعل القبيح زمناً طويلا إلى أن شعر الضابط المراقب بذلك . فأكمن كميناً وحرض رجلا على المرور ليلا من هناك ، فلما مر الرجل نادى الشيخ كعادته ، فخرجت الرجال واحتاطت به ، وإذا بالكمين قد خرج عليهم وضبطهم ، ووضع يده على الشيخ ومن كان معه بالبيت ، وعاقبوهم عقابا شديداً . فأقرّ الشيخ على صاحبيه الشيخ يوسف والشيخ صالح هذا ، وكان الشيخ يوسف يلوذ بلاظ أوغلى فعفى عنه . وأما الشيخ صاحب المكسلة فقتل بعد تعذيبه ، وأما الشيخ صالح هذا ، فاحتمى بامرأة مغنية مشهورة ، فادعت أنه مجنون ووضعت فى رجليه قيداً من حديد فأخذوه فوجدوه كما قالت .

واعتقل لسانه من الكلام لشدة خوفه وبقى على ذلك مدّة . ثم شاع بين الناس أن له كرامات ، وإخباراً بالمغيبات ، فقصده كثير من الناس ، أمراء وغير أمراء ، واعتقدوا فيه خصوصاً النساء ، وازدحم بيته بالزوار ، وهجمت عليه النذور والهدايا . كل ذلك وهو لا يتكلم ، بل ملقى على الفراش ، وعليه حرام من صوف أبيض ، وفى رجليه قيود الحديد ، وحوله الخدم ، وعند رأسه امرأة تروّح عليه ، وهو يحرك رأسه ، ويلعب بشفتيه ، فيسمع له صوت ساذج خفى جداً ، يشبه صوت الأخرس ، وليس له مفهوم ؛ فعند ذلك تقول المرأة للحاضرين : فلانة ستتزوج ، وفلانة ستصطلح مع زوجها ، وفلانة ستحبل ، وفلان الغائب سيحضر ، وزيد سيترقى ، وبكر سينعزل ، إلى غير ذلك من الخرافات . وكل من كان حاضراً يفهم لكلامه معنى خاصا به من هذه الألفاظ .

وبسبب ذلك صارت لخدمته ثروة كبيرة ، وفوائد كثيرة ، واستمرت حالته هكذا إلى أن مات ، فبنى له الخديوى إسماعيل هذا الجامع ، ودفن به . وهو جامع عظيم لم يُبْنَ لغيره من الأفاضل ذوى المعارف

والعلوم ، الذين انتفع الكثير بعلومهم ومعارفهم . ولكن هذه عادة قديمة ألفها المصريون من قديم الزمان ، وطالما نبه عليها كثير من المؤلفين فى كتبهم . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وكثير من الأضرحة من هذا القبيل ، وربما كان صاحبه حاكما ظالما كجامع ألماظ ، ظن أنه يكفر عنه بناؤه لجامعه ، ويكاد يكون فى كل قرية من قرى الريف أو مدينة من المدن شيخ أو أكثر من هؤلاء الشيوخ ، يحلفون به ويتبركون به ويقدمون النذور له . وأعرف قرية من القرى فيها شيخ اسمه الشيخ يوسف ، تكون المرأة فقيرة فتنذر له عشرين بيضة أو وزة أو فرخة أو ديكا ، وقد تكون هى وأولادها فى أشد الحاجة إلى ذلك ، وتقدمه للمتولية على الشيخ ؛ وقد ماتت قريباً وتركت خمسة أفدنة من الأطيان الجيدة ، ومالا كثيراً ، وكان ابنها قد مات قبلها فورثها أخوها . وربما أخذت هذه العادة عن قدماء المصريين ، فقد روى عنهم شىء من هذا القبيل ثم اصطبغ بعدُ بالحياة الإسلامية .

حرف الطاء

طاسة الخضة

يزعمون أن الإنسان إذا خُض فربما كان من نتائج تلك الخضة مرضه بأمراض عصبية خطيرة، وبالزهرى مع أنه ثابت طبيا أن مرض الزهرى لا يأتى إلا من الاتصال الجنسى بمريض من هذا القبيل. ويعتقدون أن طاسة الخضة تزيل كل هذه الأمراض، وهى طاسة من نحاس مرسوم عليها صور طيور، أو مكتوب عليها كتابات غير واضحة، يوضع فيها ماء ثم تعرض فى الليل للندى، ثم يشرب به المريض. ويوجد حول الطاسة نحو أربعين قطعة معدنية رقيقة كالصفيح كذلك. فإذا فقدت واحدة منها زال مفعولها.

الطالع

يعتقد عامة المصريين فى تأثير النجوم فى الأرض، من سعادة وشقاء، وغنى وفقر. ويقسمون السماء اثنى عشر قسما، لكل قسم برج، وأسماء الاثنى عشر برجا هى:

الدلو — وعلاقته بشهر يناير — والحوت بفبراير — والحمل بمارس — والثور بأبريل — والجوزاء بمايو — والسرطان بيونيو — والأسد بيوليو — والسنبلة بأغسطس — والميزان بسبتمبر — والعقرب بأكتوبر — والقوس بنوفبر — والجدى بديسمبر.

وطريقة الاستخدام أن يغمض الطالب عينيه ويضع إصبعه على إحدى خانات منطقة البروج، وهى صورة مصورة مقسمة إلى خانات، ثم يفتح عينيه ويتبع الخط الذى فيه النمرة المذكورة، متجها من اليمين إلى اليسار، حتى يصل إلى العمود الذى فيه البرج الذى وضع يده عليه، فيجد عدداً يدل على الصفحة الموجود فيها جواب السؤال المطلوب.

ويعتقدون أن العالم المادى لا توجد فيه الأشياء على طريق المصادفة، بل بتأثير النجوم، فلا يقابل قاهرى إسكندرانيا، أو رجل لرجل بطريق المصادفة ولكن ذلك بتأثير الطوالع وتحقيقاً لغاية خصصتها يد الطبيعة، وكذلك جميع الحوادث؛ فالنجوم وسائر السيارات تؤثر فى أحداث الأرض. فمثلا الشمس مصدر الحرارة والحياة تهيمن على العواطف النبيلة والمشاعر العالية والوجدانات الحية ... وللقمر تأثير عظيم على الأرض وعلى ساكنيها، ومفعوله ظاهر فى المد والجزر، فمتى كان القمر هو الكوكب الرئيسى فى الطالع أثر فى الإنسان وخاصة فى مجموعه العصبى وقوة تخيله، فيجعل من بعض الناس أديبا أو فنانا، وأحيانا يجعل منه مجنونا،

وإذا كان هو المهيمن على زلازل الأرض والعواصف والبراكين كان أيضا ذا اتصال بالحروب الأهلية والأجنبية والنوازل الطبيعية والمصائب الاجتماعية ، وهكذا كل نجم من النجوم . وبعبارة أخرى كل برج من الأبراج .

وقد ألفت الكتب الكثيرة فى هذا الموضوع من عربية وعجمية ، بعضها فيه تخريف كثير ، و بعضها معتدل .

وهم يعتقدون أيضاً أن كل من ولد فى برج أو بعبارة أخرى فى شهر خاص يقابل فى حياته حوادث خاصة ، لا كالذى ولد فى برج آخر أو شهر آخر .

وكثيرا ما تستهوى النساء بمثل ذلك ، فنجد فى بعض الجرائد والمجلات أن المولود فى أسبوع كذا من شهر كذا يدل طالعه على كذا ، ويهتم العوام بذلك كثيراً .

ومن الأغانى الشعبية « حسبت نجمك لقيت لك وفق وياى » فإن من حساب الطالع أن بعض البروج تناسب بعضاً ، و بعضها لا يناسب بعضاً ، فإذا كان الرجل والمرأة مولودين فى برج واحد أو فى برجين منسجمين دلّ ذلك على الوفق و إلا فلا .

و يقولون فلان طالعه سعيد ، وفلان طالعه غيرسعيد . ومن تعبيراتهم أيضاً : « فلان نجمه عالى أو صاعد » ، علامة على النجاح ، وفلان طالعه سافل علامة على الفشل ، و يقولون فلان طالعه طالع السعد ، أى أنه مبخت ، وفلان كانت وقعته زُحل أى شقىّ ، لأن زحل من النجوم المشئومة .

ومن ذلك ما فعل الشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى ، فقد ألّف كتابا فى اسم إسماعيل باشا سماه « الطالع السعيد » ذكر فيه أنواع علوم مختلفة ، اشتقاقا من اسم إسماعيل .

و يكثر فى مصر استشارة أهل الخبرة ، وخصوصاً عند نيّة الزواج — زواج رجل بامرأة أو امرأة برجل ، أو الإقدام على عمل من هذا القبيل . وأظن أنه لو استحصى جميع من ولدوا فى يوم واحد ، أو ساعة واحدة ، لوجد بعضهم شقياً و بعضهم سعيداً ، ولكن العقيدة لا يغلبها غالب .

الطرحة

نوع من الشاش مصبوغ بالصبغ الأسود وقد يكون من الحرير، يلبسها بعض الممدّنات خصوصاً فى الأحزان. وأكثر ما يلبسها الفلاحات. وتستخدمها الفلاحة كغطاء للرأس، وفى تغطية وجهها عمن لا تحب أن تراه. وفى كلامهم القسم بتلبيسه الطرحة، أى بالغلبة عليه حتى يكون أشبه بالمرأة.

الطعام

للطعام فى عرف المصريين نظام قد يخالف الأمم الأخرى. وللأغنياء طريقة وللفقراء طريقة أخرى. فمثلا والدة إسماعيل كانت تجلس فى حجرة الأكل فى السراى مع من يوجد من البرنسيسات على شلت مغطاة بقماش مزركشة بالقصب، وتوضع أمامهن صينية من الفضة وأدواتها، إلا فى الدعوات الخاصة فتكون من ذهب. وقد توضع الصينية فوق كرسى عال بعض الشىء. ويقوم بالخدمة جوار يرتدين اللباس الفاتح، وفى أيدى بعضهن منشات يُنش بها على الأكل. وفى الطبقة الوسطى كذلك بشكل أرقّ حالا.

وقائمة الأكل عادة شربة، ثم نوع من اللحم، ونوع أو أكثر من الخضروات، ثم الأرز، ثم الحلوى، ثم تقدم فناجين القهوة.

أما الطبقة الفقيرة فتكتفى بما حضر من غير احتفال، مشّ أو بيسارة، أو عدس أو فول نابت، أو نحو ذلك. والفلاحة عادة تذهب إلى زوجها فى الغيط، وتحضر له شيئاً من هـذا فيأكله مع الفجل أو البصل أو نحو ذلك.

الطقطوقة

هى أغنية خفيفة تسود عليها الشخلعة فى الغناء. مثل «جمالك ربنا يزيده» و«شوىّ شوىّ»، وهى عكس الأدوار المتزنة الرزينة غالبا.

وفى العادة فى ليلة الفرح تغنّى بعض الأدوار، ثم تغنى بعض الطقاطيق.

ويطلقونها مجازاً أحيـاناً على الفتاة الصغيرة الدلوعة، أو الحديث الخفيف غير المقيد بقواعد.

وأحياناً تطلق أيضاً على الوعاء الصغير الذى تنفض فيه السجاير.

الطِّلَّسم

يعتقدون أنه إذا تليت عزائم سحرية خاصة على المادة المصنوعة المعدّة لذلك ، سبّبت المراد منها ، كالطلسم الموجود فى الأزهر ؛ يقولون إنه يمنع العصافير من الدخول فى المسجد ، مع أنه مكان مناسب لذلك . ويزعمون أن بالإسكندرية طلسما لمنع الحدأة ولذلك لا توجد فى جوّ الإسكندرية .

ويزعمون أنه يمكن عمل الطلسم لحراسة الدار والمال بصنع صنم من حجر الكذّان كامل الخلقة وبيده سيف ويتعمد عمله عند سلطة المريخ فى الساعة الأولى أو الثامنة من يوم الثلاثاء ، ويذبح عند ذلك دجاجة سوداء ليس فيها إشارة ، ويطلى بالدم جميع الصنم . الخ . . . الخ . . .

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أيضاً يصنعون هذه الطلاسم ويعتقدون فيها لشهرتهم فى الأعمال السحرية ، ولهذا كانت معجزة موسى عليه السلام إبطال سِحْر السحَرة المصريين . وقد روى الجاحظ فى كتابه الحيوان أنه لما زار حمص لم يجد فيها عقارب ، فسأل عن ذلك فقالوا له : إن بها طلسما يمنعها من البقاء فيها ، فلم يرض عن ذلك ، وعلله بأنه ربما كان جو حمص لا يناسب العقارب ، أو أن فيها بعض الحيوانات التى تهاجمها ، فهربت منها .

الطِّيب

يحب المصريون الطِّيب رجالا ونساء . فيتطيبون بدهن الورد وبالعنبر وبالمسك وبالعطر . وقد يبالغ بعض النساء فيه .

وكان لا يتحرّج الرجل من التطيب ، وقد يضع شيئاً منه فى منديله فتفوح رائحته إذا أخرجه . وقد يقدّم الطيب للضيوف كالقهوة .

وفى كثير من البيوت مبخرة ليتبخر الضيوف بها ، وقمقم لرشّ ماء الورد والعطر ونحو ذلك .

وهم يحبون أيضاً الأزهار العطرية ، ويفضلونها على غيرها ، كالورد والفلّ والياسمين ، وتمر الحنّا ؛ وهم إذا شمّوا رائحة طيبة قالوا اللهم صلى على النبى . وكثيراً ما تدخل المسجد فتشم منها الروائح العطرية ، لأنهم أمدوا المسجد بها أو أطلقوا فيه البخور .

وتجدهم أيضاً يرسلون أمام الميت فى جنازته طائفة يحملون المباخر ، وقد يحمل بعض هؤلاء قماقم ماء الورد والعطر ، يرشون بها على الواقفين فى جانبى الطريق .

حرف الظاء

حرف الظاء معدوم فى اللغة العامية ، وكثيرا ما يقلبونه ضادا مثل ضهر ، أو زايا تخينة مثل زابط ، وهو حرف صعب الإخراج من اللسان . ولذلك لم نجد كلمة عامية يصح إثباتها من غير أن تكون قد تقدمت فى حرف الضاد أو الزاى التخينة .

حرف العين

عبده وألمظ

عبده وألمظ شخصيتان كبيرتان ملأتا مصر بهجة وسروراً ، يدعيان عادة فى أيام الأفراح، مثل زواج وختان وشفاء من مرض ونحو ذلك . يدعى عبده للرجال وألمظ للنساء وكثير من الفنانين يولع بهما فينتقلون من أقصى القاهرة إلى أقصاها ؛ من المنشية إلى العباسية ، ومن السيدة زينب إلى الجمالية .

وقد شاهدت حفلة من حفلات عبده بمناسبة زواج أسرة متوسطة . وتفصيل ما شاهدت أنه نصب صوان وأتى بكراسى كثيرة صففت فيه ، وأحضرت دكتان عاليتان متقابلتان للآلاتية جلس عليهما عبده وصحبه . هذا بالقانون ، وهذا بالعود ، وهذا بالدف ، وهذا بالناى إلخ . ثم بدأوا فى الغناء حوالى الساعة العاشرة مساء بعد أن أكلوا كثيراً وشربوا الخمر كثيراً ، وبدأوا بتقسيمات قانون وعود إلخ . ثم بدأ عبده الحامولى يغنى « ياليل » بطبقات مختلفة ثم بعد أن يغنيها يوقع القانونجى على القانون بالنغمة التى قال بها ياليل . ثم يبدأ فى غناء الأدوار مثل دور « الله يصون دولة حسنك على الدوام » ، وإذا انتهى الدور جلس للاستراحة فتبودلت النكات .

وقد يستمرون كذلك إلى الفجر أو إلى طلوع الشمس . وهناك بائعو لبّ يسمون المطيّباتية ، وظيفتهم أن يقولوا لعبده « الله يا سيدى » ونحو ذلك . وربما كانت لهم وظيفة أخرى ، وهى أن يكونوا رسلا بين الآلاتية والسامعات فى طلب أدوار خاصة أو رسالات الغرام .

والناس عند كل نغمة يصرخون بقولهم آه — والله ، أو يدعون بالبقاء وعدم الحرمان منهم .

أما ألمظ فتغنى بدورها للحريم ، وقد تزوجت أخيراً بعبده ؛ فمغنٍّ مشهور تزوج بمغنّية مشهورة .

وكانت جميلة بعض الشىء ، وتكاد حواجبها تكون مقرونة ، وهى تغنى أغانى نسائية مثل « أشكى لمين غيرك حبك ، وقد أنا العليل وأنت الطبيب ، اسمح وداوينى بقربك ، واصنع جميل إياك أطيب » ومثل « حبيبى هجرنى ، شوفوه لى يا ناس ، أترجّاك تعمل معروف ، غرامك علمنى النوح ، يا حبيب القلب شوف ، مع طيفك أرسلت الروح ، أترجّاك تعمل معروف » .

ويحكى أن اللورد كرومر لما تُرجم له حبيبى هجرنى شوفوه لى ياناس ، قال : « حتى الحبيب يترجّى الناس بأنهم يشوفوه له ، ولا يتحركش هو ! هكذا المصرى » .

وأحياناً تغنِّى ألمظ بعض الطقاطيق مثل « لازم أهشه ، دا العصفور . تنكش لى عشه ، دا العصـفور . دا ابن الأكابر ... دا العصفور. ع العشق صابر ... دا العصفور. طار وعلىّ ، وعلىّ وطار ، ونزل على بيت العطار ، وكبش ملبّس ودّانى ، ولوز مقشّر وعطانى ، لازم أهشه ... دا العصفور » .

وإذا كان يعمل كل هـذا فلم تهشه ؟ وفى أثناء غنائها يكون حولها أيضاً موسيقى من طبل وغيره ، وأمامها رقص ونحوه ؛ وفى الحق أنهما ملآ القاهرة بهجة وسروراً ، وكانا ذوى مروءة . فـكثيراً ما حكى عنهما أنهما تبرعا بحفـلات مجانية للفقراء . وقد ماتت ألمظ قبـله فبكاها كثيراً . ثم مات بعدها فبكاهما الناس . .

العجائز

اشتهرت العجائز فى مصر بأنهن أهل دهاء وتجارب ؛ فمن دهاء بعضهن ما يصلن به بين الرجل والمرأة ، واختراع الحيل المناسبة ؛ وهنّ مشهورات أيضاً بالوصفات البـلدية أخذنَها عن التجارب وعمن قبلهن .

والمصريون يقولون فى أمثالم : « زى عجائز الفرح ، أكل ونقورة » ، النقورة : الانتقاد . أى أنهن يأكلن وينتقدن . ولا أدرى من العجوز الذى سمى الحى باسمها ، فقالوا حىّ العجوزة . ومن الغريب أنها محظوظة . فغلب اسمها على كل مَن بالحىّ من الأعيان والوجهاء ، حتى المسجد الذى به سُمِّى مسجد العجوزة .

وكثيراً ما يكون للعجائز شر كثير . وهن يدخلن البيوت ويؤثرن بحيلهن على الزوجات ليغضبن على أزواجهن ، وخصوصاً إذا كانت العجائز حموات .

عدية ياسين

من المعروف أن يس سورة فى القرآن ، فالناس يعتقدون فيها أنها إذا قرئت مراراً استوجبت الرحمة للميت ، وأزالت الغم عن الحىّ . ويسمّون قراءتها مراراً ، أى نحو مائة مرة ، بالعدِّية ، فيجمعون الفقهاء فى مكان فى البيت أو فى سيدنا الحسين أو فى السيدة زينب ويكلفونهم قراءة سورة يس عدّة مرات ، يسمونها العدّية ، ويطلبون منهم أن يهبوها لمن شاءوا من حى أو ميت .

وقد تستخدم أيضاً فى الشرّ . فيقول بعضهم لبعض إذا ظلمه : سأقرأ عليك عدّية يس ، ويزعمون أنها مجربة فى الخير والشرّ . ولما مرضت بعينى ذهب صديق لى إلى سيدنا الحسين وطلب من بعض الفقهاء أن يقرؤوا لى عدّية يس على ذمة شفاء العين .

العزاء

للمصريين عادات كثيرة فى العزاء ؛ من ذلك أن النساء إذا وصَلْن إلى بيت الميت صِحْنَ كثيراً ولطَمْنَ كثيراً وخبطنَ بالكفوف وقرعن الصدور . وذلك ليظهرْنَ لأهل الميت شدة حزنهنّ . ومنهم من يمسكن بكل يد حجراً ويضربن به صدورهن ، ومنهن من تلطم وجهها بشدة ، حتى يجرى الدم من خدودها .

وقد جرت العادة إذا مات أحد من مشاهير العلماء أن يؤذّن على المآذن فى غير أوقات الأذان ، فيعلم المصريون بموت عظيم من العظماء ، فيتساءلون عنه ويهرعون إلى حضور جنازته .

ويوضع الميت فى خشبة ويسير المشيّعون وراءه إلى المدفن حتى يوارى فى قبره ، ويقيم أهل الميت صواناً كبيراً للرجال يُتلى فيه القرآن من العصر إلى ما بعد العشاء ، وتجتمع النساء فى بيت الميت ؛ وإذا كان الميت عزيزاً أحضر أهله الندّابات داهنات وجوههن بالنيلة ، وفى كل يوم جمعة يذهب أهل الميت إلى مقبرته ومعهم الخوص والفاكهة والفطير أو « الشريك » وهكذا إلى يوم الأربعين .

وقد شاهدت فيما مضى شيئاً قد بطل الآن ، وهو أن يسير أمام الميت جمل أو أكثر يحمل على جانبه صناديق مملوءة بالفطير والشريك يسمونها « كفّارة » يوزع راكب الجمل ما فيها على طول الطريق . ثم تسير طائفة من العساكر ، ثم أرباب الطرق المختلفة ، ثم غلمان الكتاتيب . وقد بطلت أكثر هذه العادات . وعند ختام الفقيه كل سورة يخرج بعض المشيعين . وإذ ذاك يقف أقارب الميت يتلقون بأيديهم العزاء من المعزّين ، وهم يقولون : عظّمَ الله أجركم . فيردون عليهم : غفر الله ذنبكم .

العشبة

اعتاد بعض المصريين ، وخصوصاً النساء ، أن يستعملوا العشبة دوريا كل عام ، وهى نبات يُغلى بالماء يزعمون أنه يقوّى الجسم ، وإذا استعملته المرأة امتنعت عن أنواع من الطعام لا تتفق معها وأكلت ما يناسبها .

وإذا استعملت العشبة فى أيامها عبّرت عن هذا بأنها دخلت فى العشبة .

عفريت الليل

هو لقب يطلق على واحد من جماعة النوبيين عُهد إليهم بإضاءة الشوارع بعد المغرب . وهم يلبسون لباساً خاصاً أشبه بلبس السوّاس ، وفى يدهم عصا طويلة ركبت عليها حديدة ، يفتحون بها فانوس النور أو يطفئونه ، فإذا فتحوه أشعلوه ، وإذا أطفأوه انطفأ . ومن عادتهم أن يجروا سريعاً فى الشوارع ليؤدوا عملهم فى سرعة . ولذلك قالوا : « عفريت الليل بسبع رجلين » .

العقم

العقم داء يهتم المصريون كثيراً بأمره ؛ والمرأة العقيم لا تُحَبّ من زوجها ، ولا ينظر إليها نظرة الولود . ولذلك يشغل العقم بال الرجال والنساء على السواء . وتداويه بعض العجائز بأدوية مختلفة . وقد يضطر بعض النساء إلى الذهاب إلى أماكن مختلفة ، كالمغاورى فى القاهرة ، أو إلى بعض المقابر المهجورة ، وقد تلد المرأة بسبب ذلك . ولكن مع الأسف لتساهلها فى عرضها مع مَن لا خَلاق لهم لا من سِرّ المكان ، وإنما من سر السكان . وهناك بعض النساء تتداوَين بالأحجبة أو البخور من أجل هذا العقم . ويداوين العقم أحياناً بالمرور على القتيل ، ولذلك ترى كثيراً من النساء العقيمات يذهبن إلى المستشفيات إذا علمن وجود قتيل بها لتخطيه .

العقيق

حجر أحمر داكن يتختمون به ، ويعتقدون أنه يجلب الخير والسعادة ويبعد الشقاء . وكانوا من قبل يتختمون به للظرافة . ولحمرته شبّهوا به العين المريضة إذا احمر بياضها احمراراً كثيراً فيقولون : صارت عينه زىّ العقيق .

العلاقة بين المسلمين والأقباط

ظلت العلاقة بين المسلمين والأقباط حسنة فى الجملة ، إلا فى فترات ساءت فيها العلاقات لأسباب عرضية ، نكل فيها المسلمون بالأقباط أو الأقباط بالمسلمين ، وذلك كما فعل بعض الولاة المسلمين فى التنكيل بالقبط عصبية منهم ، أو كما فعل بعض الصرّافين الأقباط بالفلاّحين المسلمين ، ولكنها على العموم كانت هفوات قليلة ، ثم تعود الأمور إلى مجراها ؛ إلى أن جاء عهد الاحتلال الإنجليزى فجروا فى مصر وفى الهند وغيرهما على سياسة « فرّق تسُد » ، فحاولوا

إيجاد ثغرة بين المسلمين والأقباط ، وخصوصاً فى عهد السير غورست ، فوجد متعصبون من هؤلاء ومتعصبون من هؤلاء ، وكان من نتائج هذا وذاك أن عقد الأقباط مؤتمراً لهم فى أسيوط نددوا فيه بالمسلمين ، وشادوا بذكر القبط ومحاسنهم وكفايتهم ، وأجابهم المسلمون بعقد مؤتمر آخر فى مصر الجديدة ، برياسة رجل مصر الكبير مصطفى باشا رياض ؛ وكان انعقاد هذا المؤتمر فى غرة مايو سنة ١٩١١ ، وسموه المؤتمر المصرى ، وخطب فيه كثير من وجهاء المسلمين ، كالشيخ على يوسف . وكان موضوع خطبته « التعليم فى مصر وحظ المسلمين والأقباط منه » ، والشيخ عبد العزيز جاويش فى : « الربا فى الإسلام » ، وطلعت حرب قد خطب خطبة دعا فيها إلى إنشاء بنك مصر . وكذلك فعلوا على العموم فى الإشادة بالمسلمين وتفضيلهم على الأقباط فى العلم والذكاء والكفاية .

ولما ثارت الحرب العالمية أراد بعضهم أن يثير الفتنة بين المسلمين والأقباط من جديد ، فحاول الإنجليز أن يثيروا الأقلية على الأكثرية ، فكان الرد عليهم تعانق الصليب والهلال رمزاً لاتحاد المسلمين والأقباط . وفعلوا فى تحقيق ذلك أفعالا كثيرة ، سدّوا بها هذه الفجوة .

ولما تألف الوفد المصرى ، للمطالبة بالاستقلال ، كان من أعضائه مسلمون وأقباط ؛ وارتفع صوت العقلاء يقضون على نزعة التعصب هذه ، ويدعون إلى الألفة والاتحاد منعاً لدخول المحتلين من منفذ ولو ضيّق ، ليوسعوا شقة الخلاف . ومع هذا لم يزل الخلاف تماماً ، بل لا يزال هناك متعصبون من هؤلاء وهؤلاء . حتى ليكاد بعض المصالح يكون وقفاً على طائفة دون أخرى ، كالأقباط فى السكك الحديدية ، والمسلمين فى قلم قضايا الحكومة ونحو ذلك .

ونرجو أن يرتقى الرأى العام على مر الزمن فيزول هذا التعصب ، ويكون الدين لله . وإذا كان الأمل أن تسود الإنسانية على القومية ، فأولى أن تسود القومية على العنصرية .

على كا كا

هو شخصية غريبة تدل على ولوع المصريين بعلاقاتهم الجنسية . فهى شخصية رجل يلبس الحذاء ويلبس فى وسطه حزاماً يتدلى منه قطعة على شكل الآلة الجنسية فى أضخم أنواعها . وكان هذا المنظر يثير ضحك النساء والرجال على العموم ضحكا بالغاً .

وكانوا يصنعون منه نماذج من الحلوى فى الموالد ، وكان هناك نوع من الحلوى عبارة عن سكر مجفف فيه شربات ، ويسمونه أيضاً شربات . ويدور البائع فى الشوارع والحارات ويقول : « العروسة من الشربات ، العريس من الشربات ، الحمَة من الشربات ، على كا كا من الشربات » .

على لوز

كان الأطفال فى العيد يعقدون السكّر ويصبونه فى صَوَانٍ صغيرة ويضعون عليه اللوز المقشّر وينادون عليه « على لوز » ، ولا أدرى لِمَ سموه على ، إلا أن يكون أثراً من آثار التشيّع ، أيام كان التشيع منتشراً فى عهد الفاطمى ؛ ولذلك كثيراً ما تنسب الأشياء لعلى ، كعلى لوز ، وعند المطر يقولون : يافرج على ، وعامل أبو على ، وأم على ، وعلى عليوه ، وعلى يا على يابتاع الزيت ؛ إلى غير ذلك مما لم يحضرنى الآن .

وقد يستعمله الأطفال جلباً للعيدية ، فأقارب الطفل يأخذون من حلاوته هذه قطعة صغيرة تسمى « الملوّق » ويدفعون له عيديته .

وكان هناك من يتاجر بها فى الأعياد ، فيصنع صوانى كبيرة مملوءة بعلى لوز .

« الشيخ » على يوسف

هو صاحب جريدة المؤيد ، وكانت جريدة إسلامية واسعة الانتشار والنفوذ ، وكان الشيخ على يوسف رجلا ماكراً ماهراً بليغاً ، مقرّباً من الخديوى عباس .

(انظر حادثتان)

العمامة

العمامة فى مصر شال خفيف يلف على الطربوش بعد تكويره . وهى أنواع : منها البيضاء ، والسوداء ، والخضراء ، والحمراء ؛ فالبيضاء هى اللبس العادى للمصريين ، والخضراء للأشراف من نسل على ، والسوداء لباس الأقباط والصوفية السعديين ، والحمراء لباس بعض الصوفية من الطريقة البيومية ؛ وكانت العمامة لباس

أكثر المصريين ، والمسلمين ، فألغاها مصطفى كال إلا على رجال الدين ، وألزمهم بلبس القبعة .

والمصريون باختيارهم غير أن كثيراً منهم يلبس البدلة والطربوش بدل الجبة والقفطان ، حتى طلبة الأزهر ودار العلوم .

والسبب فى ذلك أن العمامة غير محترمة فى القاهرة الاحترام الكافى . وقد قلت مرة إن صاحب الطربوش موضع ثقة إلى أن يأتى بعمل يفقدها ، أما صاحب العمامة فلا يوثق به إلا أن يأتى بعمل يمنحه الثقة .

وقد كنت فيما مضى ألبس العمامة ، فلقيت من لبسها أذى كثيراً ، مثل أنى أردت أن أدخل مع صديق لى مطربش لوكاندة سميراميس ، فمنعت منها لعمتى ، وأجيز المطربش ، ولما رأى ذلك امتنع أيضاً من الدخول . ومنها أنى أردت أن أنزل لوكاندة فى الإسكندرية للمبيت ، فقيل لى إنها كلها مشغولة ، فلما جاء بعدى مطربش وُجدت الغرفة ، وإذا أردت الركوب فى الترام فى الدرجة الأولى قيل لى إنها الدرجة الأولى ، كأن المعمم محرم عليه أن يركبها ، وهكذا من المصاعب ، حتى اضطررت إلى تغيير لبسى .

ومن أقوال الخليعات : « إوعى العمة توقف حالك » ، ومن العمائم نوع ملفوف لفًا محكما كعمائم الأقباط ويسمونها مُقلة .

العمدة

هو رئيس البلدة أو القرية ، وهو معزز فى قومه وإن كان ذليلا أمام المعاون والمأمور .

وبعض العمد يظلم الأهالى كثيراً بفرض ضرائب مالية عليهم ، وشراء المواد الغذائية ، كالبط والأوز بأرخص الأثمان ، وأخذهم النساء بالقوة خادمات فى بيوتهم ، واستخدام الفلاحين وحيواناتهم فى زراعتهم وغير ذلك .

والفلاح يُرعب إذا ناداه ، ويحتكم إليه إذا تعدى عليه أحد . فهو فى المسائل الجزئية يقوم مقام القاضى . ويجرى مجراه على صورة أصغر شيخ البلد . وأبناء العمد والمشايخ يعتزون كثيراً بآبائهم ، فمن لم يحترمهم احتراماً زائداً ضربوه وأهانوه .

ويعفَى أولاد العمد من القرعة . والناس يسمون كل من كان وجيهاً فى لبسه ظاهراً عليه الفلاحة عمدة . فيقولون إوعَى يا عمدة ، واتفضل يا عمدة !

عمودا جامع عمرو

هما عمودان فى مسجد عمرو بمصر القديمة ، أو بعبارة أخرى الفسطاط ، يعتقد العامة أن من كان صالحا استطاع أن يمر بينهما ولو سميناً ، ومن كان فاسقاً لم يستطع ذلك ولو كان نحيفاً .

وقد حدثت منهما مضار بسببها اضطرت الحكومة إلى تسويرهما .

عنزة السيدة نفيسة

حدث سنة ١١٧٣ هـ أن خدمة السيدة نفيسة أظهروا عنزاً ، وكبيرهم إذ ذاك الشيخ عبد اللطيف ، وزعموا أن هذه العنز خلّصت بعض الأسارى المسلمين من الأسر ، وزعم الناس أن السيدة نفيسة أوصت عليها الشيخ عبد اللطيف من القبر ، وأنها تارة تكون فوق المنارة ، وتارة تطوف بالضريح . الخ . وتسامع الناس بذلك وأقبلوا من كل فج عليها رجالا ونساء . وقدموا إليها النذور والهدايا . وزعم الشيخ أنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ، ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ، فانهالت عليه هذه الأشياء .

وعمل الناس لها كثيراً من قلائد الذهب وأطواق الذهب ، وصار الأمراء والأعيان يرسلون الشيء الكثير من ذلك . وفتن الناس بها ، وأرسل الأمير عبد الله كتخدة للشيخ يلتمس منه حضوره بالعنز ليتبرك بها هو وحريمه ، فركب الشيخ بغلته والعنز فى حجره وأمامه الطبول والبيارق وجموع الناس ؛ فلما وصل إلى البيت دخل بها على الأمير فى مجلسه ، ومعه كثير من الأمراء فتبرّك بها وأرسلها إلى الحريم ، وكان قد أمرهم بذبحها وطهيها ، فأعدت مع الأكل ، وجلسوا يأكلون والأمير يسأل الشيخ عن طعم لحمها فيقول لذيذ ، والأمراء يتغامزون ويتضاحكون ؛ فلما أكلوا وشربوا القهوة طلب الشيخ العنز فأخبر بذبحها فأسقط فى يده وبُهت ، فوبخه الأمير وبكته ، وأمر أن يعمم الشيخ بجلدها وأن يذهب به كما جاء بالطبول والزمور . وفى ذلك قال الشاعر :

ومن أعجب الأشياء تيس أراد أن
يضل الورى فى حبها منه بالعنز
فعاجلها من نوّر الله قلبه
بذبح وأضحى الشيخ من أجلها مخزى

العواطف

يتميز المصريون بحدة عواطفهم فى مآتمهم وأفراحهم ، وأنه تتحكم فيهم عواطفهم أكثر مما يحكمهم عقلهم ؛ ففى المآتم يهيجون حزناً ، وقد يلطمون ، وقد يصبغون وجوههم وأيديهم بالنيلة ، ويأتون بالمعدّدة تهيجهم ، ثم الخروج إلى القرافة والاحتفال الشديد بها ، والمظاهر المتعددة فيها ، ثم نصب الخسان فى أيام الخميس ، وفى الأربعين ، وفى كل موسم وعيد ، مما لا ينتهى . على حين أنك ترى الأوروبى فلا تكاد تشعر أنه قد مات له ميت .

وفى الأفراح تقام الولائم ويستدعى تخت المغنين والمغنيات ، وتمد الموائد إلى زفة العروس ، وحفلة السبوع والصباحية إلى غير ذلك .

وقد يسبب هذا التغالى فى المآتم والأفراح الفقر والبؤس ، ويتحملونهما فى صبر .

ومن مظاهر شدة العواطف الاسترسال فى الضحك ، والاسترسال فى البكاء ، والتأوه بصوت عال عند سماع مغن أو مغنية ، والصوات والزغاريد ، حتى لتظهر هذه الحدة فى استعمال الشطة فى المأكولات ، وفى الإعجاب بالممثلين والممثلات ، وفى التخريب فى المظاهرات وفى الميل إلى الألوان الصارخة فى الملبوسات وغير ذلك .

وأظهر ما يكون ذلك فى النساء ، فهن يقدرن كلام الناس فيهن أكثر مما يقدرن الحجة المنطقية ويتأثرن بالخبر السار أو المحزن أكثر مما يتأثر الرجال . وتظهر حدة عواطفهم فى الأغانى والأشعار ، فهى مملوءة حزناً وضنى على الهجران ، ومرحاً وسروراً للوصال . وربما كان هياج العواطف أكبر سبب للتخريف . فالعواطف إذا هاجت التمست كل سبيل للوصول إلى الغرض .

عوج بن عنق

اسم مشهور دائر على ألسنة العوام ، يقولون فى وصف من كان طويلا : « أطول من عوج بن عنق » ، ولهم فى وصفه خرافات غريبة ، منها أنه كان يمدّ يده إلى قاع البحر الملح فيأخذ منه السمك الكبير ، ثم يمد يده إلى الشمس فتنضج السمكة من حرارة الشمس .

وقالوا إنه كان فى زمن الطوفان ، فكان يمشى فى الماء بجانب سفينة نوح . وقالوا إنه مرض ذات مرة ونام ، فكانت القوافل تمر عليه فيقول لها : إن بلغتم رجلى فانظروا ما الذى يخربشنى فيها . وقالوا : إنه كان فى

زمن موسى فأراد موسى أن يضرب به ، فاضطر أن يرتفع عن الأرض أربعين ذراعاً . وله عصا طولها أربعون ذراعاً أيضاً . وغير ذلك من الأساطير.

وكلمة عوج عبرانيـة ، معناها طويل العنق ، وقالوا إنه اسم لملك كان جباراً ، أطول من المعتاد ، وقد انهزم فى موقعـة دموية ، واقتسم بنو إسرائيل ملكه .

وقال الشاعر :

لى حبيب قده دونه السـمر الرقاق
أعور الدجال يمشى خلف عوج بن عناق

وقد اضطره الشعر إلى أن يحوّر عنق إلى عناق .

وقد كانت أخبار هذا الرجـل من الإسرائيليات التى دخلت فى تفسير القرآن .

العُونة

العونة السخرة ، كأنهم يتعاونون فى عمل الشىء ، كالعونة فى المحافظة على الجسور وتطهير الترع ، وكانت هى الأخرى سبباً فى ظلم الفلاحين من العمد ومشايخ البلاد ، والفلاح يعمل فى هذه العونة أو السخرة من غير أجر ، وأحياناً تكون العونة لمصلحة عامة ، ولـكن فى مزرعة غنى أو كبير ، فمن عليه العونة يخرج فى الصباح ومعه أيضاً أكله وبهائمه للعمل فيما كلف به ، وطريقتها أن ينادى الخفير فى الصـباح : « العونة يا فلاحين ، العونة يا بطالين . . » فيخرجون ويوجههم الخفير إلى حيث يعملون . وفى بعض البلاد تفرض العونة على البيوت ، ويقال على البيت الفلانى رجـل ، وعلى البيت الفلانى رجلان ، والأسرة التى فى البيت حرة فى اختيار من يشتغل . وأحياناً يستخفى مَن عليه العونة ، ويخرج من البلد أحياناً فى زىّ امرأة أو يختفى فى الفرن . . وأكثر ما تكون العونة فى بلاد الوسيّة ، أى البلاد التى فيها أراضى الملاك الـكبار من تفاتيش وعزب وغيرها .

والعونة كانت من أكبر مصائب الفلاحين ، وتتهددهم دائما بالظلم والقسوة ، وكلما كان الفلاح عديم المِلك أو قليل الزرع كان أكثر عرضـة للعونة ، وهو دائما خائف مرتعب أحياناً من حضور ميعاد المال ومن الـكشاف ومن الصراف وغير ذلك .

ولذلك قال بعضهم :

همّ الفـلاحة حيّرنى
وكل سـاعة فى نقصان
ما انفك من همّ الوجبـة
لمّا ييجى مال السـلطان

(انظر سخرة ، وانظر أيضاً وجبة)

عهـــد

العهد فى اصطلاح الصوفية الميثاق الذى يأخذه الشيخ على المريد ؛ فيقولون للمريد إنه أخذ العهد ، وللشيخ إنه أعطى العهد للمريد . وهو علامة على الدخول فى طريقة من الطرق الصوفية كالبيومية ، والسعدية . و بعد العهد يترقى المريد إلى مرتبات مختلفة حتى يصير قطباً.

و بعد أخذ العهـد يأخذ عن الشيخ الأوراد ، و يسير فى الحياة وفقا لما يأمره به الشيخ . و إذا أخذ عهداً على طريقة عدّ من العيب أن يأخذ عهداً على طريقة أخرى ؛ كمن كان شافعياً لا يصح له أن ينتقل إلى الحنفية وهكذا .

وقد أخذت هذه الطريقة الأحزاب السياسية ، فمن انتسب إلى حزب لا يصح أن ينتسب إلى حزب آخر معه .

العيش

اسم يطلقونه على الخبز وهم يجلونه كثيراً ، فإذا رأى أحدهم قطعة من الخبز نحاها بجانب الحائط ، ور بما قبلها قبل ذلك ؛ ولا يستحلّون أن يدوسوا عليه ، و يكنّون عن العيش والملح بشدة الروابط ، فيقولون أكلت معه عيش وملح ، و إذا لم تنفع الصداقة قالوا « يخونه العيش والملح » .

العين

العين إذا رفّت فإنهم يتشاءمون بهذا إذا حصلت من إحدى العينين ، و يتفاءلون إذا حصلت من الأخرى ؛ ومن ذلك الأغنية المشهورة اليوم : «عينى بترف يا حبة عينى» . و يقولون إذا رفّت عينه : اللهم اجعله خيراً . ومن ذلك أيضاً خدر الرِّجل ، فهم يزعمون أن الرِّجل إذا نملت ، دل ذلك على أن صاحبها سيسير سيراً طو يلا .

وتطلق العين أولا على الحسد ، فيقولون للمحسود : « أصابته عين » . و يعتقدون أن بعض الناس فى عينه قدرة على الحسد تؤذى من أصابته ، و يداوون ذلك بالتماو يذ والبخور والأحجبة . ويقولون فى أمثالهم : « عين الحسود فيها عود » . وكلمة العين تستعمل فى الغناء كثيراً ، فيقولون يا ليل ياعين . و ينوعون نغمتها أنواعا كثيرة .

(انظر حسد وأحجبة و بخور)

عين الصيرة

هى عين مالحة مرّة بالقرب من الإمام الشافعى ، يعتقد المصريون أن من اغتسل فيها شفى من الأمراض ، ببركة الإمام .

والحقيقة أن العين ذابت فيها بعض مواد كيميائية ، من المواد التى مرّت عليها فجعلتها صالحة لشفاء بعض الأمراض ، وخصوصاً الجلدية . وخصوصاً أيضاً طينتها التى تركزت فيها هذه الموادّ ، فإنهم عادة يأخذون هذه الطينة ويضعونها على العضو الذى أصيب بالآفة فيمتص كثيراً من السوائل الضارة فيبرأ المريض .

حرف الغين

الغابة

تطلق على الجوزة التي يشرب فيها التمباك أو الحشيش . ومن الأغاني « جوزة من الهند ومركب عليها غاب » و إذا دخلت قهوة بلدية وجدت « جوزات صغيرة وكبيرة بغابها » معلقة في صدر القهوة .

ومن الغاب نوع يسمى (الغاب الأفرنجي) ، متين يستعمل لوضع جنب الفاكهة والخضراوات عليها .

وقد يسقف الفلاحون بيوتهم بالغاب بدلا من عروق الخشب لفقرهم .

ومنها ما يستعمل في اصطياد السمك إذا كانت طويلة ، فيركب عليها سنارة ويصطاد بها . (انظر جوزة وتعميرة) .

غاباني

يقولون شال غاباني ؛ وأصله ياباني ، لأن أهل مكة يسمون يابان غابان .

الغراب

طائر أسود يتشاءمون منه ومن صوته . ومن أمثالهم « إيش جاب الغراب لامه » ، أي أنه لم يأت لأمه إلا بالشر . وربما كان موروثاً عندهم من العرب ؛ إذ كانوا يتشاءمون منه ، ويقولون : أشأم من غراب . ويسمونه « غراب البين » بدعوى أنه يفرق بين المحبين . وقد قال الشاعر العاقل :

ما فرّق الأحباب بعد الله إلا الإبل
وما غراب البين إلا ناقة أو جملُ

ولو كان الشاعر عائشاً في زمننا لعدّ من مفرقات الأحباب السفينة والوابور والطيارة .

الغربال والمنخل

كان الغربال والمنخل منتشرين أيام كانوا يخبزون في بيوتهم ، وكان أهل كل بيت غني أو متوسط يخزنون القمح ، وكلما احتاجوا غربلوا وطحنوا ونخلوا ، وهكذا . يأتون بالقمح فينقّونه من الطين والزّوان ، ثم يغربلونه ليخرج منه ما ليس بصالح ، ثم يرشون عليه قليلا من الماء ، ويرسلونه إلى وابور الطحين ليطحن . ووابور الطحين شيء جديد على مصر ، فقد كانوا قبل ذلك يستخدمون طواحين البيت أو طواحين الهواء ، تجدها منتشرة في كل مكان . فإذا طحن أفرز الدقيق الناعم من دقيق السن من النخالة بواسطة المنخل ، ويأتون بالدقيق الناعم فينخلونه مبالغة في جودته .

والمنخل عادة أدق مسامّ من الغربال . فالغربال لتنقية القمح ، أما المنخل فلتنقية الدقيق . والمنخل طارة يركّب عليها إماسلك فيسمى منخل سلك ، أو شاشة رقيقة دقيقة ،

فيسمى منخل حرير . و يسمَّر السلك أو الشاشة بمسامير دقيقة .

أما الغربال فيعمل من طارة أكبر ، ويركب عليه خيوط تعمل من الغراء في الأغلب.

وإذا ارتخى الغربال من الرطوبة أو نحوها مر على نار هادئة أو شمس حامية فيشتد . ومن كثرة استعمالها كان هناك حى يسمى المغربلين ، وحى آخر يسمى المناخلية .

وكثيراً ما يدور البائعون فى الحارات ينادون على الغربال بقولهم : «ياطالبة الغربال يا عاوزه الغربال » وعلى المنخل بقولهم : « المنخل الحرير العمولة » ، ومعنى العمولة أنه مصنوع صنعاً جميلا . ويشبهون الرجل الذى لا يحفظ السر أو المرأة كذلك بالغربال ، فيقولون : زىّ الغربال ، ما يحفظش سر . وهو مثل عربى قديم . قال الحطيئة :

أغربالا إذا استودعت سراً

وكانونا على المتحدثينا

ومعنى الكانون هذا الذى نطبخ عليه ، فقد وصفها بأنها إذا تحدثت كانت ثقيلة على المتحدثين ، لأن الكانون عندهم كان عبارة عن حجرين ، والحجر الثالث هو الجبل ، ولذلك سموه ثالثة الأثافى ، فالكانون بذلك الوضع أثقل من الجبل .

أما الكانون فى عصرنا فكان إطاراً من حديد ، له قاعدة يوضع فيها الخشب أو الفحم ثم يشعل الخشب أو الفحم بواسطة بعض الورق أو بواسطة قطع صغيرة من خشب سريع الالتهاب يسمى الإشراء ، وكان يدار به أيضاً على البيوت . و بعد ذلك عمل كانون من نوع آخر ، وهو عبارة عن إطار من حديد وضع حول الإطار طين محروق أدخل فى النار حتى احترق ، فكان بذلك قابلا لأن يوضع فيه ما يحترق . وقد استعمل هذا الكانون عند ما استخدم للطبخ ونحوه بقايا الفحم الحجرى المسمى « بفحم الكوك » .

وكان العجائز لا يحببن الطبخ عليه ، لأنه يسرع فى نضج الطعام . وعندهن أن الطعام إذا طبخ على نار هادئة أو فى الفرن كان ألذّ . ثم استغنى عن كل ذلك بوابورات الجاز .

ومن الأمثال الشائعة : « يا مأمنة للرجال يا مأمنة للمية فى الغربال » يضربونه للدلالة على عدم الثقة بالرجال ، فقد يمكث الرجل مع زوجه ما شاء أن يمكث ، ثم يلوف بغيرها على حد تعبيرهم . وكذلك أيضا : « الغربال الجديد له شدة » . يعنون لذة الأشياء الجديدة (كالجزمة والبدلة) .

الغريبة

هى نوع من الكعك يصنع من دقيق وسمن وسكر ، ويكثر فيه السمن . ويقدم عادة فى المواسم والأعياد . وتتفنن الطبقة العليا فيها فتضع فى وسطها لوزة مقشورة . وللشيخ حمزة فتح الله حكاية مع الغريبة عند ما أخذها معه فى السفر إلى مؤتمر المستشرقين ، فقد وضع عليها جمرك كبير لأن الأوربيين لا يعرفونها ثم تفتتت من كثرة النقل والحركة . فأتلفت ما فى صندوقه من جبب وقفاطين ؛ وأخيراً اضطر إلى أن يشحنها إلى مصر مرة أخرى بواسطة شركة كوك .

وقد حكى قصته عبد الله باشا فكرى فى رسالته فى المؤتمر .

الغزال

يكثر هذا النوع من الحيوان على حدود الصحراء المصرية ، وقديماً تغزّل فيه العرب ، وخصوصاً فى عينه ورشاقته ، وأكثروا من القول فى شعرهم فى هذا . وهو يتغذى بالأعشاب الصغيرة التى تنبت فى الصحراء ؛ وقد برع العرب البدو فى مطاردته واصطياده بالبندقية أو بالصقر أو الكلب . وبعض الأغنياء يتخذون صغار الغزلان الوحشية فى بيوتهم للتجميل فلا تلبث أن تستأنس ، وأعرف صديقاً لى كان عنده غزالة كانت تأنس به .

ومن غريب الأمر أنها كانت تألف الدخان ، فإذا أشعل أحد سيجارة جاءت بجانبه تشم رائحته ، وأحياناً يطعمها بعض السجائر فتأكله فى لهفة .

ومن أمثالهم « القرد فى عين أمه غزال » ، يقصدون أن شكل القرد القبيح جميل فى عين أمه . أى أن الأم ترى ابنها جميلا مهما قبح .

ومن غريب الأمر أنهم يسمون الجن والجنون غزالة . فيقولون : « طلعت عليه الغزالة » أى جن . وفلان عليه غزالة ، أى يعتريه أحياناً جنون .

الغول

حيوان خيالى ، وإذا كان مع الإنسان سلاح وضربه به ، فإنه يقتله ، فإذا ضربه ثانية يحيا ؛ ولذلك إذا كان الضارب عارفا لا يثنى الضرب .

وعيون الغول مشقوقة بالطول ، إذا حدّقت فى إنسان خرج منها الشرر . وهو ميراث من القدماء ؛ يقول الشاعر :

والغول بين يدىّ يخفى تارة
ويعود يظهر مثل ضوء المشعل
بنواظر زرق ووجه أسود
وأظافر يشبهن حدّ المنجل

ويسمى العامة أنثى الغول (سلعوة) .

والعامة فى كلامهم يشبهون من يأكل كثيراً بالغول . فيقولون — إنه — يأكل زى الغول .

الغيرة

الغيرة عند المصريين قوية ، وخصوصاً فى الصعايدة ، فهم يتململون إذا سمعوا أن امرأتهم أو أختهم أو بنتهم تنهتك أو يغازلها أحد . ويجن الصعيدى إذا سمع مثل ذلك . وكثيراً ما يؤول الأمر إلى قتل من اتهمت بذلك . وقد قلت كثيراً مع المدنية .

وفى الصحف كل يوم أخبار عن القتل بسبب الغيرة . وهم يعتقدون أن المرأة أو الفتاة إذا قشرت بصلا فدمعت عيناها دلّ ذلك على شدة غيرتها . وليست الغيرة مقصورة على المرأة ، بل قد يغار الرجل من زميله إذا اشترك معه فى عمله .

فالصائغ يغار من الصائغ ، والحداد من الحداد ، والكاتب من الكاتب ، والعالم من العالم ، وهكذا . بل قد تغار المرأة من أختها ، خصوصاً إذا سعدت أخت وشقيت الأخرى ، فإن الغيرة تستولى على الشقية ؛ بل إن أكبر سبب فى غضب الحماة على زوجة ابنها الغيرة ، لأنها تغار على ابنها يستولى عليه قلب غير قلبها .

حرف الفاء

الفــار

مَقام فى شارع درب الحصر لولىّ اسمه سيدى إبراهيم الفـار ، وكان له مولد من جنس خاص . ذلك أن العامة تزعم أن من رزق ولداً وأراد أن يعيش ، يحضر به فى مولد الشيخ الفار ، ويركبه مع الخليفــة « شيخ المقام » ، ويجعل ركوبه عادة مستمرة كل سنة لأجل أن يعيش الولد . ولذلك يبعث كثير من الناس أولادهم إلى هناك . فيركب الخليفة وحوله كثير من الأولاد وعلى أبدانهم الثياب الملوّنة ، ويلبسون طراطير من الورق بعضها أصــفر ، وبعضها أحمر ، وبعضها أزرق . وتزدحم الطرق ، ويسير مع الخليفة أرباب الأشاير والطبول والزمور ، وبعض الأطفال يركب حماراً ، وبعضهم حصاناً ، وبعضهم يمشى على قدميه . وتسير أيضاً معه أرباب الصنايع من حدّادين ونجارين ، الخ . كل يركب عربة تمثل عليها أنواع الصناعات . وقد شهدت هذا المنظر فى صـغرى ، فكان منظراً عجيباً ، ويكثر الناس للتفرج على ذلك سيما النساء ، ويكون اليوم يوماً مشهوداً .

والفار هو الحيوان المعروف ؛ ومنه فار البيت ، وفار الغيط . ويحـكون قصصاً للحوار بين فار البيت وفار الغيط ، مغزاها أن الحرية مع الفقر خير من عدمها مع الغنى . وفار الغيط أبيض سمين ، حتى أن بعض الفلاحين يأكله . ويعتقدون أن البيت إذا كان فيه فيران كان فيه البركة ، ودلت الفيران على كثرة الخير ، وهـذا طبيعى لأن الفار لا يألف البيت إلا إذا كانت فيه الخيرات .

ويحضر فى الذهن كثيراً القط مع الفار ، فيقولون « القط والفار » ولهم فى ذلك قصة مطبوعة . ويحكون قصة تدل على أن ما بالطبع لا يتخلف « اللى فيهش ما يخلهش» مؤداها أن رجلا علّم قطته إمساك الشمع بين يديه حينما يأكل ، فلما ظهر فار رمت القطط الشموع وجرت وراء الفار . ويحكون أيضاً أن رجـلا دعا الله أن يقلب قطته جارية حسناء ، فاستجاب الله دعاءه . وكانت تجلس بجـانبه تأكل أخر الأكل فلما رأت فأراً تركت أكلها وجرت وراءه ، فقال الرجل : « اللى فيهش ما يخلهش » ، ودعا الله أن يعيدها قطة فكانت كما كانت . ومن أمثالهم : « غاب القط ، إلعب يا فار » ، يقولونه فى النـاس غاب من يخوفهم فجروا على هواهم .

فتح الكتاب

يقوم بهذه الحرفة فى الغالب المغاربة والسودانيون ، فيضعون كتابا تحت إبطهم ويمرون فى الشوارع والحارات ينادون « نفتح الكتاب » ؛ فإذا جاء إليهم أحد نادوه ففتح الكتاب حيثما اتفق ، وقرأ منه ما يدل على تنبؤ بالمستقبل بناء على توسمه فى وجهه ، كأن يقول له : « يظهر عليك أنك زعلان من قلة الدراهم وعدم الشغل ، لكن الكتاب يقول إن الضيق سينفرج والغمة ستزول ، وأنه سيأتيك مال كثير » ونحو ذلك . وكلما كان الكتاب مخطوطاً وقديماً كان الناس فيه أكثر اعتقادا . وهو من قبيل الاستخارة وضرب الودع وضرب الرمل .

(انظر هذه المواد)

الفتوة

الفُتُوّة لعبت دوراً هاماً فى حياة الجاهليين والمسلمين ؛ وأجمل ما فيها المعنى الإنسانى الذى نلمحه .

ولقد نمت الفتوّة فى ظل الإسلام ، وكان منها الكرم والنجدة والضيافة ؛ وجاء الصوفية فاستحسنوا ما فيها من إيثار فزادوا فيه حتى العطف على الحيوان ، ففلسفوا الفتوة وتعمقوا فى تطبيقها ، وأخذ مؤرخو التصوف يزيدون فى كتبهم فصلا عن الفتوة ، ثم انتقلت الفتوة بالحروب الصليبية إلى نوعين : نوع من الفروسية بديع يظهرون فيه الاحترام للمرأة ، وربما نظروا إلى جمالها على أنه تقديس لها وإعزاز لشأنها ؛ ونوع ثان عماده الكرم من إيواء الضيوف وبناء مستشفيات وإنشاء الزوايا والوقف على الفقراء والمساكين إلى غير ذلك .

وعلى الجملة فقد كان فى الفتوّة معنى إنسانى جميل ، ولكن مع الأسف طغت المدنية الحديثة التى لاتعرف كرما ولا سماحة على عوامل الكرم والسماحة إلا فى القليل النادر . والفتوة فى عصرنا انتقلت من اسم معنى إلى اسم ذات ، فالفتوة شاب يلبس جلباباً ويتعمم بلاسة .

وقد يرأس شبّان حَيّه فى محاربة الحىّ الآخر ، فيتواعد الطائفتان على الخروج إلى جبل الجيوشى مثلا ويتحاربون بالحجارة والعصى طويلا ؛ ومن غلب منهم توعد بالغلبة فى يوم آخر . ولا تخرج الزفة من حىّ إلا إذا حماها فتوة الحىّ خوفا من تعدى فتوات حىّ آخر عليها . والفتوة عادة تكون له امرأة عشيقة يحميها ، فلا يجسر أحد أن يتعرض لها ؛ ولهم لغة خاصة مثل التلاموذ ، والجبا .

ونحو ذلك . وقد رأينا أن الشيخ حسن الكفراوى لما اضطهد بعد قتل صديقه الشيخ صامودا لجأ إلى فتوة الحسينية وتزوج بنته ليحتمى به فحماه . .

الفراسة

يعتمد المصريون كثيراً فى أعمالهم على الفراسة ، فهم ينظرون إلى بعض الوجوه ، فيقولون هذا الوجه سمح يستبشرون به ، وهذا الوجه عبوس يتشاءمون منه .

ولهم فى ذلك ملكة عجيبة ، فمثلا يستدلون من الخجل وتورّد الخدود على أن صاحبه لطيف الخلق ، لطيف الشعور . وبروز الوجنة ، وهو ما يسمونه كرسى الخد ، يستدلون منه على شدة الطبع والدفاع عن النفس والأهل . والأنف الأشم دليل العظمة وعلو الهمة والإقدام ؛ وهذا بعكس الأنف الأفطس . والشفة الغليظة البارزة الحمراء ، دليل على السخاء وكبر النفس ، وأحياناً تكون دليلا على حدة الشهوة الجنسية ، والشفة الرقيقة دليل على الاستعداد للحب الشديد والذوبان فيه .

وقد كان لى كتبى جاء إليه رجل يطلب كتاباً فقال له : ليس عندى . ولمحت الكتاب أمامه على مكتبه ، فقلت له : كيف تقول ذلك ؟ فقال إنى أعرفه من فراستى فيه ، فاستنكرت ذلك عليه . وقام يجرى ونادى الرجل وما زال يساومه ، وأخيراً مضى ولم يشتر ، فالتفت إلىّ وقال : هل صدّقت ؟

ولبعض الناس مقدرة عجيبة على صدق الفراسة ، فيتفرس فى رجل أنه كريم أو بخيل ، شجاع أو جبان .

وربما كان تنبؤ كثير من العرّافين مبنيا على صدق الفراسة .

فرجيَّة

هى جبّة واسعة طويلة الأكمام ، وهذه الأكمام غير مشقوقة ، وهى عادة من لباس رجال الدين ، وربما نسبت إلى السلطان فرج أحد سلاطين المماليك .

يلبسها العلماء عادة فى الحفلات الرسمية كالمحمل ، وقد تحلّى بسلوك من الذهب تركّب على يديها وظهرها . ويشترك أيضاً رجال الدين الأقباط فى لبسها سوداء هى والعمامة .

الفرح

الفرح يطلق على معنيين : فرح بمعنى السرور ، وهو يؤثر فى الشخص أثراً كبيراً حتى قد ينقلب إلى بكاء ؛ وفى ذلك المعنى تقول الشاعرة :

غلب السرور علىّ حتى أنه

من فرط ما قد سرنى أبكانى

وقد يبلغ فيه حد التأثر لدرجة الإغماء .

حكى لى شيخ أن رجلا صحب أوربيا جاء مصر ، ورغب الأوربى فى تعلم العربية فعلمه ، وتلازما مدة طويلة ثم سافر الأوربى إلى بلاده ، وفى ذات يوم بعد عشرين سنة جاء رجل من بنك الكريدى ليونيه يسأل عن الشيخ[1] فدلوه عليه ، فأحضره هذا السائل إلى البنك ، وأدخله على المدير وسأله عن اسمه وصنعته فأخبره ، فقال له المدير : « أتعرف فلاناً ؟ » فقال : « نعم ، إنه كان صاحباً لى منذ عشرين سنة » . قال المدير إنه قد أوصى لك بألف جنيه . فدُهش الشيخ وامتلأ سروراً وفرحاً ، فلما عدّ له المدير مائة جنيه قال له الشيخ : دعها إلى الغد ، ثم حضر ثانى يوم فلما عدّ المدير إلى خمسمائة قال له الشيخ : دعها إلى غد ؛ فلما حضر فى الغد واستلمها وأراد أن يخرج قال له المدير : فسّر لى هذه الحركات ، قال له إنى عشت طول عمرى لم أقبض أكثر من خمسة جنيهات ، فلما عددت لى فى أول مرة مائة كاد يغمى علىّ ، فاستمهلتك ، وهكذا .

وقال لى صديق آخر إنا كنا نعرف رجلا فقيراً يعيش من كسب امرأته ، وهى تشتغل غسالة فى البيوت ، وقد مات قريب له وورث نحو الستمائة جنيه ، ففصل عشر بدل له والبدلة عبارة عن جبة وقفطان ، ولباس وصديرى وقميص ، ورمى ثوبه المهلهل وأخذ يدعو أصحابه ويقيمون الأفراح فى غناء وخمر وحشيش ، ثم دعا أصحابه وذهب إلى المحطة يزعم أنه سيحج ، وليس الوقت وقت حج ، و بعد غياب شهر أرسل إليهم تلغرافاً بأنه حج وعاد فاستقبلوه على المحطة بالزفة ، وأقاموا الأفراح والليالى الملاح ، حتى نفدت نقوده ، وتخلّى عنه أصحابه ، وعاد إلى ثيابه المهلهلة . وهذا من تأثير الفرح .

وتطلق بالمعنى الثانى على النصبة التى تنصب لإقامة الزواج ونحوها ، فتدوم أكثر من ليلة ، بعضها للمغنين و بعضها للتمثيل ، الخ ... ويسمون ليلة الزفاف الليلة الكبيرة . ومن أقوالهم : « جت الحزينة تفرح ملقيتش فى القلب مطرح »

(١) الشيخ هو الشيخ إبراهيم الدسوقى ، والمتبرع هو مستر لين الإنجليزى .

وقولهم « فرحة ما تمت » ، تقال للخير لم يستكمل ، كقول الشاعر :

ما أقبح الخير تؤتاه فتحرمه
قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى

وقولهم « كل نومه وتمطيطه ، أحسن من فرح طيطه » تقال عند مايراد الانصراف عن الشيء والالتذاذ بالكسل .

الفروة

إذا كان الخروف طويل الشعر اعتنوا به عند ذبحه ، فسلخوه ودبغوا جلده المسلوخ ، واستخرجوا من ذلك فروة يطول شعرها أو يقصر حيثما اتفق . فإذا دُبغت اتخذوها فراشاً يجلس عليه المترفون . وكان الأغنياء من المجاورين يجلسون عليها بدل الحصير .

والآن يتخذها بعض الأغنياء تحت أرجلهم فى السيّارات . وكنا ونحن فى الكتّاب نسمع فيها لغة رمزية ، فيقول الأب لسيِّدنا إذا عمل الولد عملاً لا يرضى أباه : نقّض له الفروة . أى اضربه علقة .

ويسمى العامة التمر المعروف بـ « بلوط شاه » أبو فروة .

فزورة

هى بمعنى اللغز ، وهى باب ظريف من أبواب السمر كالحواديت ، فعند ما يسمرون يتبادلون هذه الفوازير ، وذلك مثل فزّورة الكتابة : « قدّ السمسمة ، وتجيب الخيل ملجمة » وألغازهم فى البيضة بقولهم : « طبق رخام عليه زعفران حلف ما يتّا كل إلا بالكلام » ، وهو رمز لبياض البيضة وصفارها ، وأنها لا تؤكل إلا بالملح . وعلى هذا القياس .

فسقية

حوض ينشأ فى الحديقة ، أو فى الميادين العامة ، أو فى ساحة الدار . وربما كانوا ينشئونها فى الأصل على شكل فستقة ، ويسمونها الفستقية ، لحرّفها العامة إلى فسقية وإن كانت فيما بعد قد تكون مدوّرة .

الفسيخ

هو سمك يؤخذ ويصفّ راقات بعضه على بعض ، ويوضع على كل صفّ مقدار كبير من الملح ، وخيره ما كان من نوع سمك البورى ، ثم يضعون من فوقه حجراً فينزل منه ماؤه ، ثم يضمر ويصلحه الملح : ونوع آخر يسمونه الطوبار ، وهو مشهور

جداً عند أهل الأرياف ؛ وكثيراً ما تجد الفلاح وهو ماش فى الطريق بيده اليسرى فسيخة ، و بيده اليمنى الرغيف ، يقطع من هذا قطعة ومن ذاك قطعة . وتحبه النساء كثيراً . ونساء المدن يصلحنه بوضع زيت وخلّ ، أو زيت وليمون عليه . وهو يشحن إلى القاهرة فى المراكب ؛ واشتهر فى القاهرة الفسيخ النبراوى ، نسبة إلى نبروه قرب شربين . ومن أمثالهم إذا رأوا رجلا يسلم على آخر فسلّم عليه فى ازدراء واحتقار « سَلِّم عليه كسلام الماوردى على بيّاع الفسيخ » . وهو يؤكل كثيراً فى يوم شم النسيم ، وقد اعتاد المصريون أكله فى ذلك اليوم ، ولذلك يستعد بائعو الفسيخ لهذا اليوم استعداداً كبيراً . وخير ما يؤكل أن يؤكل معه البصل الأخضر . وكما يؤكل الفسيخ فى شم النسيم يؤكل السمك البكلاه فى العيد الصغير . والسمك البكلاه هذا عبارة عن نوع من السمك الكبير شرّح وجفف .

ومن الفسيخ نوع يوضع فى مش و يخزن فى بلاص مدة طويلة . وقد اشتهرت به أسيوط وما حولها ، ولكن يسمونه (الملوحة) لا (الفسيخ) . وهو مؤذٍ فى الصيف على الخصوص ، لأنه يحوج آكله إلى شرب الماء الكثير ، ولذلك كان فى الشتاء أسهل منه فى الصيف . ومن أمثالهم أيضاً « يعمل من الفسيخ شربات » يقال للماهر يستخرج الشىء من ضده . وقد يهدّد أحدهم آخر بقوله : « أفسّخك » .

الفقى

ينطقونها بالهمزة وكسر الفاء ، وقد كان الفقى فى عهدنا يقوم بأعمال كثيرة ؛ فهو يقرأ كل يوم صباحا جزءاً من القرآن فى البيوت ، ثم قام بدورهم هذا « الراديو » ، وهم يدعون أيضا لقراءة جزء من القرآن على القبور ، وهم يعلّمون أيضاً الأطفال القراءة والكتابة فى الكتاتيب ، وهم لا يحسنون شيئاً إلا حفظ القرآن . وكثيراً ما يكونون من العميان . وهم يدعون للقراءة عادة بالليل على الميت حتى يدفن ، وإلى قراءة عدّية يس والختمة ونحو ذلك من الشئون الدينية ، ومنهم من يحترف أيضاً كتابة الأحجبة والتعاويذ السحرية ، ومنهم من شدا شيئاً من الفقه فيكون (مأذوناً) يعقد عقد الزواج و يحرر ورقة الطلاق .

و يقولون لمن تزمّت وتشدد وكان ثقيل الروح : « فقى » و « بلاش فقهنة » .

الفكاهة

اشتهر المصريون بالفكاهة الحلوة والنوادر المضحكة ، وخصوصاً أهل القاهرة وأهل رشيد . ولهم طابع خاص فى نكتهم ، وهذا الطابع يعتمد على الألفاظ واللعب بها والتورية أكثر من الذكاء .

مثال ذلك أن الشيخ على الليثى كان إمام الخديوى ، وكان شاعره ومضحكه ، وكانت له حجرة فى القصر خاصة به ، فداعبه رجل يسمى أحمد خيرى باشا مهردار ، أى حامل الخاتم لإسماعيل باشا ، بأن كتب على باب حجرة الشيخ على الليثى : « إنما نطعمكم لوجه الله » ، فأدرك مغزاها الشيخ على الليثى فقال فيه هذا الزجل :

كان لى طاحونة جوّ الدار
تدور وتطحن ليل ونهار
دوّرت فيها التور عمى
علقت فيهـا المهر دار

وقد كان محمد بك عثمان جلال زجالا كبيراً ملأ الناس بالفكاهات اللطيفة فى عصره ، مثل قوله لرياض باشا :

الخير عم النـاس وفاض
ماحـدّ إلا واستكفى
إلا أنا يا سيدى رياض
وقعت من قعر القفة

وكقول بعض الظرفاء :

كل شىء فى مصر يوجد
إلا قهوة سى خليـل
الكيوف فيها نضيفة
والحشيش مالهوش مثيل

وكانت قهوة خليل هذه بشبرا يقصدها ذوو الكيوف ومنهم بعض الذوات .

وقد اشتهر جماعة من القاهريين بالنكت حتى لقد هممت أن أضع فيهم كتابا مسلسلا لهم ، ذاكراً لهم أشهر نكتهم ، من أولهم ابن دانيال وهو صاحب كتاب « خيال الظل » وقد ترجمنا له . ويليه ابن سودون ، وله كتاب مطبوع على الحجر مملوء بالنكت اللطيفة ، اسمه « نزهة النفوس ومضحك العبوس » . ثم الشيخ الشربينى مؤلف كتاب « هزّ القحوف ، فى شرح أبى شادوف » ثم الشيخ حسن الآلاتى مؤلف كتاب « مضحك العبوس » . وقد أخذ الاسم من ابن سودون . وقد كانت له قهوة فى حىّ السيدة سكينة سماها (المضحكخانة) ، يقصدها الناس من كل فج . ثم توفيق صاحب « حمارة منيتى » . ثم أحمد فؤاد صاحب « الصاعقة » . ثم المحدثون المعاصرون فما أجدرهم بالتاريخ .

وفكاهات المصريين أنواع ، منها التندر

على الفلاحين ، والسخرية بالنحو ، وقد اشتهر بها الشيخ الشربينى ، ومنها المفارقات وقد اشتهر بها الشيخ حسن الآلاتى ، وهكذا . .

وقد كان فى القاهرة شابان أرادا أن يتضاحكا على أدباء عصرهما بتلقيب كل منهم لقبا خاصا مضحكا . فسميا الساعاتى الأديب « ديك الجن » لأنه كان دقيق الرقبة . ولقّبا أديبا ذا لحيـة مُدببة بابن مَكانس ، مع أن الأصل ضم الميم ، وسميا الشيخ إبراهيم الدسوقى وكان ضخما عالى الصوت فى الضحك « مهياراً الديلمى » ولقّبا أديبا كان ينطق بالصاد نطقا عجيبا فيه صفير ، فقالا إنه خير من نطق بالصاد . وأخيراً سمى أحدهما الآخر « الشاب الظريف » .

(انظر ذوق)

الفلّاح

الفلّاح هو ذلك الرجل من أهل الريف ، يفلح الأرض ويزرعها . ويقول صاحب « هزّ القحوف ، فى شرح قصيدة أبى شادوف » : « إن أهل الريف طبعهم كثيف ، وأخلاقهم رذيلة ، وذواتهم هبيلة ، ونساؤهم مزعجات . وذلك من كثرة معاشرتهم للبهائم ، وملازمتهم لشيل الطين ، وعدم اختلاطهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم بأهل الكثافة . كأنهم خلقوا من طينة البهائم . كما قال الشاعر :

لا تصحب الفلاح لو أنه
ناجحة أرباحها صاعدة
ثيرانهم قد أخبرت عنهم
بأنهم من طينة واحدة

فهم ملازمون للمحراث ، دائرون حول الزرع ، غاطسون فى الجلّة والطين ، غير مكترثين بالصلاة والدين . لا يعرف الواحد منهم غير الساقية والفارقلّة ، وشيل الطين والجلّة ، والمياط والغارة ، والطبلة والزمارة . إذا أقاموا أفراح ، لا تكون إلا بالعياط والصياح . وشاهدنا كثيراً من أفراحهم ، وما يقع فيها من عدم نجاحهم . إن حصل منهم الكرم بالاضطرار :

يكون العدس والبيسار
وَوِردهم عند الأسحار
التفكر فى الغنم والأبقار
وتسبيحهم فى الظلام   هات النبوت والحزام
وحط العلف   هات الكلف

قال الشاعر :

أهل الفلاحة لا تكرمهم أبداً
فإن إكرامهم فى عقبه ندم
يبدوا الصياح بلا ضرب ولا ألم
سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا

لهم أسماء كأسماء العفاريت : كبرغوت وزعيط ، ومعيط والعِفِش . ومن عادتهم أن يسموا بالاسم الذى ينطق عند ولادة الولد ، فإذا سمعوا يا أعمش سموه عموش ، وإذا سمعوا هات الزّبل سموه زبيلة ، وسموا أيضاً أبو ريالة وأبو زعيزع وأبو قدح وأبو حشيشة وأبو كنون ، وسموا بربور .

ومن أسماء نسائهم : (زعرة) و (بعرة) و (بروة) ، ويكنون بأم جعيص ، وأم دواهى ، وأم بعيص . وترى أولادهم غارقين فى الجلّة ، ينامون فى المدْوَد ، ويشربون من المترد ، عمره فى دناسة ، وأمه فى نجاسة . وإذا درج فى الحارة لا يعرف غير الطبلة والزمّارة ، لعبه حول العِجْلة ، وأكله بجوار الجلّة » . إلى آخر ما قال... وقد تغير كل ذلك الحال .

وربما يكون متحاملا عليهم لأن كتابه كله من هذا القبيل . وقد يكون غرضه نبيلا بأن أراد أن يصف بؤس الفلاّح وفقره ، والظلم الواقع عليه فى أسلوب فكه ، لكن يتحامل عليهم . ولم يكن فى زمنه من يصف سوء معاملتهم فى صراحة ؛ والحق أن عيشتهم بائسة . ولم يستطيعوا أن يعيشوا ما يعيشون إلا لأنهم ألِفوا هذه العيشة واعتادوها من صغرهم . ولو اعتادوا أول الأمر عيشة فيها شىء من السعادة لما استطاعوا أن يحيوا هذه الحياة .

فنــار

منار فيه مصباح لهداية المراكب عند دخولها الميناء ، وربما أخذوها عن الإيطالية ، لأنها عندهم فانور .

الفل

زهر أبيض طيب الرائحة ، يحبه المصريون كثيراً ، ويشبهون به المرأة البيضاء فيقولون : بيضاء وزى الفل . والرجل العامى يغازل المرأة بقوله : « يافل يافل » . ومن أقوالهم المشهورة : « يا فل يا فل يا غايظ الكل » . ومن أغانيهم الحديثة « آدى الورد وآدى الفل » . ويتخذ منه دهن عطرى . وأحيانا يتجملون به فيصنعه البائعون على شكل عقد تتجمل به المرأة ويزاحمه فى ذلك الياسمين . وإذا كان الخبز أبيض نادوا عليه بأنه « أبيض زى الفل » ، ويرمزون به للصفاء فى الحب .

فنجان القهوة

يدعون أن ما بقى من القهوة فى الفنجان بعد شرب ما فيه يدل على المستقبل ، فتمعن من تقرأ الفنجان فى الفنجان ، ثم تخبر الطالب بأشياء فى المستقبل ، كأن تقول إنك ستسافر وستنال خيراً فى سفرك . وهكذا .

الفول

من أكثر الأطعمة المصرية ، وهو يقوم عند الفقراء مقام اللحم ، ومع ذلك يشارك فيه الأغنياء الفقراء ، وهم يتفننون فيه وفى صنعه تفنناً كبيراً على أشكال مختلفة : أشهرها الفول المدمس وطريقة صنعه : أن يوضع الفول الناشف فى « قدرة » ويوضع معه الماء بمقدار مناسب ، وذلك بعد أن ينقى من الحصا ، ويترك على نار هادئة طول الليل تقريباً ، ثم يأخذه البقالون ليبيعوا منه بقرش أو نصف قرش .

ومن يشتريه يضع عليه الزيت والليمون أو المسلى أو الزبدة . وأحياناً توضع عليه القشطة . والمترفون يقشرونه قبل أن يأكلوه ، وهو الفطور المعتاد لأهل مصر تقريباً مع اللبن ، والإقبال عليه فى الشتاء وفى رمضان أكثر ؛ ومن أمثالهم « هو كالفول البارد البائت من غير ملح ولا سمن » وقد قالوا فيه مواويل ظريفة منها :

قالوا تحب المدمس
قلت بالزيت حار
والعيش لابيض تحبه
قلت والكشكار
قالوا تحب المطبق
قلت بالقنطار
قالوا اش تقول فى الخضارى
قلت عقلى طار

فرد عليه الآخر يقول :

قالوا تحب المدمس
قلت بالمسلى
والبيض مشوى تحبه
قلت والمقلى

وقد شرحها بعض القوم شرحاً صوفياً ولا داعى للإطالة .

ويستعملون من الفول الطعمية ، وطريقة صنعها أن يبل الفول طول الليل ، ثم يدق فى مدق معروف ، ثم تضاف عليه التحابيش ، وهى عادة بقدونس ونعناع ناشف وبصل وثوم . وقد يضيفون الكرات أيضاً بعد خرطه ، ويعجنون ذلك كله عجناً جيداً ويدقونه ، ثم يقطعونه قطعاً ويقلونها فى الزيت . والأغنياء منهم يحشونها لحماً مفروماً ، ويقلونها فى السمن . ومن الفول أيضاً تصنع البصارة ، وطريقة صنعها نقع الفول كما فى الطعمية ، ثم وضعه على النار فى قليل من الماء ، بعد إضافة ملوخية ناشفة وقليل من النعناع والثوم ، فإذا نضجت غرفت فى أطباق ، ثم قلى بصل مخرط فى السمن حتى

يجف ، ثم يوضع قليل من هذا البصل على وجه طبق البصارة . والشبان المصريون المترفون لا يعرفونها . وقد رأى بعض أولادى طبقاً منها فسألتهم عنها ، فقالوا : « كشك أخضر » ومن أنواع الفول : الفول النابت وطريقة صنعه أن ينقع الفول حتى ينبت ، ثم يؤخذ ويسلق ، ثم يوضع على مرقته قليل من الملح ، وبعضهم يقشره ويطبخه فى القوطة ويسمونها فولية ، وبعضهم يضع عليه السلق بعد أن يحمر فى السمن ويجفف ويدهك . فترى من هذا كثرة استعمال المصريين للفول . . . ومن أمثالهم : « كل فولة مسوّسة لها كيال أعور » دلالة على أن الشىء وإن قبح له من يطلبه . وإذا أرادوا أن يعبروا عن حيلة انكشفت قال الواحد منهم : « فهمت الفولة » ويقولون « لا تفوّل عليه » ، أى لا تكن نذير سوء . ومن أنواعه الفول المقيلى يباع مع الترمس ، والفول الحراتى وهو فول أخضر .

فى المشمش

كلمة يستعملونها فى الشىء لا يتوقع حصوله ، فإذا قال رجل سأفعل كذا ، قال له الآخر إذا اعتقد أنه لا يمكنه : ذلك « فى المشمش » ، أو « الكلام ده فى المشمش » . وأصلها على ما يقولون أن جحا كان يأكل عنبا ، وكان يأكل كل أربعة حبات على مرة واحدة ، فقيل له كل واحدة واحدة ، فقال الكلام ده فى المشمش ، أى أن حبّة المشمش كبيرة يمكن أكل واحدة واحدة ، أما العنب فصغير ، لا يمكن أكل واحدة وحدها ؛ فصارت مثلا .

حرف القاف

قافيـــة

القافية فى لسان عوام المصريين نوع من المزاح ، يقول أحدهم كلمة فيرد عليه الآخر بكلمة تثير الضحك . ولـكل حرفة من الحرف قافية ؛ فقافية للمزينين ، وللجزارين ، ولـكل شىء ، ولذلك يحترسون عند الـكلام الجد فيقولون بلا قافية ، يريد أنه لا يمزح بل يجدّ ؛ فمثلا يقولون : رحت له وجدته واقف بلا قافية ، وآعد بلا قافية ، ونام بلا قافية ؛ ومن أمثلة ذلك قول أحدهم فى « قافية النحو » : كيسك ! فيقول الآخر مثلا : اشمعنى ! فيقول الأول : ممنوع من الصرف .

القمل فى راسك ! اشمعنى ! ساكن . راسك ! اشمعنى ! مبنية على الـكسر . اللى على راسك ! اشمعنى ! جزمة . شنبك مضاف ! اشمعنى ! وشنب التيس مضاف إليه .

المرض عليك ! اشمعنى ! ظاهر . انت فى الجهل ! اشمعنى ! مركب ...

ومن أمثلة قافية الحلاقة : انت فى النصب ! اشمعنى ! أوسطى ! شربك فى المش ! على القائم .

انت بين أصحابك ! إيدك خفيفة . تقول للبيطار صلح لى ... يفلّوك بملقاط . عيشتك ... على الناشف ... فى عينك ... دودة . الأكلانة فى ودنك ... لازقة .

ومن القافية فى لعب الضمنة : أحط اصباعى فى عينك ... تقول بوّظ . زر طربوشك .. دوبارة . أصلك ... دبش . عيونك ... شيش بيش ...

ومن قافية البلاد : لما يصحوك من النوم يقولولك : أبو طور أبو طور . إيدك فى الخطف ... منصورة . الحكيم يطلع من بطنك ... زقازيق . بيتكم ... كفر كلاب . المزيّرة تبقى لك ... جدة . أحبّ أضربك بالمداس ... نوبة . قسمتك كل يوم والثانى ... فى طرة . أصلكم ... حرامية . بالمنشار فى رقبتك ... نشرت .

ومن قافية الساعة : الخيرات عن بيتكم ... ممسوحة . اللى فى جسمك ... أفرنجى . ساكن فى دقنك ... جوزعقارب . عيشتك ... ما فيهاش تقديم . صنعتك مع الفجر ... رقاص . يرسلوك إلى طره ... فى ظرف ساعة . العفريت يشوفك يقول ... ياى .

ومن قافية الـكتاكيت : الفشر عندك ... كتّر كتّر . أنت فى وسط الناس ... بتلقّط . هدومك ... خطفتها العرسة . الجزم اللى على راسك ... عتاق .

ومن قافية الهندسة : خاطرك دائماً ...

منكسر . الهم على راسك ... محيط . أكتر نومك ... فى الزاوية . أنت والحمار ... متساويان .

ومن قافية الجنينة : أصلك ... طرح . انت فى الوساخة ... مرعرع .

وهكذا فى كل باب من أبواب الحياة .

ومن أنواع القافية قافية تدور حول كلمة الأبعد . ومن أمثلة ذلك :

عمر الأبعد ... فص ملح وداب . الأبعد بين الناس ... كمالة عدد . يجوع الابن يقولوله ... موت يا حمار عقبال ما يجيلك العليق . وبين السؤال والجواب يقول المسئول اشمعنى .

عمر الأبعد ... شال الحمام حط الحمام . الأبعد فى النعش ... الجنازة حارة والميت كلب . الأبعد ... يجيب بلوته لحد بيته . الحرامى فى بيت الأبعد ... جا نقبه على شونة . الأبعد يصبحوه أولاده ويقولوله صباح القرود . الأبعد وكلاب الحارة ... شحات يكره شحات . عمر الأبعد ... هف طلع النهار . وش الأبعد والسوق ... فى كساد . وهكذا ... ويراد بالأبعد المخاطب نفسه .

قبارصة

يطلق المصريون هذه الكلمة على النقد المصنوع من النحاس ، وأصل كلمة قبرص فى اليونانية النحاس . وسميت به جزيرة قبرص ، لأن النحاس يوجد بها بكثرة .

قبّة بلا شيخ

أحياناً توجد قباب تبنَى للفنّ . وقد جرت العادة أن تبنى القبة إيذاناً بأن تحتها ضريحاً ، فإذا بنيت القبة وليس تحتها ضريح ، قالوا قبة بلا شيخ ؛ وتضرب للشىء له مظهر وليس له مخبر .

القُبلة

ويسمونها « البوسة » وهى على أشكال : قُبلة الرجل لزوجته ، أو الرجل لحبيبته ؛ وقُبلة عطف كقُبلة الرجل لابنه أو بنته . وقُبلة احترام كقُبلة الرجل ليد أبيه أو أمه ، أو الأخ الصغير للأخ الكبير ، أو الشاب لرجل مسنّ . وقُبلة الرجل الذليل يقبّل رِجل العظيم ، وقُبلة الذيل ويسمونه « الأتك » ، ويفعلها الرجل الوضيع أو المرأة الوضيعة لتقبيل أتك العظيم أو العظيمة . وقُبلة مع

تذلل . يقولون : باس الرَّجـل وتقدم ، وباس الرِّجـل وتأخر . وقُبلة ليد الإنسان ظاهراً و باطنا ، يفعلها الرَّجـل أو المرأة إذا نالته نعمة كبيرة غير منتظرة على يديه . وقُبلة شفوية يرسلها الرجل لحبيبته عن بعـد كأنها رسالة . واعتاد النساء أكثر من الرجال تقبيل بعضهن بعضاً عند المقابلة ، قُبلة فى الخد الأيمن وقبلة فى الخد الأيسر .

وأكثر من القبلة الأخـذ بالحضن ، فيحضن الرجل الآخر إذا قدم من سـفر أو غاب عنه مدة طويلة ، ثم يثنى بالقُبلة ؛ وقد منعت هذه العادة أيام الـكوليرا خوفاً من العدوى .

واعتاد الناس فى الأرياف أن يقبِّلوا بالطقطقة ، أما فى القاهرة فيقبِّلون بالشفتين .

وضد القبلة البصق ، فيتظاهر الرجل بالبصق ، لارتكاب الآخر عملا دنيئاً يستأهل عليه الاحتقار .

و يفعله الرجلان إذا تسابّا ، وقد لا يبصق أحدهما على الآخر ولـكن يبصق فى الأرض . وفى العادة يكون البصق مجرد نفثة برذاذ خفيف من الفم . وقد يستغنى عنها بلفظ يدل على البصق « تفو » من غير بصق عند أهل الإسـكندرية ، على الخصوص . بعض الأحياء الوطنية فى القاهرة يستعملون التشخير دلالة على الاستهزاء إذا أتى الآخر بعمل غريب ؛ وأكثر من يفعـل ذلك النساء عند السباب . وقد حاربت المدنية التقبيل فى أوقات الوباء لأنه مجلبة للعدوى ومنعت تقبيل الصغير ليد الـكبير للاحترام وجعلته مقصـوراً على قُبلة الغرام ، فليس صغير السن اليوم يقبِّـل يد الـكبير ، ولا الإبن الأب .

ونعمة من الله إذا احترم الولد أباه من غير تقبيل يد .

القر

ينطقه العامة بالهمزة ، ويعنون به الحسد بالـكلام . فإذا مرض المريض وكان فى نعمة من ناحية ما ، قالوا قرّ عليك الناس . وإذا أصيب أى إنسان ذو نعمة بشىء ، قالوا من قَرّ الناس ، يعنون أن الناس حسدوه بكلامهم ، فقالوا : « ما شاء الله عليهم دول فى نعمة » ، ومثل ذلك . وعلاجه عندهم البخور .

قراءة المولد

هناك قصص كثيرة وأشعار كثيرة ، وضعت فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فيتغنى بها الفقهاء فى الأفراح وفى مولد النبى وفى بعض المناسبات . ويقولون فى الإعلان عنها إنهم سيقرأون قصة المولد النبوى .

وإذا رزق بعض الفقهاء بصوت حسن تغنى بها هو وجماعته فالرئيس يقرأ المولد ومن حين لآخر يرتل أتباعه بعض الصلوات وهكذا حتى تنتهى السيرة . وبعض هذه السير ألف لأجل ذلك على أساليب فنية تناسب الغناء والصوت الجميل من التزام للسجع أو المحسنات البديعية .

واشتهر بعض الفقهاء بذلك كما اشتهر أيضاً من هذه السيرة النبوية سيرة ألفها البرزنجى يقرؤها الموالدية غالباً وقد التزم فيها الياء والهاء فى الفقرة الأولى كالبهية والعلية والألف والهاء فى الفقرة الثانية كسناه وعلاه .

قراجوز

هى لعبة كانت منتشرة فى مصر قبل انتشار السينما ، وهو عبارة عن شاشة كشاشة السينما ، ووراءها لمبة تشعل بالجاز (الكيروسين) لتضىء الشاشة إضاءة معتدلة ثم من وراء الشاشة أيضاً أشخاص على هيئة رجال أو نساء أو أطفال مصنوعة من الجلد أو الورق المقوى . يتحكم فيها بواسطة الحبال التى تشد هذه التصاوير المذكورة فى قطعة من القماش رجل خلف الستار . وتكون فى فمه زمارة ينطق بها أو يغنى بها ويتلاعب بصوتها .

فأحياناً يظهر فى صوت امرأة وأحياناً فى صوت رجل ، وأحيانا فى صوت طفل وكلما أراد إظهار صورة شدَّها لتظهر أمام الجمهور . والقراجوز عادة يمثل قصة إما من الحياة الواقعة كقصة غرام أو رمزاً لحادثة وقعت واشتغل بها الرأى العام أو نحو ذلك . وهى عادة تكون مصحوبة بضرب من الموسيقى البلدية البدائية .

وشخصية قراجوز محبوبة جداً عند المصريين وخصوصاً الأطفال فهى أشبه ما تكون (بميكى ماوس) وقد كانت لعبة القراجوز معروفة عند الأتراك منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، أخذوها من الفرس أو الصين عن طريق المغول وتشبه قصصها قصص المحدثين وأكثر ما تقام فى ليالى رمضان وفى الأعياد .

ويسمى قراجوز أحياناً وهو علم تركى بخيال الظل ، وقد استغل الصوفية هذه اللعبة فى تصويرهم للحياة الدنيا فيقول أحدهم

« إنها خيال كخيال الظل » ظل زائل . وإن الناس فى الدنيا كاللاعبين وراء الستار ، والوجود الحقيقى لله وحده ، كما استغلوا أيضاً لهذه التشبيهات دودة القز « لا تزال تنسج على نفسها حتى تموت » .

وقد قلّت هذه اللعبة بغزو السينما والتمثيل لها وأصبحت فى عداد التاريخ والناس يضربونها مثلا لمن يتحرك حركات كثيرة بهلوانية من غير فائدة .

فيقولون « هو كالقراجوز » وكثيراً ما يمثل فى الرواية رجل وامرأة ، أو رجلان يدور بينهما الحوار على أشكال متنوعة . وأغلب ما تكون أن تؤلف من شخصيتين إحداهما تمثل الرجل المثقف الأرستقراطى والثانية تمثل الجاهل الشعبى . والأخير هو الذى يجتذب قلوب النظارة فى الغالب وتكون هى شخصية قراجوز . ولما انتقلت اللعبة من الترك إلى مصر تأثرت بالبيئة المصرية فكانت ترمز إلى أحداث مصرية هى من نسج الخيال المصرى المنتزع من البيئة .

القراداتى

تشاهد فى شوارع القاهرة وحاراتها كثيراً من القرود مربوطة بسلسلة فى يد رجل يسمى القراداتى و بيده عصا ، وهو يلاعب القرود ألعابا علمها لها . وهى تحسن ذلك فتلعب اللعبة التى يريدها مستنتجة ذلك من حركات الرجل وكلامه . فيقول لها مثلا قلّدى العجوز إذا عجنت أو السكران إذا تمايل . وقد يكون مع القرد حمار صغير يشاركه اللعب فأحيانا ينط عليه فى حركات بهلوانية وأحيانا يلعبان معا ألعاباً محفوظة . وقد يكون مع القراداتى فى الغالب دف يطبّل به ليجمع عليه الناس ويعين على ألعاب القردة والحمير .

وكثيراً ما تجدهم فى المتنزهات والأماكن العامة .

ومن كلماتهم المشهورة (إحنا حنقرّد ؟!) تقال ردًّا على من يهزل فى كلامه فيُطاب منه الجد ، أو عند ما يكلّف الرجل أو المرأة بعمل سخيف .

القراع

ميكروب يصيب الشعر فينحله . ويصير الجلد أبيض من غير شعر وهو ميكروب يعدى ، وقد يصيب جزءاً من الرأس ، وقد يصيب الرأس كله . ولم يكن لنا داع لذكره كسائر الأمراض ، غير أنه يداوونه أحيانا بأدوية قاسية ، فقد يلطخون الرأس الأقرع بالزفت مضافا عليه بعض الأدوية ، ويغطون ذلك بطاقية ، ويربطونها ثم يتركون الزفت أسبوعا ثم يخلعون الطاقية بزفتها يشدونها شداً فيجد الأقرع من ذلك ألما شديداً ويكررون هذه العملية مراراً وقد تنجح أو لا تنجح .

وهم لا يستبشرون بالأقرع إذا اصطبحوا به ويلقبونه بـ (أبو زَنّة) فيقولون (يا أقرع يا بوزنة) وإذا لم يستحسنوا نكتة قالوا (قرعة) .

ومن أمثالهم (قرعا وتتباهى بشعر بنت أختها) يضربونه لمن يتباهى بما ليس له .

ومن أمثالهم أيضا (يعاود الأقرع يفوت على بيّاع الطواقى) يقوله الرجل لا يُحتاج إليه فى وقت فينذرُ بأنه سيُحتاج إليه فى وقتٍ ما .

ويقسمون الأصوات إلى قسمين : صوت حنيّن وصوت لا حنية فيه ويقولون إنه أقرع . ومن أغنياتهم (بنت اختى قرعا خدها الديب وطلع يرعى) .

والآن وقد تقدم الطب يمكن الاستشفاء منه بمرهم البنسلين أو السلفانا مما يخفف على الأقرع عذابه .

القرافة

هى مدافن الموتى وتعمر عادة فى مواسم خاصة كالخميس الأول من رجب وأيام الأعياد وفى العادة تعمر أيضا صباح يوم الجمعة فيستدعى الفقهاء للقراءة ، ويفرق الفطير والشريك والفاكهة على روح الفقيد .

وكان الناس عادة يبيتون فيها ، وكانت تحدث فظائع من هذا المبيت ولذلك منعته الحكومة المصرية ، والعادة أن تكون بعيدة عن البيوت .

ومما يُنسب إليها من كبار فقهاء الشافعية المصريين (الشيخ القرافى) صاحب كتاب (المفارقات) فى الفقه . واشتهرت فى القاهرة جملة قرافات منها قرافة (المجاورين) و (العفيفى) وقرافة (الإمام الشافعى) وقرافة (السيدة نفيسة) وترى فيها مشاهد القبور لطبقات الشعب أرستقراطية وديموقراطية ، وحيشانا فخمة وحيشانا متوسطة .

القرعة أو التجنيد أو الجهادية

يخاف المصريون كثيراً من الجندية ، ولذلك لا يتأخر عن دفع البدل كل من قدر عليه . وقد يشوه بعضهم نفسه بقطع إصبعه أو نحو ذلك للهرب من الجندية ؛ والسبب فى ذلك فى الأغلب سوء معاملة المجندين وكتم حريتهم ، وأخذهم بالنظام الشديد الذى لم يتعودوه . وكان قديما كلما طلب مجندون من القرية يعمد شيخ البلد إلى طريق سهل يجلب له المال . وهو أنه يجند أولاد الأغنياء ، فيتفقون مع شيخ البلد أن يفك أولادهم بأجر و يقيد بدلا منهم أولاد فقراء . وللخوف من الجندية كنتَ قلّما ترى شابا صحيح الجسم ، بل ترى أكثرهم أسنانه مهشمة ، أو أصابعه مقطوعة ، بعينيه إصابة أوعمى ، حتى لا يجند . هذا مع أن المصريين قد توالدوا إما من عرب فاتحين أو من أقباط أسلموا أو وافدين . والإسلام نفسه يحث على الجهاد و يحبب إليه . وقد اعتادوا أن يعفوا من القرعة من يحفظ القرآن ، وأن يعفوا عرب البادية . وربما كان من أسباب الرغبة فى الأزهر الإعفاء من القرعة ، لأنه يحفظ القرآن . ويسمى المال الذى يعطى للإعفاء من القرعة (البدليّة) ، ولانتشار مرض البلهارسيا والإنكلستوما بين الفلاحين ، قلّ الصالحون من الشبان المصريين للجندية بالنسبة لغيرهم من الأوربيين .

وللمصريين أغان مؤثرة ، إما من الشبان فى البكاء على زوجاتهم ، أو من الشابات للبكاء على أزواجهن . ويوم يقبل الشاب فى الجندية يكثر الصريخ من أهله كأنه مات .

وتستعمل كلمة (القرعة) بمعنى آخر ، وهى أنهم إذا احتار الرجل أو المرأة فى عمل يعمله أو لا يعمله ، كان مما يحل الأزمة « القرعة » بواسطة ورقتين يكتب فى إحداهما « نعم » وفى الأخرى « لا » ثم يطبقُهما ويأخذ إحداهما ؛ أو يفتح مصحف حيثما اتفق ، وتقرأ الآية التى يقع عليها النظر ، ثم يستنتج منها الرضا عن العمل أو عدمه . أو بحبات السبحة ، فحبة نعم وحبة لا .

ويقولون لمن اختير للعمل : وقعت عليه القرعة .

القرفة

يقولون للعمل إذا سار سيرا حسنا سهلا « إن قرفته خفيفة » ، وإذا سار سيرا ثقيلا عسيرا إن قرفته ثقيلة . وهو تعبير غريب لا أدرى سببه .

ولعلهم كانوا فى حفلات الذكر يوزعون القرفة على الذاكرين . فقد يجدونها خفيفة ،

وقد يجدونها ثقيلة . فيقولون إن القرفة ثقيلة أو خفيفة . وهو تعبير مشهور ؛ كما يقال « إن الشاى خفيف أو ثقيل » .

ولما كانت القرفة بطبعها لاذعة كانت القرفة الخفيفة خيراً من الثقيلة . ثم نقلوا التعبير إلى المجاز ، فقالوا للشىء اللطيف الخفيف الروح قرفته خفيفة ، وللشىء الثقيل الروح قرفته ثقيلة ؛ والله أعلم . ويكثر المصريون من شرب القرفة بدل الشاى وشبيه بها « الدارسينى » .

القرينة

يعتقد عوام الشعب أن كل إنسان يولد له قرينة ، إما ذكر أو أنثى . ولذلك يقولون لمن تزحلق على الأرض « اسم الله عليك وعلى أختك » . وكذلك « وقعت على أحسن منك » . وكثير من النساء يعتقدن أن أولادهن أحيانا يبدلن بولد آخر من أولاد الجن . وقد يكون نتيجة ذلك نفورهن من أولادهن ، وأحيانا يزداد نفورهن إلى حد الفرار ، وأحيانا يشتد نفورهن فيذهبن بالولد إلى مقبرة من المقابر فيضمنه فيها وهو حى ، ثم يذهبن فى الصباح للكشف عليه ، وقد يجدنه ميتاً فيعتقدن أن الجن أماتت ابنها وقد يجدنه أكله الذئب أو نحوه فيعتقدن أن الجن اختطفته ؛ واستولى هذا الوهم مرة على بعض الرجال ، فكان يعتقد أن الجن تريد أن تخطفه ، فينتقل من بيت إلى بيت ، ومن حجرة إلى حجرة ، حتى لا يعرفوا مكانه ويضع على فراشه لحافاً على شكل رجل نائم زاعماً أنه يخدع الجن .

القسم

يسمون الحلف قسما . ومعظم الأقسام عند المصريين القسم بالله وأحيانا يقولون « والله » بعقد الهاء ، أى دون خطفها ؛ ويحلفون بالمشايخ ، وحياة السيدة زينب ، وحياة السيد البدوى ، وحياة الشيخ فى نومته . ويحلفون بالآباء : وحياة أبوى ، وبالشرف فيقولون : وحياة شرفك ؛ ويحلفون بالميت العزيز أو الابن العزيز فيقولون : وحياة العزيز الغالى . ويجرى على ألسنة الساقطين الإكثار من الحلف بالطلاق فيقولون : علىّ الطلاق ما فعلت كذا ، وبعضهم يقول : علىّ الحلال ، والآخر : علىّ الحرام ، ويقال أيضاً « وأيمان المسلمين مجمع الطلاق والعتاق » ويحلفون بالنبى فيقولون : وحياة النبى . وأحيانا يشددون فى ذلك فيقولون « وحياة النبى اللى وضعت إيدى على شباكه » . ومع ذلك التأكيد بالقسم فقد يكذبون ،

كالذى يقول الشاعر :

وأكذبُ ما يكون أبو المثنّى
إذا آلى يميناً بالطلاق

وكان لى صديق رحمه الله اعتاد الحلف كثيراً ، فكان يقول : (والله العظيم ثلاثا) ثم يسكت قليلا ليتذكر ما يريد أن يحلف عليه .

ومن أمثالهم « قالوا للحرامى احلف ، قال جالك الفرج » أى أن الحلف أمر سهل لا يكلفه شيئاً .

وإذا أكدوا على أحد قالوا « حلفتك تروح » إلى آخره . ومن غريب استعمالاتهم للقسم خصوصا فى الحب قولهم : «أمانة تعمل كذا » أى والله ، و « أمانة ياليل » و «أمانة يارايح يَمّه ، تبوس لى الحِب من فمّه » .

القسمة

القِسْمَة فى كلامهم بمعنى القدر ، فإذا أصيب أحد فى مال أو ولد أو زرع أو تجارة قالوا قِسمة . وإذا رزق أحد بنات فقط أو بنين فقط أو بنين وبنات قالوا قسمة . وشاعت هذه الكلمة حتى نقلت إلى اللغات الأجنبية فاتخذوها فرقاً بين الشرق والغرب فالشرق يبنى حياته على القسمة والغربى يبنى حياته على العلم والعمل . ويقولون قسمته طيبة ، وقسمته وحشة . وجاء فى أغانيهم « ليه قسمتى كده وياك » وفى الغالب تلازمها كلمة أخرى فيقولون « قسمة ونصيب » . وكثيراً ما تكون موضع الاعتذار فيقولون : « آهى دى القسمة ، وما لكش فيها قسمة . . . الخ » .

قصب

يطلقونه على عيدان قصب السكر يستخرجون منه العسل الأسود ، يأكلونه بالخبز ويضمونه على الطحينة ، فيتكوّن منه عسل وطحينة ؛ ويأكلونه أيضاً بالخبز ، وبوضعه على الطحينة وتقليبهما على النار يكون منهما مايسمى الحلاوة الطحينيّة ، وهى كثيرة الاستعمال إداما كالجبن .

والشىء الواضح عند المصريين فى قصب السكر مصّه بعد تقشيره ؛ فكثيراً ما يمصّونه وهم سائرون فى الشوارع ، أو جالسون على نهر أو ترعة . ويستعملون مصاصة القصب والعسل الأسود فى عمل السبيرتو . ومصاصة القصب من أسباب قذارة الشوارع بعد تنظيفها . ولكن من منافعها تجلية الأسنان وتقوية اللثة .

ومن القصب استخدمت مصانع كثيرة فى مصر لصنع السكر بعد تنقية القصب ، ومن أجل ذلك اشتهرت مصر بالسكر .

وقد يتخذون عصير القصب مشروباً لذيذاً ، يصفونه لتقوية الجسم كعصير العنب . والجزء الأعلى من عود القصب يسمى زعزوعة ، وقد تسب به المرأة لأنها نحيفة ، لأن المثل الأعلى عندهم أن تكون سمينة .

وتستعمل كلمة « القصب » أيضا فى الأسلاك الذهبية أو المطلية بالذهب ، وتُكسى بها البدل أو الفرجيات . فكان لحافظ إبراهيم رحمه الله نكتة : وهى أن بدلته لم تُحلَّ بالقصب ولكن بالزعازيع . وتستعمل كلمة « قصبة » فى السب ، خصوصاً عند النساء ، يقلن « جاتك قصبة » ، ويقولون كذلك « قصبة الرِّجْل » ، دلالة على الجزء الأسفل من الساق . ويستعملون تعبير « مصّ القصب » كناية عن المصمصة لحزنٍ ، فيقولون « قعدوا يمصّوا قصب » .

القصص

هى خير تسلية للمصريين ، ومن القصاصين نوع يغشى القهاوى ويجلس على المقاعد العالية ، ويحيط به السامعون ، بينما يدخنون الشبك أو الجوزة وهم يبتهجون به ويفرحون بقصصه . وصاحب القهوة يمنح القصّاص قليلا من المال ، ولكن ما يأخذه من السامعين أكثر . وهؤلاء القصّاص يسمون الشعراء . وبعضهم يتلو قصة أبى زيد الهلالى وقد يسمون أبو زيدية . وهى عشرة أجزاء أو أكثر من الحجم المعتدل ، وتشتمل على نثر وشعر .

وبعض الشعر فيها قد نسخ فلم يصبح موزونا ، والشاعر قد يقرأ مما يحفظه أو فى كتاب . وقد كان فى حارتنا شاعر يدعى الشيخ أحمد يأتى ومعه كتاب ملفوف فيقرأ فيه ، وأحياناً يقرأ بعضهم قصصاً أخرى كقصة سيف بن ذى يزل ، والدلهمة ؛ وفى البيوت يقرأون ألف ليلة وليلة ... وهكذا .

والفرق بينها وبين الحواديت أن الحواديت قصص شعبية ، والقصص قصص كلاسيكية . ويقولون « قصّ عليه القصّة من طقطق لسلامُ عليكم » أى من أولها إلى آخرها . وطقطق حكاية دق الباب عند الدخول . وسلام عليكم كناية عن التحية عند الانصراف (أنظر حواديت وشاعر) .

القضاء والقدر

يغالى المصريون فى الاعتقاد بالقضاء والقدَر . بل قد يهملون العمل اعتماداً على القدر بل قد يتركون الدودة فى زرع القطن والحشرات تأكل الزرع ، لأن ما قدّره الله يكون ... ولهم حكايات كثيرة فى القَدَر . وهو ركن كبير من أركان كتاب ألف ليلة وليلة . ومن أقوالهم المشهورة « ما قدّر يكون ، ووقت القَدَر يعمى البصر » . فهم أقرب إلى الجبرية ، ومن ذلك انتشر بينهم الكسل . ونسب المستشرقون إلى هذه العقيدة خمول الشرقيين ؛ لأنها تحملهم على الاتكال والرضا بما يأتى به الدهر . ومن الغريب أن هذه العقيدة لا تمنعهم من العمل إذا جدّ الجدّ ، كأن شبت نار فى البيت أو هدم بيت على أصحابه أو سال ماء الفيضان ، لأنه إذ ذاك تتجلى فيهم غريزة حب الذات وحب النوع .

القفش

فى الأصل استعملت فى المادة ، فقالوا : قفشه ، بمعنى أمسكه بعد صعوبة ، ثم استعمل فى المعنى بمعنى عثر منه على خطأ منطق ، أو غلطة فى كلامه أو نحو ذلك ، وسموا الواحدة قفشة ، وقالوا : قفش له جامد ، أى قفشة قوية .

قمر الدين

هو عبارة عن المشمش يجفف ويكبس ويعمل لفافات لفافات . وهذا ينقع ويشرب أو ينقع ويطبخ . وهو كثير الاستعمال فى رمضان ، وخصوصاً إذا جاء رمضان فى الصيف . وبعد نقعه أو طبخه يضاف إليه العسل الأسود أو السكر ، وهو من لوازم رمضان كالكنافة ، وكثير من الناس يفطرون عليه فى رمضان .

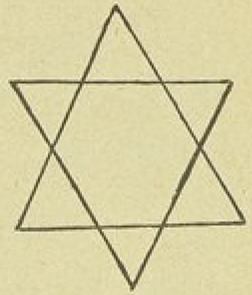
ولعلّ تسميته بقمر الدين جاءت من أنه يهل على الناس فى رمضان وهو شهر الدين .

وتعجبنى نكتة ظريفة من الشيخ طاهر الجزايرلى أنه رأى فتاة جميلة تجلس تحت شجرة فقال لها هل تأكلين قمر الدين يا قمر الدنيا .

قمقم سليمان

يزعمون أن سليمان عليه السلام لما كان يستخدم الجن كان بعضهم يعصيه فيسجنه فى قمقم من نحاس ، ويلحمه بالنحاس المذاب ، ويدفنه فى باطن الأرض ، فإذا فتحه أحد خرج منه الجنى نامى الجسم ، أو خرج على شكل دخان يرتفع ، وقد يؤذى فاتح القمقم وقد لا يؤذيه ؛ ولذلك إذا عثر بعضهم على مثل هذا القمقم لم يقرب منه . ومثل ذلك

خاتم سليمان وهو عبارة عن مثلثين أحدهما مقلوب على هذا الشكل :



ويستعمل لقضاء الحوائج ...

القمل والبرغوث والبعوض والبق

هي من الحشرات الدنيئة ، وهي كثيرة في الفلاحين ، وقلّت في المدن . والفلاحون يعتقدون أن القمل يتولد من عَرَق الجسم ، وكثيراً ما يرى الناظر القمل يسبح على ثياب الفلاح . وهم يشبهونه أحياناً إذا كثر على ثوب « بالنخالة المبذورة » ، ولا يكون كذلك إلا بعد أن ينتشر على الجسم ويمتص الدم ، يقول الشاعر :

بعوض وبرغوث وبق لَزِمْنَنِي
حسِبْنَ دمي خمراً فطاب لها الخمر
فيرقص برغوث لزمر بعوضة
وبقهم يصغي ليسمعه الزمر

ويسمون بذور القمل « الصيبان » .

والبق أكثر في المدن منه في الريف ، لكثرة أخشابها ، وطليها بالجص ونحوه — أما في الريف فتطلى بالطين الني والجلّة ، وهما لا يألفهما البق .

واشتهرت البقة بكثرة الولادة فيقولون في المرأة الولود : « زي البقة تولد ميّة ، وتقول يا قلة الذرية » . وقد صنعوا أحجبة لمنع البق من سكنى البيوت .

قنديل

كان الناس يستعملون للإنارة بالليل القناديل من الزجاج ، يملأونها ماء وعلى الماء قيراط أو قيراطان من الزيت ، ثم يضعون فتيلا يشعلونه فيمتص الزيت . وإذا أريد زيادة الإضاءة أشعلوا أكثر من قنديل . وهناك أدوات منزلية أو مسجدية يوضع فيها قناديل كثيرة . توجد نماذج منها في دار الآثار العربية . وسموا من ذلك قنديل ، ومحمد قنديل ، وعلى قنديل .

وقد قلّت هذه القناديل الآن للإضاءة بالكهرباء أو الكلبات .

ويشبهون به الرجل الوضيء فيقولون : فلان قنديل الحتة ، ولكن يستعملون القندلة بمعنى سيء ، فيقولون بخته مقندل ، وسأقندلها عليك ، أي سأثيرها عليك حرباً شعواء ، وعيشته مقندلة ، أي بائسة ؛ وكان الظن أن يكون غير ذلك .

قياس الأثر

يقوم بهـذا العمل فى الغالب بعض الفقهاء فى الأرياف ، فإذا مرض واحد منهم أرسل للفقيه أثره ملفوفاً فيه شىء من النقود . فحينما يصل إليه يعزم واضعاً (الأثر) قريباً من فه ، ويتمتم ثم يقبض على الأثر بيديه تاركا بينهما مسافة ثم يقيسها بإصبعه ثم يعيد هذه المسافة فإذا وجد أن المسافة أقل دل على قرب الشفاء ، وإذا وجد أن المسافة أبعد قال إنه يلزمه كتابة حجاب .

حرف الكاف

الكارو

عربة يجرها حمار أو حصان ، وهى عبارة عن ألواح من الخشب سمرت ووضع لها عجلتان أو أربع ، وأكثر ما يركبها النساء فى المآتم والأفراح ؛ وكثيراً ما تغنّيْن عليها ويرقصْنَ ؛ وقد تستعمل فى نقل العفش ، فتوضع على العربة عارضة خشبية تتحمل كثيراً منه .

وقد اشتهر أصحابها بكثرة المماكسة وعدم الرضا بأى أجر ، كما اشتهروا بالقدرة على حمل الأثقال على أكتافهم .

الكاشف

الكاشف حاكم الإقليم ، والجمع كشّاف ، وهو كالمدير فى عصرنا ، ومن ذلك لقب بعض العائلات بالكاشف ، وأغلب ما يكون من الأتراك فى الزمان الماضى ، وأحياناً يتحرك من بلد إلى بلد ، ومن قرية إلى قرية ، وعادة إذا نزل تقدمت الطبول لإعلان الناس بحضوره ، فإذا حضر انزعج الفلاحون لأنه يستدعى مشايخ البلد ويسألهم عن حال أهلها ، وهل فيهم متمرد أو لص ، فينزل بهم العقوبة ، ويُحضر الصراف ويسأله عن تحصيل الإيجار ، فمن لم يدفع أحضره أمامه وهدده بالدفع أو الضرب أو القتل ، ولذلك يكون دخوله للبلد نذيراً بالشر . فمن الفلاحين والفلاحات من يقترض بالربا أو يبيع الحلى أو بقرته أو جاموسته لتسديد ما عليه ، فإذا لم يستطع ذلك هرب من البلد وترك أطيانه وأقاربه . ومن ناحية أخرى كان عليه أن يشارك فى تجهيز الطعام للكاشف وحاشيته ، فهذا عليه خروف ، وهذا عليه وزة ، وهذا عليه أن يقدم الفطير للكاشف ، ونحو ذلك ، وتسمى هذه بالوجبة . وكان هذا الكاشف فى العادة جباراً قاسياً لا تأخذه رحمة ولا شفقة ، ينهب هو وجنوده ، وطالما قاسى الفلاحون من ظلمه ، وتعوذوا بالأحجبة لمنع عدوانه ، ولا يقر قلبهم إلا إذا رحل من بلدهم . وكان عليهم وجبات كثيرة وجبة للكشاف ووجبة للملتزم ، ووجبة للصراف ... الخ

(انظر كلمة وجبة)

كانى مانى

أحياناً يستعملونها كناية عن الكلام وهما كلمتان قبطيتان ، فكانى السمن ، والثانية العسل ، فهى فى الأصل خلط السمن بالعسل ، ثم استعمل فى خلط صحيح الكلام بفاسده ، ثم استعمل كناية عن الكلام مطلقا ، أو كناية عما لا يعرف من الكلام فيقولون : قال كانى مانى ، أى كلاما لا نعرفه .

كُبّــة

هى دمل كبير مستدير يطلع فى الجسم فيسمونه طلوعا أو خراجا أو دملا كبيراً . واعتادوا أن يشتموا بها فيقولون : جاءته كبّة ، أو جاءتها كبّة .

وأحيانا لا يلفظون بهذا ، وإنما يشيرون فى وجه من يسبّونه بأصابع الكف مكوّرة .

الكَبّة

لعبة كان يلعبها الأطفال وخصوصا البنات ، فيأتون بخمس حجرات مستديرة ، يضعون أربعة منها على شكل مربع ، ويقذف الحجر الخامس إلى أعلا ، ويجتهد قبل نزوله أن يجمع الحجرات الأربعة المربعة ما أمكنه . فإذا لم يمكنه فثلاثة أحجار أو اثنان .

الكتّاب

الكتاب هو أول معهد لتعليم الأطفال وكان فى كل حى أو أكثر . وهى عبارة عن غرفة فسيحة بعض الشىء فرشت بالحصير ، وكثيراً ما يكون الحصير باليا ، يجتمع فيها الأطفال ، والحجرة مكونة من هذا الحصير ، ومن صندوق توضع فيه الألواح ، ومن زير مغطى بخشب ، علق بكوز مربوط بحبل ؛ فمن أراد أن يشرب أخذ الكوز وغمسه فى الماء ، ومكوّن أيضاً من معلم يسمى « فقى » تحريفاً لكلمة « فقيه » ، ومن مساعد له يسمى « العريف » ؛ والفقى عادة لا يعرف شيئاً إلا حفظ القرآن الكريم ، ويكتب كتابة عاجزة ، وكثيراً ما يكون أعمى ويسمى « سيّدنا » ، وبيده عصا طويلة من جريد النخل يستطيع أن يصيب بها أبعد ولد عنه ، فإذا وجد طفلا لا يتحرك ضربه بالعصا وقال له اهتز . ومن أساس الكتاب « الفلقة » وهى عصا غليظة مصمتة فى الغالب قد خُرقت خرقين ، ركب فيهما سير من الجلد . فإذا أراد « الفقى » ضرب ولد استعان بالعريف على إدخال رجله فى الفلقة ، ثم لواها على رجليه ، ثم أمسك بعصا يضرب بها الرجلين المشدودتين . وقد تشق رجل الطفل ويسيل منها الدم . وكان فى العادة يأخذ الفقى من كل طفل قرشاً ويحضر الطفل من بيته رغيفاً ، والفقى يجمع هذه القروش ويشترى بها عند الظهر « فول نابت » أو « مخلل » بمرقته فى ماجورين ، ويلتف الأطفال حولهما ويتغدون ، وهم يلغوصون بأيديهم فيهما . وكثيراً وقد يكون أحدهم مريضاً فيعدى

الأصحاء ، وكثيراً ما كانت هذه الكتاتيب فى أمكنة غير صحية ، كألا يكون فيها نور كاف أو شمس كافية أو تكون بجانب مراحيض المسجد . وكانت هذه الكتاتيب هى المدرسة الأولى لكل أطفال الشعب غنيهم وفقيرهم ، وذلك قبل أن تنشأ رياض الأطفال . والفقى عادة يسمّع للأولاد (الماضى) وأغلب ما يكون ذلك فى يوم الخميس ، وأحياناً يقرئهم شيئاً جديداً وبعض الأغنياء يستغنون عن الكتاتيب بمدرس خصوصى يأتى للأطفال فى بيوتهم . أما البنات فقلما يتعلمن القراءة والكتابة فى الكتّاب ، وقد كان فاشياً أن تعليم البنات من المصيبات ، ولذلك كان يقوم مقام الكتّاب المعلّمات ، والمعلمة هى آنسة أو سيدة تقبل فى بيتها تلميذات تعلمهن الخياطة من أولها إلى آخرها . فتبدأ بالأشياء السهلة إلى الأشياء المركبة . وقل من البنات من كنّ يتعلمن القراءة والكتابة . ومن أمثالهم المشهورة « لما شاب ودّوه الكتّاب » أى أنهم تركوا تعليمه حين الطفولة حيث يلزم أن يذهب إلى الكتّاب ، ثم بدأوا يعلمونه عند ماشاب ، أى بعد فوات الأوان .

الكتاكيت

فى أوائل الصيف وأوائل الشتاء كثيراً ما نرى فى القاهرة منادين وعلى رأسهم أقفاص ملأى بالكتاكيت ينادون (ياملاح الملاح) ويظهر أن الكتكوت كلمة مصرية قديمة ، ولذلك لا يسمى فى الشام مثلا كتكوتة وإنما « وصواص » أخذا من صوته .

والطبقة المتوسطة والفقيرة تشترى الكتاكيت وتربيها فى المنازل وتصبر عليها إلى أن يؤذن الديك ويصير الكتكوت فرخة فحينئذ يذبحونها ويسمونها « برابر » والفلاحون يربونها للبيع فى الأسواق .

وفى أمثالهم : « الكتكوت الفصيح من البيضة يصيح » ، وتنتشر فى مصر عملية التفريخ لإخراج الكتاكيت من البيض ثم بيعها حسب ما ذكرنا .

وقد يكنون عن الطفل الصغير بالكتكوت .

الكحل

هو هباب اللبان العطرى المحروق ، ويصنع أيضاً من هباب قشر اللوز ويستعمل الكحل لعلاج العين وأكثر من ذلك للزينة . أما للعلاج فقط فيستعمل مسحوق الرصاص المضاف إليه المنزوت وعرق الذهب وسكر النبات ومسحوق الذهب البندق . وتكحل العين بمرود صغير من الخشب أو العاج أو الفضة أو الزجاج ، دقيق الطرف كليل الحدّ يبلّ أولا بماء الورد ، ثم يغمس فى المسحوق ويمرّر بين الجفنين . والوعاء الزجاجى ، أو البللورى الذى يوضع فيه الكحل يسمى المكحلة ، وهى من بقايا قدماء المصريين . وقد عثر فى المقابر القديمة على المكاحل ومراودها . وهو إذا أضيف إلى جمال العيون المصرية زادها جمالا .

ومن أمثالهم : « جبال الكحل تفنيها المراود » . أى أن الشىء الكثير لا بد أن يفنى مع استمرار الأخذ منه ولو قليلا .

الكرسى

هو ذلك الأداة الخشبية المعروفة ، وهو أشكال وألوان ، فالكرسى العادى الذى يجلس عليه الناس وهو معروف عند الأمم المختلفة ، ولكن الذى يهمنا هنا ما كان للمصريين عادة ، مثل كرسى الولادة ، وهو كرسى يحضر لبيت الوالدة قبيل وضعها ، تحضره لها الداية ، وهى امرأة من أعمالها التوليد ، كما أن من أعمالها أيضاً ختان البنات . وهو كرسى مخروق من الوسط تجلس عليه المرأة عند الولادة ، لتتلقى منه الداية الطفل عند نزوله ، وتستعين المرأة به عند الطلق فتمسكه من جناحيه . ومن مثل هذه الكراسى أيضاً كرسى العروس ، وهو كرسى كان يحضر مع الجهاز ، ويوضع بجانب السرير ، وهو ذو سلالم يطلع عليه العريس ليصل إلى السرير ، كأنه بلغ من الكسل أنه لا يستطيع الصعود على السرير من غير معونة . وكذلك كرسى المطبخ وهو كرسى صغير ليس عالياً تجلس عليه المرأة عند طبخها وليس له سنادة يستند عليها إنما هو مجرد مقعد ، وكان فى القديم كرسى يسمى كرسى العشا ، وهو مرتفع نحو نصف متر ، توضع عليه الصينية وقت الأكل ، والآكلون يلتفون حوله ، إما على حصير أو بساط أو شلت وبعض الناس يعتنون به فيطعمونه بالصدف .

وأخيراً يسمون عظمة الوجه البارزة كرسى الخد .

الكشك

الكشك طعام يصنع من البُرّ واللبن ، وهو أصناف ؛ بعضهم يأخذ القمح ويغسله غسلا جيداً ، ثم ينقعه فى الماء ، ثم يوضع على النار حتى يلين ويغلظ الحبّ ، ثم يجفف فى الشمس ، ثم يدش ويوضع فى إناء ويصب عليه اللبن ومش الحصير ، ويحرك ثم يترك أياماً ، ثم يحرك ويوضع عليه اللبن مرة أخرى ، وهكذا حتى يتخمر وتفوح له رائحة الحموضة ، ويكون له طعم لذيذ ، ثم يزاد من اللبن لتخفيف حموضته ، ثم يقرص أقراصاً صغيرة ويوضع فى الشمس إلى أن يجف ، فيؤخذ ويخزن لوقت الطبخ ؛ وهذا خير أنواع الكشك . وإذا أرادوا أن يطبخوه وضعوا عليه سمناً وعملوه على اللحم الضانى السمين ، أو على الفراخ ، أو على الطيور ، ونحو ذلك . ومنه أنواع أخرى كأن يتساهلوا فى غسله وتصفيته ولا يتحروا مش الحصير ، بل مشاً وضيعاً يسمونه مش قريش ... الخ .

ويقال للرجل العزيز عند أهله هو عندهم « فرخة بكشك » ، لأن الفرخة إذا طبخ عليها كشك من الصنف الجيد كانت لذيذة . وقد اعتاد المصريون أن يطبخوا الكشك بالفراخ فى يوم أسبوع الطفل ، ثم يوزعوه أطباقاً أطباقاً على الأعزة وأهل الحارة ، ولا يفعلوا ذلك فى غير الكشك ؛ ومن أصناف الحلوى نوع يقال له كشك الفقراء ، وهو نوع حلو لذيذ يشبه طعمه المهلبية ، ويظهر أنه محرف عن كشكول الفقراء ؛ والكشكول هو الوعاء الذى يجمع فيه الفقير أصناف الطعام المختلفة ، لأن هذا النوع يصنع من أنواع مختلفة .

الكفار

يسمى عند المصريين من اعتنق ديناً غير الإسلام كافراً ، والجمع كفّار ، سواء كانوا نصارى أو يهودا أو وثنيّين .

وإذا مات الكافر قالوا عنه « هلك » ، وإذا رأوا جنازته لا يترحمون عليه . وإذا ذكر اسمه كذلك . وإذا كتبوا عنه لا يقولون غفر الله له ، ولا اللهم ارحمه . وإذا مرت عليهم جنازة مسلم وقفوا وقالوا لا إله إلا الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون . وإذا مرت عليهم جنازة كافر لم يقفوا ولم يترحموا . ولا يسمح لنصرانى أو يهودى أن يدخل المسجد ، ولا أن يحمل المصحف ، ولا أن يدخل مكة أو المدينة ، ولذلك كان من أراد منهم أن يفعل ذلك ادعى الإسلام وتزيّى بزىّ المسلمين . والآن يسمحون للسائح

النصرانى أن يدخل المساجد الأثرية ليتفرج عليها بتصريح من وزارة الأوقاف .

ويسمون بقعة فى القاهرة بقنطرة الذى كفر .

وأصلها رجل كبير من رجال الحملة الفرنسية كان اسمه « كفر للى » فحرفوه إلى اللى كفر ، وكان يسكن قرب قنطرة هناك . فبدلا من أن يسموها قنطرة كفر للى قالوا « قنطرة اللى كفر » .

الكلمات الدخيلة

توالت على الأمم المصرية حكومات مختلفة من أمم مختلفة ، وقد هضمت مصر بعض عاداتها وتقاليدها ، كما هضمت بعض كلماتها فاستخدمتها فى لغتها ، ولذلك كان للكلمات تاريخ طويل كتاريخ الأمم . فمن بقايا قدماء المصريين « حلوم » للجبنة ، وبتاو لنوع من الخبز ، وكتكوت وبلح أمهات وكثير من أسماء البلاد ... ومن بقايا الحكم اليونانى « فانوس » ، فإن معناه فى اليونانية « المصباح الكبير » ، وكلمة « إبليز » للطين الشديد اللزوجة ، و « أرغول » ، وأخذوا من الفارسية كلمات كثيرة مثل « روشن » تطلق على فتحة السقف ، وهى فى الفارسية بمعنى ضياء أو لمعان ، ومثل « جوخ » فإنها بمعنى كساء من الصوف ، ومثل « برشت » يقال بيض برشت ، أى ناضج نصف نضج . أصلها ميم برشت أى مسلى مسلوق ، فاقتصروا على النصف الثانى من الكلمة ؛ ومثل « برشام » وهى بمعنى ملء الفم الخ . . « و بنزاهير » وأصلها « باد زهير » ، وباد بمعنى مهلك ، وزهير بمعنى سم ، أى قاطع السم . ومثل « بهريز » يقال شُربة بهريز، وهى بمعنى حمية . ومثل « إشكر خبر » وأصله « أشكار » بمعنى واضح ، أو ظاهر . فهو بمعنى خبر واضح .

ومن بقايا الحكم العربى كلمات كثيرة يطول ذكرها . ومن بقايا الحكم التركى والشركسى كلمات كثيرة مثل « بوريك » فإنها تركية بمعنى فطير ، ومثل « برضه » فإنها كلمة تركية بمعنى هو كذا ، أصلها برضل . ومثل « برش » كلمة تركية بمعنى الحصير . ومثل « بنش » العباءة التى يتحلى بها العلماء ، فإنها تركية بمعنى معطف أو عباءة . ومثل « ترللى » يقولون عقله « ترللى » أى مزعزع ، من ترل التركى بمعنى تزعزع . ومثل « جزمة » ، فإنها فى التركية بكسر الجيم . ومثل « جوقة » بمعنى أغلبية أو كثرة و « أبعادية » بمعنى محل أو مزرعة .

هذا إلى ألفاظ كثيرة من أصل إيطالى أو فرنسى أو إنجليزى ، فاللغة العامية خليط من كل ذلك . وكان للمصريين ذوق فى اختيار ما يناسبهم من الكلمات و إدخالها فى لغاتهم ، ثم هضموها كما هضموا الفاتحين .

كنافة

نوع من الحلوى اشتهرت به مصر والشام ، فكان من طعامهما الخاص كالفول المدمس ، وطريقة صنعها أن يذاب الدقيق فى الماء حتى يكون للسائل قوام ، ثم توضع الصينية الكبيرة على النار ، ويوضع هذا السائل فى كوز مخرق ، ويمسك الكوز من رقبته ليسيل هذا السائل من الخروق على الصينية المحماة ، ويترك بعض الوقت حتى يجف بعض الجفاف ، ثم يلم ويباع فى الشوارع أو فى الأسواق باسم الكنافة . و إذا أريد تحميرها وضع قليل من السمن فى صينية محماة حتى يسيح ، ثم توضع عليها الكنافة ، و إذا أريد التأنق فيها وضع فى وسط راقات الكنافة بعض البندق المدقوق ، واللوز المدقوق ، والسكر المدقوق ، ثم وضعت الراقات الأخرى ، إلى أن تمتلىء الصينية ، ويوضع من فوق قليل من السمن على وجهها ، وتترك على نار هادئة حتى تنضج ؛ فإذا لم تكن أدخلت فى الفرن قلبت على الوجه الآخر حتى يحمر أيضا ، ويكون بجانب ذلك سكر معقود قد أعد وترك حتى يبرد ثم يوضع السكر عليها .

و إذا أريد إتقانها أيضا وضع عليها ماء ورد . وتتشرب الكنافة كل ذلك وتكون حلوة لذيذة . وهى والفول المدمس من لوازم رمضان والعزائم .

وأكثر الأدباء المصريون من ذكرها والتغنى بلذاذتها فقال قائلهم :

إليك اشتياقى يا كنافة زائد .. الخ .

واشتهر فى مصر بعض المحال بإتقان صنع الكنافة من الدقيق النقى ، ومن هؤلاء السيد على الكنفانى بجوار بوابة المتولى .

الكنايات

لهم كنايات لطيفة فى أسماء بعض الأشياء ، فمثلا يسمون نوعا من حبوب الحلوى الصغيرة « براغيث الست » ، ونوعا من الحلوى المنفوشة « غزل البنات » ، ونوعا من الحلوى المصنوعة من الدقيق بالسمن والسكر على شكل خاص « سدّ الحنك » ، ونوعا من الفطير الصغير الذى يشبه المنينو الصغير « كعب الغزال » ، كما يسمون بعض أنواع العجين المقلى فى الزيت « لقمة القاضى » ، وأصله لقمة قادن ، أى لقمة العجوز . ويسمون

الذى يضىء الفوانيس بالليل « عفريت الليل » ونوعا من النمل الكبير الفارسى « حرامى الحلة » ، ونوعا من ثمر اللبخ دقن الباشا ونوعا من المشمش المفرود « قمر الدين » ونوعا من حيوانات البحر « السيد قشطة » ونوعا من الطيور يشبه منقاره المركوب « أبو مركوب » .

كما لهم تعبيرات خاصة مثل « وشه يقطع الخميرة من البيت » ومثل « ليمونة فى بلد قرفانة » وقولهم فى الذرة اللَّيِّنة « غرض الأهتم » . ويقولون مثلا « سلّم عليه سلام الماوردى على بياع الفسيخ » و « الحيطان لها ودان » ويكنون عن الفنجان الفاضى بالملآن ، كأنهم كرهوا تسميته بالفاضى وينادون الأسود بيا بيض .

ويقولون « نادى عليه بالصوت الحيانى » وماشية تتعوج كأنها علامة الاستفهام . وأمثال ذلك كثيرة سيأتى فى باب التعابير .

الكوليرا

أصيبت مصر مع الأسف بوباء الكوليرا مراراً . وقد حدثت مرة سنة ١٨٨٣ ، ظهرت أولا فى دمياط وانتشرت منها فى سائر القطر . وقد ظهر أنها وافدة من الهند عن طريق أحد وقادى السفن التى وصلت بور سعيد من الهند . وذهب فيما بعد إلى دمياط وهو يحمل جراثيم المرض ، وبذلت الحكومة مجهوداً كبيراً فى مقاومته والوقاية منها . وجاءت بعثات كبيرة صحية من أوربا للمساعدة ، وكان أكثر الأحياء ضرراً منها حيّى الخليفة و بولاق ، فقد ذهبت الأرواح منهما بالألوف لازدحامهما وقذارتهما ؛ وكان بعض المصريين يعالجون الكوليرا بأشياء خرافية إلى أن انتهت . وشاهدت مرة من يطلع على سلم مزدوج فى الشارع ومعه مقص يقص به الهواء ، يزعم أنه يقص الميكروبات .

الكيمياء

يقصدون بها تحويل المعادن إلى ذهب ، ومن قديم والناس مولعون بها ، ويفقدون كثيراً من أموالهم فيها . والحق يقال إن ذلك كان سبباً فى التعرف على مواد كيماوية صحيحة ، وقد اتخذت وسيلة للتكسب بها ، وكان ابن مسكويه مولعاً بها . وقد ألفت كتب كثيرة فيها غموض ورموز وأشياء صعبة الفهم . وكم غش الدجالون الأثرياء حتى أضاعوا نقودهم فيها ثم افتقروا ؛ يدخلون فى أذهان الأغنياء أنهم يستطيعون بالعزائم والسحر والمواد الكيماوية أن يحولوا النحاس إلى ذهب فيجمعوا نحاسهم ونحاس جيرانهم

ويستدرجهم المعزّمون فى الصرف عليها ، فينفقون الأموال الطائلة ، ويجتهدون أن يكون هذا العمل فوق السطوح أو فى غرفة خاصة ، ثم يصبحون فلا يجدونهم ، لأنهم يفرون قبل أن يفتضح أمرهم . وكان لرجل أعرفه بواب يظهر على ملامحه أنه من بيت عظيم ، فاستفسرت عن ذلك فعلمت أنه كان غنياً وذهب ماله فى هذا الباب حتى اضطر أن يكون بوابا وأوهم سيده أنه توصل إلى قلب النحاس ذهباً إلا خطوة صغيرة يحتاج فيها إلى نحو عشرة جنيهات فأعطاها له ، رغم تنبيهى عليه بعدم الدفع ، ومازال يدفع ويدفع حتى افتقر هو أيضاً . وهكذا من أنواع الحوادث .

ومن الغريب أن هذا الوضع مقلوب ذلك أنهم يرغبون فى شىء عسير كتحويل النحاس إلى ذهب ، وهذا هو نهاية الكيمياء لا بدؤها فكان يجب أن يتبحروا أولا فى علم الكيمياء ثم تكون هذه غايتهم ، وكالتنجيم فقد كان يجب أن يتبحروا فى علم النجوم ، ثم تكون غايتهم بحث أثر النجوم فى العالم الأرضى .

ومن أمثالهم « الشحاته كيميا » أى أن الشحاتة قد تدرّ على صاحبها الذهب كالكيمياء .

حرف اللام

اللاســـة

لفافة من حرير يلفها الفتوات من أبناء البلد على الطاقية كالعمامة . فتكون علامة على الفتوة والشطارة .

ولـكن لا يلبسونها فى العـادة على جلابية زرقاء ، بل على جلابيـة بيضاء أو جلابية من التيل ، أو غزلية .

اللبان الذكر

هو لبان معروف يميزونه عن اللبـان فقط ، وهو المسمى باللادن ، واللبان الذكر إذا أحرق انبعثت منه رائحة طيبة . وهم عادة يعتنون بإحراقه عند كتابة الأحجبة ، وعند بعض الدعوات ، و يعتقدون أنه يساعد الأحجبة على تحقيق المطالب ، ولذلك يوصى به المشايخ دائماً هو والمستكى ، والمستكى أيضاً ذات رائحة طيبة ، وهم عادة يمضغون اللبان أو اللادن مضغاً طويلا . ولبعض النساء دلع فى المضغ حتى تسمع من مضغها طقطقة . ويستعملون اللبان أيضاً منقوعا فى الماء طول الليل لقطع البلغم ومداواة الـكحة .

ويقول العامة للمرأة لا تكتم سراً ، إنها بلبانة . وكثيراً ما ترى نساء فى الشارع وأمامهن صينية أو طبق كبير من الخوص ، مملوء باللادن .

اللهجة العامية

للمصريين لهجة عامية خاصة ، ولهجة القاهريين تخالف لهجـة الصعايدة ، وهما يخالفان لهجة الشراقوة والبحاروة ؛ وعلى العموم ربما كانت لغـة القاهريين أوضح وأرق من لغة البلاد الأخرى كالشام والعراق.

و بعض البلاد المصرية ينطق القاف جيما ، والقاهريون ينطقونها همزة ، ولـكل بلد اصطلاحات خاصة فى بعض الاستعمالات .

ولنسق مثلا للغـة العامية أخـذاً من مجلة الأستاذ لعبد الله نديم ، فقد كان يكتب أحياناً باللغة الفصحى ، وأحياناً باللغة العامية ، وهذا حوار بين ألف وباء :

« (ا) انت بسّ رايح مصر جاى من مصر ! ما سمعتش لنا شىء على اللى زىّ حلاتنا .

(ب) اللى زىّ حلاتك رايح أسمع عليه إيه ؟ إنت راجل فلاّح فى غيطك ، وتقضى عمرك وانت سارح فى الغيط رايح البيت ، جَىّ من البيت زىّ حصان الطّاحون يقضى عمره ما بين الدورة ودار الدواب .

(ا) هوّ أنا ناكرأنى فلاّح ! ما أنا فلاّح بن فلاح ، يعنى انت اللى ابن جندى ما انت فلاح زيّى .

(ب) أنا مش مقصودى أعايرك ، دنا فلاح ابن فلاح ، ولـكن باقلك انت راجل فلاح يعنى ماحدش عارفك يحكى فى حقك حاجة فى مصر .

(ا) باسألك عن كده قصدى أقول إذا كان واحد زيى فى مصر له حكاية يعرف يخلصها .

(ب) إن كنت رايح مصر علشان تعطر لبنتك ولاّ تفصل لابنك اللى رايح تطاهره ، كل شىء تلاقيه هناك ، وان كنت رايح تقضى حاجة للغيط زىّ ساقية ولاّ محراث ولا قصّبية برضه تلاقى ، بسّ ركك على الفلوس .

(ا) دنا مابديش كده ، قصدى إذا كان واحد زىّ حالاتى له فدّانين طين و بقالهم سنين وأيام ومعاه بيهم حجة ولاّ بتقسيط ميرى و بيدفع مالهم وجاه واحد كبير شويّه ، يعنى عضمة خشنة وقال له الفدّانين دول بتوعى و بدّه ياخدهم غصب ، اكمنه كبير المقام ، يعنى إذا رفعت عليـه قضية أكسبها .

(ب) يا مغفل ، الناس دلوقت مش زىّ زمان ، دلوقت فيه مجالس وقوانين وقضاة وحكمهم زىّ بعضه فى الـكبير والصغير والضعيف والقوى ، تلاقى الحمار من دول إذا كان له قضية حتى عند واحد باشا تجيبه المحكمة قدّامها من غير مايمصى ولا يخالف ، وانت بتقول إنه الأرض أرضك ومعاك بيها حجة ، دى كلّها أمور تثبت لك الدنيا مش بسّ الفدّانين ، انت تروح ترفع قضية فى المحكمة ولا تسأل إن كان عضمة خشنة واللاّ ناعمة والمحكمة تحكم لك غصب عن عنيه . انت توكّل واحد أبكاتو وتوكل على الله .

(ا) بّس خايف يروح يترجّى القضاة الذوات و يعملوا خاطر لبعض تقوم تروح علىّ المصاريف .

(ب) إوعى تصّدق ! دلوقت جنس تانى ، والقضاة بياخدوا ماهيـات كفاية وماتسيبش الحق .

(ا) باه ماخدش كام نصّ ، أبرطل بيهم القضاة علشان يخلّصوا لى دعوتى .

(ب) إوعى تعملها يا مشوم لاحسن تروح فى شربة ميّه ، هوّ يقدر واحد دلوقت يبرطل قاضى ، الدّنيا دلوقت ماشية على سنجة عشرة ، اوعى حدّ يضحك عليك و ياخد فلوسك ، و يقول لك أنا قلت للقاضى ، أنا عملت ، أنا سوّيت ، مافيش كلام زىّ ده

دلوقت ، روح اعمل عليه قضيّة ولا تبالى ، وربنا ياخد بيدك ويقضى حاجتك » .

ولهذه اللغة العامية بلاغة كاللغة الفصحى . ولهم فيها تعبيرات ساحرة ولهم الشعر الجميل . مثل :

تزوجت البطـالة بالتوانى
فأولدها غـلاماً وغلامهْ
فأمّا الإبن . لقبه بفقـر
وأما البنت سمّـاها ندامهْ

كما أن لهم الأزجال اللطيفة والمواويل الرشيقة . وميزاتها أنها تحيا كل يوم فى البيت والشارع ، والروايات التمثيلية ، ويكسبها ذلك حيوية ومرونة أكثر من اللغة الفصحى .

والمتتبع لكلام العوام يرى فيه التشبيهات الجميلة والعبارات القويّة مثل : الله يجازى أوامك ، ما فعل يا بعيد . ومثل . يا عطارين دلّونى الصبر فين أراضيه ، ولو طلَبْتُوا عيونى خدوها بس ألافيه . ومثل قولهم فى السباب « يا عملة جديدة » . ومثل قولهم فى الغناء : « البحر يضحك لى وأنا نازلة أدّلع أملا القلل » ولو عددنا ذلك لطال بنا القول فلنكتف بهذا القدر .

وقد ترقّت اللغة العامية فى الأزمنة الأخيرة وأخذت كثيراً من اللغة الفصحى ، فتسمع العامىّ مثلا يقول : « فهمت دا بالقريحة » . والفضل فى ذلك للمجلات والإذاعات التى لا تتزمت باستعمال اللغة الفصحى .

وبقدر ما ارتقت اللغة العامية نزلت اللغة الفصحى لتقابلها فى منتصف الطريق . وكان من أسباب ضعف التعليم وعدم انتشار الثقافة أن للمصريين لغتين متميزتين : الفصحى والعامية ، وبينهما خلاف كثير . ولو كان لهم لغة واحدة أو لغتان متقاربتان لقلّ ذلك من العوائق أو أزالها .

ومما يؤسف له أن أدباءنا لا ينتجون إلا باللغة الفصحى ، أما العوام فليس لهم أديب ولا يجدون ما يتغذون به إلا شيئاً قليلا تافها فقلّ أن يحدّثهم أحد فى الراديو بلغتهم . وقلّ أن يكتب لهم كتاب بلغتهم ، وفى ذلك خسارة كبرى . وقد اقترحت من أجل ذلك أن يكون للأدباء فى بعض الأحيان لغة شعبية ساكنة أواخر الكلمات ، متحررة من الإعراب الذى هو أكبر عقبة للعوامّ . ولكن اللغة قلّما تصنع . والزمن كفيل بحلّ هذه المشكلات .

اللوازم

من لوازم المصريين التى تلفت النظر كلمة معلهش ! يقولونها فى مواضع لطيفة ، كقولهم إذا أصيبوا بالمصيبة : معلهش ! استسلاما للقدر واستحثاثا على الصبر . وكذلك يقولونها إذا أصيبوا بكارثة مالية لعدم الحزن على ما فات والأمل فيما هو آت ، ونحو ذلك ، ثم يقولونها فى مواضع سخيفة إذا ظلمهم ظالم من الحكام ، فبدلا من أن يطالبوا بتحقيق العدل قالوا : « معلهش » .

ويقولونها أيضاً يتعللون بها عن الكسل وعدم السعى على الرزق فإذا جاءت دودة القطن وأتلفته قالوا : معلهش ! بدل السعى فى تنقيته من الدود وهكذا .

ومن لوازمهم « البقشيش » ، فكل شىء ولو كان تافهاً صغيراً يطلبون عليه بقشيشاً ، فإذا لم يقولوه بألسنتهم قالوه بنظراتهم وإشاراتهم . وربما لا تكون هناك كلمات ولا نظرات ، ولكن العرف يدلّ عليه . وهناك طبقة أرستقراطية لا تعف عن البقشيش ، ولكن بشكل طريف ، وذلك بتبادل المصالح ، فيقضى لصاحبك مصلحة ليقضى لك مصلحة نظيرها .

وقد يجرؤ على القول فيقول : سأعمل لك هذا العمل على شرط أن تعمل لى ذاك العمل .

وفى الأوساط المتعلمة خصوصاً بين الشبان المتعلمين يستعملون كلمة « صهين » ، وهى تساوى كلمة معلهش فى استعمالها ومواضعها .

ومن لوازمهم أيضاً « وانامالى » يقولونها للتخلص من مسئولية العمل .

ولو قدّر لمصر زعيم نجح فى إبطالهم هذه الأمور الثلاثة : البقشيش ، ومعلهش ، وانا مالى ، لم يكن إصلاحه بالقليل .

اللَّوع

كلمة تستعمل فى اللسان الشعبى كثيراً ، وتستعمل فى معان مختلفة : أحياناً بمعنى كثرة المِران والتجربة ، وتحنيك الزمان ، فيقال لوّعه الزمان أى حنّكه ، وضغط عليه ، حتى كثرت تجاربه وأصبح يفهم الأمور فهماً دقيقاً ، وأحياناً بمعنى الرجل الذى لا يسير سيراً على خط مستقيم ، ولكنه ينحرف فى سيره ، فيقولون : فلان ملوّع ، ولا تتلوّعش علىّ ، بمعنى لا تسر معى سيراً معوجّاً . وقد تستعمل بمعنى الإيلام ، والإيقاع فى الحزن والعنا ، ومن ذلك قولهم : الحبّ لوّعنى ، أى أضنانى . ويكثر استعمالها بهذا المعنى فى الأغانى الغزلية .

الليالى المشهورة

من عادة المصريين الاحتفاء ببعض الليالى ، كليلة القدر وهى ليلة السابع والعشرين من رمضان ، فيحتفلون بها و يعتقدون أنه فى هذه الليلة تظهر للسعدين طاقة من نور فى السماء . وحينئذ يجب أن يسرعوا فى الدعوة ، مع أنه قد يكون هذا النور ناشئا من تماس أسلاك كهربائية أو نحو ذلك فيظنون أنه نور ليلة القدر . ومن الليالى المشهورة أيضاً ليلة نصف شعبان ، فيجتمعون فى صلاة المغرب فى المساجد أو فى البيوت فيقرأون الدعاء ، وهو : اللّهم يا ذا المن ولا يُمَنّ عليه الخ ... ثم يدعون بما يشتهون . ومنهم من يعتقد أنه إذا قرأ هذا الدعاء أمن من الموت فى عامه وأمن من الشقاء .

ومن الليالى المشهورة ليلة السابع والعشرين من رجب ، وهى ليلة الإسراء والمعراج ؛ وليلة الثانى عشر من ربيع الأول ، وهى ليلة المولد النبوى ؛ وليلة أول السنة الهجرية إلى غير ذلك . وفى ليلة المولد هذه تقام حفلات الذكر فى ساحة من ساحات البلد ، وتصنع الحلوى من السكر على شكل عروس أو جمل أو حصان ، وألعاب مختلفة تناسب الأطفال من ذكور وإناث .

ومن الليالى المشهورة أيضاً ليلة الحنة وليلة الدخلة الخ ...

ليلة الحنّة

هى الليلة التى تسبق عادة الزواج ، فبعد الحمام تكون الحنّاء ، وللحمّام والحناء أهمية كبرى ، وخصوصاً عند الفلاّحات ، لأن الفلاّحات يحرّمن على الفتاة منذ بلوغها العاشرة تقريبا أن تستحم أو تتزين ، لأن هذا يعدّ فى نظرهم عهرا . ولذلك لا يأتى ميعاد الحمّام والحنّاء إلا وقد تراكمت عليها الأوساخ . ولذلك ينظفنها فى الحمّام بحجر الخفاف أو الشقافة . و يستعنّ على ذلك بالماء الساخن ، والمكث فيه مدة طويلة .

أما فى الحضر فالحناء أقل أهمية لنظافتهن ، وعدم تقيدهن بقيود الفلاحات . وهن يتحنين مع صواحبهن بالحنا ، فيحنّين أيديهن وأرجلهن بالحناء المدقوقة المعجونة و يربطنها إلى الصباح ، فتكون حمراء . وقد يتشخلعن فيها ويضعن فتلا فى الأيدى حتى تظهر كأنها منقوشة .

ليلة الدخلة

هى الليلة التى يبنى فيها العريس بالعروس وقد سبق شرحها عند الكلام على الزواج فارجع إليه .

ونزيد هنا أنه كان شائعا عند الفلاحين أن يتصل الرجل بزوجته فى ليلة الدخلة ، لاطمئنان أهلها على سلوكها . ودليل ذلك أنهم يعلنون عن سابق طهارتها ببقاء بكارتها إلى اليوم ، فيخرج أبوها بشاشة ملوثة ، ويصيح هو وأهلها : « بيضت الشاشة ياعروسة » ، ويغنى النساء أيضا :

شرفت أهلك ياعروسة

عليت راس أبوك ياعروسة

حلق فى ودانك ياعروسة

أى أنها تستحق ذلك .

وفى الأوساط الوسطى والفنية تلعب البلانة دوراً هاماً فى تحميمها ، وبعد الحمام فى تزيينها ثم ما يتصل بذلك ، وقد تكون البلانة لعروسين أو ثلاث ، وقد تقتصر على بنت واحدة إذا كانت من الأغنياء .

وجرت عادة فى قرى الأرياف أن يجتمع النساء على الباب ساعة التقاء الرجل بالمرأة ، ويصفقن ويغنين ويهللن ، حتى ينتهى الأمر فإذا تأخر عنهن الخبر غنين : « مرسالك غاب ياوردة » .

فإذا علمن انتهاء الموقف زغردن ، ويكون معهن رجل ببندقيته فيطلقها فى الفضاء إيذاناً بالانتهاء .

الليمون الصغير

يسمى بنزاهير . وهى كلمة فارسية أصلها باد زهير ، ومعناها ضدّ السم ؛ وهو ثمرة مفيدة غنية بفيتامينات حرف « ا » كما دلّ عليها التحليل الحديث .

وهم يتخذونه على أشكال ، فيعصرونه أحيانا على ماء مذاب فيه السكر فيكون مشروبا لذيذا ، ثم هم يعصرونه على كثير من المأكولات كالبامية والفاصوليا والباذنجان والفول المدمس بالزيت . وأحيانا يخللونه للأكل منه لقصد فتح الشهية .

وكثير من الفلاحين يأكلونه مع الخبز إداما كالمشّ

ومن أمثالهم « لميونة فى بلد قرفانة » وذلك لأن الليمون موصوف لدفع القرف .

فإذا كانت البلد كلها قرفانة كان الناس يتسابقون على الليمونة . وأحيانا يستعملونها لتشبيه الوجه الأصفر . فيقولون : وجهه أصفر كالليمونة . وكذلك إذا رأوا ثيابا صفراء أو شيئا أصفر قالوا : إنه أصفر كالليمونة .

حرف الميم

المارد

هو شر أنواع العفاريت ، ويعتقدون أنه يستطيع أن يطول إلى ما لا نهاية ، ويقصر إلى ما لا نهاية ، وأحيانا يتمدد فى الطريق بالليل ، فإذا قرأ أحد عليه شيئاً من القرآن الكريم قتله . وعند مجىء الأرناؤوط فى مصر فى عهد محمد على باشا عرفوا خوف المصريين فكانوا يلبسون الثياب البيض ويلفون عصيهم بشاش أبيض ويظهرون بالليل ويدخلون الحوارى بحجة أنهم مردة ، وقد يرفعون عصيهم ، فيظن أنهم طوال ، وهم بذلك يخيفون أهل الحارة ويقضون منهم أوطارهم .

وما أكثر ما يخيف المصريين ، من المارد هذا ، والمزّيرة ، وهى عفريتة تظهر على شكل امرأة تلبس لباسا أبيض ، وأبو رجل مسلوخة ، وأم الشعور ، والأسياد ، والقرينة ، الخ ... ومن شدة خوفهم تعلقوا بالجن وطلبوا منهم المعونة .

المأكولات الخاصة

اعتاد المصريون أن يأكلوا فى العيد الصغير السمك المجفف ، ويسمى بالبكلاه ، بتفخيم اللام ، والكعك المنثور عليه السكر والغريّبة . وفى العيد الكبير ذبح الضحية والأكل من بعضها ، والتصدق ببعضها ، وفى شمّ النسيم الفسيخ والبصل الأخضر . وفى رمضان يروج الإفطار على الفول المدمس ، وتكون الحلوى كنافة وقطايف وقمر الدين مطبوخاً أو منقوعا .

واعتادوا فى العيد الصغير والكبير تقديم الشيكولاتة والملبّس للضيوف ، وأكل الرقاق فى الصينية باللحم المفروم ومرق الضحية — وعند دعوة الفقهاء لقراءة ختمة أو عدّية يس أو نحو ذلك تؤكل الفتّة من خبز عليه المرقة ، ثم طابق من أرز ، ثم اللحم المسلوق . ثم اعتادوا أخيراً لغلبة المدنيّة الحديثة أن المارّ إذا احتاج إلى أكل يمرّ على دكان أعد لذلك يأكل منه السندويتشات بالجبن والزبد تارة ، وأخرى بالكبد ، وثالثة باللحم الخ .

وقد يمرون على دكاكين خاصة بالحلوى والفطائر ، وما يسمى بالبسطة . وفى الصيف يكثرون من أكل المثلجات كالدندرمة والجرانيتا .

وفى الشتاء يشربون القرفة أو الكاكاو أو السحلب ، وغير ذلك من الأشياء المدفئة . وفى الطريق ترى كثيراً من المأكولات الخفيفة ، كالبليلة فى الصباح ، والترمس واللب فى المساء . وقد ترى الطبقة الفقيرة تمص قصب السكّر ، وترمى القشر فى الشوارع ، أو البرتقال كذلك . وتجدهم على القهاوى

يأكلون السميط والبيض ، أو السميط بالملح ، أو الطعمية تستحضر من دكاكين جانبية .

والفلاحون يعتنون بكيزان الذرة وأكلها مشوية . ومن حين لآخر يذهب بعض المصريين إلى محلات خاصة لأكل النيفة أو الكباب .

المال الحرام

يعتقدون أن المال الحرام وهو ما اكتسب من باب حرام ، كالسرقة والارتشاء والقيادة ونحو ذلك ، ليس فيه بركة ، وأنه عرضة للزوال السريع ، وأن المال الحلال وهو ما اكتسب من باب حلال تحل فيه البركة ، فينعم به صاحبه ، وخصوصا ما اكتسبه الرجل من عرق جبينه . وربما كانت العلة العلمية لذلك أن المال إذا كسبه الرجل بجده واجتهاده حرص عليه ، وذكر ما لقيه من التعب فى اكتسابه وصرفه بحساب . وعلى العكس من ذلك المال الحرام ؛ إذ يأتى من غير تعب ، فيسهل على الرجل أن يصرفه حيثما اتفق . ولذلك إذا رأوا مالاً مبدداً قالوا لا غرابة ! فإن أصله حرام .

ويعتقدون أن المال الحرام قد لا يضر صاحبه فى المال فقط ، بل قد يضر صاحبه ومن اتصل به فى النفس أيضا . فقد يموت فى حادثة شنيعة ، أو يمرض مرضا كبيراً ، أو يصاب بعاهة أو نحو ذلك . وأعرف رجلا كان موظفا كبيرا فى الحكومة ، وكان مرتشيا ، وحصل له من ذلك مال كثير ، فمات هو بالحمى ، وداست إحدى أبنائه سيارة ، ومات آخر بمرض ، وخرب البيت من أجل ذلك ؛ فقال الناس : إن سبب ذلك كله المال الحرام .

وإذا فقد مال رجل ثم وجده ، قالوا مال حلال ؛ لأنهم يعتقدون أن المال الحرام لا يوجد ثانيا . والمتشددون فى السلوك يحرصون أشد الحرص على أن لا يكسبوا قرشا حراما ، ولا يدخل فى جيبهم قرش حرام ، لأنهم يعتقدون أنهم إذا كسبوا قرشا حراما وقرشا حلالا ذهب الحرام بالحلال .

المبخراتى

كثيراً ما ترى فى شوارع القاهرة رجلا يحمل مبخرة فيها نار متقدة ، وبجانبه كيس معلق فى كتفه ، فيه بخور ذو رائحة عطرية ، فيأخذ منه ويضع فى المبخرة ، ويمر على الدكاكين يبخرها ، فيمنحونه بعض المال ، أو بعبارة أخرى ما فيه القسمة .

ومنهم من يجعل لهم راتبا شهريا صغيراً وعند التبخير يكثر من الدعوات والصلاة على النبي . وكثيرا مايلبس المبخراتية عمامة حمراء .

(انظر بخور)

المَترَد

هو إناء من فخار أحمر أو أصفر ، وهو أشهر أواني الفلاّحين ، يحملون فيه اللبن ، ويضعون فيه الطبيخ . ويساويه في الشهرة (الطاجن) فهم يضعونه في الفرن ينضجون فيه اللحم أو السمك أو الطير أو الأرز أو نحو ذلك بوضعه في الفرن . وإذا امتلأ المَترَد قالوا : إنه (مترد مطنبر) ، خصوصا بعد أن ينضج ما فيه وينتفخ . وهو يختلف عن الطاجن بضيق رقبته .

المتعوقة

هي المرأة التي تلد ويموت أطفالها . ويعالجونها بأن تحضر العجوز الزوج وزوجته وتوقف أحدهما أمام الآخر ، ثم تحضر دجاجة سوداء ليس بها أي إشارة ، وتذبحها وتخرج أحشاءها وتنتف ريشها ، وتوصل خيطاً بين إبهامي الزوج والزوجة ، وتضم كل هذه الأشياء إلى خلاص المرأة ، وتدفن الجميع في عتبة القاعة . وقد شاهدت وأنا صغير امرأة تزعم أنها تجعل المتعوقة تلد ، فطلبت طشتا كبيراً نظيفا ووضعت فيه ماء ، ثم وضعت فيه بعض الحلي ، ثم قرأت تعزيمات مختلفة ، وأخيراً أخرجت من جيبها أداة في حجم الجرس الصغير ووضعتها وطلبت من المتعوقة ريالا ووضعته على هذه الأداة ، وبعد قليل طار الريال إلى السقف ، وتضاحك الحاضرون والحاضرات واختفى الريال . وقد فهمت الآن أن هذه الأداة كان مركبًا فيها زمبلك مضغوط لُحِمَ بشيء يذوب في الماء بعد مدة ، فلما ذاب انفك الزمبلك فطار الريال . والمهم في المسألة أن المتعوقة لم تحمل ، والريال قد ضاع عليها .

المجاملة

هم يجاملون كثيراً فيظهرون من الصداقة والإجلال ما قد يضمرون معه الكره والاحتقار .

وقد يقابلون أعداءهم بالحضن والتقبيل مما لا يكون إلا بين الأصدقاء ، بينما هم يضمرون البغض والازدراء .

وحدثني أحدهم قال : حضر رجل دينيّ معمّم كان مكروها لموقف معين له في السياسة المصرية ومجاهرته بذلك ، قال وكنت في مأتم مزدحم بالناس ، فما أهلّ هذا الرجل الكبير حتى وقف الناس كلهم على الجانبين إجلالا له ،

ومنهم مَن انحنى على يده فقبّلها ، وقد كانوا يلعنونه منذ عهد قريب .

وعلى العموم فهم تنقصهم الصراحة ، وأشعارهم فى المجاملة والمداراة كثيرة . ومن مجاملاتهم الكثيرة الإلحاح على الضيف والإكثار من الأصناف ، وكثرة ألفاظ الترحيب ، وكثرة الألقاب فى الخطابات ، والمقابلة بالحضن والقبل ، وكثرة الهدايا فى الأفراح ... الخ .

المحتسب

وظيفة المحتسب كانت وظيفة كبرى فى الدولة إلى عهد قريب . كان يختار صاحبها ممن جمع بين العلم والوجاهة ؛ ووظيفته مراقبة الأسواق ، ومراعاة الأسعار والمصالح العامة . فمن طفف فى الكيل والميزان عاقبه ، ومن رفع السعر عاقبه ؛ وربما كان هذا المحتسب شديدا فيعاقب أشدّ عقوبة ، فمثلا كان بعضهم إذا ضبط بائع كنافة يبيع بثمن أغلى مما حدّد له ، وضعه على الصينية حتى يحترق ، ومن باع قمحا أو ذرة بأكثر من ثمنها عوقب عقوبة شديدة ، وله الحق فى أن يمنع طبيبا لا يحسن العلاج ، أو محترفا لا يتقن حرفته ، أو قاضيا ليس أهلا ؛ وهو يجوس خلال الأسواق يتقدمه عامل يحمل ميزانا ويتبعه الجلادون والخدم ، وكثيرا مايستوقف خادما مّا حاملا مأكولات فيسأله عن ثمنها ووزنها ، فإذا تبين له أن البائع استعمل موازين أو مكاييل مغشوشة ، أو طفف الكيل والميزان ، أوزاد على سعر السوق ، أنزل بالبائع العقوبة فى الحال ، وهى الضرب أو الجلد ؛ أو بما شاء المحتسب من العقوبات ، كخرمه أنف الغشاش ، وتعليقه فى أنفه كمكة بطول الشبر وعرض الإصبع . وأحيانا يجرّس فى الأسواق مع العقوبة . وقد قابل محتسب مرة بائع بطيخ على جمل فسأله : بكم البطيخة ؟ وكان معروفا عنه أنه يكثر قطع الآذان ، فقال له المسئول : هذه أذنى فاقطعها ؛ قال له : أأنت مجنون أو لم تسمع ؟ قال : بل سمعت ، ولكن إذا قلت بعشرة قطعت أذنى ، وإذا قلت بخمسة قطعت أذنى ، فاقطعها بالاختصار . ومرة قابل المحتسب رجلا يبيع قللا من سمنود مدّعيا أنها من قنا ، فأمر بكسرها ، وكان الذى جرت منه هذه الأحداث فى — عهد محمد على — كرديا يسمى مصطفى كاشف ، وقد أمر مرّة أن يحمى حصانه فى الحمّام ، فاستغرب صاحبه من هذا الأمر ، واعتذر بأن أرض الحمام ناعمة فربما زلقت رجل الحصان ؛ فأمر أتباعه أن يطرحوه على الأرض ويضربوه حتى يأمرهم

بالكف عنه ، فلم يأمرهم حتى مات . وقد ألغيت هذه الوظيفة من قريب ، ولكنها ربت فى قلوب المصريين الرعب .

محسوبية

هى نسبة تركية إلى محسوب ، أخذاً من قوله « محسوب عليه » ، وجعل المصدر للدلالة على إنهاء الشىء من رَجل لرَجل محسوب عليه . وهذه المحسوبية إما للرشوة ، وإما لانتساب الرجل إلى الآخر بسبب ما ، كالتذلل له أو قضاء مصلحة له ، أو طمع عامل فى الخدمة فى أن يقضى له خدمة أخرى ، أو لقرابة أو نسب وهكذا .

وكل أمة فيها محسوبية لدرجة ما ، ولكن ليست محسوبية سافرة كأن يُخَطَّى الأول من الامتحان مثلاً لأخذ من ترتيبه المحسون ، أو تفضيل غير الكفء على الكفء . واتصف المصريون بكثرة هذه المحسوبية حتى اعتقد الناس أن ليس يعمل عمل إلا بها ، فالورق يبقى عند الموظف نائما تتراكم عليه الأتربة أو منسيا فى درج الموظف إلى أن تأتى محسوبية فيمر مرّ البرق . ولذا شاع بين المصريين : إذا أردت أن تقضى عملك فابحث عن كبير يرجو لك . وسبب ذلك أن الموظف المصرى غالباً كان لا يتحرك لعمل إلا أن يكون له غرض شخصى من ورائه ، ومن لا رجاء له ، أو بعبارة أخرى من لا محسوبية له أهمل شأنه سنين .

ويحتاج الأمر إلى تعويد قوى على أن المحسوبية لا فائدة فيها ، وأن العدل يجرى مجراه ، سواء كان لصاحبه محسوبية أو ليس له . والاعتياد على هذا المنظر يقطع الرجاء ، بدليل أن الناس لما أَلِفوا أن الامتحان فى الابتدائية والبكالوريا لا رجاء فيه ، فقد يرسب ابن الوزير عدلا ، وينجح ابن الحاجب عدلا ، امتنع رجاؤهم فى هذا الباب ؛ فمن لنا فى أن تكون كل المصالح شأن الامتحان . ومن الغريب أن عدم المحسوبية بقدر ما يبطىء العمل أشهراً وسنين تعطيه المحسوبية سرعة البرق فيمر فى لحظة .

أعرف مرة أن طلبت لى ترقية إلى الدرجة الثالثة فلم أوص أحداً ، ثم مكثت ستة أشهر دون أن أسأل عليها ، فلما قلقت وسألت عن الأوراق قيل لى إن الدوسيه فقد ، فحكيت الحكاية لكبير فأمر بإعداد دوسيه جديد ، وفى ربع ساعة كان قد مر على الموظفين المختصين ، لأن فلاناً أمر ، وفى ربع ساعة أخرى صُدِّق عليه . ومن غريب الأمر فى هذا الحادث أن

كان لى صديق رقى معى فى قرار واحد ، وكانت ترقيته استثنائية ، وترقيتى قانونية ، فأما هو فكان محسوباً لوزير كبير بيده سلطة ، فما تم القرار حتى أرسل إلى المالية فوراً وصدّق عليه فى الحال ، وخرج القرار فإذا مجلس الوزراء يوافق عليـه فى ساعة . وأما أنا الذى مطلبه قانونى فكانت قصته ما ذكرت . وألعن ما فى الأمر اعتياد الناس هذا واعتيادهم أن أمراً لا يتم إلا بالرجاء . ولذلك تجد حجرة الموظف الكبير تمتلئ كل يوم وتفرغ ، ثم تمتلئ وتفرغ ، حتى يعوقه ذلك عن عمله . ومن أسوأ ما فى ذلك أن من يقبل الرجاء ويعين على الظلم ، أحب إلى الناس ممن لا يقبله ، بل إن أحب الناس إلى الناس هو رجل يركب سيارته صباحاً فيمر على المصالح المختلفة لقضاء الحاجات المختلفة ، وكلما نجح فى ذلك كان أقرب إلى قلوب الناس ، مع أن نجاحه قد يكون ظلماً ، وقد يكون على حساب آخرين مظلومين ليس لهم رجاء ، وهكذا ... وكان لى صديق — رحمه الله — رئيس مصلحة كتب على بابها « لا محسوبية ولا رجاء » !

ومع ذلك لم تنفع شيئاً ، فقد بقيت المحسوبيـة وبقى الرجاء ، كما أن اللافتة المكتوب عليها « ممنوع البصق » لا تمنع البصق . ولكثرة فشوّ هذه العادة فى مصر قالوا « يا بخت من كان النقيب خاله » . وقالوا « ابن الوز عوام » ، وقالوا « اللى له ضهر ما ينضربش على بطنه » وهكذا من كثير من الأمثال التى تدل على تغلغل هذه العادة فى نفوسهم ، وحتى سرت هـذه العادة إلى الأولياء وأصحاب الأضرحة الأموات ، فقالوا « المحسوب منسوب ولو كان معيوب » ، تملقاً للمشايخ كأنهم أحياء يرزقون . وتقول لرجل إنى قدمت طلباً فى وظيفة كذا ، فيقال لك : ألك واسطة كبيرة ؟ فإن قلتَ لا ، قال لا ! وبلغ من الجرأة أن تلصق على الطلب بطاقة من أوصى عليه أو انتسب إليه للنظر فى ترجيح من أوصى عليه عند البت فى الأمر . وكان من مساوئ نظام الحكم عندنا أن كل وزارة تأتى يكون لها لون من المحسوبين عليها ، وفى نظير ذلك يكون لها خصوم ، فإذا زالت وزارة اختفى المحسوبون عليها ، وظهر المحسوبون على الوزارة الجديدة ، وهكذا دواليك ؛ وفى كل هذا خسارة على الأمة . هذا عدا أن أناساً قويت عندهم حاسة الشم ، فإذا أدركوا أن وزارة ذات لون خاص ستأتى أسرعوا فانتسبوا إليها وتظاهروا أنهم

من رجالها . وقد كان هذا من مضار انقسام الأمة إلى أحزاب . فالحزبية لا تنجح مع شعب كهذا . وكثيراً مانسمع فى الأمم الأخرى عن استقالة وزير أو رئيس مصلحة لأنه طلب منه أن يفعل شيئاً لا يتفق مع العدالة ولا يصلح هذه الحال إلا توالى وزارات مختلفة تلتزم العدل ، وتفهم الناس أن المحسوبية لا تقدم ولا تؤخر ، وتبرهن لهم على عدلها ، لأن العدل وحده هو الحكم فيمن يصلح ومن لا يصلح ، وتقيم البراهين على ذلك من نفسها بتنوير الناس أن رجلا خير من رجل لكفاية لا لوساطة ، وأنه يتحرى المصلحة العامة لا الخاصة .

محمد على باشا

نذكره أيضاً لأنه بدء مرحلة فى تاريخ مصر ؛ فقد غير النظم التى كانت تأسست فى العهد العثمانى وغيّر نظامها وحكومتها ، فغيّر تقسيمات القطر المصرى وبدّل بها تقسيمات إدارية أخرى ، تكفل للسلطة حصر الموارد ، وقسمها إلى سبع مديريات ، كل مديرية عليها مدير ؛ اثنتان فى الوجه البحرى ، وواحدة فى القاهرة ، وأربع فى الصعيد ؛ وقسم كل مديرية إلى مراكز ، وكل مركز يرأسه مأمور ، والمركز يشمل جملة قرى ، وكل قرية يرأسها العمدة وشيخ البلد ، وشيخ البلد هو المكلف بتحصيل الضرائب وأموال الجباية .

ونظم البوليس والشرطة ، واهتم كثيراً بالجيش وتقويته ؛ وعلى أساس هذا الجيش أسست المدارس وأوفدت البعثات وعلمت الحرف المختلفة ؛ ثم غيّر النظام المالى للبلد ، فكانت أكثر الأطيان فى ملكه ، وكلّف الملتزمين أن يثبتوا ملكيتهم ، فلما لم يفعلوا جردهم عنها ووضع لهم مقداراً من المال محدداً يتقاضونه كل سنة ، أو كل شهر ، واستعان بالمصريين فى أعماله ، بعد أن كان لا يتولاها الأتراك . وهذه الطريقة فى الملكية لقيت تحبيذاً وانتقاداً ، وأكثر التحبيذ كان من جانب الفرنسيين ، لأنهم كانو أنصاره ، وأظهر النقّاد كانوا من الإنجليز لأنهم كانوا يكرهون تقرب الفرنسيين وحظوتهم ؛ يمثل ذلك ما كتبه كلوت بك الطبيب الفرنسى عن محمد على ، فكل كتابه مديح ؛ و«لين» الإنجليزى ، فكتابته مسممة بالنقد ، فقد قال إن كثيراً من أعماله قابلة للنقد .

وأيّا ما كان فلا يختلف اثنان فى أنه أخرج مصر من الحكم العثمانى وجعلها مستقلة بذاتها . وهذا الاستقلال ألزمها الاعتماد على نفسها فى المصانع والجيش والإدارة ، ثم نقلها نقلة جديدة لما جره هذا النظام من تغيير فى

العادات المصرية والتقاليد ، ثم أفادها باعتزازه بالنفس لما كسرت الجيش العثمانى .

وقد أخذ عليه الشيخ محمد عبده فى مقال له أنه أفقد المصريين شجاعتهم .

ولا يزال تقديره التام وتقدير أعماله فى ذمة التاريخ ، كالعين إذا قربت من المبنى الضخم لم تستطع تقويمه .

وقد كان الجبرتى المؤرخ رحمه الله جريئاً إذ نقده فى كتابه فى بعض تصرفاته . ولكن والحق يقال إن نظرات الجبرتى كانت جزئية ، ولم يستطع النظرة الكلية والتقدير الشامل . وعلى كل حال فقد كان صفحة جديدة فى تاريخ مصر ، فيها الحسن وفيها الردىء .

المحمل

إطار مربع من الخشب ، هرمى القمة ، له ستر من الديباج الأحمر ، وعليه زخارف وكتابة مطرزة تطريزاً فاخراً بالذهب على أرضية من الحرير الأخضر أو الأحمر ، وله قماقم أربعة من الفضة المطلية بالذهب ، وينتهى هذا الكساء بشراريب تعلوها كرات فضية يتفرع منها سلوك دقيقة .

وللمحمل مصلحة حكومية لإعداد كل هذه المواد الخام وصنعها بالقاهرة يشرف عليها موظف كبير . والناس يتبركون عادة بالمحمل ويتمسحون بالكسوة ، ويقبلون شراريبها ، ومن استطاع ذلك كان له الفخر حتى كأنه قبّل يد النبى صلى الله عليه وسلم .

والمحمل لا يحوى شيئاً إلا مصحفين صغيرين داخل صندوقين من الفضة المذهبة معلقين فى القمة ؛ ويحُمل المحمل على جمل ضخم ، يتمتع أيضاً بما يتمتع به المحمل ، من تبرك به ، وإعفائه من العمل بقية السنة ويسمى جمل المحامل . وقد قامت ضجة حول المحمل بسبب أن المملكة السعودية وهابية ، وهى لا تؤمن بالمحمل ولا بالأضرحة والقباب ، وقامت أزمة شديدة من أجل ذلك بين السعوديين ومصر ، وحل الأمر أخيراً بأن يحتفظ بشكل سفره ، ولكن لا يدخل الحجاز على ما أظن .

وهو قديم فى القاهرة من عهد شجرة الدر . ويحتفل به فى بعض شوارع القاهرة ، ثم يحتفل به فى ميدان القلعة ، ويحضر هذا الاحتفال من ينوب عن الملك والحكومة وأمير الحج و بعثته و بعض العلماء والكبراء ، وقد اعتادوا فى هذا الاحتفال أن يقبّل الأمير مِقْوَدَ الجمل . ويحتفل به مرتين فى العام : مرة عند طلوع الناس إلى الحج ، ومرة عند عودتهم منه ؛ وهو يثير فى الجماهير عواطف قوية شديدة نحو الحج .

وفى الاحتفال تضرب المدافع ، وتغنى أغانى الحجاج . . . إلخ .

مخ الحمار

يصفونه دواء لبعض الأمراض الروماتزمية ويتعب المريض فى إحضاره . ويزعمون أنه يُشفى من المرض بسببه .

المخللاتى

المخللاتى من يصنع المخلل ، ويسمونه أيضا الطرشجى ، ويكاد يكون فى كل حىّ من أحياء القاهرة دكان أو معمل للطرشى هذا ، مما لم أر له مثيلا فى البلاد الأخرى . وهم يخللون فيه اللفت والخيار والجزر والبصل وهو أكثرها لأنه أرخصها .

والناس يذهبون بسلاطينهم أومواجيرهم الصغيرة ليشتروا منه بقرش أو بنصف قرش ، فيضع فى القاع اللفت لأنه أكثر ، ثم قليلا من الأصناف الأخرى . ثم يضع عليه مرقا مخللا لُوِّن بلون أحمر يسمى الدقة .

والفقراء يعيشون كثيرا على الأكل منه . وكان فى مدّتنا فى الكتّاب يأخذ سيدنا من كل ولد نصف قرش ، وفى الظهر يرسل ماجورين صغيرين ، يملأ أحدهما طرشيا بمرقه ، ويملأ الآخر فولا نابتا بمرقه أيضا . ويلتف الأولاد حولهما فيأكلون من خبزهم ويلغوصون فى المواجير . وقد يكون أحدهم مريضاً فيعدى الآخرين .

وللمرحوم محمد (بك) جلال قصة أولها كان فيه واحد بياع طرشى ؛ يختمها بقوله : « الليفهش ما يخلهش » .

المداراة

والمصريون يتقنونها ولهم فى ذلك الحكاية المشهورة « أنا خادم الباذنجان ولاّ خدام عندك » ! فيروون أن سيّداً سأل طاهيه : ماذا تطبخ لنا اليوم ؟ قال له أمرك ! قال له ماذا تقول فى الباذنجان ؟ قال له ما شاء الله ! حلو لذيذ الطعم ، وظل يمدح فيه زمناً طويلا . ثم قال له سيده : ولكنه حارّ يعطّش ، فأخذ الطاهى يذمه أيضاً . قال له السيّد : إنك كنت تمدحه . فقال : الطاهى أنا للباذنجان أم لك ؟ وقد نظمها شوقى بك فى شعره . ومن أمثالهم المشهورة « إن دخلت بلد أهله يعبدون العجل حشّ وادّيله » وقالوا أيضاً : « أرقص للقرد فى دولته » .

وقال شاعرهم :

ودارِهم ما دمت فى دارهم
وحيِّهم ما دمت فى حيِّهم
وأحسن العشرة مع بعضهم
يعينك البعض على كلهم

ولهم حكايات كثيرة على أن من لم يجار الناس حاق به الهلاك . فيقولون مثلا إن سلطاناً وقع اختياره على رجل فقير ، فلما استوزر أغلظ للناس ونسى فقره ، فاغتاظ زملاؤه ، فلما ذهب لصلاة الجمعة مع السلطان وضعوا تحت سجادته صليباً ثم أعلنوا أمره فقتل وهكذا . وربما كان من أسباب كثرة ما يقع عليهم من ظلم الحكام والعسف بهم وكذبهم كثرة مداراتهم ، وقلة صراحتهم ، وعدم تململهم .

وقد رأى الجاحظ حماراً يحمل عليه حمل ثقيل فقال : « لو هماج هذا ما حمل عليه »

(انظر مجاملة)

المدفع

ليس يهمنا إلا أنه يستعمل عادة عند المصريين فى مواقف خاصة . فيطلق عند الإفطار فى رمضان ، وعند السحور وعند الإمساك .

ويطلق فى أوقات الأذان فى الأعياد : صباحاً ، وظهراً ، وعصراً ، ومغرباً ، وعشاء . يطلق فى كل مرة إحدى وعشرين طلقة ، وكذلك فى بعض المناسبات كعيد الدستور ونحوه . هذا فى الأفراح . وقد يطلق فى الأحزان كإعلان موت أحد من البيت المالك سابقا . ويطلق أيضاً طلقة واحدة عند ظهر كل يوم .

وإذ كان أغلب ما يستعمل فى الأفراح قلده الأطفال فى إطلاقهم البارود مصغراً فى الأعياد والمواسم . المسلمون فى أعيادهم ، والأقباط فى أعيادهم .

المرأة

المرأة المصرية مشهورة من القدم بخصائص ، وحتى الأجانب الذين زاروا مصر لفت نظرهم خفة روحها ، وجمال عينيها المسلبتين ، وحُسن قوامها ، ولطافة تقاطيعها ، وجمال مشيتها ، وظهور أنوثتها . وقد ذكرهن هيرودوت أبو التاريخ فى كتابه ، فوصفهن وصفاً غريباً إذ قال : إن النساء فى مصر يخرجن إلى الأسواق ويتعاطين التجارة ، والرجال يقيمون فى البيوت ويشتغلون فى النسيج ، ورجال مصر يحملون الأحمال على رؤوسهم ، والنساء على ظهورهن ، وأولاد الرجل الذكور إذا لم يشاؤوا أن يقوموا بمعاش آبائهم لا يجبرون ، أما الإناث فإذا امتنعن يجبرن .

وقد اكتشفت أخيراً وثيقة من وثائق قدماء المصريين فيها أن الرجل يتعهد أن يمهر زوجته عند تمام الزواج بمبلغ معين ينقدها إياه لتشترى به ثيابها ، ويؤكد أن يدفع المبلغ

فى السنة الأولى . ويتعهد بأن يجعل أكبر أبنائها منه وارثاً لكل ممتلكاته ، وأن يدفع لها غرامة إذا تزوج عليها غيرها .

ومن العوائد التى كانت مرعية قديماً أن يتزوج الرجل المرأة سنة زواجاً مبدئياً ، فإذا وافقت مشربه ثبّت زواجها وسلّم لها كل ماله وإذا لم توافق مشربه ردّها إلى أهلها بعد دفع تعويض . ثم إذا هو ثبت زواجها صار كأنه رقيق لها ، فلا يخالف لها أمراً ولا يتصرف تصرفاً إلا بإذنها ، وإنما يجب عليها شىء واحد هو أن تعوله فى حياته ، وتقوم بنفقة مأتمه وتحنيطه فى مماته . ولشدة سلطانها كان الرجل ينسب إليها فيقال إنه زوج فلانة وينتسب أولادها إليها فيقال فلان بن فلانة ومن أجل ذلك قال ديورودوس « إن الرجال كانوا عبيداً للنساء » ويقول هيرودوت : إن المرأة كانت تبيع وتشترى أيضا كالرجل ، والرجل يحيك ويغزل كالمرأة . ويظهر أن التاريخ يعيد نفسه ، فنحن فى مصر الآن سائرون فى هذا الطريق .

وقد جرت على ألسنة الشعب المصرى أمثال تدل على نظرة الرجل للمرأة منها :

(١) هنيّاك يامن عاش بلاهم ، وخلص من بلاهم .

(٢) المرأة ضلع أقصر ، ولسان أطول

(٣) جــو يخطبوها تدللت ، راحوا تركوها تذللت .

(٤) لو محبــة العرس تدوم ، كانت القيامة ما بتقوم .

(٥) قال لها يامره اطبخى طيّب ، قالت يا راجل كتّر إدام ... إلخ ...

والمرأة المصرية كـكل نساء العالم فى طباعهن مما يمتزن به عن الرجل ، ومايمتاز به الرجل عنهن . وقد قتل ذلك الموضوع بحثا علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس والاجتماع ، ووصلوا من ذلك إلى نتائج مختلفة .

وعلى العموم ربما كان محل اتفاق أن عواطف المرأة أرهف ، وعقل الرجال أقوى ، إلى آخر ما قالوا .

وتحكى حكايات فى المجالس الخاصة يفرط فيها القائلون فى حوادث الغرام ، ونحو ذلك مما لا تخلو منه أمة من الأمم ؛ وهم يرون أن هذه الحوادث حين الحجاب كانت أكثر مما هى بعد السفور . والسبب فى ذلك أن المرأة فى القديم كانت فى الطبقة الوسطى والعليا فارغة ليس لديها ما يشغل زمنها ، إذ عنـدها فى البيت خادمات وخادمون يقضون كل حوائج البيت ، وليس لديها علم

حتى تقرأ الكتب وتحسن قراءتها . وهى فى المجالس تسمع من زوارها الأحاديث الفارغة وأحاديث الغرام ، فتنصرف بكليتها إلى ذلك فلما كثر تعلمها قلّ زللها . ومن قديم قال أبو العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء أى مفسدة

وليس الذنب ذنب النساء وحدهن بل يشاركهن الرجال فى ذلك .

وقد كنت فى استانبول فى سنة ١٩٢٨ فقال لى رجل تركىّ مثقف : إن سمعة مصر عندنا ، ولامؤاخذة، تتلخص فى ثلاث كلمات : شهوت ، وغفلت ، وثروت ، وإلى الآن تتدفق فى أوربا كل صيف أموال المصريين الوافرة على القمار والنساء ، مما لايرى مثيله بين السائحين . وتميزت المرأة المصرية بتبرجها وبهرجتها بما تسبى به عقول الرجال من ترقيق الحواجب واستعمال الكحل فى إناء صغير من الفضة أو البلور ، يسمونه المكحلة يدخلن فيه عند الاستعمال عودا كذلك من الفضة أو البلور يسمى المرود . ومن الأمثلة العامية المشهورة « جبال الكحل تفنيها المراود » وهذا الكحل يجعل الأجفان سوداء براقة ، وهن يصبغن أظفارهن باللون الأحمر غالبا ، وكان فى القديم بلوّن بالحناء .

وتتزين الفلاحات بالوشم ، ويسمونه الدّق ؛ وقد مرت المرأة الأوربية بهذا الدور ، ثم اقتصرت أخيراً فى الزينة ، وهذا ما نحن سائرون إليه .

وأجمل النساء المصريات من كانت من أصل شركسى ، وكثيراً ما كانت تتألف منهن الحظيّات فى القصور ودور الأغنياء . وجمالهن من بياض بشرتهن وحسن تقاطيعهن الزاهية وقلما يباريهن فيه أى جنس غيره . هذا إلى عنايتهن بالملابس وتزويقها ، واختيارها من الألوان ، وتحليتها بالجواهر واختراع كل حين بدعاً يسمى موضة ، وإكثارهن من الكلام الناعم وترقيق الصوت والخلاعة فى المشية والحديث ونحو ذلك . وعنايتهن بتفصيل أثوابهن حتى يبدين زينتهن .

وربما كان هذا كله سبب كثرة الأحاديث عنهن واتهامهن بأكثر مما تتهم به المرأة فى البلاد الأخرى ، وقد يكون ذلك حقيقة إذا نظرنا إلى ما يسود الرجال من كيوف ، فليس لذلك كله قصد إلا النساء .

وقد اشتهرت المرأة المصرية بأن كيدها عظيم ، وأن كيدها يغلب كيد الرجال ؛ وكن قبل الحركات الأخيرة يعشن فيما يسمى الحريم جاهلات غير متعلمات ، بين الخادمات والأغوات ، مع ما يبذل الرجال من تزويق الحريم وتجميله .

وفى الأزمان الماضية كان المحارب المهزوم إذا التجأ إلى الحريم أصبح آمنا حتى فى عهد المماليك . وكن ينتقلن قبل السيارات على حمير ، وكن يقبلن هذه المعيشة عن رضا واختيار ، وكل متعتهن فى الغالب داخل بيوتهن ، فلما تسربت إليهن أخبار النساء فى أوربا وسيطرتهن ، وخضوع الرجال لهن ، وحسن معاملتهن ، ثار النساء المصريات على أوضاعهن .

وكان نابليون يحكى فى مصر حكاية غريبة ، وهى أن أحد كبار الفرنسيين واسمه « منو » ، وتسمى بعبد الله بعد إسلامه ، تزوج امرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات ، فكان يقبّل يدها ويمشى وراءها إلى غرفة الطعام ، ويجلسها أوفق مجلس ، وإذا وقعت الفوطة من على رجليها ناولها لها . فلما روت الزوجة هذه المعاملة وأمثالها على النساء فى أحد حمامات رشيد ملن إلى تغيير أحوالهن وتعهدن أن يحملن أزواجهن على مثل هذه المعاملة .

وقد تسربت أخبار هذه الحادثة من رشيد إلى سائر القطر . هذا عدا ما تنقله السائحات المصريات من أوربا إلى مصر .

ومن قديم حمل الرجال كثيراً على النساء حتى إن أبا العلاء المعرى أكثر القول فى لزومياته فى استهتارهن ودعوتهن إلى لزوم بيوتهن .

وقد بُنى نظام الحياة الاجتماعية على فصل الرجال عن النساء ، فى المسكن ، وفى التعليم وفى الركوب ، ونحو ذلك .

فسبب هذا انحطاطا للمرأة ، كما سبب انحلالا فى الأخلاق والعادات .

ثم تغير هذا كله فاتصلت الفتاة بالفتى فى التعلم ، وأصبح المسكن معدا للأزواج والزوجات على السواء من غير حريم . ولا بأس للمرأة أن تركب فى الترام مع الرجال . وهكذا ... فهذه العوامل قربت فى الأخلاق بين الجنسين ، وفى التعليم بين الصنفين ، وأزالت كثيراً من الفروق . ولما وجدت المرأة نفسها متعلمة ، اعتزت بنفسها ورأيها ، وأبت أن يسود عليها الرجل ، وطالبت بالمساواة فى كل شىء ، حتى تكون منتخِبة ومنتخَبة ، وستنال ذلك قريباً أو بعيداً .

وتمتاز المرأة المتعلمة بتقليلها للزينة والتبرج ، كما كانت أختها من قبل ، وملء وقتها بالقراءة والمطالعة والفنون الجميلة من رسم وتصوير وموسيقى ، وميل إلى قلة الأولاد حتى يكون لهن وقت من الفراغ ، وتربية الأولاد على أساس علمى لاخرافى ، ومطالبتها بالسلطة المنزلية ، وكثير منهن بلغ الغاية فى ذلك ،

فأخضعن الرجال لإرادتهن كما كان الحال فى عهد هيردوت ، بل بدأن فى مزاحمة الرجال فى العمل . فأصبح منهن المحاميات والطبيبات ، بل والمهندسات والتاجرات والموظفات فى الحكومة . وعلى الجملة فهن يسرن إلى غايتهن بخطوات واسعة .

المراباة

شاع بين المصريين التعامل بالربا مع حرمته فى دينهم ، ومن الغريب أنهم يستبيحون أخذ المال بالربا ولا يستبيحون إعطاء المال بالربا ، ولذلك كان أكثر المرابين أرواما أو أرمنا ، وكانوا فيما مضى يتغالون فى الأرباح إلى أن قيدها القانون بتسعة فى المائة ومع ذلك فللمرابين وسائل ماكرة فى الحصول على أرباح أكثر من ذلك . وينتشر الأروام فى بلاد الفلاحين وينتهزون فرص الحاجة إلى المال ويمدّونهم به ، فإذا لم يدفع المدين الفائدة تضاعفت هذه الفائدة المطلوبة . أضف إلى ذلك مايستتبع هذا من مغالطة فى الحساب ، ومن أساليب خدّاعة لا يستطيع أن يفهمها الفلاح البسيط .

وفى القاهرة نوع من النساء المرابيات تعطين الجنيه بفائدة قرشين أو ثلاثة فى الشهر وتدّعين أنهن يعملن ذلك خدمة للمحتاجات وكم أفلست بيوت من جرّاء هذا الربا .

المستوقد

فى كل حىّ تقريباً مستوقد تأتى إليه طائفة الزبالين بالزبالة يرمونها فيه . وهؤلاء الزبالون عادة من أهل الواحات الخارجة أو الداخلة . وهم يوقدون هذه الزبالة ، ويستخدمونها فى أغراض شتى ، فيحمون بها الحمام الذى يكون بجوارها عادة ، وينضجون فيه قِدَر الفول المدمس التى يأتى بها باعة الفول فى أول المساء ويستلمونها فى الصباح الباكر . وما تبقى من رماد هذه النار كان يستعمل فى البناء : يخلطونه مع الجير والرمل ، ويسمونه « القُصْرُمِلّ » ، وهو أسود اللون بسبب احتراقه ؛ ويشبهون عادة الرجل القذر المغبّر فيقولون : زىّ الخارج من المستوقد .

المسحراتى

رجل يمسك بيده اليسرى طبلة ، وبيده اليمنى سَيْرا من الجلد أو خشبة يطبل عليها فى رمضان وقت السحور . ويغنّى لذلك أغانى مناسبة بنغمات خاصة ، ويكون لأغانيه سحر خاص ، لأنه يغنى ويطبل فى وقت خشعت فيه الأصوات ، وقلّت الحركات . ويفعل كذلك طول شهر رمضان ، ثم يمر على البيوت فى العيد يتقاضى أجره .

ومما يلاحظ غرابة هذه النسبة . وهى نسبة قد يستعملها المصريون ، كالمكباتى والعجلاتى والمبخراتى ، وكان القياس أن يقال المسحِّر فقط . والنسبة فى اللسان العامى على أشكال مختلفة ، إحداها هذه ، وأخرى مأخوذة من اللسان التركى ، وهى إضافة جى على الآخِر ، فيقولون جزمجى وخردجى وعربجى ، وهناك النسبة العربية كليثى ودمشقى ، وهناك زيادة الواو والياء بعد الألف مثل طنطاوى ومعدّاوى وعبد اللاوى . ومنها النون والياء بعد الألف مثل معجبانى ، للرجل المعجب بنفسه ، وكنفانى .

المش

هو الطعام الأساسى للفلاحين ؛ فأكثر ما تحمله المرأة الفلاحة إلى زوجها فى الغيط هو المشّ القديم فيه جبن قريش ومعه خبز كثير « بتاو » ، فيأكله مع البصل الأخضر أو الكرات ، ويشرب الماء القذر من القناة ، وربما لا يذوق الفلاح اللحم طول السنة من العيد الكبير إلى العيد الكبير

والمش أنواع : خيره مايسمى « مش الحصير » ، وهو يؤكل فى المدن أيضاً بعد أن يضاف عليه قليل من الزيت والليمون ، وكثيراً ما يصاب بالدود ؛ وهم يعتقدون أن الدود يتولد منه ، وهو اعتقاد خاطىء ، فقد أثبت العلم أن الحىّ لا يتولد إلا من الحىّ .

ومن الأمثال المشهورة عند ما يرون أسرة دبّ إليها الفساد ، وتعادى بعضهم مع بعض أن يقولوا : « زى دود المش منه فيه » . وأكثر ما يخزنه الفلاحون بلاليص المش .

وكثيراً ما يحدث أن لا يتبقى للفلاح غير المش بعد أن يدفع ما عليه من مال وواجبات .

وهم يعتقدون أن المش مع البصل يطرد الجرب . ومن أمثالهم « زى المش ، كل ساعة فى الوش » .

المشروبات

أكثر المصريين المسلمين لا يشربون الخمر لنهى الإسلام عنها ، ويكتفون بشرب الماء على الأكل ، ولكن لهم مشروبات أخرى ؛ من ذلك قهوة البن . وطريقتهم فى ذلك أن يجلبوا البن من اليمن أو البرازيل أو نحوها ، ثم يحمصوه ، ثم يطحنوه ، ثم يغلو الماء فى التنكة « الكنكة » ، ثم ينزلوها من على النار ويضعوا فيها قليلا من البن المطحون ، ثم يعيدوها إلى النار وينتظروا حتى تبدأ فى الفوران . وهى منتشرة فى مصر ، وقلّ أن

يخلو أحد من مشربها . وهى تقدم فى الصباح عند الفطور ، وللضيف عند زيارته لأى بيت فى أى وقت ، وهى تقدم فى فناجين صغيرة تأتى عادة من اليابان أو الصين أو يوغوسلافيا ؛ ولكل فنجان طبقه الصغير ؛ و بعض النساء لا يتكيفن من القهوة إلا إذا عمِلْنَها بأيديهن على نار من الفحم الهادىء . و يلى هذه الطريقة ما يسمى بالقهوة الفرنساوى ، وهى عادة تصنع من البن الجريش ، و يستعملها بعض الممدنين .

وعند ما اخترعت قهوة البن اختلف فيها علماء الدين : أهى محرمة أو محللة وألفت الكتب فى تحريمها وتحليلها ، مثل « كتاب الصفوة فى حلّ القهوة » ، ثم انجلى هذا الخلاف على إجماع على حلها .

وبعض النساء من المصريات يتخذن فنجان القهوة وسيلة لمعرفة الغيب عن الرجل أو المرأة ؛ فإذا شرب من يريد معرفة مستقبله كفأ فنجانه فى الطبق وصبر قليلا ، ومن العادة إذا كفىء هكذا أن تتبين فيه خطوط وتعريجات تقرأ فيها المتنبئة أو المتنبىء بالمستقبل حسبما يرى أو ترى .

و بعض الناس يستعملها « سادة » أو بسكر قليل أو كثير .

وهناك فى مصر قهاوى كثيرة تقدم فيها القهوة بجانب المشروبات الأخرى . فتقدم فيها القهوة فى فنجان بطبق حسب الطلب ، ومعها كوب من الماء على صينية من المعدن . والمقهى عادة محل لمقابلة من يراد مقابلته لحديث أو قضاء عمل أو لقضاء وقت فى نرد أو شطرنج أو كلام فارغ . ومن مشروباتهم الشاى ، والقرفة ، والزنجبيل واليانسون والمغات .

و إذ كانت البلاد حارة والماء قليلا يصعب الحصول عليه ، وجدت دكاكين الشربتلية تبيع الخروب والتمر هندى والليمون الخ ... و يوجد باعة متجولون فى الشوارع يبيعون العرقسوس والليمون فى جرة لها بزبوز أو بطرمان له بزبوز كذلك . ويشبهون الدم الخفيف بالشربات فيقولون « دمه زى الشربات » .

وقد رأيت أهل الواحات الخارجة يستعملون الحلبة المدقوقة شرابا لذيذاً بارداً يدفع العطش . ومن الأشربة التى كانت مستعملة نبيذ البلح أو الزبيب أو التين . وكان أمام باب سيدنا الحسين فى القاهرة محل كبير لبيع هذه الأنبذة ، وفى الأيام الأخيرة وجد فى مصر والإسكندرية دكاكين لبيع المشروبات سموها « جنة الفواكه » ، فهى

تبيع عصير البرتقال وعصير القصب فى الشتاء ، وعصير الأناناس والخرشوف وحَب العزيز والمانجو والعنب فى الصيف . وفيها قسم لبيع مزيج اللبن بالقهوة أو الكاكاو ، وغير ذلك . وكلها تدار بالكهرباء على آخر طرز . وكثيراً ما كنت ترى فى القاهرة بياعى العرقسوس والخروب والليمون ، وهم عادة يضعون فى أيديهم بعض أطباق نحاسية ، وبعضهم يستطيع أن يوقع عليها نغمات موسيقية جميلة ، فيلفتون إليهم الأنظار .

وفى العصور الحديثة انتشرت مصانع الفازوزة والكاكولا والبيبسى كولا ، ثم قامت قيامة الناس على الاثنين الأخيرين بحجة أن فيهما مادة من عصارة معدة الخنزير ، فقلّت رغبة الناس فيهما رغم ما استخرجته هذه الشركات من فتاوى دينية وطبية . وحبذا لو ألفت شركات مُصرية لبيع المشروبات المصرية ، كالليمون والبرتقال والخروب والعرقسوس ، وليس ينقصهم للنجاح فى ذلك إلا رأس المال والنظافة .

المصارع

هو رجل كان يلبس لباساً من الجلد ونصفه الأعلى عريان ، و بيده زخمة ، و يسمى مصارعا ، يضرب بها على رجله أحيانا . وكان يمشى فى الزفات بدعوى أنه يحرسها من الخصوم ؛ وهى مأخوذة من المصارعة ، فقد كانت أشكالا وألوانا . فمصارعة بالملكمية ، وهى الضرب بجمع اليد على قوانين خاصة ، والمصارعة بالنبابيت . وقد تكون المصارعة مصارعة فرد لفرد ، وقد تكون مصارعة جماعة لجماعة ، كمصارعة الفتوات فى الجبل . وعامة المصريين ينطقونها بالسين .

المصايف والمشاتى

اعتاد المصريون خصوصا أهل القاهرة أن يتغلبوا على الجوّ بالمصايف والمشاتى ، فيصيفون فى الإسكندرية ، أو رأس البر عند دمياط ، أو بور سعيد ، ويشتون فى الأقصر أو أسوان أو حلوان .

وكثير من الذوات وأولادهم يفضلون التصييف فى أوربا ، كسويسرا وشمال إيطاليا

وهناك ينفقون النفقات الطائلة ، حتى عرف المصريون هناك بالسرف فى الترف والشهوة ، وعدم المبالاة بالمال ، واللعب على موائد القمار . ومن أجل ذلك لا تعجبهم المصايف المصرية ولا الشرقية ، لأنها أقل حظا من الملاهى وأدعى إلى التحرر من القيود التى تتطلبها معرفة الشخص .

المصحف

كثير من الناس يتبركون بحمل مصحف صغير الحجم على صدورهم . وقد يوضع فى علبة صغيرة ذهبية ، ويعلق فى سلسلة ذهبية أيضاً . وكثير يضعونه تحت رؤوسهم إذا ناموا ليمنع عنهم الأذى .

وقد بالغوا فى العناية بخطه وتحليته بالذهب وما إلى ذلك ، واختيار الورق الذى يطبع عليه . وإليه ينسبون عدم الأذى والضرر ، فإذا هبّ حريق فى البيت فأطفىء ، أو فشل سارق فى سرقة شىء ، نسب ذلك كله إلى وجود المصحف فى البيت . وقد لا يكون الرجل متدينا فلا يؤدى الصلاة ولا الصوم ، ومع ذلك يحرص كل الحرص على اقتناء المصحف . وهو كثير الانتشار بين المسلمين ، يعتقدون فيه الاعتقادات الكثيرة هو والبخارى . ومن حين لآخر تطبع دار الكتب مائة ألف نسخة مثلا أو أكثر فلا تلبث أن تذهب . وهم يحافظون على خط المصحف ، وهو الخط العثمانى ، نسبة إلى عثمان بن عفان ، فيكتبون الصلاة والزكاة بالواو ، ورحمة الله بالتاء المفتوحة أحيانا والمربوطة أحيانا ؛ ومن أجل ذلك لا يحسن قراءته إلا من كان يحفظه من قبل . وقد اشتهر الأتراك بحسن الخط فى المصحف . وإذا أراد بعض المصريين تأكيد القسم أحضروا المصحف واستحلفوا الذى يراد تحليفه بقوله وحياتك يا دى المصحف ، أو وحياة المصحف ده واللا أعـدم عينى وهكذا .

وشغف بعض الفنانين بجمع المصاحف الخطية والمطبوعة . وأعرف منهم من أنفق كل ثروته فى ذلك ، كالآخرين الذين ينفقون أموالهم فى جمع السجاجيد العجمية .

المصرية

للشخصية المصرية خصائص ظاهرة بسبب أنها تداول عليها أمم كثيرة من يونان ورومان وفرس وعرب ومماليك وشراكسة وأتراك وفرنسيس وإنجليز وطليان ومع ذلك هضمتهم أكثر مما هضموها .

نعم قد أخـذوا بعض عوائد وكلمات واستعمالات ، ولـكن ما أثرت هى فيهم

أكثر، وربما كان أقل الأمم تأثرا الإنجليز، لأنهم أبوا أن يندمجوا فى المصريين وترفعوا عن مخالطتهم والزواج منهم، إلا فى القليل النادر. وكما أن لرجولتهم سحنة خاصة فلهم شخصية معنوية خاصة، ربما كان من أصعب الأشياء وصفها، فهى شخصية ذكية فنية، تدرك الجمال وتتذوقه، ذات عواطف حادة يؤثر فيها الكلام الناعم — شهوانية تستعين كثيراً بالعقاقير التى تثير الشهوة وتكثر من الكلام فى وسائلها — تحب الأرض وتحب الالتصاق بها وتكره السفر من بلد إلى بلد آخر. صبورة على تحمل المشاق، حتى كاد صبرها أن ينقلب رذيلة، فهى قل أن تثور لظلم يلحقها ولا لكارثة تنزل بها ففعلت بها الأمم المحتلة الأفاعيل الشنيعة، ومع ذلك تحملت وارتقبت الفرج، ولكن مع صبرها وحلمها، إذا ثارت حطمت كل ما أمامها من دون إدراك للعواقب، وقبل أن تثور تفرج عن نفسها بنكتة لاذعة أو أغنية لامعة أو مثل تستعمله — يغلب عليهم الكرم أكثر مما تغلب عليهم الشجاعة — وهم سريعو النسيان للحوادث، فمن عاملهم معاملة سيئة ثم أعقب ذلك بحسنة نسوا السيئات بجانب الحسنة، كالحاكم التركى قد يغلو فى الظلم ثم يتبع ذلك ببناء مسجد أو حجة يحجها أو سبيل ينشئه أو مصحف يحمله أو نحو ذلك فيغتفرون له إساءته. يغلب عليهم السرور حتى كان من الغريب أن أكثر الناس شقاء أكثرهم مرحا وغناء، كأن الطبيعة تعوضهم بذلك عن بؤسهم — وهم كثيراً ما يخدعون بالمظاهر ويميلون إلى الكسل حتى لتجد الرجل ليس عنده قوت يومه ثم لا يتحرك لكسب الرزق، وإذا كسب مالا انقطع لينفقه فى سخاء، ولم يحسب حساب المستقبل وقال إصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب — يتجلى ذلك كله فى الأمثال الدائرة على ألسنتهم، والأقوال الشائعة التى ينطق بها مجانزهم، كما يتجلى ذلك بمقارنتهم بغيرهم من الأمم.

المعجون

المعجون والمنزول بمعنى واحد. وهو منتشر بين الطبقات وخصوصاً طبقة الفقير. وهو مما يضرها ضرراً بليغاً. والقصد الأكبر منه تخدير الأعصاب عند الاتصال الجنسى؛ وهو مزيج من بعض العقاقير يضاف إليه بعض من الحشيش، ويعجن جيداً. ولذلك يسمى المعجون.

ويسمون الرجل الذى يبيعه «تحفجى» ويسمى المعجون نفسه «تحفة»، وكم له من

ضحايا كثيرة بسبب الحشيش الداخل فيه ، وبسبب تهييج ما يضاف إليه من بهارات للأعصاب . وقد يضيفون إليه شيئاً من العنبر لتحسين رائحته ولتنشيط الدورة الدموية .

وأعرف شابا من أولاد الأغنياء كان ذكيا مؤدباً فى سن الثلاثين ، ورث أموالا طائلة ، وكان متزوجاً ، فلما حصل على هذا الإرث احتاط به جمع من الشباب الفاسد ، فتزوج بأخرى ، وبعد أسابيع قليلة تزوج بثالثة ، ثم برابعة ، وسقط فى هذه العادة الرديئة ، ويجمع هؤلاء الأربع كل ليلة ويتلاعبون ويرقصون ويغنون ويفعلون الأفاعيل الشائنة ، لأنه فى حالة الذهول .

وأخيراً ضعف عقله ، وانحطت قوته ، حتى صار لا يقوى على المشى ، وإذا تحرك للضرورة أسندوه إلى أن يعود إلى فراشه ، ولا يقوى على وضع اللقمة فى فمه ، واستمر على هذه العادة الرديئة حتى مات .

وكنا فى مجلس فأتت هذه السيرة فقال الآخر : كنت أعرف رجلا أفغانيا ادعى أنه يستحضر الجان ، وكان يتاجر فى بعض السلع فاشترى حماراً ووضع عليه خرجاً ، وكان يتنقل فى الأرياف حتى وصل أمره إلى المنصورة ، ونزل ضيفاً على رجل وادعى أنه يستحضر الجان ، وكان المضيف مضطراً إلى مباشرة أطيانه ، فكان يتركه فى البيت ويذهب إلى عمله ، وهو يدّعى أنه يستحضر الجان ، فاتصل بنسائه ، وما زال على ذلك الحال وهو يتعاطى المنزول إلى أن صار لا يفيق منه ، فوقع فى إغماء شديد واضطر من معه لإحضار الطبيب ، فلما أفاق هرب .

وقال آخر : كنت أعرف شابامتعلما من ذوى الشهادات العالية ، ثم وظف فى الحكومة ، وورث عن أبيه بعض المال ، وانهمك فى المعجون حتى كان يسكن فى ماخور من المواخير ، واختلط عقله أخيراً ، فكان يتكلم كلاما رفيعا ، ولكن سرعان ما ينتقل من موضوع إلى موضوع . ثم يطيل الصمت ثم يرفع رأسه ويلتفت يميناً وشمالا ويقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وكثيراً ما كانت تنهمر الدموع من عينيه إذا أفاق .

وقال ثالث : كنت أعرف رجلا تجاوز الخامسة والثلاثين ، كاتب حسابات فى إحدى المديريات ، وكان أديباً لطيفاً ، لا يأخذ عليه مَن جالسه أقل شىء . ثم وقع فى المعجون فأصيب فى عقله ، فكان إذا رأى من بعيد مطربشاً هرب منه خوفاً من أن يعرفه .

وقال رابع : جاء رجل كردى إلى مصر وأقام بها وتزوج ، ثم ماتت زوجته فورث بعض الشيء من قريب له ، ثم وقع فى هذا المعجون ، وأخيراً أشعل النار فى نفسه … وهكذا ، من ضحايا …

وهم يسمون المعجون أحيانا « لسان العصفور » و « البلبل » و « حلاوة سمسمية » و « خلطة عنبرية » و « حجر الذخيرة » الخ .

وهو منتشر فى مصر انتشار الحشيش لأنه نوع منه حتى اضطرت الحكومة أخيراً إلى تشديد العقوبة عليه .

المعدِّدة

هى امرأة تدعى للغناء بنغمة حزينة فى مجتمع النساء فى المآتم ، وهى تستفسر أولا عن الميت ومَن هو ، وعلى أى حال كان ، وما فضائله ومزاياه ؛ وتصوغ من كل ذلك كلاما فى تعديدها يثير كوامن النفوس ، ولها لسان فصيح وقدرة تامة على الإبكاء ، و بعضهن يصحبن معهن الدف ، فيثرن بذلك دوافع اللطم على الوجه ، خصوصاً فى الأوساط الدنيا . و بعضهن يستعملن فى هذا أيضاً النيلة يصبغن بها وجوههن ، ولها طرائق فى التعديد . فتشعّب حديثها إلى نواح كثيرة ، مرة على الغرقى ومرة على الحرقى ومرة على القتلى ، ومرة على الموتى بأنواع مختلفة ، وفى كل مرة تثير شجون بعض من يسمعهن كلامها .

وهن فى الفصاحة يشبهن الأدباتية فى فصاحتهم . ويقابلهن فى ذلك العوالم فى الأفراح يثرن السرور . ولكلٍّ نغمات . ويشجع العوالم الرقص والضرب على الدربكة ؛ ويشجع المعدّدات اللطم والضرب بالدف والنيلة .

وقد قلّت هذه العادة حتى كادت تفنى .

معلهش

يكثرون عادة من استعمالها عند نزول كارثة فى ولد أو مال إعلانا بالرضا بالقضاء والقدر . فإذا مات ابنه قال « معلهش » ، و إذا تلف زرعه قال « معلهش » ، وهكذا … وقد يتضاحك الفرنج على مصر فيقولون : بلاد معلهش .

المغاورى

هو شيخ فى جبل الجيوشى ، يعتقد النساء أن من زارته وكانت عقيما ولدت ، ولعله حدث ذلك مرة أو أكثر بسبب وجود رجال من سيِّئى الأخلاق ، انتهزوا هذه الفرصة واتصلوا بالمرأة . وكان العيب من زوجها فحملت . فأشاع هؤلاء الرجال والنساء هذا الخبر ؛ الرجال لإرواء شهواتهم ، والنساء لستر موقفهن . والله أعلم .

المغسَل

كان فى جوار بيتنا قريباً من ميدان المنشية مكان معد لغسيل القتلى والمشنوقين. وكانت تُحضر إليه القتلى ملوّثين بدمائهم. وكان النساء يهجمن على هذا المغسل إذا علمن بقتيل، فتغمسن بعض الثياب فى دمائهم، يدّعين أن ذلك يحبّل من لم تحبل.

المفارقات

هى نوع من أشهر أنواع الفكاهات المصرية، ويعنون بها الجمع بين شىء ونقيضه، أو ما يبعد عنه ويخالفه . . . ذلك مثل قولهم: « البردان يقلع عريان ». وفى هذا الباب طرف مليحة كثيرة. وقد أكثر منها الشيخ حسن الآلاتى فى كتابه «مضحك العبوس»؛ من ذلك قوله: « روح خد لك مكان فى خان جعفر، بيع جلة ونيفة وكدب أخضر »، وخان جعفر هذا سوق مشهورة فى طنطا، يباع فيها الحرير والجوخ والأصواف القيمة. ومثل قوله: « قال لها وحياة جمالك وافتنانك، قصدى فى الهوى أقلع سنانك » والمفارقة فى قوله « قصدى أقلع سنانك ». ومن ذلك أن رجلا فلاحاً من أهالى الشرقيـة كان ذكيا وكان خفيف الروح ذهب إلى خان جعفر هـذا ووقف على دكان من دكاكينه المشهورة بالأجـواخ والأصواف والحراير وأخذ يقلب النظر فيها، ودعاه صاحب الدكان وقال له تفضل ياعمدة! فلم يأبه به، ومكث ينظر طويلا، ثم اتجه إلى دكان آخر ينظر إليه، فقام صاحب الدكان وشده من يده ليعرض عليه ما عنده، وقال له: والله العظيم ما عندى لا يوجد عند غيرى وقدم له سيجارة كبيرة ثم فنجاناً من القهوة، ثم سيجارة أخرى، ثم قال له: ماذا تطلب؟ قال له الفـلاح: لا أظن أن طلبى يوجد عنـدك! قال التاجر: أتريد جوخ امبريال من أحسن الأصناف؟ قال الفلاح: لا. قال التاجر: كشمير صـوف معتبر؟ قال: لا. قال: شاهى أو قطنى من أحسن صنف؟ قال: لا. قال التـاجر: عصب حرير أو أثواب كريشـة أحسن ملبس؟ قال: لا. قال: إذاً ما هو مرادك؟ قال الفلاح: إنى أريد طواجن فخار لقلى السمك. فاصفر وجه التاجر وقال: يا فلاح يا حمار! أفى دكان الحراير والجوخ تسأل عن الطواجن الـكبار؟

وقام من عنـده بعد ما شرب القهوة والسجاير.

وتعجبنى قصيدة فى هذا لصريع الدلاء

عارض بها مقصورة ابن دريد يقول فيها :

من لم يرد أن تنتقبْ نعاله
يحملها فى كفه إذا مشى
من دخلت فى عينه مسلّة
فاسأله من ساعته عن العمى

الخ . . .

* * *

وهناك قصيدة أخرى فى هذا المعنى :

الأرض أرض والسماء سماء
والماء ماء والهواء هواء
والبحر بحر والجبال رواسخ
والنور نور والظلام عماء
والحرّ ضد البرد قولٌ صادق
والصيف صيف والشتاء شتاء
والمسك عطر والجمال محبب
وجميع أشياء الورى أشياء
والمرّ مرّ والحلاوة حلوة
والنار قيل بأنها حمراء
والمشى صعب والركوب نزاهة
والنوم فيه راحة وعناء
والماء قيل بأنه يروى الصدى
والخبز واللحم السمين غذاء
ويقال إن الناس تنطق مثلنا
أما الخراف فقولها مأماء
كل الرجال على العموم مذكر
أما النساء فكلهن نساء
والميم غير الجيم جاء مصحفاً
وإذا كتبت الحاء فهى الحاء
إن المدام لدى التعاطى مسكر
وبشربه قد جُنّت العقلاء
مالى أرى الثقلاء تكره دائماً
لا شك عندى أنهم ثقلاء
وإذا سئلت عن الثقيل فقل لهم
الناس عندى كلهم ثقلاء

المفتّقة

وتسمى « حلاوة مفتّقة » ، وهى سوداء اللون ، يفطر بها بعض الناس ، ويصفونها للنحيفة حتى تسمن . وتصنع من جملة مواد يبلغ عددها على قولهن نحو أربعين صنفا ، أكثرها من الثمار الزيتية ، وهى عسيرة الهضم. وأبين ما فيها العسل الأسود والزيت ، ويضعون فى داخلها بندقا مقشرا ، وقد يرشون عليها سمسما . ويزعم بعض الناس أن بعض النساء مبالغة فى السمن يضفن عليها بعض الخنافس .

المقاطعة

إذا قال الرجل سأفعل كذا ، قالوا : بلاش مقاطعة ، أى لا تسبق الزمان ، فلعل المقدر يعاكسك ، وقل إن شاء الله .

ويحكون أن رجلا كان عنده جرّة كبيرة مملوءة لبنا ومعلقة فى السقف ، فنام فى سريره ونظر إلى الجرّة فتمنى الأمانىّ أن يبيع اللبن ويشترى بثمنه بيضا ، ثم إذا كثر البيض باعه واشترى نعجة ، والنعجة تلد له شياها كثيرة ، فيسرح بها ، وإذا خالفته إحداها ضربها بعصاه هكذا ، وحرك عصاه فأصابت الجرة فكسرت وذهب سدى مافيها من لبن .

يحكونها للدلالة على أن الأمانى قد لا تتحقق ، ويسمون هذه مقاطعة ، وأن المقاطعة قد تنعكس على صاحبها ، بل إنها كثيراً ما تدعو القدَر إلى معاكسته .

وتستعمل كلمة المقاطعة أيضاً فى أن يقاطع الإنسان الآخر ، أثناء كلامه ، فلا ينتظره حتى يتم كلامه . واشتهر المصريون بذلك أيضاً ، فلا يكاد يبدأ المحدّث حديثه حتى يقاطعه سامعوه . ولذلك يسرع المتحدث فى حديثه شاعراً بالخشية من أن يقاطعه أحد . وهم فى حاجة إلى أن يتعلموا فنّ السماع ، فللسماع فنّ كفنّ الكلام ، فيتركون المتحدث فى حديثه إلى أن يتمه ، ثم لهم الحق فى أن يردوا عليه إلى أن يتموا ردّهم .

المقوّيات

أولع المصريون من قديم بالمقويات على أشكال مختلفة ، من منزول ومعجون ، وكذلك الشرقيون . وتقرأ القاموس المحيط للفيروزابادى ، فلا تكاد ترى صفحة من صفحاته خالية من دواء أونبات ، ينص على أنه يقوى الرجل كأنه اختصاصى فى هذا الموضوع . وأخيراً زعم الفرنج أنهم اكتشفوا أشياء تفعل فعل هذه الأشياء الشرقية ووردوها إلى الشرق ، كخصا الثعلب وغيره . (انظر معجون ومنزول) .

مقياس الروضة

كان مقياساً قديماً من قبل الإسلام ، فلما اختلّ بناؤه بنى سليمان بن عبد الملك الأموى العمود الموجود الآن للمقياس ، بدليل الكتابة التى عليه . وقد اختل مراراً ثم أعيد ترميمه ، وقد اعتنى المصريون من قديم بهذا المقياس ، لأن النيل عندهم هو رب ثروتهم والعامل لخيرهم ، ولولاه لكانت مصر صحراء قاحلة .

وقد أنشأوا المقياس ورتبوا عليه تحصيل الضرائب ، لأنه إذا لم يرتفع أو علا كثيراً فغرّق الأرض لم يكن من العدل تحصيل الضرائب كالمعتاد ، والزيادة المعوّل عليها هى ما بين ستة عشر ذراعا وأربعة وعشرين .

وجعل هذا المقياس فى الروضة بحيث يدخل الماء إلى حجرة لا يفعل فيها الهواء فتنقطع الأمواج ويمكن مقياس النيل مقياسا صحيحا .

وقد عين للمقياس محمد على باشا رجلا اسمه الشيخ على ، ولقب بالمنادى ، لأنه ينادى هو وأتباعه على النيل كل يوم ، وجعل له مرتبا . ولمّا مات عيّن مكانه ابنه وأمر المهندسين بالكشف على المقياس كل عام ، وإجراء ما يلزم له من التطهير والتعمير .

وأقيمت مقاييس أخرى فى أعلى الصعيد ليستدل منها على ما سيكون الحال فى مصر ، حتى إذا كان النيل فى أعلاه ، اتخذت الاحتياطات الكافية لاتقاء الغرق ؛ وعمل مقياس فى الخرطوم ، ومقياس فى مدينة أسوان ، ومقياس فى القناطر الخيرية .

وقد جرت العادة بأن النيل متى بلغ ستة عشر ذراعا احتفل بوفائه ، وسمى اليوم يوم وفاء النيل ؛ وكتب سجلّ يثبت أن النيل بلغ حدّا يجوز معه للوالى أن يحصل الضرائب . والاحتفال به قديم ، وكان بالغا حدّ العظمة . وإلى اليوم تزين مراكب تسمّى العقبة ، ويكون فيها الموسيقيون وغيرهم .

وكان الموكل بالمقياس يطلق عليه اسم قاضى المقياس ، وهو الذى يقيس كل يوم زيادة النيل أو نقصه . ويخبر بذلك الحكومة وينادى بذلك فى المدينة ، ويقيد فى دفتر مخصوص . ولهذا كان شيخ المقياس يعرف فيضان النيل يوما فيوما من ابتدائه إلى انتهائه .

وفى عهد إسماعيل باشا نظم مقياس جزيرة أسوان ، وأمر العامل عليه أن يخبر مصر كل يوم بواسطة التلغرافات ترسل إلى مصر .

والمصريون أيضاً يسمون بلوغ النيل فيضانه ، والاحتفال به جبر الخليج ، لأن خليج القاهرة كان يمد بالماء فى هذا العيد . والمنادون وأولادهم يسيرون فى شوارع القاهرة يوم عيد جبر الخليج وبأيديهم الجريد عليها الرايات من البفتة الملونة : الأخضر والأحمر والأبيض ، ويقولون : البحر زاد غرّق البلادا! ويرد عليهم آخرون يقولون : عوفا الله ! بإمالة الألف فى الله . وأصل عوفا الله : أو فى الله ، أى أوفى الله النيل .

وبعد تحرير المحضر بوفاء النيل تطلق الصواريخ وتعزف الموسيقى . الخ .. ويكون يوما مشهودا . ويبدأ الجوّ بعده بالتلطف .

المكتبة

كانت المكتبات كثيرة فى المساجد، ولكن خدمتها لم يعتنوا بها، فكانت تسرق أو تباع، وأكثرها كتب توحيد أو فقه أو تفسير، ويقتنى بعض الأغنياء فى بيوتهم مكتبات حسنة، حتى ولو لم يقرؤوا فيها؛ وأكثر الكتب يوضع فى غلاف مجلد. وكثيراً ما تكون الملازم مفكوكة، حتى يمكن أكثر من واحد استعارة ملازم منها.

وكاتب الكتب عادة يستعمل الورق المتين ويسطره على مسطرة هى قطعة من الورق المقوى، يشدّ عليها بعرض الورق وطوله خيوطاً ملصقة بالغراء، فيجعل المسطرة تحت الورقة ويضغط على كل خيط بخفة، فتؤثر فى الورق المراد الكتابة عليه، وقد جمع هذه الكتب كلها الموجودة فى المساجد على باشا مبارك وجعلها فى بناء فى درب الجماميز حفظاً لها من الضياع، ثم بنى لها مكان خاص فى باب الخلق.

وبدأت مكتبة باب الخلق هذه تنشىء مكتبات صغيرة فى أحياء مختلفة فى القاهرة والإسكندرية. وهناك مكتبات لا بأس بها فى الأرياف، كمكتبة دمياط وسوهاج وأسيوط، وهناك مكتبة لا بأس بها أيضاً فى الإسكندرية؛ وهذه المكتبات صورة من عقلية المصريين، ففيها الكتب القيمة النافعة، وفيها كتب التدجيل، وكتب الكيمياء والبازرجه، ونحو ذلك. والمصريون يطلبونها أكثر من الكتب الجدية وقد يستعيرونها.

وبعض الأفراد مولع باقتناء الكتب، فهم ينشئون فى بيوتهم مكاتب خاصة، كتيمور باشا وطلعت باشا ولكن مع الأسف قلّ الراغبون فيها اليوم.

الملاهى

أولع المصريون بالملاهى كغيرهم من الأمم. وكانت لهم فى القديم أنواع من الملاهى البدائية مثل: القراجوز، أو خيال الظل، وابن رابية، والرقص، ولعب البرجاس ونحو ذلك. ثم لما تقدم الزمن تغيرت هذه الألعاب بسبب الاقتباس من المدنية الغربية، فحلت السينما والتمثيل محل القراجوز، وحل الرقص الفرنجى محل الرقص البلدى، وأصبح عندنا ملاهٍ متنوعة على شكل مصغر من الملاهى الأوربية.

الملاية

كانت المرأة خصوصا من الطبقات الوسطى والدنيا تلبس الملاية . وقد تتخذها وسيلة من وسائل العياقة ، إذ تشدها على جسمها حتى تظهر تقاطيعه .

وقلّ الآن استعمالها بسبب السفور .

وفرش الملاية يستعملونه كناية عن الردح وكثرة السباب . فيقولون : فرشت له الملاية .

مــلّة

يقولون ملّة كان يوم ! وملّة كانت عشوة ! أى ياله من يوم ! ويالها من عشوة ! ويستعملون الملة بمعنى مذهب أو دين ، ففى سبابهم أيضا سبّ الملّة ، أى الدين .

الملح

هو المادة المعروفة ، والذى يهمنا منه أنه يستعمل فى البخور كثيراً ، كما يستعمل فى دفع أثر العين ، فيرشـونه على من تراد وقايتـه من العـين ؛ ويقولون فى ذلك : « مَلْحَة فى عين اللى ما يصلى على النبى » .

ومن قديم يستعمل فى توثيق الروابط بين شخصين أو جماعة ، فيقال : أكل معه عيش وملح ، ويخونه العيش والملح . ومن استعمالهم أيضاً قولهم مثلا : « فص ملح وداب » يقولونه لمن تغيب فجأة ولم يعرف مقره !

المَلَق

يكثر فيهم المَلَق ، وخصوصاً ملَق المرؤوس للرؤساء ، ومَلَق الفقراء للأغنياء ؛ يدل على ذلك أمثالهم المشهورة مثل « إذا دخلت بلد يعبد العجل حش واديله » وكقولهم : « عاز الغنى شقفة ، كسر الفقير زيره » ! وأمثال ذلك كثيرة . وهم معذورون فى ذلك ، لأن ما مر عليهم فى عهود طويلة من الظلم والاستبداد ، خصوصا فى عهد الأتراك ، علّمهم المَلَق والإفراط فى المديح غير المصقول ولذلك قلّما تجد مرءوسا يقول الحق لرئيسه ، أو يتوقف عن تنفيذ أمر وجّه إليه مهما اعتقد أنه خطأ ؛ وهو أشكال وألوان ، يظهر ذلك فى خطاباتهم وجميع تصرفاتهم .

ففى الخطابات من ألفاظ الملق وأساليبه ماليس له حصر ، ومن أعمالهم فى مخاطبة الرؤساء وإظهار علامات التعظيم الذى قد يصل إلى تقبيل الأرجل ما ترى منه الكثير

الملوخية

من طعام مصر المألوف . فملوخية أهل الحضر يأخذونها ويخرطونها بالمخرطة خرطا جيداً ، ويطبخونها باللحم الضانى أو الفراخ أو الوز ، ويستبشرون بالملوخيـة فى أول طلوعها ، لأنها خضراء ، وهم يستبشرون عادة

باللون الأخضر ، ويقولون دائماً اللهم اجعلها علينا سنة خضراء . ومن ذلك أنهم إذا أرادوا أن يسكنوا بيتاً جديداً جعلوا معهم سلقاً أخضر .

وهناك نوع آخر من الطبخ ويسمونه ملوخية بورانى ، نسبة إلى بوران بنت الحسن زوج المأمون ، وطريقتها أن يخرطوا الملوخية ثم يحمروها بالسمن حتى تجف ثم يدقوها فتكون لذيذة جداً

ومن غرائب ما يروون فى أمر الملوخية هذه أنها تكون على يد النساء ألذ مما يطبخها الطباخون . وينسبون ذلك إلى العادة المتبعة وهى أن المرأة بعد أن تطبخ الملوخية تضع لها التقلية ، وهى ثوم محمّر بالسمن ، فإذا أرادت أن تضعه عليها فلا بد من أن تشهق ، وربما كانت هذه الشهقة هى السر فى لذتها .

وكان لنا أستاذ يعلمنا الرياضة أغرم بالملوخية حتى كان يطبخها كل يوم ، فإذا حضر من عمله سأل زوجته : طبختم اليوم ملوخية وأى شىء آخر ، كأن الملوخية شىء لا بد منه . ومن أغانيهم :

أبو قردان زرع فدان
ملوخيـــة وباذنجان

وهو قول سمعته ولم أفهم معناه .

المماليك

حُكمت مصر بالمماليك مدة طويلة ، وحُكمهم هو جزء من حكم الأتراك وقبله ، فلما فتحها السلطان سليم سنة ١٥١٧ أيقن أنه لا يمكنه حكمها مباشرة لبعدها ، فتركها للمماليك . وعهد إلى ديوان أعضاؤه من كبار المماليك ومن رؤساء فِرَقهم وطوائفهم وزعمائهم أن يديروا البلد ، وكان لهم الحق فى فرض الضرائب وجبايتها . يأخذون منها الحصة ويرسلون منها الباقى إلى خزانة الدولة العثمانيـة ، وقد اعتادوا الترف والنعيم ، فأخلدوا للراحة وإن لم يفقدوا صولتهم . وغلوا فى سلطانهم حتى كانت سلطة السلطان فى الإستانة سلطة اسمية ، بل فى سنة ١٧٦٦ رفع على بك ، أحد بكوات المماليك ، لواء العصيان على الدولة وضرب النقود باسمه ، ودحر الجيش العثمانى ، وبايعه شريف مكة سلطاناً على مصر .

وكثيراً ما نقصوا ما يرسلونه إلى الدولة العثمانية معتذرين باعتذارات كثيرة ، كإنفاقها فى مصالح الدولة ، فما كان يسع السلطان إلا قبول عذرهم . وقد أورثوا الشعب صفات كثيرة ، بعضها حسن وبعضها ردىء ، فقلدهم الأغنياء فى الترف والنعيم وحب الفخفخة

واعتيادهم بعض العادات التركية حسنها ورديئها ، كتقليدهم فى النظافة والنظام، وأحياناً كانوا يقلدونهم فى الغطرسة والاستبداد إذا ولوا أمراً من الأمور ، ونظر الأغنياء إلى الفقراء نظرة احتقار وازدراء . ومن أسوأ ما ورثوا عنهم الإسلام السطحى والإيمان بالخرافات والأوهام ، فالتركى عادة يرتكب المظالم ويعتقد أنه يكفرها ببناء مسجد أو سبيل أو إقامة صلاة ونحو ذلك . فيحترم القرآن إذا قرئ فلا يضع رجلا على رجل فى مجلسه ، ولايدخن ، ولكن لا يدخل جوهر الإيمان فى قلبه ؛ وربما كان للماليك أثر كبير فى أن المصريين يعبدون الله عبادة ظاهرية ، فلا يصل فيها الإيمان إلى قلوب أكثرهم . وكثير من عادات المماليك دخلت على المصريين فى أكلهم وشربهم، واختلاف طبقاتهم ، بل أثروا كذلك فى موسيقاهم وألاعيبهم وأمثالهم ، وربما أيضاً فى جمال المصريين ، فقد كان بعض المماليك يتزوجون من مصريات ، وبعض المصريين يتزوجون من مماليك . والمماليك فى الحقيقة أجمل ، ولذلك إذا وصفوا أحداً بالجمال يقولون إنه جميل كالمملوك . واستقصاء هذا الباب أعنى ما أثر المماليك فى المصريين يحتاج إلى بحث طويل لا محل له الآن . وقد ذكرنا فى ثنايا الكتاب أمثالا تدل على مالقيه المصريون من المماليك .

المندل

شاهدت مرة مندلا لإظهار سارق شيئاً . فأتى صاحب المندل بطفل فى نحو السابعة أو الثامنة واختاره بواسطة رسم كفه ، فهم يعتقدون أنهم إذا كان رسم كفهم يقرأ ٧١ و ١٧ ، كان الأطفال أقرب إلى نجاح المندل . وبعد أن أحضر صاحب المندل الطفل صب فى يده اليمنى نقطا من زيت مع إطلاق البخور . ثم سأل الطفل هل ترى مكانا مرشوشاً وكراسى مصفوفة ؟ ولا يزال بالطفل حتى يقول رأيت . ثم يسأله هل ترى فى هذا المكان أحدا ؟ فيقول بعد طويل وقت : نعم رأيت . ويسأله عن صفة هذا الرجل وما يلبسه فيقول أرى رجلا أو امرأة صفته كذا ، ثم يطبقون هذه الأوصاف على شخص يعرفونه فيكون هو اللص . وهو نوع من الإيحاء .

وروى الأستاذ لين الإنجليزى الذى كان فى القاهرة منذ حوالى مائة عام أن ساحراً أحضر غلاما وأجلسه على كرسى وأمر خادمه الإنجليزى أن يحضر مجمرة .

فلما أحضرها وضع فيها لباناً وكسبرة ثم أمسك يد الصبي اليمنى ورسم على راحته مربعاً سحريا ، ثم صبّ فى وسطه قليلا من الحبر وطلب من الصبي أن ينظر فيه ويخبره إذا كان يمكنه رؤية وجهه معكوساً فيه .

فأجاب الصبي أن نعم ، فأمر الساحر الصبي بأن يظل يحدق النظر وأن لا يرفع رأسه . وأخذ الساحر ورقاً مكتوباً عليه أدعية وألقاها فى المجمرة على الحبر والبخور حتى امتلأت الغرفة بالدخان وأخذ الساحر يدمدم دمدمة لم تفهم ، ثم سأله : هل يرى شيئاً فى الحبر ؟ فأجابه بالنفى ، ولكنه لم يلبث أن ارتعش وخاف وقال أرى رجلا يكنس الأرض . قال الساحر أخبرنى بعد أن ينتهى من الكنس ، ثم سأل الساحر الصبي : هل تعرف البيرق ؟ فقال نعم . فسأله هل أحضر الجن بيرقاً ؟ قال : نعم . فقال الساحر : على أى لون هو ؟ قال : أحمر . فقال له اطلب بيرقاً آخر . فقال إنهم أحضروا بيرقاً آخر . قال : اطلب بيارق . قال الصبي : إنهم أحضروا بيارق أخرى : أبيض وأخضر وأسود وأحمر وأزرق ، حتى صارت سبعة . ثم وضع الساحر فى المجمرة لباناً وكسبرة مرة أخرى . وقال للصبي قل لهم يحضروا خيمة السلطان ، فأخبره الصبي أنهم أحضروها ، وهى خيمة كبيرة خضراء وقد نصبوها . فقال الساحر للصبي : مر الجنود بالحضور ونصب معسكرهم حول الخيمة . فقال الصبي قد حضروا واصطفوا . فقال الساحر للصبي : مرهم أن يحضروا ثوراً . فقال الصبي قد أحضروه . فقال له : مرهم بذبحه وتقطيعه ووضع لحمه فى أوعية وطهيه ، ثم قال قل للجنود يأكلون ...

قال الأستاذ لين : إن الساحر سألنى إذا كنت أرغب فى أن يرى الصبي شخصاً غائباً أومتوفى ، فذكرت اللورد نيلسون ، ولم يكن الطفل قد سمع به ، لأنه قد نطق اسمه بصعوبة كبيرة . فقال الرجل للصبي أحضر هذا الرجل فقال الصبي أرى رجلا يلبس ملابس أوربية زرقاء وهو قد فقد ذراعه اليسرى ، وكان لورد نيلسون من عادته أن يعلق كمّه الخالى إلى صدره . وكان قد فقد ذراعه اليمنى لا اليسرى ؛ فسألت الساحر فقال : إن الصورة تنعكس فى المرآة فاليمنى تظهر يسرى وبالعكس . وقد استغرب لين من ذلك . ولم يكن مخرّفا . وكان يستدعى الصبي والساحر كلما أراد أن يظهر الإنجليز على عجيبة .

المنسج

المنسج إطار كان يقضى النساء فيه أكثر أوقات فراغهن فى المنزل ، فهن يشتغلن عليه بالإبرة أو يطرزن مناديل أو طرحا بالحرير المذهب . والفقيرات وحتى الأوساط ، كن يتاجرن فى هذه العملية فيعطين عملهن لدلالة تبيعه فى السوق أو فى حريم آخر . وكثيراً ما تجتمع بعض الشابات على المنسج يقضين أوقاتهن للتسلية ويتحدثن أثناء ذلك حديثا ظريفا .

المنظرة

ينطقونها عادة بالضاد ، وهى فى أغلب بيوت الأوساط والأغنياء . وقد كانت هذه المناظر موضع المسامرات فى الليل وتلاقى الرجال . فكان بكل حارة بيوت ، ولكل بيت منظرة يستقبل فيها الزائرون . و بعض البيوت له مناظر بهيجة تجذب إليها الناس للطف صاحبها وكثرة أصحابه . فأحيانا تقضى لياليها فى السير ، وأحيانا فى قراءة القرآن ، وأحيانا فى سماع الموسيقى والغناء ، بل وأحيانا يتواعدون على أن يحضر كل واحد ما عنده من العشاء فى بيته ويتعشوا جميعا من كل ما يحضر . وكم كانت هذه المناظر معهداً لتخريج سمار وآلاتية ومغنين وغير ذلك .

وقد اشتهرت منظرة العمدة بأنها محكمة للمتخاصمين وحالة للمشاكل التى تعرض لهم أثناء النهار وسمر لذيذ فى الليل وغير ذلك .

الموالد

الموالد عند المصريين ذكرى ميلاد الولى ، وأشهرها مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد كان يقام له حفلات عظيمة ، فيجتمع رجال الطرق الصوفية ، وكان الاجتماع فى باب الخلق ، وكل طائفة بأشايرها . وعند تكاملها تسير فى موكب كبير ، كل موكب ينشد نشيده الخاص على نغماته الخاصة مع دق الدفوف وقرع ما يسمى البازة ، وهى آلة نحاسية ، حتى يصلوا أخيراً إلى مشيخة الصوفية فى بيت البكرى ، فتقرأ الفاتحة والصلوات ، ويعلن السيد البكرى افتتاح المولد . وفى مساء ذلك اليوم يدعى الأمراء والعلماء فى ساحة المولد ، ويأتى طوائف الصوفية وأمام كل طائفة فانوس أو أكثر كبير غطى بالقماش الأبيض بدل الزجاج . وبعد الصلوات تقام مجالس الذكر ، وتعترى بعض الذاكرين جذبات وإغماءات ، فيرش على وجوههم الماء ، ويتصاعد من أفواههم رغاء كرغاء الإبل . وبعض أهل هذه الطرق يدخلون النار فى أفواههم أو الجمرات فلا

تضرهم ، وربما يكون ذلك بسبب دهن حلوقهم بمادة خاصة تعدم أثر النيران .

ومنهم من كان يقذف قطعة من الحديد على الحائط ثم يتلقاها على رأسه فيسيل دمه دون مبالاة .

وبعد ذلك تنصب الصواوين ، فى كل صيوان من يقرأ القرآن أو يقرأ السيرة النبوية أو يقيم حفلة ذِكر .

ومن أشهر ذلك حفلة « الدوسة » ففى يوم (١١) ربيع الأول يجتمع أرباب الطرق بميدان باب الخلق على نظام خاص ، ويسير الموكب بأهم شوارع المدينة ، ومنهم كثيرون من المشعوذين ، بعضهم يأكل الزجاج ، وبعضهم يأكل الثعابين ، وبعضهم يضرب شدقه بدبوس ذى رأس غليظ فى عنف وقسوة ، ومنهم من كان يضع حد السيف فى بطنه ثم ينام فوقه . ويأتى الشيخ فيبل يده بريقه ثم يمسح على بطن المريد حتى لا يتأذى من حد السيف . وعندما تصل هذه المواكب إلى ساحة المولد ينبطح الكثيرون على وجوههم فى صف كبير فيمر فوقهم شيخ السادة السعدية بحصانه يقوده اثنان من أتباعه ويعتقدون أنهم سينالون من ذلك بركة كبيرة .

وكان الناس يروحون عليهم بمراوح إذا تحرك الموكب من شدة الحر . ومن الغريب أن لا تحدث من ذلك أضرار كثيرة كالذى كان ينتظر ، وبعد صلاة العشاء يشرّف الصوان الخديوى والكبراء فيسمعون المولد ، ثم توزع الحلوى وشراب الليمون . ويزدحم الناس فى هذه الليلة ازدحاما كبيرا ، ويهيص بعض الشبان فى هذا الازدحام ، وكثيرا ما تحدث أفاعيل ومراسلات بين راكبات العربات وراكبيها مما يجعل الليلة فتنة . وقد أبطل الخديوى توفيق عادة « الدوسة » هذه لما ينشأ عنها من أضرار .

الموسيقى والغناء

للموسيقى والغناء عند المصريين مقام كبير وشغف عظيم . يظهر ذلك فى كثير من عاداتهم . فترى الباعة فيهم يغنون على بضائعهم ، حتى حب العزيز تقام له زفة كزفة العروس . والدين دخل فيه الغناء ؛ فالأذان يقال فى غناء ، والذكر يُغنَّى له ، والقرآن يُغنَّى به . وكثيراً ما كان يمر بحارتنا رجل يُغنِّى بقصائد نبوية وهكذا . ولكل نوع من أنواع الحياة الاجتماعية غناء خاص ؛ فغناء فى الأفراح ، وغناء المعدِّدات فى المآتم ، وغناء المسحِّراتية فى رمضان ، وغناء لليالى المولد ، وهكذا ...

لـكنهم كانوا مع ذلك ينظرون إلى المغنِّى نظرة فيها شىء من الاحتقار ، إلا فى الأيام الأخيرة . وكانوا يسمون الموسيقِ مَزِّيكاتى والمغنِّى آلاتى.

ومن المؤكد أن الموسيقى المصرية مأخوذة من عدة نواح من موسيقى قدماء المصريين ، كالذى يظهر فى موسيقى الـكنائس ، ومن الفرس ومن الترك . وهى تختلف فى المقام عن الموسيقى الإفرنجية .

والموسـيقى المصرية تناسب ذوق المصريين وآذانهم ، ولا يستسيغون الموسيقى الأجنبية ، مع أنها قد تكون أرق ، كما أنه لا يستسيغ الفرنج الموسيقى العربية .

والغناء موضوعه الحب غالباً والمصريون أميل إلى النغمات الحزينة لما تواتر عليهم من ظلم الحـكام واستبدادهم ، وهم لا يسمعون الغناء فى صمت وسكون كما يفعل الأوربيون ولـكنهم يهيصون ويهللون ، ويعتقدون أن فى ذلك تشجيعاً للمغنى والمغنيـة ؛ من مثل قولهم : الله الله! كان يا عينى ! ونحو ذلك ..

وإذا أتم قارئ القرآن قراءته بالغناء قالوا له : أحسنت . ومنهم من اعتاد أن يغنّى غناء خاصاً للتعاون على الصنعة كالفَعَلة ، وأرباب المهن الصغيرة ؛ كأن الغناء يسليهم عن متاعبهم ، كالحداء للجمل وكالمراكبية ؛ ولهم أغان خاصة بهم ، وكبائعى حب العزيز ، وكالسقايين . وقد يتوارثون الأغانى من عصر إلى عصر ، مثل أغنية « الحِنّا يا حِنّا يا قطر الندى » فيظن بعضهم أنها ميراث من العهد الطولونى ، أيام زفت قطر الندى بنت خمارويه إلى الخليفة العباسىّ ؛ والمغنون من طبقات شتى ، ويختلف منبع غنائهم ، فبعضهم من طبقة راقية مثقفة ، وبعضهم من طبقة شعبية . مثال الأول ما حكى من أن مفتياً للديار المصرية وضع أغنية « الله يديم دولة حسنك » ، ومثال الثانى «سبع سواقى بتنعى لم طفولى نار».

وأكثر المغنيين والمغنيات يَظهرون « شيطانى » من غير تعليم ولا مدرسة ، إنما مُنحوا حسن الصوت الطبيعى فاتجهوا بعد ذلك إلى التعلم ، وهى هبة يهبها الله من يشاء ، لا نستطيع أن نعللها . فقد كانت من مشاهير المغنِّيات السيدة ساكنة ، وكانت تشتغل فاعلة تحمل المونة فى القوالب ، تُغنِّى للفعلة ، ثم اكتشف حسن صوتها بالمصادفة . وفى حفلات الغناء يكون عادة رجـل مخصوص يسمى « مطيِّباتى » ، من وظيفته تطييب خاطر المغنِّى أو المغنِّية بإظهار علامات الإعجاب ؛ وقد يحترف المطيباتى حرفة بيع اللب ، وقد يكون سافلا فيكون صلة الغرام بين الرجال والمغنِّيات .

أما الآلات الموسيقية فهى كثيرة بسيطة ومركبة ، فالبسيطة كالمزمار والطبل البلدى والرق والنقرزان ، والكاسات والصاجات . والمركّبة كالناى والعود والقانون . ومن آلاتهم الجديرة بالذكر الرّبابة ، وهى عبارة عن كمنجة ينقصها التجويف ، ويستخرجون منها نغمات شجية .

والمغنّيات فى مصر تسمين « العوالم » وهى تسمية غريبة ، ولهن أغانٍ خاصة ، وخصوصاً عند زفة العروس وزفة العريس .

وقد يأخذن أجراً صغيراً فى مقابل النقطة الكثيرة التى مرذكرها فى موضعها . وقد أدخلت الموسيقى الغربية فى الجيش المصرى مع الموسيقى العربية ، ولذلك يلقى الجيش فى الحفلات والميادين أدواراً من الموسيقى الشرقية وأدواراً من الموسيقى الغربية . ثم ارتفع حديثا شأن المغنّين والمغنّيات حتى لم يعد يستنكر أن يجلس العظيم فى مجلس مغنٍّ كبير أو مغنية كبيرة . وقدّروا الغناء كفن جميل .

الموظفون

ويسمون أيضاً المستخدمين ، وكان يسمّى العوام الواحد منهم « ابن عيشه » ، أى أنه خاضع للوظيفة التى عليها قوام معاشه . ويكثرون من ذِكر هذه الكلمة للاعتذار عن خضوعه للرئيس ، وأنه مضطر لتحمل مشاق الوظيفة ، للحصول على العيش الذى هو الخبز .

وللموظفين عادات رديئة ، منها التزامهم الخطط المرسومة حتى كأنهم آلة صماء ، ومنها انتظار الموظف آخر الشهر لقبض المرتب ، فلا يسعى فى جاب رزق آخر ؛ ومن سوء هذه العادة الأخيرة أن الموظف إذا رفت من وظيفته أو أحيل إلى المعاش لا يجد نفسه صالحا لأى عمل حر آخر .

وقد قال البوصيرى صاحب البردة قصيدة لطيفة فى المستخدمين ، وتكاد تكون حالتهم كحالة الموظفين اليوم وهى :

يا أيها المولى الوزير الذى
أيامه طائعة أمره
ومن له منزلة فى العلا
تكل عن أوصافها الفكره
إليك نشكو حالنا إننا
حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكن لنا
عائلة فى غاية الكثره
قد أقبل العيد ما عندهم
قمح ولا خبز ولا فطره(1)

(١) الفطرة فى لسان المصريين : النقل ، من خروب وبلح وبندق ولوز وجوز ، ويستخدمونها فى رمضان والعيدين .

فارحمهمو إن عاينوا كعكة
في كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها
بشهقة تتبعهـا زفره
كم قائل يا أبتا منهم
قطعت عنا الخير فى كرَّه
ما صرت تأتينا بفلس ولا
بدرهم ورق ولا نقره
وأنت فى خدمة قوم فهل
تخدمهم يا أبتى صُخره
ويوم زارت أمهم أختها
والأخت فى الغيرة كالضره
قالت لها كيف تكون النسا
كذا مع الأزواج يا عرَّه
قومى اطلبى حقك منه بلا
تخلف منك ولا فتره
وإن تأبى فخذى ذقنه
ثم انتفيها شعرة شعره
فقالت لها ما هكذا عادتى
فإن زوجى عنده ضجره
أخاف إن كلمته كلمة
طلقنى . قالت لها بعره
وهوَّنت قدرىَ فى نفسها
فجاءت الزوجة مُجْترّه
فقاتلتنى فتهـددتها
فاستقبلت رأسى بآجرّه
وحق مَن حالته هـذه
أن ينظر المولى له أمره

فهم من عهد البوصيرى وقبله طلاَّب علاوات .

مولد السيّد

يقام فى طنطا كل عام مولد كبير ، يجتمع فيه حلقات الذكر ، وأهل الدعارة والخلاعة ، والطبل والزمر ، وتجار المأكولات ، وعلى الأخص الحمّص والحلاوة وحبّ العزيز . وقد اشتهرت حلاوة السيّد اشتهاراً كبيراً ، حتى يسمع المار فى طنطا أو عليها « حلاوة السيد ، حلاوة السيد ! » وأصل مولد السيد أن أتباعه كانوا كثيرين متفرقين فى البلاد ، فاستدعى مرة خليفته عبد العال أتباعه ، وأوثق الروابط بينهم ، وقالوا له هـذه عادة لا تنقطع إن شاء الله . وفى الميعاد حضروا وظلوا يحضرون ، واستمرت العادة إلى يومنا . وحدث أن أحد المشايخ المنتمين إلى السيد حضر هو وتلاميذه وجماعته وأقام الأذكار ، وتعاهدوا على العودة فى الميعاد ، فكان من ذلك المولد الصغير ؛ وأما الأول فالمولد الكبير . وكان من أحد أتباعه شيخ يقال له الشيخ

الرجبي ، حضر هو وأتباعه ومعهم مقدار كبير من الشاش المصبوغ بالأخضر ، لتجديد عمامة السيّد . وفكّوا العمامة القديمة ووضعوا عمامة خضراء جديدة ، فسمّى المولد : المولد الرجبي . وكانت مدينة طنطا مدينة صغيرة فنصبوا المولد خارجها حيث يقام الآن ؛ وقد حدّدوا ميعاد المولد بعادات البلاد الزراعية من النيل وانغمار الأرض للريّ ، وخُلوّ الفلّاحين من المواسم الزراعية ، وكثرة المال فى جيوبهم بعد الزرع ونحو ذلك ؛ ولذلك يحدد المولد بالتاريخ القبطى لأنه أثبت ، والحكومة تحدد الموعد رعاية لذلك . وهو فى العادة يكون فى أوائل شهر مسرى ، والمولد الصغير فى أوائل شهر برمودة ، والمولد الرجبى قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم . ويرحل إليه الناس من كل فج .

وهذا المولد وغيره من الموالد كان مستعملا نظيره عند قدماء المصريين حسب دياناتهم ، ذكر ذلك هيرودوت المؤرخ . فكانوا يقيمون مولداً فى تلّ بسطة فى مديرية الشرقية ، وصال حجر فى الغربية ، وهليو بوليس ، وهى المسماة الآن عين شمس . وكانت هذه الأعياد مرتبطة بأوقات الزراعة ، وهى فى العادة ترمز إلى أشياء هامة ؛ وسار على ذلك قدماء المصريين فاحتفلوا بأول السنة القبطية ، وهو المسمى بعيد النيروز ، فيشعلون فيه النيران ، ويرش بعضهم على بعض الماء ؛ وكان فى العهد الفاطمى يركب فيه أمير يسمى أمير النيروز ومعه جمع كثير . واستمر على ذلك حتى أبطله السلطان برقوق . وكان للأقباط فى شهر توت عيد الصليب ، وهو فى السابع عشر منه . يقولون إن المسيح صلب فيه .

وقد منع من إقامته الخليفة الفاطمى العزيز بالله . وكان قدماء المصريين أيضاً يعملون فى سادس « بابه » عيدا يزعمون أن إيزيس حملت فيه بولدها ، يشيرون بذلك إلى وضع بذور الزرع فى الأرض بعد نزول ماء النيل .

وفى الثامن والعشرين من « بابه » عيد يسمونه عيد الشمس كانوا يرمزون إلى أن إيزيس تبحث عن جثة أوذوريس .. وكانوا فى بعض الاحتفالات يظهرون الحزن والكدر لنقص النيل وغلبة الريح الجنوبية الخ الخ ...

وكان عيد الميلاد ، وليلة الغطاس ، وغير ذلك ، فيظهر أن الأقباط أخذوها من قدماء المصريين ، وأخذها المسلمون من الأقباط وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، كمولد النبى ، ومولد السيد ، ومولد الحسين ، والسيدة زينب الخ ...

والحكام تشجع هذه الموالد لترويجها للحركة التجارية ومسايرتها للعواطف الشعبية .

المولوية

حضرت مرة ذِكراً للمولوية فى تكيَّة بالقاهرة فى شارع المظفر ، وكانت تكيَّة نظيفة ذات حديقة نظيفة ، واجتمع المولوية بعد صلاة الجمعة واستداروا على شكل حلقة كبيرة ، وقد لبسوا لبدة طويلة على رؤوسهم ، وتحزموا فى أوساطهم على سراويل واسعة ، وهم يتقنون الضرب على الناى ، ويستخرجون منه أصواتاً جميلة ؛ وقد بدأوا بذكر الله ، ويحنون فى كل مرة رؤوسهم ، وبدأ درويش منهم يدور على حركات الناى وسط الحلقة ويتحرك برجليه ويداه ممدودتان ، ثم أسرع فى حركات رجليه فانتشرت سراويله على شكل شمسية . وظل يدور نحو عشر دقائق ثم انحنى أمام شيخه الجالس داخل الحلقة منصحباً إلى الدراويش الذين يذكرون ، ثم تحلقوا ووضع كل رجل يديه على كتفى الآخر وأخذوا فى الذكر بسرعة شديدة ، ثم استراحوا ، وبعد ربع ساعة قاموا للذكر ثانية ، واستمروا على هذه الحال نحو ساعة أو ساعة ونصف . فكان منظراً عجيباً يمتع السمع بنايه ، والنظر بسراويله المفرودة ، والحركات العجيبة .

الميرى

أصلها أميرى ، مثل ميرالاى ، أى أميرالاى ، ومرجوشى ، أى أمير الجيوش . والميرى هو الحكومة ، والرغبة فى التوظف فى الحكومة رغبة شديدة ، حتى من أمثالهم الشائعة « إن فاتك الميرى تمرّغ فى ترابه » . ولعل السبب فى ذلك أن الوظيفة الحكومية هيّنة مضمونة الأجر ، ومن أسباب ذلك أيضاً عدم مغامرة المصريين فى المشاريع التجارية ورغبتهم فى وضع أموالهم فى البنوك أو شراء الأطيان والعقارات ؛ ولذلك كان أكثر الشركات المؤسسة للأعمال الحرّة أجنبية . وهذه الشركات لم تكن ترغب فى تخديم المصريين ؛ ومن الأسباب أيضاً إجلال المصريين للموظف الحكومى وتفضيلهم له على الموظف الحر . أضف إلى ذلك أن أصحاب الأعمال الحرة يتطلبون عملا يوازى الأجر الذى يتقاضاه ، وليس كذلك فى الحكومة .

ومع أنه قد كثرت الأعمال الحرة فى هذه الأيام ونال أصحابها من الأرباح مالا يحلم به موظفو الحكومة ، فلا يزال الإقبال على الوظيفة أكثر فإذا أعلنت الحكومة عن عمل خال عندها تقدم لها مئات يطلبون هذا العمل .

وإذ كانت الحكومة تربط الماهية بالشهادة دون نوع العمل ، فقد كثر الإقبال على التعليم الجامعى كثرة منقطعة النظير لا تجد مثلها فى الأمم الأخرى .

ميزانية البيت

عثرت على ميزانية بيت لعام ، وضعت لبيت متوسط الحال ، من نحو مائة عام ، فكانت كالآتى :

قرش	
٤٠٠	قمح فى السنة
٥٠	طحن القمح
٤٠	خبزه
٥٥٠	لحم كل يوم رطل ونصف
١٨٥	خضروات نصف قرش فى اليوم
١٠٠	رز
٣٣٥	قنطار سمن فى العام
١٨٥	بن
٢٠	تنباك جبلى لصاحب البيت
١٠٠	قنطار سكر
١٠٠	ماء
٧٥	خشب للوقود سبعة أحمال
١٠٠	فحم حطب
١٢٥	زيت لقنديلين أو ثلاثة
١٠٠	شمع
٥٠	صابون
٢٥ر١٥	المجموع

* * *

هذا عدا الملبس والطوارئ . وهو يدل دلالة واضحة على تغير المعيشة وتغير الأسعار . وإذا قورنت هذه الميزانية بميزانية بيت متوسط اليوم وجدناها مثلا كالآتى :

جنيه	
١٨٠	أجرة مسكن فى السنة بواقع ١٥ جنيها فى الشهر
٢١٦	لحم وخضار وما يتبعهما على الأقل
٣٦	مسلى
١٨	ماء فى السنة
١٠	كهرباء
٩٦	كسوة للزوج وزوجته وللأولاد على الأقل
٣٦	دخان
٥٠	خدم
٥٠	مصاريف نثرية للطوارئ كدواء وطبيب

٣	بن بواقع رطل بـ ٣٠ قرشاً كل شهر
٢٤	مواصلات
٢٤	السينما والتمثيل بواقع ٢٠٠ قرشا كل شهر
٢٤	لبن بواقع كيلو فى اليوم بسعر ٧ قروش
١٨	خبز بواقع ١٠ أرغفة بـ ٥ قروش كل يوم
٧٨٥	المجموع

وهذه تقريبا ميزانية الموظف المتوسط الحال ، أى أن نسبة الجنيه الآن إلى نسبة الجنيه فيما مضى تساوى ١ إلى ٣٠ وهى نسبة غير معقولة .

المياه

كان نظام المياه فى القاهرة شاقا عسيراً ، فعند فم الخليج سَوَاق تحمل الماء من البحر إلى حوض من الماء تجرى منه قنوات على عقود بنيت من الحجر ، وتذهب إلى القلعة لتستقى منه ، ومنها تنزل إلى القاهرة ؛ وقد يملأ بعض الأغنياء الصهاريج التى فى البيوت من مياه الخليج أو من مياه الأمطار .

وإذ كانت مياه الفيضان مملوءة بالطمى اعتادوا عند أخذ الماء منها للشرب أن يرشحوها باللوز المقشور لأنه يمتص العكارة .

ومن أجل صعوبة الماء على هذا النحو استعملت الآبار وبنيت الأسبلة فى الشوارع ووجد نظام السقائين ، ووجد باعة الماء فى الطريق ، وغير ذلك .

وكانت فكرة مدّ المياه إلى البيوت سهلة لو فكروا ، فلما سهل الماء فى البيوت استغنى عن الآبار وعن الأسبلة وعن السقائين ، إذ لم تعد حاجة إليهم .

وبالضرورة كان من نتيجة ذلك قلة الأمراض التى تنشأ من الميكروبات بالميضة والآبار وغيرها .

وهذا يدلنا على أن الأنظمة تتغير بتغير الأسس التى تعتمد عليها ، كالحمير كادت تبطل بوجود الترام ، وعربات الخيل كادت تبطل بالسيارات ، وهكذا . . .

الميضة

كان فى كل مسجد تقريبا ميضة ، وهى حوض من الماء مربع تقريبا ، أو شبه مربع ، يملأ بالماء من حين لآخر ، ويتوضأ منه . وكان بجانبه فى الغالب بئر تملأ الميضة منه ، والذى يتولى هذا يسمى الملاّء .

وكثيراً ما نشأ عنها الضرر الكبير ، لأن بعض المتوضئين يكون مصابا بمرض معد في عينه أو جسمه ، فينتقل منه المرض إلى الصحيح الذى يتوضأ بعده .

ولأجل هذا دعا المصلحون للاستغناء عنها بالحنفيات . ولكن مع الأسف كان مما أخذ على الشيخ محمد عبده أنه أبطل ميضة الأزهر ، واستعاض عنها بالحنفيات ، فقالوا إنه أذهب البركة .

وما زالت الحنفيات تهاجم الميضة حتى هزمتها ، لأن الحنفيات أصح وأنظف .

وقد حدثت لى حادثة سيئة فى الميضة ، ذلك أنى أردت أن أتوضأ فتزحلقت رجلى وانكفأت فى الميضة ، ولم يكن أحد يتوضأ معى ، وكدت أغرق لولا أن سمعنى أبى ، فالتفت ليرى ما ذا حدث فرآنى فأنقذنى . وكم للميضة من ضحايا . ومما يزيد الميضة ضرراً الملاية لها من بئر قريبة القاع من مراحيض المسجد ، يتسرب منها بعض الميكروبات إلى البئر ، ومنها إلى الميضة ، فيزيد بذلك الضرر ، ولذلك تتصاعد روائح كريهة من المراحيض على المصلين وعلى أولاد الكتّاب الذين يكونون عادة بجوار هذه المراحيض .

الميعة

هى مزيج من عقاقير مختلفة ، تجهز وتباع فى الأيام العشرة الأولى من المحرم ، ينادون عليها : يا بركة عاشوراء المباركة ! يا شهر يا مبارك ! يا ميعة مباركة ! . والمنادى يحمل على رأسه طبلية عليها عقاقير مختلفة ، تتوسطها مادة قاتمة حمراء ، تحيط بها أكوام من الملح الملوّن بالأزرق والكركم الأصفر ؛ فإذا دعى المنادى للرقيا ، قال تعويذة معروفة : بخرت اللحاف من وجع الأكتاف ؛ بخرت كذا ، من كذا ، الخ . . .

حرف النون

نبيِّن زين

طائفة من النساء تدور فى الحارات والشوارع والمصايف تنادى : « نبيِّن زين » ويحملن على رءوسهن فى الغالب قفة أو منديلا فيه ودع ، وتفرد الودع وتدعى أنها تشوف البخت وتبين زين ! و بعضهن يصدقن بعض الأحيان ؛ إما بسبب أن لها قدرة على الكشف بطريق يشبه التنويم المغناطيسى ، و إما أن تكون عندها قوة الفراسة ، و إما بكلامها كلاما عاما ينطبق على كل حال . وأكثرهن يكذب ولا يقول حقا ، وهى طائفة لا تزال كبيرة فى مصر ، وخصوصاً فى القاهرة .

وأحياناً يحترف الرجال هذه الحرفة فيدعون أنهم متصلون بالأولياء أو بالجن ، وأنهم يتلقون أخبار المستقبل عنهم ، ومن غريب الأمر أن بعض الباشوات الكبار يسمح لهم بالدخول فى بيته ، ويفرد لهم غرفة يقيمون فيها ، ويسمح لهم بالاتصال بالخدم وسيدات البيت ، اعتماداً على أنهم من أولياء الله . وقد روى الجبرتى أن امرأة كانت تدخل بيوت الذوات وتبيت فيها الليالى ذوات العدد ، وتدعى العلم بالمغيبات ، وصادف أن كانت فى بيت أحد الباشوات وماتت ، فلما جاءوا يغسلونها ظهر أنها رجل ، فافتضح الذوات الذين كانوا يبيتونها فى البيت ، وكانت حادثة شنيعة .

و بعد ذلك كانت حادثة الشيخ بلال اليمنى واتصاله ببعض الأغنياء و إعداد حجرة خاصة له ، وتزويجه له بنته ، وافتضاح أمره بعد ذلك ، فظهر أنه فاسق عربيد ليس له من الولاية شىء . وكثير من أمثال ذلك من الأحداث .

النِّدا

يولع المصريون بتحسين سلعهم التى يبيعونها ، ولهم فى ذلك التحسين أساليب مختلفة ، فقد ينادون عليها بأصواتهم الجميلة . وأحيانا يعلنون عنها بنسبتها إلى ولىّ . فالترمس للشيخ الإمبابى والخص للمليجى . وأحيانا بنسبة الشفاء إليه ، كما ينادون على الموز أو الحلبة « الشفا من الله يا موز » « والشفا من الله يا حلبة » ! وأحيانا باستخدام البلاغة مثل « زى بيض اليمامة يا عنب » و « نواك لوز يا بلح » .

والغريب أن الأشياء التى جدت فى مصر لم تحسَّن بشىء من هذه التحسينات ، كأن الجدد قصّروا عن القدامى ، فهم لا ينادون على المانجو ، والجوافة إلا بأسمائهما من غير تحلية .

النذور

اعتاد كثير من المصريين تقديم النذور إلى المشايخ الكبار ، كالسيد البدوى ، وسيدنا الحسين . ولما رأت وزارة الأوقاف أن هذه النذور تذهب إلى جيوب بعض الموظفين جعلت بجانب الشيخ صندوقا توضع فيه النذور ، وحرمت على الخدمة أخذ شيء منه ، وهى كل ثلاثة أشهر تفتحه بمحضر رسمى ، وتوزعه بنسبة معروفة عندها على الخدم : هذا لشيخ المسجد ، وهذا لمؤذنه ، وهذا لكنّاسه . والمصريون وخصوصا الفلاحين يفوقون غيرهم فى هذا . وقد يحرم البعض أولاده من أكل شيء يتطلعون إليه من أجل أنه منذور للسيد البدوى . فهذا ينذر عجلا ، وهذا ينذر بقرة ، وهذا ينذر شاة ، وهذا ينذر عشرة جنيهات ذهبا أو ورقا ، ونحو ذلك .

وهم عادة ينذرون هذا النذر معلقا ، كأن يقولوا « إذا شفى ابنى المريض من المرض فللسيد البدوى خروف ، وإذا قضيت لى حاجة فللسيد البدوى عشرة جنيهات » ثم هم يوفون بنذورهم على الأكثر خوفا من السيد البدوى أن ينتقم منهم إذا لم يفوا وتذهب هذه النذور عادة ممن يستحقونها إلى من لم يستحقوها .

وبعض مَن يأخذ هذه النذور ربّى ثروات كبيرة . وقد قرأت اليوم فى الصحف إعلانا عن تأجير مائة فدّان تجمعت عند صاحبها من أموال النذور . وحبذا لو عقل المصريون فتركوا هذه النذور وأبطلوا هذه العادة ؛ وهناك من وجوه الخير ما هو أبرّ من هذه العادة وأنفع ، كبناء مستشفيات وملجأ للأطفال والأيتام وغير ذلك .

نسن السكين

كثيرا ما نرى فى المدن الكبيرة فى مصر رجلا يحمل حجر مسّن ركّب على عجلة ولف على العجلة سير ، فإذا ضغط برجله على السير دار الحجر . والرجل ينادى عادة نسّن السكين ! نسّن المقص ! والناس ينادون عليه ليسّن لهم السكين أو المقص على هذا الحجر . فإذا فرغ من ذلك أخرج حجرا آخر أخضر وصّب عليه بعض الزيت وأتم الشحذ عليه بيده . وفى الأمثال القديمة « حجر المسّن يشحذ ولا يقطع »

النشل

يكثر فى مصر النشل ، وهو أخذ المال أو المحافظ خلسة . وقد احترف قوم ذلك من رجال ونساء وصبيان ، ويسمون النشالين . ومما يؤسف له أن مصر قد اشتهرت بذلك عند السائحين ، ووضعت المراكب التى تحملهم إعلانا كتب فيه ما مضمونه « احترس من النشالين » ! وهى سبّة فظيعة .

وربما لم تكن مصر أسوأ حالا من بعض البلاد المتمدنة .

ولهم فى ذلك طرق مختلفة ، ومهارة ممتازة ، حتى ليستطيع مهرة النشالين أن ينشلوا من غير أن يحس المنشول . بل قد ينشلون ضباط المباحث . فإذا لم يستطيعوا أخذ الشىء شقوا الجيوب أو فتحوا شنط النساء وأخذوا ما فيها . ثم لهم حيل وألاعيب ، خصوصا على من تفرّسوا فيه أنه فلاح مغفل أو غريب الدار . وبعضهم يسرّح الأطفال بعد أن يعلمهم طرق النشل . وكثيراً ما يكون لهم شيخ يسلّمونه ما نشلوه ، وهو يعطيهم القليل منه ، ويستلب منهم الكثير . وكثيراً ما تنضم إلى رذيلة النشل رذائل أخرى خفية تتضح عند اكتشاف النشالين .

النشوق

ويسمى أيضا السعوط ، هو نوع من ورق الدخان يدق ويضاف عليه قليل من النطرون فيما أظن ؛ وبعد أن يسحق يشمّ فى الأنف فيهيجه ويسيل المخاط منه .

ومتعاطوه كثيراً ما يحملون معهم منديلا أحمر كبيراً للنفّ . وكانت توجد دكاكين فى أكثر الأحياء لبيعه ، وكان استعماله منتشرا خصوصا بين علماء الأزهر ومن اتصل بهم ، لأنهم أجازوا استعماله فى المسجد دون استعمال الدخان ، وكانوا عادة يشترونه فى قرطاس ويضعون منه فى علبة خشبية صغيرة ، وقبل أن يتنشقوا يضربون ضربات خفيفة على رأس العلبة لينزل منه ما قد يكون علق به .

ولتهييجه أنف المتعاطى يزيد عطاسه خصوصا من لم يعتده . وقد قلّ كثيرا بقدر ما انتشرت السجاير وتدخينها ، وشم الكوكايين وأمثاله .

النظافة

مما يؤسف له أن النظافة لم تنل من المصريين العناية الكافية ، وربما كان الجوّ عاملا فى ذلك . وقد رُتِّبت الأمم الشرقية فى النظافة فكان الأتراك أولا ، ثم اللبنانيون والسوريون ، ثم المصريون ، ثم الإيرانيون ،

ثم الهنود . وكانت مأكولاتهم تعرض فى الطريق للذباب والغبار . وقلّ من الفلاحين من يلبس حذاء . وهم يأكلون الفجل والكرات بعد غسيله بماء قذر فى الترع ، ويشربون ماء النيل من غير تقطير ؛ وهكذا من مظاهر عدم نظافتهم . ولعلهم يسيرون إلى الأمام سريعا فى سبيل النظافة . وقد تمر على الأطفال والفقراء فتجزم أن وجوههم لم تغسل بالماء منذ أيام ، وأن ملابسهم لم تغسل منذ أن لبسوها .

وتدخل بيت الوجيه وخصوصا فى القرى فتجد أثاثا فخما وموائد فخمة لكنها تنقصها النظافة .

وقد امتازت بيوت الأتراك فى القاهرة ، والحق يقال ، بالنظافة التامة لما تعوّدوه فى بلادهم . والحارات البلدية فى القاهرة من أدل الأشياء على القذارة خصوصا فى أيام المطر ، فوحل وماء قذر ورائحة عفنة ونحو ذلك .

وقد يصادفك وأنت مارّ طشت ماء من الغسيل ألقى عليك ! والفقراء عادة لا يتورعون من رمى مصاصات القصب فى الشارع وقشر البرتقال وقشر الموز وقشر البطيخ ، فيكون الشارع قذراً مهما كنسه الكناسون .

نظام الطبقات

الطبقات فى الأمم تنشأ تبعا للتاريخ ، ولما كان تاريخ مصر ذا أحداث خاصة نشأت الطبقات فيها نشأة خاصة .

وقد كثر الفاتحون وتتابعوا من يونان ورومان وعرب ، وترك وفرنساويين وإنجليز الخ ... فنشأ عن ذلك أن الفاتحين كانوا هم الطبقة الأرستقراطية دائما . وأقلّ منهم كثيراً الطبقة الفقيرة من فلاحين وعمال وصناع ، ويكونون أعظم الشعب ، وبين هؤلاء وهؤلاء طبقة وسطى . ورغم أن الإسلام سوّى بين الطبقات فإن النظام الاجتماعى فارق بينها . وقد اعتادت الطبقة الفقيرة احترام الطبقة العالية والذل والخضوع الشديد لها .

وأظهر الطبقات طبقة الأمراء ، وكان العلماء طبقة ممتازة يصغى إلى أوامرها العامة والأمراء معاً ، وكثيراً ما تدخلوا فى الحركات السياسية لهذا السبب ، ولكن ضعف شأنهم على توالى الأيام ، ولم يعد لهم تأثير كبير لا على الشعب ولا على الأمراء . ويلى هؤلاء وهؤلاء كبار الملاك والتجار ، وهم أثرياء ثروة متوسطة . وفى الزمن الأخير كثر عددهم وسلطانهم . ويلى هؤلاء جميعا طبقة

العمال والصناع ، وهم ينقسمون إلى طوائف ، كل طائفة منهم لها نقابتها يفضون مشاكلهم ويرعون أوامرهم بأنفسهم . وآخر طبقة هى طبقة الفلاحين ، وهم أكثر عدداً ممن قبلهم وأسوأ حالا وأكثر بؤساً وأشدّ تعرضاً للمظالم.

ولما جاءت الحروب الكبرى الأخيرة زلزلت هذه الطبقات وجعلت عاليها سافلها وسافلها عاليها ، وأفهمت الطبقات الفقيرة حقوقها ، وعلمتهم الإضراب لنيل حقوقهم . وكان العمال فى ذلك أسرع من الفلاحين وأقدر ، لأنهم متكتلون وتكتلهم يجعل قيمة لإضرابهم ، ويعلّم بعضهم بعضاً المطالبة بحقهم . أما الفلاحون فيتفرقون ، وتفرقهم يضعف من شأنهم ؛ على أننا سمعنا فى الأيام الأخيرة حركة جديدة قاموا بها يطالبون بالعدل ورفع الظلم ؛ ولا يعلم إلا الله منتهاها . وكان من أهم أغراض الثورة الأخيرة فى مصر إزالة الفروق بين الطبقات بتحديد الملكية وإلغاء الرتب والنياشين ، ونحو ذلك .

نعل الجلشنى

الجلشنى مسجد فى القاهرة عند مسجد المؤيد ، وهناك نعل صغير يزعم الناس أنه نعل الشيخ الجلشنى ، والناس يعتقدون فى هذا النعل ويتبركون به ، ويشربون من مائه غرفا من بئره ، وله يوم مخصوص فى الأسبوع هو يوم الأربعاء ، يزار فيه الجلشنى ويتبرك بنعله

النقطة

يطلقها المصريون على أول نقطة ترد من الأمطار إلى مصر ، وتكون عادة فى ١١ بؤونة ، وهم يستبشرون بها وينسبون إليها تنقية الهواء ، ومنع الأمراض ، وخصوصا الطاعون . وقد اعتادوا أن يضعوا فى تلك الليلة قطعة من الطين المجفف يقيسون به الفيضان ، فإن ابتلت بالماء دل ذلك على أن الخير سيكون عظيما ، وهم يعتقدون أنه فى هذه الليلة إذا وضعت عجينة اختمرت لاعتدال الجو ، والمصريون يحتفلون بليلتها . ويسمونها ليلة النقطة .

وللنقطة معنى آخر وهو المال الذى يمنح للعروس أو للعوالم ليلة الدخلة ، وكانت العادة أن يوضع منديل فى حجر العروس والمعازيم ينفحن العروسة من المال كلٌّ على قدره .

ويسمون ذلك كله نقطة . وكذلك عند زفة العريس تقف الزفة على بعض الأماكن ، وينادى بعض الخاصة : شوبش شوبش ! فينقط من يشاء .

وكذلك تنقط العوالم بعد الزفة . وأحيانا يرسل الأصدقاء بعضهم إلى بعض هدايا لمناسبات ، كزواج بنتهم ، أو طهور ابنهم أو ابنتهم ، أو عودتهم من الحج ، أو نحو ذلك ، وتسمى نقطة . وتكون هذه النقطة كدين على المهدَى له ، يؤديها عند ما تحدث مثل هذه المناسبات للمُهدِى .

النمس

هو حيوان منتشر فى مصر ، ويمكن استئناسه ، فإذا استؤنس أفاد صاحبه بإبادته للفئران ، ولكنه يؤذيه من جهة أخرى بأكله للحيوانات الأخرى كالدجاج . ومعروف عنه أنه يبيد التماسيح الصغيرة ، ويفحص عن بيضه فى الرمل . ويبالغون فى ذلك فيقولون إنه إذا فتح التمساح فمه دخل النمس فى فيه فقتله . وفى القوانين المصرية القديمة نصوص صريحة توجب حمايته وتوصى به ، لأنه يأكل الفئران والحيوانات الضارة .

والمصريون يطلقون على الشاب الماكر الماهر الذى يصل إلى غرضه بأساليب ناعمة « نمس » .

النوبيون

هم سكان النوبة وهم سمر الألوان ، لونهم أشبه ما يكون بلون الحبش . وقد اشتهروا بالأمانة والنظافة والصلاحية للخدمة ، ولذلك تراهم يملأون البيوت للخدمة ، كما يملأون الفنادق والقهوات . ولا يغنى عنهم البيض ، وكثيراً ما يتزوجون ويتركون زوجاتهم فى بلادهم ، ويأتون إلى مصر ويقيمون فيها سنوات ثم يعودون إلى بلادهم للإقامة فيها على الدوام أو بعض أشهر .

وفى الأيام الأخيرة اعتاد بعضهم الوقوف فى الشوارع حيث تقف السيارات ، فإذا خرج صاحب السيارة أو سوّاقه نصحه بأن يسير إلى الوراء قليلاً أو كثيراً ليمكنه السير إلى الأمام فى نظير قرش أو نصف قرش . ولهم لباس خاص ، وهو القفطان الأبيض أو الجلباب وعليه أو عليها حزام أحمر .

وقد يشاركهم بعض السودانيين فى أعمالهم ؛ وهم أسود منهم لونا ، ولكنهم لا يكثرون كثرتهم ، وهم بحكم أنهم أقلية يرتبطون فيما بينهم ارتباطاً كبيراً ، حتى أن بعض القهاوى يكون كل جلاسها منهم ، لأن صاحب القهوة ومقدمها منهم .

نماذج

نسوق تحت هذه الكلمة بعض نماذج من الأحداث والأشخاص تعتبر نماذج للناس فى مصر ، وما كان يجرى فيها ، مأخوذة من تاريخ الجبرتى — قال فى ترجمة « إيواظ بك » : إن أصل اسمه « عوض » حرّفت باعوجاج اللسان التركى إلى « إيواظ » فإن اللغة التركية ليس فيها الضاد ، فأبدلت وحرّفت حتى صار فيها « إيواظ » ، وهو شركسى الجنس قاسمى ، أى أنه يتخذ الشارة القاسمية ، تولى الإمارة عوضاً عن سيده مراد بك . وقد تلقى مرسوما بالركوب إلى الصعيد للتغلب على العربان وإجلائهم عن البلاد ، لأن الملتزمين والفلاحين يتظلمون منهم ، فجمع « إيواظ بك » نحو ألف جندى وخرج إليهم بموكب عظيم ، ثم طلب الإمداد فأجيب إلى طلبه ؛ فحارب العربان وانتصر عليهم ، ففروا إلى الوجه البحرى عن طريق الجبل ، بعد أن نكل بهم تنكيلا كبيراً ، وقتل بعضهم ونهب جمالهم .

وفى وقعة من الوقعات أخذ منهم ألفاً وسبعمائة جمل بأحمالها . وعاد « إيواظ بك » ودخل القاهرة فى موكب عظيم وخلعت عليه الخلع .

ولما عاد إلى مصر وجد بعضهم تترسوا فى جامع السلطان حسن ، فحاربهم وانتصر عليهم بعد أمور وحروب يطول شرحها . وحدث أن بعضهم أحرقوا بيت أمير وما لاصقه من البيوت والحوانيت والرِّباع ، فركب إيواظ « بك » وأمامه القواس بمزراق ، فاشتبك المزراق فى الباب فانكسر ، فتطيّر إيواظ بك من ذلك وطلب مزراقا آخر . وفعلا انهزم « إيواظ بك » وكانت فتنة كبيرة يقول فيها الشيخ حسن حجازى قصيدة مطلعها :

أيها الشخص لا يكن منك معتب
إن إيذاء خلق ربك معطبْ

ومنها :

وعلينا مدافع نصبوها
فى أعالى الأبراج ترمى بملهب
وبيوتاً عديدة حرقوها
مع نهب الأموال من غير موجب
وأحاطوا بنا وقد منعونا
استقاء من نيلنا أو مصوب
فعطشنا وماء ملح شربنا
ورمونا بكل ما كان يرعب
مدة مستطيلة ثم باءوا
بعقاب لم يبق منهم معقب

والذى ذكرته هُنَا(1) مجمل
لو بسطناه ضاق تعبير معرب

ويستفاد من هذا الجزء أشياء كثيرة منها :

(أولا) كثرة فساد العربان وتأديبهم بالقتل والتشريد .

(ثانيا) كثرة المظالم على الناس بشق أنواعها .

(ثالثا) تحريف الأتراك لكلمات عربية إلى نطق غريب تركى ، كتحريفهم عوض إلى « إيواظ » .

رابعا : احتمال الأهالى الظلم وصبرهم عليه

خامساً : ضعف الشعر ، ومع ذلك عنايته بتسجيل الحوادث إلى غير ذلك .

***

النموذج الثانى : شيخ العرب همام بن يوسف كان غنيا كبيراً ، ملجأ للفقراء والأمراء ، ومحط رجال الفضلاء والكبراء . تنزل بحرمه قوافل الأسفار ، إذا نزلت بساحته الوفود والضيفان ، تلقاهم الخدم وأنزلوهم فى أماكن معدة لأمثالهم ، وأحضروا لهم مايحتاجون إليه ، من سكر وشمع عسل وأوان ، ثم يحضرون لهم مرتب الطعام فى الغداء والعشاء ، والفطور ، وفى الصباح تحضر المربات والحلوى ، سواء كانوا يعرفونهم أو لايعرفونهم ، وإن أقاموا على ذلك شهوراً لا يختل نظامهم . وكان ينعم بالجوارى والعبيد والسكر والغلال والتمر والسمن والعسل . وكان الفراشون والخدم يهيئون الفطور من طلوع الفجر إلى ضحوة النهار ، ثم يشرعون فى أمر الغداء من الضحى إلى قرب العصر ، ثم يبتدئون فى أمر العشاء . وعنده من الجوارى والسرائر والمماليك والعبيد الشىء الكثير . وكانت أملاكه واسعة ، فله فى زراعة القصب وحدها نحو اثنى عشر ألف شونة ، وكانت شون غلاله لا تعد ، تكتل أتلالا . وعنده من الأجناد والقواسة الشىء الكثير ، فيقضى الأقباط والحاسبون عنده زمناً طويلا ليلا ونهاراً ، لمحاسبته وبيان ما له وما عليه . وإذا جلس مجلسا عاما وضع بجانبه فنجانا فيه قطن وماء ورد ، فإذا قرب منه الأجلاف وتحادثوا معه وانصرفوا ، مسح بتلك القطنة عينيه وشمها بأنفه حذراً من رائحتهم . وكانت له صلات بالعلماء والأمراء كالسيد مرتضى الزبيدى وغيره .

وهذا منظر آخر يصوّر لنا الكرم العربى مع الغِنَى العريض والجاه الواسع ، كما يصوّر لنا نوعا جديداً من الحياة التى يحياها هؤلاء الأغنياء المترفون من الأعراب .

ونموذج ثالث يمثل لنا حياة العلماء فى

(1) هنا من غير مد الألف للوزن .

ذلك العصر : كالشيخ حسن الكفراوى ، فهو عالم من علماء الأزهر ، وُلد ببلدة كفر الشيخ ، ومن ذلك سمّى الكفراوى . وقرأ القرآن ، وحفظ المتون بالمحلة الكبرى ، ثم حضر إلى مصر وحضر على شيوخ الوقت ، ومهر فى الفقه والمعقول ، وتصدّر ودرّس وأفتى ، وتداخل فى القضايا والدعاوى ، وفصل فى الخصومات بين المتنازعين ، وأقبل الناس عليه بالهدايا ، وتجمّل بالملابس وركوب البغال ، وأحدق به الأتباع . ووفدت عليه الناس ، ثم تزوج بنت جزار بالحسينية ، وسكن بها ، واحتاط به أهل الناحية ، وصار له بهم نجدة على من يخالفه أو يعانده ولو من الحكام . وتردّد على الأمير محمد « بك » أبو الذهب قبل استقلاله بالإمارة . فأحبه محمد « بك » وحضر مجالس دروسه فى شهر رمضان بالمشهد الحسينى .

فلما استبد محمد « بك » بالأمر لم يزل يراعى صحبته ، ويقبل شفاعته فى المهمات ، ويدخل عليه من غير استئذان فى أى وقت أراد ، فزادت شهرته . ولما بنى محمد « بك » جامعه عيّن الشيخ حسن رئيسا له . واجتمع المترجم له بالشيخ صادومه المشعوذ ، وكان يدّعى أن شعوذته من باب الولاية والكرامات ، إلى أن اتضح أمره ووافاه الأجل والحمام بعد أن تمرّض شهوراً وتعلل ، ولم يكن مثالا للعلماء الزاهدين . رحمه الله .

يستنتج من هذا :

١ — أن بعض العلماء كان واسطة بين العامة والأمراء .

٢ — بعض العلماء يؤيد المشعوذين فى شعوذتهم .

٣ — استنجاد العلماء أحيانا بالشطار ورؤساء الحرف والصناعات ليحتموا بهم عند اللزوم .

ونموذج من الأمراء فى عهد المماليك للأمير عبد الرحمن كتخدة :

كان لما مات سيده لم يأخذ شيئاً من المال الموجود . فغضب وخرج من وجاقهم إلى وجاق آخر ، فلما مات واضع يده على أمواله انتقل الأمر إلى زوج أم عبد الرحمن ، فاستدعاه وسلّم له التركة بأجمعها ، وكان شيئاً يجلّ عن الوصف . فرجع عبد الرحمن إلى وجاق الانكشارية ، وعلا أمره من حينئذ . ثم تولى الإمارة فأبطل خمامير حارة اليهود ، وأنشأ كثيراً من الأسبلة والكتاتيب ، وزاد فى الجامع الأزهر مقدار النصف ، وبنى له فيه مقبرة .

وعلى العموم أنشأ عمارات كثيرة فى

كل حى . وكان إذا جاء رمضان اجتمع الفقراء على باب بيته فأخرج لهم اللحم والفتّ ، وأعطى كل رجل سحوره ، ثم اشتد ساعد على بك الأمير عدوّه ، فأخرجه من مصر وأبعده إلى الحجاز . ولما رجع من الحجاز رجع متمرضاً فلم يلبث إلا قليلا ومات ، وخرجوا بجنازته فى مشهد حافل حضره العلماء والأمراء والتجار ومؤذنو المساجد ، وأولاد الكتاتيب التى أنشأها ، ودفن بمدفنه فى الأزهر . وكان كثير قبولِ الرشوة . صادر الأغنياء على أموالهم ، واقتدى به فى ذلك غيره ، حتى صارت الرشوة سنّة مقررة . وكذلك كان يصالح على تركات الأغنياء التى لها وارث .

ومن أكبر سيئاته إثارته العداء بين الأمراء وتسليطه بعضهم على بعض . ولذلك تنفسوا الصعداء لما أخرج من القاهرة .

نستنتج من ذلك :

أن الأمراء كانوا يظلمون ويتصدقون ويبنون الأسبلة والمساجد ظنا منهم أن هذه تغفر لهم سيئاتهم ، كما تدلنا هذه السيرة على ما كان فى تلك الأزمان من جور وفساد ، وسلب ونهب . وما أكثر ما احتمل المصريون !

هذه نماذج من تركى وشيخ عرب وعالم وأمير . وهى تمثل أصناف الناس من الطبقة الوسطى والعليا ، ولا يختلف عنهم أمثالهم إلا قليلا . فقد يزيدون فى بعض الصفات وقد ينقصون . ويمكن أن نتصوّر الشعب المصرى من هذه النماذج على قدر الإمكان ، إلا أفراداً شذّوا فى باب الخير أو باب الشر ، فمنهم من زهد فى الدنيا ، ومن الحكام مَن عدل ، ومن العلماء من تورّع أو تصوّف ، ولكن عددهم قليل ، والعبرة بالغالب .

النيل

تعد مصر بحق هبة من هبات النيل ، وقد سمى النيل نيلا من اسم نيلوس ، أحد الفراعنة القدماء ، لما قام به نحو النيل من جلائل الأعمال . وقد بهر النيل أبصار اليونان فقرر بعضهم أن الماء أصل الكائنات وأسسوا مدينة أطلقوا عليها اسمه ، وشادوا هيكلا فخماً كان النيل فى هذا الهيكل ممثلا فى صورة شيخ تحته مرمر أسود ، رمزاً إلى بلاد الحبشة ، وكلّل رأسه بالسنابل ، واستند إلى تمثال أبى الهول ، وجعل عند قدمه تمساح وفرس بحر ، حيث يصب النيل ، وأحيط بصورة تمثل الستة عشر طفلا ، ترمز

أوضاعهم اللطيفة إلى ما كسبوه من نعمة فيضان النيل . واشتهرت شلالات النيل شهرة عظيمة من أكبرها شلال أسوان ، ويسمع خرير الماء منها من مسافة بعيدة . وقد كان الشلال جبلا كان يعترض النيل ، فتمكن من قطعه فى عدة مواضع حتى يمر الماء منه ، خصوصاً فى أيام الفيضان .

ويتكون مجرى النيل من ماء وطمى ، ويختلف عرضه وعمقه بحسب الأماكن ، كما تختلف ضفتا النيل ـــ ـــ صغراً ، وكما تختلف فى أيام الفيضان ، وأيام التحاريق ؛ ويمر النيل وترعه بجميع مدن القطر المصرى وقراه ، وتقوم على قراه القصور والعزب . والنيل كغيره من الأنهار تزداد مياهه سنوياً عقب الانقلاب الصيفى . وحدّه بالفيضان ستة عشر ذراعاً إلا فى سنوات نادرة ، ويبدأ الفيضان فى جهة الحبشة فى أبريل ومايو ويونيه على أثر نزول الأمطار الغزيرة ، ثم تمرّ المياه فى الخرطوم فى أوائل أبريل ، ولا تظهر فى القاهرة إلا فى النصف الأخير من يونيه ؛ أعنى أن المياه تصل إلى القاهرة فى نحو ثلاثة أشهر .

وسبب هـذا البطء أن المياه الأولى للفيضان تذهب فى الطريق قبل وصولها إلى مصر العليا ، وينصرف بعضها إلى جهات مختلفة كثيرة ويرشح بعضها ، والزيادة فى النيل لا تأتى مطردة منتظمة ، بل قد تختلف زيادته فى بعض السنين ، وقد تجىء متأخرة ، وفى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر تبلغ الحد الأعلى من ارتفاعها ، ثم تهبط بالتدريج حتى تكون التحاريق فى مارس وأبريل ومايو . وليس الفيضان كما يظن بعض الناس الأجانب سيحان النيل على الأرض فيغمرها كالطوفان وإنما هو عبارة عن امتلاء مجرى النيل وترعه وارتفاع الماء فيهما ، وإذا بلغ النيل حداً مناسبا لرىّ الأراضى ، وذلك يحدث فى النصف الأخير من غسطس ، احتفل فى القاهرة بفتح الخليج الذى كان يخترقها من جانب إلى جانب ، فيضيئون الأنوار ، ويطلقون الأسهم النارية بأشكال مختلفة ، وتعزف الموسيقى ، ويغنى المغنون ، وتسير فى النيل زوارق مزينة بالأعلام . وقد كان شائعاً أن المصريين يرمون فتاة جميلة فى النيل محلاة بالزهور ؛ وقد أبطلها عمر بن الخطاب ، ثم ظهر أنها خرافة كاذبة ، وأنهم إنما يرمون هيكلا من الطين على شكل فتاة . وكثير من مياه النيل يضيع سدى فى البحر الأبيض المتوسط من فرعى دمياط ورشيد . وللنيل فى القاهرة مقياس فى الروضة قديم تجاه مصر العتيقة ، وهو عبارة عن

عمود من المرمر الأبيض ، قائم وسط بحيرة تتصل بالنيل ، والعمود ذو ثمانية أوجه ، مقسم ستة عشر قسما ، كل قسم منها ذراع ، فإذا ارتفع النيل ارتفع ماء البحيرة فأمكن قياسه . وقبيل الاحتفال يمرّ المنادون على أبواب البيوت ويغنّون أغنيات مختلفة منها :

البحر زاد ! غرّق البلاد ! .. والأطفال حولهم يجيبونهم في كل نداء بقولهم : عوفا الله! بإمالة الألف إلى الليه . وربما كان أصلها أوفى الله ، أى أوفى الله النيل ؛ فإذا انتهى الاحتفال بالخليج مرّ المنادى وأطفاله على البيوت يوزعون بعض البلح والليمون الحلو والبرتقال الحادق ، يرجون بذلك المكافأة بقرشين أو خمسة أو عشرة . كلٌّ على حسب استعداده . وقد كان هذا العمل رائجاً فى مصر ثم كاد يندثر مع المدنية .

وكثير من ماء النيل يذهب رشحاً فى باطن الأرض ، بسبب ضغط مائه على ضفتيه وتخلل أجزاء الأرض .

وفى الأرض عروق يجرى فيها الماء كأنها قنوات ، ويأخذها المصريون بواسطة الآبار الارتوازية أو السواقى العميقة . وفى العادة يحمرّ ماء النيل فى أيام الفيضان ، ويخضرّ فى أيام التحاريق . ومن الغريب عزوف الرجال عن شرب الماء المقطر أو المرشح ، أو بعبارة أخرى من الطلمبات ، لأنهم يعتقدون أن ماء النيل أبعث للقوة .

حرف الهاء

هرجلة

معناها الفوضى . والهرجلة كثيرة فى مصر . ومعناها عدم النظام . تجدها عند حضورك سينما أو تمثيلا ، وتجدها فى المجتمعات وفى الأفراح ، وخصوصا عند حضور أولاد البلد أو تلاميذ المدارس . وتجدها فى الرجال والنساء ، وفى التلاميذ حين يضربون ؛ فقسم يريد الإضراب ، وقسم لا يريده ، وقسم يهتف لهذا ، وقسم يهتف لذاك . ولم يتعلموا بعد المظاهرات الصامتة . فإذا تظاهروا كسروا الترام وفوانيس الشوارع ودكاكين التجار .

وتجد الفوضى فى المصالح أيضا ؛ فورق هنا وورق هناك ، وورق يضيع بين الموظفين . وهرجلة أخرى فى الملابس ، فهى متعددة الأشكال : عمّة وطربوش ، ولبدة وطاقية ، وجلبيّة وجبّة وقفطان ، وجاكتة و بنطلون ، إلى آخر أنواع الهرجلة .

حتى يحسبهم الإفرنجى إذا نظر إلى الشوارع المصرية لأول مرة أنهم كرنبال .

وفوضى فى مجالس الغناء ؛ ففى كل نغمة آه وآهات ! وحديث بصوت عال مع الجار ، ونحو ذلك .

الهزل

يسمى الهزل ، ويسمى المزاح ، ولهم فى ذلك أعاجيب ذكرنا بعضها عند الكلام على النكتة والفكاهة فارجع إليهما .

هزيمة الجيوشى

هى نوع من العزايم المشهورة ، وصفتها أن يكتب الخاتم الآتى : —

فى كاغد أخضر بماء ورد وزعفران ويبخر بلبان الذكر والمستكا ، على أن يكون الطالع هو الميزان والساعة للشمس ، ويجعل تحت الذى يريد منازلة أعدائه ، ويستعمله أيضا قائد الجيوش فإنه يتغلب على أعدائه ، وهذه صورته :

سيهزم	الجمع	ويولون	الدبر
الجمع	هه	دد	ويولون
ويولون	دد	هه	الجمع
الدبر	ويولون	الجمع	سيهزم

ويستعمل أيضا فى قضاء الحوائج وعند الدخول على العظماء .

هشك

إذا لاعب الأب أو الأم طفلها الصغير فأمسكاه بين أيديهما ورفعاه إلى فوق يقال لهذه العملية « تهشيكة »

الهلال

هو القمر أول ما يبدو ، وللمصريين عقيدة كبيرة فيه ، فإن رؤيته تؤثر فى الشهر كله . فإذا رآه أحد هلَّل وابتهل إلى الله وقال : « اللهم اجعله شهرا مباركا علينا وعلى من يتصل بنا » وعندهم عقيدة فيه مربوطة بوجوه الناس ، فمنها وجوه خيّرة ، ومنها وجوه شريرة ، فإذا فتح الإنسان عينه أول مايرى الهلال على وجه سعيد كان الشهر كله ذا حوادث سعيدة ، وإن فتح عينيه على وجه نحس كان الشهر كله بؤسا . ولذلك يكف بعض الناس عن رؤية أىّ أحد ، ويتعمّد بعده أن يفتح عينيه على المرآة ليرى فيها وجهه كأن وجهه أسعد مخلوق .

وبهذه المناسبة إذا حصل خسوف للقمر أو كسوف للشمس دق الأطفال والنساء على الصفيح والنحاس يصيحون صيحات مختلفة ، لاعتقادهم بأن الجن خنقت القمر أوالشمس ، وهم بهذا الدق والدعاء إذ يدعون : يا لطيف يا لطيف ! يظنون أنهم يبعدون الجنّ عن القمر أو الشمس !

هنومة

يطلق على المرأة الجميلة الحسنة التقاطيع « هنومة » ، ويسمون نوعا من السمك أيضا «هنومة» ، فلعلهم شبهوا المرأة الصبوح بها .

حرف الواو

الواو

حرف الواو فى اللغة العامية يساوى عند الإفرنج O ، وهو واو خفيفة وواو ثقيلة . والنوعان يظهران فى كلمة بوسة ودلّوعة ، مع أنه فى اللغة الفصحى ليس هناك إلا النوع الثانى ، كيلقبون و يقرؤون .

واوا

يقولها الطفل إذا أحس بوجع ، وقد يسمى موضع الوجع نفسه « واوا » ؛ ويظهر أن أصلها قبطية قديمة .

الوجبة

هى اسم للمرّة من الشىء تعمل فى وقت معين ، فيقال وجبة الطعام ، أى الأكلة التى تؤكل فى وقت معين دورى ، ووجبة العمل أى العمل المفروض على شخص يعمله فى وقت معين ، كوجبة الخفير أو التلغرافجى ، وكان الفلاحون يطلقونها على الملتزم عند ذهابه لتحصيل المال من القرية . وذلك أن الأراضى الحكومية كانت تؤجرها الحكومة للملتزمين وهم الذين رسا عليهم المزاد ، وهم يؤجرونها لصغار الفلاّحين بأجور مرتفعة ، ثم يذهب هؤلاء الملتزمون للقرية من حين لآخر ليأخذوا الإيجار . والملتزم فى العادة يذهب ومعه بعض الأفراد ، وعلى أهل القرية أن يؤكلوا الملتزمين ومن معهم خرفانا ووزّا ونحو ذلك ، وتسمى هذه وجبة .

وأحيانا يكون الملتزم قبطياً فيأتى هو أيضاً من الظلم والعسف مع المسلمين ما يشفى غليله وهو يدخل القرية عادة فى موكب عظيم من الخدم والحشم ، ويركب عادة فرساً مسرّجة لها ركاب مطلىّ بالذهب ، وللركاب حديدتان خارجتان ، فإذا أرسل إلى الفلاح الذى عليه الإيجار حضر يرتعد من الخوف ، ويقف بجانب فرسه وهو راكب ، ويسبه ويغلظ له القول ويقول له : «لابد ن تحضر ماعليك الآن وإلا أضربك بهاتين الحديدتين فيجرحه أو يميته» . وتوزع عادة الوجبة على الفلاّحين بحسب غنام وفقرهم ، فهذا عليه خروف ، وهذا عليه وزّة وهذا عليه فطير ، وهكذا . والفلاحون يرتعدون منهم ، وقد يحرمون أنفسهم طول السنة ويضنون بالشاة أو الوزّة على أولادهم ليقدموها وجبة للملتزم . وأحيانا تحوّل الوجبة إلى مال يزاد على الإيجار ويدفع معه .

ويروون فى تاريخ مصر حادثا غريباً ، وهو أن الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد كان السلطان فى زمنه قد ولّى صرّافاً قبطياً على إقليم يقبض ماله ، فاتفق أنه ذهب إلى قرية

ابن دقيق العيد ، فأحضر الصراف فلاحا وطالبه بما عليه ، فقال له الفلاح أمهلنى بقية هذا اليوم ؛ فلم يقبل ، وأراد أن يضربه بالحديدتين ليقتله . ويسمونهما « السّفافيت » واحدتهما « سفّوت » ، وربما حرّفت التاء إلى الدال . فولّى الفلاح هاربا ، فتبعه القبطى وما زال الفلاح يجرى حتى رمى نفسه بين يدى الشيخ . وكان الشيخ يحرق قميناً من الجير ، وهى صنعة الشيخ فى ابتداء أمره ، فقال له الشيخ أمهله بقية النهار ، فلم يقبل ، وأغلظ له فى القول ؛ فقام إليه الشيخ غاضباً وأمسكه واتكأ على ظهره حتى قفصه وألقاه فى تنور القمين فاحترق . وبلغ الأمر السلطان فغضب غضباً شديداً واستحضر الشيخ وقال له : ما حملك على حرق القبطى ؟ قال له ماحملك أنت على تولية النصرانى على المسلمين وأذيّتهم ؟ فزاد الغضب بالسلطان وأراد أن يبطش به .. قالوا فأشار الشيخ إلى الكرسى الذى يجلس عليه السلطان فتحرك ، وانكب السلطان على الأرض مغشياً عليه ، ثم أفاق السلطان فقال له : اعف عنى أيها الشيخ ! قال له : أنا لا أريد شيئاً إلا أن لا تؤمّر النصارى ولا اليهود على المسلمين وإلا هلكت . وخرج الشيخ من عنده على غاية من الكرامة والتبجيل ، وذهب إلى قريته .

والذى ألجأ السلاطين إلى تعيين الأقباط مهارتهم فى الحساب ، ولذلك قال قائلهم :

لعن النصارى واليهود جميعهم
نالوا بمكر منهم الآمالا
جعلوا أطباء حسابا لكى
يتقاسموا الأرواح والأموالا

ولذلك كان من الفتاوى فى ذلك الوقت هل يصح الخضوع للنصارى واليهود إذا ولّوا على المسلمين ؟ وكان الجواب :

إن خدمة المسلم للكافر حرام ، وكذلك الخضوع له والتذلل بين يديه ، ما لم يخف منه ضرر أو أذية ، بأن يكون حاكماً أو متولياً أمراً كالصرافين فى ديار الفلاّحين.

وظلّ الصرافون من هذه الفئة إلى عهد قريب . وكثيراً ما ترك الفلاّحون أراضيهم وأملاكهم من الإيجار والوجبات .

وَحوِى وحوى

هى أغنية منتشرة فى رمضان بين الصبيان ، يجتمع الأطفال بعد الفطور وبأيديهم فوانيس صغيرة مضاءة بالشمع ، زجاجها ملون بألوان مختلفة ، من أحمر وأخضر وأزرق وأصفر ، وينشد منشدهم : وحوى وحوى ! فيجيب الآخرون إياحة ! ثم يستمر المنشد « بنت السلطان ، لابسه قفطان ، بالأحمر ،

بالأخضر ، بالأصفر » وينشد الأطفال وراء كل كلمة « إيّاحة » ، ولا أدرى معناها هل هى كلمة مصرية قديمة ، أو هل هى مشتقة من حوى يحوى ، أى عمل كما يعمل الحواة ، بدليل قولهم : لولا فلان ما جينا ، ولا تعبنا رجلينا ، ولا حوينا ولا جينا ...

وَرْدَه

يقولها الحوذيون للمارة بمعنى احترس أو خذ بالك . وهى مأخوذة مع التحريف من أصل إيطالى Gardez أى ترقّب وانتبه أو من البرتغالية Garda أى الرقيب والمنبه .

الوقاية

يعتقدون أن للعين تأثيراً كبيرا فيمن تقع عليه . فيتقونها بالرُّقَى تارة وبالأحجبة مرة أخرى . ويعللون كل الأمراض بالعين وبالحسد ، ويسمونها أحيانا « نفس » حتى الحمى . ولعلاج ذلك تأتى العجوز فتوقد نارا ترمى عليها قطعا من الشب والفسوخ أو الجاوى ، فمتى ذاب تبخرت مائيته ، فيأخذ أشكالا شتى ، تقول العجوز إنها صورة رجل أو امرأة هى فلان أو فلانة . وأحيانا تأخذ دبوساً تغرزه فى الصورة وتقول : فقأ الله عينها ، ولوقاية الفرس يعلق فى صدره ناب ضبع ، ولوقاية الجمل يعلق على صدغه نعل قديم . ومن الشائع بينهم أن يأخذوا قطعة من الورق يشكّون فيها الدبوس جملة مرات وفى كل مرة يقولون من عين فلان أو عين فلانة ! ثم يبخر المحسود بهذه الورقة مع قليل من الملح والشب .

ولادة الذكور

قالوا إن الرجل إذا أراد أن تلد امرأته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهى نائمة ، ويمسح على السرة وهى فى ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات وهو يديم المسح بيده : اللهم إن كنت خلقت خلقا فى بطن زوجتى هذه فكونه ذكراً وأنا أسميه محمدا . ربِّ لا تذَرْنى فرداً وأنتَ خيرُ الوارثين . فبشَّرناه بإسحٰق ومن وراء إسحق يعقوب ، وبشَّروه بغلام عليم .

حرف الياء

يارمز

كانت فى القاهرة طائفة يسمون «يارمز» لا أعرف اشتقاقها ، وكان من أوصافها أنهم يلبسون جلبابا أزرق ، ويتحزمون عليه ، ويرفعونه حتى يكون له منهم عبّ ، ويلبسون طربوشا من غير عمامة ، وله زرّ أزرق ، ويحركون رقبتهم حركة متتالية حتى يدور الزر بسرعة ، ويصفع كل منهم وجه الآخر ، فتكون لعبة يتضاحك عليها .

وقد يحملون طبلة تحت إبطهم يطبلون عليها وفقا لحركات الزر . وهم أشبه مايكونون بطائفة الأدباتية التى ذكرناها .

يا فرج

يمشى فى القاهرة رجل يلبس جلبابا أبيض ، ويضع عصاً مستعرضة على كتفيه وينادى : يا فرج ! فمن سمعه فهم منه أنه يخرج الثعابين من مكانها ، فإذا نودى عليه أدخل مظان الثعابين وعزّم تعزيمات فيخرج الثعبان من مكمنه . ولا أدرى هل يخرج الثعبان لشىء يحمله هذا الرجل يشتهيه الثعبان أو غير ذلك .

على كل حال هذا هو ما شاهدته . ومن وظائفه أيضاً أنه ينزل الدود من أنف الأطفال بما يدعيه من العزائم . وكثيراً ما يكون ذلك من وضع دود فى كمه ينزل من أنف الطفل بحركة سريعة منه .

اليانصيب

هى كلمة ينادى بها على أوراق «اللوترية» سموها كذلك لأنها تكون من مئات الآلاف ، ثم يربحها عدد محدود من غير سبب معروف . وقد يكون رابحها أبعد الناس عن استحقاقها ، ومحرومها أكثر استحقاقا لها ، فيربحها الغنى المفرط فى الغنى ، ويخسرها الفقير الممعن فى الفقر ، فكأن ربحها أو خسارتها مبنيان فقط على البخت ، أو بعبارة أخرى النصيب ، ولذلك نادوا عليها يا نصيب . وانتشرت هذه الكلمة عند الإفرنج بأن المصريين أكثر الناس اعتقاداً فى القضاء والقدر والبخت والنصيب ، كما أخذوا منهم كلمة « قسمة » . وهى تساوى « قدر » .

اليفط

أولع المصريون باليفط ، كتبت بخط جميل ووضع عليها لوح من الزجاج ، ثم صنع لها إطار من خشب ، فتجد فى القاعات : بسم الله الرحمن الرحيم . وإنك لعلى خلق عظيم . وتجدها فى الدكاكين ، وخصوصاً :

إن الله هو الرزاق العظيم . ورب يسّر ولا تعسّر . ووضع على رأس القضاة : العدل أساس الملك ، تذكيراً لتحقيق العدل . وكثير يستغنون بها عن صوَر المناظر الطبيعية أو صور الفنانين .

اليمنى واليسرى

يعتقدون البركة فى البدء باليمنى سواء كانت يداً أو رِجلا ، فيلبسون النعل اليمين قبل النعل اليسار ، والكم اليمين قبل الكم اليسار ، ويتعمدون أن يدخلوا البيت والمسجد بالرجل اليمنى ، وعلى العموم يتيمنون باليمنى ويتشاءمون من اليسرى .

اليهود

فى مصر طائفة كبيرة من اليهود ، امتازوا بالمحافظة على جنسهم ، والانطواء على أنفسهم ، كما هو شأنهم فى كل بلاد العالم ولهم حارة فى القاهرة تسمى حارة اليهود ، لايسكنها غيرهم . وقد عرفوا ببياض بشرتهم وزرقة عيونهم . وامتازت وجوههم بسحنة خاصة يعرفها من اختلط بهم . ولهم شهرة واسعة فى الأعمال التجارية وصياغة الحلىّ .

وعرفهم المصريون بالبخل ، ولهم فى ذلك النوادر اللطيفة الكثيرة عنهم ؛ فإذا رأوا من المسلمين من يبخل ويدقق فى الحساب قالوا له أنت يهودى ، وهم لأنهم أقلية أكثر ما يكون تعاوناً بعضهم مع بعض وامتاز بعض نسائهم بالجمال ، وهم حيث ما كانوا يحترفون التجارة ويسيطرون على المال . حتى إنهم فى أمريكا وعددهم فعلا لا يتجاوز الستة ملايين ظهروا على سكانها وهم نحو أربعمائة مليون .

ولهم نظر نفّاذ فى نوع العمل الذى يسيطرون به على الأمة التى يسكنون فيها ، من طبّ وأعمال بنوك واستيلاء على الصحافة وتدريس ونحو ذلك .

ولهم مهارة فى نشر الآراء والتعاليم التى تزلزل العقائد وترج الإيمان . وفى حرب فلسطين حاربوا الأمم الإسلامية بغاية ما وصل إليه العلم والسياسة من الأساليب الحديثة ، يحاربون بها التقاليد القديمة .

يوم الجمعة

يعتقدون أنه يوم مبارك ، وتستحب فيه الأعمال ، ولكن فيه ساعة نحس لا يعرف متى هى . وهو يوم راحة للمسلمين تغلق فيه أكثر الدكاكين ويستراح فيه من أعمال الأسبوع ؛ ويزاحمه فى ذلك يوم الأحد لأنه عند النصارى كيوم الجمعة . ومن كان يعمل عند النصارى اضطر بحكم الضرورة أن لا يعمل يوم الأحد .

وهناك يوم جمعة يقال له الجمعة اليتيمة ، ذلك أنه كان فى زمن الفاطميين أربعة مساجد : الأنور ، والأزهر ، والأقمر ، ومسجد عمرو بن العاص فى مصر العتيقة ، فكان الخليفة يصلى كل جمعة فى مسجد من هذه المساجد ، ويجعل آخرها فى مسجد عمرو ، فيسمونها الجمعة اليتيمة ، أى الجمعة التى لا جمعة بعدها فى رمضان . ولا تزال هذه العادة جارية إلى اليوم مع تعدد المساجد وكثرتها . وذلك كقولهم « أربعاء لا يعود » وهو الأربعاء الذى قبل شم النسيم . .

التعابير المصرية

(حرف الألف)

إإى شَمَر

تقال لمن يغضب من أى كلمة ولو تافهة ، فيقولون : يغضب من إإى شمر .

آدى آخرْتها

تقال للنتيجة تعقب العمل السيّئ .

آدى زمان البِدِنْجَان[1]

يعتقدون أنه فى زمان البِدِنْجَان يكثر الجنون .

آدى الزّير وآدى غطاه

يعنى أنهما متناسبان . أى إن البرهان حاضر ، فإذا قلت إن الغطاء ليس على قدر الزير ، أو الزير ليس على قدر الغطاء ، فهذا هو الزير ، وهذا هو غطاه ، يحكمان بيننا .

آدى اللى صار وآدى اللى كان

أى هذا ما حدث .

آه

تستعمل فى اللغــة العامية استعمالات كثيرة ، قصيرة وممدودة ، فيقولها من يسمع المغنّى استحساناً له ، وهى بالمدّ . ويقولها المريض وهو يتأوّه ، ويمدها على حسب مرضه . ويقولها بالخطف من رأى منظراً غريباً ، خصوصاً إذا كان مرعباً ، وتقال أيضاً بالمدّ بمعنى نعم . ومثلها فى هــذه الاستعمالات ما عدا معنى نعم لفظ الجلالة « الله » .

آهين

هى تثنية آه . فإذا زاد الوجــد على العاشق ، فبدل أن يقول آه يقول آهين . وأحياناً يجمعونها على آهات .

آه يا وعدى

أى ما أكثر ما ألقاه منك .

أبَاتْ أعلّم فى المتبلّم ، يصبح نامى

تقال للشخص الذى ينسى ما يذكَّر له ، ولا يتعلّم مما يجرِى أمامه . والمتْبلّم تطلق على الأبله والساهى ، وخصــوصاً من يتعاطى المنزول .

أبات مهنّى والحَسْ مسنّى

يقولون : إن فأراً فى الصحراء كان مع

(١) البدنجان هو اللغة الشعبية للباذنجان .

فقره حرًا ، فأضافه فأر القرية ، فلما أمسك ندم على ما فعل ، وقال : إنه كان خيراً أن أبيت فقيراً متهنِّى ، ولو اقتصرت على لحس مسنِّى .

أبِّ له

إذا رُئى ولد يفعل فعلا جيداً أو رديئاً ، وقد ورثه عن أبيه إذ كان معروفاً به : قالوا أبِّ له . وقريب منه قولهم : هو ابن مين ؟؟

أبو لسان زِفِرْ

أى هجّاء شرّير كثير السبّ .

إبعد عن الشر وغنِّى له ، قال وقنِّيله

أى ابعد عن الشر وغنِّ له ، حتى يبعد ، قال ولا تكتف بذلك ، بل اجعل بينك و بينه قناة .

أتارِى

يقولونه للرجل يأتى بما ينتظر منه . فمثلا إذا ظهر غِنَى رجل قالوا فيه أتاريه بيضيّع كتير ، بمعنى لأنك غنى تنفق المال الكثير . وتقال أيضاً للشىء يتعجب منه فيعرف سببه يقول الرجل للضيف أتارِى الدنيا نوّرِت ، أى كنت لا أعرف سبباً لهذا النور ، ثم ظهر السبب . ويضيفون إليه الضمير أحياناً فيقولون : أتاريه وأتارينا .

أجْرَنْه

أصلها من أجل أنه .

أُعْزِنْه

أصلها : أعزُ أنه ، ثم استعملت بمعنى أفرض .

أحلق شنبى لو حصل ده .

حَلَق الشنب كناية عن أن يكون امرأة لا شنب لها ، أى إذا حصل هذا فأنا امرأة لا رجل .

أخليك تمشى عَ العجين ما اتلخبطوش

أى لأؤدبنك أدباً يجعلك تمشى مستقيما .

إدّاله شَلُّوت

أى رفسه بالرجل ، واشتقوا منه فعلا فقالوا شَلّت له

إدّاله قَلَم بِعزْم ما فيه

القلم : الصفع ، أى صفعه بكل قوّته .

إذا حضرت الملائكة ذهبت الشياطين

أى إن حضر رجال الخير ، ذهب رجال الشر .

أَرْدَغانَة

يستعملونها فى المائدة الكثيرة الأكل المشوّشة .

أروح فين وآجى أمْنين

يقولها الرجل عند ما يحار ، وتسدّ أمامه المسالك .

اسم النبي حارْسَكْ

تقال لدفع العين . وتقال أيضا لمن أشرف على مكروه .

استَنْجَلِّينا

كلمة دخلت فى اللغة العاميـة حديثاً بمعنى الجنون يقولون فلان استنجلّينا أى بعقله خبل .

أصبح حالُه عَدَمْ

أى صار يائساً ، فعَـدِم كل شيء وخصوصاً الصحة .

أطلق مُنادِى

إذا ضاع شيء وأجّروا بعض شخاص مخصصين للنداء يقولون : أطلق عليه منادى.

إكْنِي على الخبر مَاجُور

أى احفظ هذا السّر ولاتُذِعْهُ .

أكَلْ فى المِسْمَطْ لسَانْ

المسمط محل بيع حوائج الخروف ونحوه من لسان وفِشّه وكوارع ورأس .

إكمنّه

يستعملونها كثيراً بمعنى لأن ، فيقولون : إكمّنه أبوه غنى بيضيّع كتير ، وا كمنه أبوه غنى جايب له عربية . وأحياناً يستعملونها مفردة ، ويستغنون عما بعدها . فيقولون إذا رأوا أحداً يفعل شيئاً فى إعجاب ودلال : اكمّنه .

إلاّ

تستعمل للاستثناء ، وهو العادة المألوفة، ولـكن الغريب أنها تستعمل بمعنى « بهذه المناسبة » ، يقولون « إلا » فلان سافر ؟ ؟ و « إلا فلان تزوج ؟ ؟ » أى بهذه المناسبة هل سافر فلان ، وهل تزوج .... ؟ ويظهر أن أصلها فى هذا المعنى : هَلاّ .

ألِسْطَة

كلمة إيطالية معناها (مستعد ، متهيء)

يقولون (جاى ألسطة) أى على آخر استعداد فى الزينة .

ألفاظ الملق والنفاق

هى كثيرة فى اللغة الشعبية ، مثل : ربة البيت ، وسعادتك ، وعزتك ، وخادمكم المطيع ، وعبدكم ، ومحسوبكم ، يرفع هذا إلى عتبة بابكم ، ويقبل الأرض بين أيديكم ، ويستجدى من نعمكم ، ويدعو لكم بطول العمر والبقاء الخ الخ من مئات الكلمات . وكان من نعم العهد الجديد إلغاء الرتب والنياشين وما يتبعها من ألقاب ، ولكن أنى هذا ؛ والنفوس مرنت على هذا سنين وسنين . فلا بد من جيل جديد يمرّن من جديد على خطاب المساواة .

أماغريبة

تستعمل أمّا هنا بمعنى هذه أو تلك وكذلك تأكيد الغرابة . وتستعمل أمّا بهذه المعانى فى مواضع كثيرة ، فيقولون : أمّا جاجة كويسة ، وأما حاجة وحشة ، وهكذا .

أنا أحِبُّه حُبّ يفوق الوصف

أى لا يوصف لشدته .

أنا بِدِّى

أى بودِّى ، أى أحب كذا ، فأنا بدِّى أتزوج ، أى بودِّى أتزوج .

أنا فى حالى وانت فى حالك

أى أنا فى شأنى وأنت فى شأنك ، ومثلها روح فى حالك ، ومثله رَاحَ ألاقيها منين واللا امْنِين ، أى لا أدرى من أى جهة تأتى المصائب ، من هنا أو من هنا .

إنت ممروع ليه ؟

أى متكبر متعنطز ليه .

إنت اللّى فِيهُمْ

أى الشخص البارز الذى يعتمد عليه من بين أصحابه .

إن شاء الله

تعبير يكثر على ألسنة المصريين ، فهم إذا وعدوا بعمل شىء شفعوه غالباً بقولهم : إن شاء الله ، اعتماداً على قوله تعالى : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » وهو يعتذر إذا لم يفعل الشىء ، بأن الله لم يشأ ، وقد علق الأمر على المشيئة ،

وهى كما ترى لا تقال إلا لشىء ، ينوى عمله فى المستقبل . ولذلك يستسخفون جحا عند ما سئل أين حمارك ؟ فقال : ضاع إن شاء الله ، لأنه تعبير عن الماضى .

ويعبرون بها أيضاً عند الأمل فى الشىء ، فيقولون : سأغتنى إن شاء الله ، وستتزوجين زواجا حسناً إن شاء الله وهكذا .

إن عامت قرقشت ، وإن غرقت قرقشت

أى إنهم لا يهمهم ما يحدث ، فإن لديهم من الرزق وهدوء البال ، ما يجعلهم يضربون صفحا عن كل ما يحدث . وهو دليل على الأنانية البحتة .

إن كان اللى بيتكلم مجنون ، خلّى السامع يبقى عاقل

أى لا يصح أن يجارى السامع المتكلم فى كل ما يقول ، فإن تكلم أحد بالكلام الفارغ ، فلا يصح للسامع أن يجاريه .

أَنَهْ

تستعمل بمعنى أنا ، فيستخفون الوقف على الهاء الساكنة بدلا من الألف .

وقريب منها : إنهُو بمعنى أيها ، فيقول أحدهم « إنهو الأحسن من دول » أى أيهم الأحسن من هؤلاء .

إِهِئْ مِهِئْ

إهىْ حكاية صوت المرأة الخليعة عند الضحك ، مِهِئْ لإتباع إهىْ .

أهل السماح الملاح

تكثر هذه الكلمة فى صفة الأجواد الخيّرين . ومن الظريف مما يحكى أن أحد المغنين كان يغنّى :

أهل السماح الملاح فين أراضيهم

فأجابه محمد البابلى : محجوز عليهم فى البنك العقارى .

أى لجودهم وسماحتهم ، خربت بيوتهم .

الأوّله آه والتانية آه والتالتة آه

قولة مشهورة فى الأغانى ، يقولون فيها : الأوّلة آه ، والتانية آه ، والتالتة آه ، ثم يعودون إلى الأوّلة آه ، ويزيدون عليها كلمة ، وهكذا إلى الثالثة . ثم يعودون إلى الأوّلة ، ويزيدون على الكلمة الثانية كلمة ثالثة ، وهكذا إلى الثالثة . وهى طريقة مشهورة عند المصريين .

أول ما نبدى نصلّى عَ النبى

يقولها القاصون فى أول قصصهم .

أوَنْطَة

كلمة إيطالية بمعنى (حيلة) . « أفنتا » . يقولون (دا شغل أوَنطة) و (بلاش أوَنطة) و (سينما أونطة هاتوا فلوسنا) و (فلان أوَنطجى) أى صاحب حيَل وخِدع .

إيده خفيفة

تقال للص الماهر .

إيه بَسّ ذنبى

يقولها الرجل أو المرأة عند وقوع عقوبة عليه بذنب لا يعلمه .

إيه ياخد الريح من البلاط

أى إذا حدثت كارثة لشخص فقير ، فماذا تأخذ الكارثة منه .

أيوه

هى كلمة كثيرة على لسان المصريين ، بمعنى نعم . وتسأل أحدهم : هل فعلت كذا ، أو هل ستفعل كذا ، فيقول : أيوه ، أى نعم . ولعلها اختصار من أى والله ، بدليل أن بعضهم ينطق بها كاملة ، فيقول : أى والله .

(حرف الباء)

الباب اللّى ييجى منه الريح ،
سدّه واستريح

أى الناحيـة التى يأتى منها الشر ، سدّها واسترح .

باطُه والنجم

أى لا يملك شيئاً .

بَاينْ مِشْ ناوى يِجِيبْها البَرّ

أى لا يريد أن يسكت

بِجُمْلِةْ دُول

وأحيانا بناقص دول . أى أن هؤلاء لايؤبه بهم ولايلتفت إليهم .

بخْتك ياأبو بْخيتْ

أى سيعمل هذا العمل لك ، وأنت وبختك ، فإن كانت النتيجة حسنة فهى لك وإن كانت سيئة فهى عليك .

بخته نادى

أى طيب .

بركة اللّى جات منك واللاّ جاتش منّا

أى أحمد الله على أن هذا الأمر الذى أريده ، قد أتى منك ولم يأت منى .

بُرّيه منك برّيه

تقال للتأفف من شخص ، وربما كانت للاستغاثة . وكثيراً ما تصحب بِمَسك الملابس ، كأنه يريد أن يمزقها .

بسّ

يقولون بس بمعنى فقط . وبالكسر زجر للقط . ومن هذه المادة بسبسة . وهى كلمة تستعملها العامة للكلام الخفى غير المفهوم يقولون لمن فعل ذلك : بلاش بسبسة ، أو ماتبسبسش . وفى اللغة بثبث ، يقال فلان يبثبث المتاع ، أى يقلبه ويحركه . ومن الغريب أن بس لزجر القط ، وبِسْبِس لمؤانسته . ويستعملون بس استعمالا غريبا يصعب ترجمته مثل قولهم فى إحدى الأغنيات

يا عطّـــــارين دلونى
عالصبر فين أراضيـــه

ولو طلبتو عـــيونى
خدوها بَسّ ألاقيـــه

بصلة المحب خروف

أى القليل من المحب كالكثير من غيره.

بَصّ لُه عاوز يفصّل منّه بدله

أى نظر إليه نظراً دقيقاً ، حتى لكأنه يريد أن يفصل منه بدلة ، كالخياط .

بطّلوا ده واسمعوا ده

تقال عند العجب .

البطّيخَة قرعة

تقال للبطيخة التى باطنها أبيض للدلالة على رداءتها .

بقّه بينقط شَهْد

بقّه بمعنى فمه ، أى أن فمه يخرج منه كلام حلو لطيف ، أشبه بالشهد .

بلاش أَفْش

ويقولون أفشله ، أى نقد وأخذ عليه مآخذ .

(انظر القفش)

البلاش كتّر منه

أى الشىء الذى لاتدفع فيه ثمناً أكثر منه.

بَلْكى

كلمة تركيز بمعنى (ربما أو لعل) يقولون (بَلْكى يكون كده) أى (ربما).

بلاش هُتك

ومثله بلاش هتايك ، ومثله بلاش جرسة وهتيكة ، أى لا تعمل ما يسبب الفضيحة .

بِلّها واشرب ميّتها

يقولونها فى الورقة أو الوثيقة لا يريد الرجل أن يتقيد بها .

بنى آدم طِيرْ ، ما هو طِيرْ

تقال للرجل يتنقـل فى أماكن مختلفة بسرعة . فكأنه طائر يطير ، وما هو طير . أصله : يا له من طير .

بولوتيـكا

كلمة فرنسية ، بمعنى : (مصانعـة ، مداراة ، سياسة) . فيقولون : « أخذوا فى بولوتيكا » و « عمل عليه بولوتيكا » .

بيا كل سَفْلَقَة

أى من غير أن يدفع ما يقابل أكله .

بيتكلم باللاوندِى

أى يتكلم بكلام لا يفهم .

البيت ما فيهش ديّار ، ولا نافخ نار

أى ليس به أحد .

بيحسن لله فى لله

أى لوجه الله ، من غير رجاء فى شىء دنيوى .

بيِسُوق الدّلال

أى يتدلل . ومثله : بيتقل عليه .

بيشكّوا فى حاله

أى أنه يحتضر .

بيضحك عَ الفاضى

أى على ما لا يُضحك منه .

بيَضُوها

الضمير يرجع إلى سراية المجاذيب .
وأحياناً يقولون : روح على السراى الصفرة .
وكلاهما معناه الطعن فى عقليته وأنه يستحق سراى المجاذيب .

بيقول من الهوى دُبُنا

أى أنه يكاد يتلف .

بيْلِمّ سبارس

أى أعقاب السجاير .

بَيِنَّا مش عنخلص

أى يظهر أننا سنستمر .

بينى و بينه ما بين القط والفار

أى عداء شديد .

بينى و بينه ما صنع الحدّاد

أى بينهما عداء يبلغ حد السيف ، لأن الذى يصنعه الحداد هو السيف .

(حرف التاء)

تحطه على الجرح يبرد

تستعمل فى الرجل حسن الخلق ، حسن المعاملة ، لطيف الحديث ، فيقولون دا فلان زىّ المرهم ، تحطه على الجرح يبرد .

تشارك بدوى ، مين يحاسب لك
تشارك جندى ، مين يرطن لك

وهو مثل لطيف يستدل منه على ما كان عند البدو من سوء فهم ، ومن قلة معرفة . فإذا عاملته لم تقدر على محاسبته لغباءته .

كما أن التركى لا يعرف العربيـة ، فإذا عاملته تعبت فى إفهامه ، واحتجت إلى ترجمان يرطن بينك و بينـه . وهو يدل على اعتزاز الأتراك بلغتهم وترفعهم عن تعلم اللغة العربية أو كما يقولون اللغة المصرية ، لأنهم ينظرون إلى المصريين نظر احتقار .

حكى لى صاحب تركى قال : تزوج شاب تركى من فتاة مصرية سـنة ١٩١٠ أو ١٩١١ ، ودخـل عليها فى بيت أبيها المصرى ، ثم أخبر أهله ورجاهم فى الانتقال هو وزوجته إليهم فرضوا بعد مدة طويلة . وأخيراً أفردت له أمه جناحا من البيت . فأخذ زوجته وأمها وأختها إلى بيتـه « مع الجهاز » . قالت الأم : وفرشنا فرشنا ، و بعد مدة طويلة جاءتنا امرأة شركسية عجوز ، ونظرت إلى العروس وأختها و إلىّ نظرة استغراب كأنها لم تر طول حياتها مثل هذا المنظر . ثم تركتنا وخرجت ثم عادت هـذه العجوز ومعها ابنتها ، ووقفتا بلا سـلام ولا تحية ، ودعت العجوز ابنتها إلى أن تنظر إلى الزوجـة وأقاربها كأنهن شىء عجيب ثم خرجتا . وعنـد الظهر جاءتنا جارية سوداء وفى يدها صينية وعليها طعـام وخبز فوضعتها على المـائدة وانصرفت ، وكذلك فعلت وقت العشاء .

وظل هذا الحال طويلا ، فلم تطق الزوجة ولا أمها هـذه المعيشة ، وخرجتا وعرفتا من الزوج أن ليس أحـد فى البيت يتكلم العربية .

تفضل الحاجة تقول نينى نينى لما ييجى الخايب يشتريني

تقال عند الشىء السيىء يبقى لا يباع ، حتى يأتى خائب فيشتريه . . .

تفَضفض عما فى ضميره

ومثله فضفض ، أى أنه عبّر عما فى ضميره .

تْمَلاًّ بنوره

أى تمتع به و بمنظره .

تِوَرِّينى حَتاويك

ومثله تورّينى وحايدك ، أى الألاعيب التى تأتى بها وتضحك بها على الناس .

(حرف الثاء)

ثوب مكشكش

أى ثنيت بعض أجزائه على بعض .

(حرف الجيم)

جَاتْ على البَهْلى

أى سافرة متزّينة .

جات على الطبطاب

أى جاء الشىء حسب المأمول .

جَا عَلَى مَلَاوِشُه

أى بسرعة .

جاه الحزين يفرح ، مالقاش فى القلب مطرح

أى من كتب عليه الحزن والشقاء ، لا يستطيع أن يفرح ، فإذا جاء الفرح إلى قلبه ، لم يجد مكانا .

جَاهْ يكحّلها عماها

تقال لمن يريد ن يصلح شيئا فأفسده .

جِئْتَك يا عبد المعين تِعِنّى
لِقيتك يا عبد المعين تنعان

تقال لمن أتى ليستعان به فظهر أنه ليس أهلا للاستعانة به ، بل هو جدير بأن يعان . وتسميته هنا بعبد المعين تسمية لطيفة لأنه أتى به ليعين ، فخير اسم له هو عبد المعين . كتسميتهم حسناً عند نداء الجميل .

جُحا أولى بلحم تُورُه

أى أنه أولى باستغلال ماله من غيره ، ولو كانوا أولاده أو أقاربه .

اجْرِى الْعَبْ

أى أنه لا يستحق أن يهتم به .

جَرَى لعقلك إيه

أى ماذا أصابك ؟

جِزَاك يا قلب : تستاهل
كلام الناس وتعذيبك
تظن الحب بالساهل
وتمشى لى على كيفك

فى هذا جملة تعبيرات شعبية ، فأوّلها جِزَاك ، أى كما تقول جزاء وِفاقا ، وتستاهل : أى تستحق ، وهى عربية الأصل وكانت بالهمز وسهّلت . وتظن الشىء بالساهل ، أى تظنه سهلا لينا ، مع أنه ليس كذلك ، وتمشى على كيفك ، أى تبعا لهواك .

جسمه معفرت

أى عليه عفريت .

الجمان يِحْلَم أنه فى سوق العِيشْ

أى أن أحلام الرجل أو المرأة صورة لحال ا ره فى اليقظة .

جِميلكم على رَاسِى

الجميل : الصنيع ، وعلى راسى بمعنى أنه تُلُقِّى بترحيب ، ويستعملون أيضا عَلَى راسى عند ما يطلب من أحد شىء فيرحّب ويَعِدُ به ، فيقول على راسى حاضِر .

جوِّزوا مشكاح لِرِيمَهْ
قال ، ما على الاتْنين قيمه

جوّزوا أى زوّجوا ، تقال لموافقة الشىء للشىء من غير أن يكون لها قيمة تذكر

جيبُه نَضِيف زىّ الكفّ

أى أنه ليس فيه شىء .

(حرف الحاء)

حِبْلَه وشايله ولد

أى أنها مصابة بكثرة الأولاد . وتقال مجازاً فى كثرة المصائب .

حبّه غطّى على الكلّ

أى أن حبه فاق كل حبّ . ومن أغانيهم :

حُبّك يا سيدى غطّى على الكل
ارحم فؤادى كان ذَلّ
والنبى ترحم .

حبيبى خفّه مقطقط

خفة ، أى خفيف الروح . ومقطقط ، صغير الأعضاء جميلها . ومن هذا القبيل يقولون « البيت ده محندق » أى صغير على قدر الحاجة . وعكسه مِبَهْوَق ، أى كبير بلا معنى .

حبّيتك خالص

تستعمل خالص بمعنى كثير ، فأحببته خالص ، وكرهته خالص ، ومش بيشوف خالص ، أى أبداً ، وتعبت خالص أى كثير

حِتّـة

تستعمل فى معنيين متناقضين اعتماداً فى التفرقة بينهما على النغمة والقرائن . فيستعملونها فى معنى الشىء الصغير ، فيقولون : ما عندوش إلا حتة ولد ، أو حتة بنت ، أو حتة عزبة لخيانه ، ويقولون فى ضدها دى حتّة ولد عليه الكلام ، وعنده حتة عزبة ما فيش كده ...

حَدّ يبق فى إيدُه القلم ويكتب نفسه شقّ

أى من قدر على نفع نفسه فلينفعها .

الحدق يفهم

الحدق ، معناها الحاذق .

حَدِّيلُه علقة سخنَهْ

أى شديدة . ومن هذا القبيل : دول يستاهلوا النار ، أى العذاب الشديد .

حرام تنسونى بالمرة

استعمال مصرى ، تعبيرها العربى : يحرم عليكم أن تنسونى دائما .

حسنة وأنا سيدك

حسنة ، أى صدقة . يقولونها للرجل إذا استجدى شيئاً وتكبر فى استجدائه ، مع أن موقف الاستجداء موقف الذل .

الحسن خىّ الحسين

معنى خىّ أخو . يقال للشخصين يتشابهان .

حُطّ فى بطنك بطيخة صيفى

أى لا تسأل ولا تهتمّ .

حَطّه يا بطّة

يقولها الأطفال فى بعض ألعابهم .

حظّر فظّر حَقُولّك إيه

أى احدس على ما ذا أريد أن أقول .

الحقّ له ناس بالعِنْية

أى للحق ناس مخصوصون يعملون على وفقه ويدافعون عنه .

حمارتك المرجة تغنيك عن سؤال اللئيم

حَمْرَق

بمعنى نه غالط . وهى بمعنى (زُوزَغ) .

حمّام بلا ميّة

يستعملون بلا بمعنى من غير . كقولهم : « يعطى الحلق لِلّى بلا اودان » .

حمامة بيضة بفَرْد جناح

بفردجناح ، أى بجناح واحد . و يقولون للأعور بفردة كريمة .

حواليه كلام كتير

أى كثر حوله الكلام السيئ .

حوشوا الهوى عن فؤادى
لا الهوى يِجْرح

هو تعبير عامىّ مشهور ، وأحياناً يستعملون فى موضعها كلمة لأحسن فيقولون : حوش الهوى لاحسن الهوى يجرح . ومثله قولهم فى أغنية :

يا عمّى يا بو الحسن
حوشِ الحَسَنْ عنّا
لاحسن جمال الحَسَنْ
قرّب يجنّنّا

حيلة أمه

أى واحد أمه ، ولذلك تكون كثيرة الحنان عليه .

(حرف الخاء)

الخالق الناطق هوّ

أى يشبهه شبها تامّا .

خايب و نايب

الظاهر أن نايب إتباع لخايب لا للدلالة على شىء جديد ، بل هو لتأكيد الخيابة .

خَبطِتين فى الراس توجع

أى قد يتحمل الرأس خبطة ، أما خبطتان فلا .

خَدْنى فى دوكة

أى قابله بهلّولة .

خُدُه على هواه

أى سايِسه . ومثله خده على قدّ عقله .

خُشّ لى قافية

أى سابقنى فى أن أقول شيئاً وتردّ علىّ بما يناسبهُ .

خطفت رِجْلى وجبتِ الشىء الفلانى

أى أسرعت وأتيت به .

خفّف لهُ السُّرْع شويّة

السُّرْع أى اللجام . أى طوّل بالك عليه .

خلاها خلّ

وخلاّها مَسْخَة وهى كذلك بمعنى تصرف فيها تصرفاً سيئاً .

خلاّها رُطرِيتْ

ومثلها خلاها سداح مداح ، ومثلهما خلاها بطن حمار . أى تصرف فيها تصرفاً سيئاً حتى ملأها فساداً .

خَلّيك فى بَرّ خلِيصْ

كلمة يستعملونها إذا نصحوا أحداً بعدم المغامرة ، بالتزام برّ السلامة .

خلّيك فى حالك

هى كلمة يستعملونها للأمر بالالتفات إلى نفسك ، وعدم التدخل فى أمور الغير ، وهو مبدأ ردىء فى غاية الخطورة ، لأن معناه عدم الاهتمام بالمجتمع ، صلح أم فسد . وهذا ضد الوطنية .

خليك مع الله

يقال للرجل يطلب منه أن يلجأ إلى الله عند الشدائد ، ومثله خلّيك على الله . أى اتكل عليه فى أمورك .

(حرف الدال)

دا بكّاش

أى نصّاب .

دا يلعب بالبيضة والحجر

أى أنه ماهر ، حتى أنه ليمكنه اللعب بالبيضة والحجر من غير أن تكسر البيضة .

دا جاب السَّبْع من دِيلُه

أى ظلّ يحتال على الرجل القوىّ حتى طواه .

دا حباله طويلة

أى أنه لا يسرع فى عمله ، ومثله : ما يْسَيَّحْش دم .

دا خِيبَة تْيلَة

أى نكبة كبيرة .

دا خُمّ نوم

أى ينام كثيراً .

دَا رَاسُه مصفحة

أى قليل النوم .

دا رجل هَفِيّة

أى خفيف الوزن لا يؤبه له .

دا زىّ القرف

أى يُقرّف النفس ، ويحركها للقئ .

دا سعْر داير

بمعنى أنه منتشر يكاد يكون وباء .

دا شارب ومْوَنّن

أى متكيف من شربه .

دا شغل بكش

أى شغل نصب ، واشتقوا منه فعلا ، فقالوا بكّش عليه ، وقالوا دا شغل تَصْلَقَة ، أى غير معتنى به ، واشتقوا منه فعلا فقالوا تصلق فى الشغل .

دا شمعة منوّرة

أى أنه عميم الخير ، كأنه شمعة مضيئة .

دا شىء بارد

أى ثقيل سمج .

دا شيء كان على الـكِيف

أى يوافق المزاج .

دا طول الليل يِلالِي

أى طول الليل يتضور من الألم .

دا عزّ الحبايب

ومثله دا صديق الروح بالروح .

دا كان زمان

أى هذا أمر كان فى القديم ، وقد تغيرت الحال .

دا كان لى فين وأنا فين

أى ما هذا الشيء الذى أتى ، ولم يكن منظوراً . ومثله ما كانش عَ البال .

دا كله كوم ودا كوم

أى هذا الشيء الـكثير يساوى هذا الـكوم القليل .

دا لسانه ما يدخلش فى حنكه

أى كثير الثرثرة . ومثله دا لسانه طويل .

دا مات وشبِع موت

أى مات من زمن طويل .

دا مْخَستِك شوية

أى مريض قليلا ، وأكثر ما يكون ذلك فى من اعتراه برد أو زكام .

دا مش علىّ

أى أنه لا يجوز علىّ هذا اللعب .

دا مش مِسَعَّرنى

أى لا يقوّمنى تقويما حسناً .

دا مش وش كده

أى لا يُظَنّ به هذا الشيء .

دا مِعْجِبَانى

أى تيّاه معجب بنفسه .

دا من عشمى

يقولها الرجل إذا تصرف تصرفاً غير مذوّق .

دا ميّه من تحت تِبْن

أى أنه خدّاع ، كأنه ماء وضع عليه تبن فيظن أنه يَبَس .

دا ياكل زىّ الغول
وينام زىّ القتيل

والمعنى واضح .

دخيلكْ والنبي

أى حلّفتك بالنبى . وأحيانا يقولون : دَخيلك إن لم تعمل كذا . أى أستحلفك أن تعمله .

دلوقت عِرِف أن الله حقّ

أى اعترف بما لم يعترف به .

دماغُه مش منظوم

تقال فى وصف رجل مختلّ العقل .

دِماغُه وِرْمِتْ

أى أنه من ألم الكلام له دارت دماغه حتى كأنها وارمة .

دمُّه شربات

يصفون الدم أوصافا كثيرة . فيقولون : دمه خفيف ، ودمه ثقيل ، ودمه شربات ، أى لطيف . ودمه زىّ السم ، ودمه يا باى ، أى ثقيل . ويقولون أيضاً فى هذا : ما ينبلعش من الزور ، كناية عن الثقيل . ودمه يطرّش . وفى المدح : دمه زى ريش النعام .

الدنيا بخير

تقال عند لمعان خير فى وسط شر كبير .

الدُّنيا زهْزَهِتْ له

أى زهت له وضحكت .

الدُّنيا ماشْية بالمِنْدَارْ

أى حالها مشقلب .

الدنيا مِش سايماه

يقال للرجل يتباهى و يفتخر و يتعاظم .

دود المِشّ مِنّه فيه

كانوا يعتقدون أن دودة المش تتكوّن منه وتكون فيه . ثم أثبت العلم أن الدودة لا تتكوّن من المش ، ولكن تتكون من ذباب أو نحوه ، ثم تتكاثر . وهم يقولون ذلك للشىء يكون شرّه منه ، كأن يكون فساد العائلة من أحد أفرادها .

دوّرت عليه فى سَلْقَطْ
فى مَلْقَط مالقِيتوش

أى بحث عنه فى كل مكان فلم يجده .

دوّر عليه من تحت الأرض

أى ابحث عنه فى كل مكان حتى تحضره .

دى حاجة جْنان

أى جميلة جداً ، لدرجة أن من رآها يكاد يجنّ .

دى مْرأة ممحونة

أى أنها متهتكة خليعة .

دى نَعْنَعَة

أى شىء كثير .

الديون عليه اتّلْتِلتْ

أى تكاثرت .

(حرف الراء)

الراجل زىّ الحمامة ، إذا ريِّشت طارت

تقولها المرأة للمرأة تحثها على تفقير زوجها ، وتحميله المسئوليات الكثيرة ، وتخليفه الأولاد الكثيرة ، خوفاً من أن الزوج يستريح و يقتنى ، فيتزوّج غيرها .

رَاحْ سَبعَة اسْبانِي

أى ذهب هباء .

راحت السكرة وجات الفِكرة

يقولونها إذا ذهب وقت اللهو ، وجاء وقت الحساب .

رَاحْ فى شربة ميّة

أى ذهب بأتفه الأسباب . ومثله قولهم : غِرِقْ فى شبر مية .

راحْ له لُونْ وجَالُه لون ثانى

أى كلمه كلاماً شديداً فاحمرّ وجهه ، فذهب لونه الطبيعى ، وجاءت حمرة الخجل .

رَاح يِجيبْ عاليه واطيه

أى سيجعله رأسا على عقب .

رَاسُه راس منْسَرْ

المنسر جماعة اللصوص ، وهم دائما متيقظون شديدو المراقبة لما يجرى حولهم ، تقال للشخص إذا كان متيقظا سريع الانتباه قليل النوم .

ربنا ياخده

أى يميته . ومن الحكايات المشهورة أن أميراً طلب من وزيره أن يحضر له قريباً لله ، أى من أقربائه . فلم يستطع الوزير ، وذهب إلى قهوة الحشاشين ، وهو منكود حزين ، فسأله أحدهم : لماذا أنت حزين ، قال : إن الملك طلب منى أن أحضر له قريباً لله ، فلم أستطع ، فقال الحشاش : خذنى إليه ، قال الوزير : أتعرف العاقبة ؟ قال نعم ، بسّ خذنى إليه ، فذهب به إلى الملك ، فقال له : أتعرف قريباً لله ؟ فقال : أنا ، قال : كيف ذلك ؟ قال : كان فيه راجل له بنتين ، ربنا خد واحدة ، وأنا اتجوزت الثانية ، كأنه بذلك صار عديلا لله . وهكذا تروى عن الحشاشين مثل هذه الحكايات فى حل المشاكل العويصة .

ربّنا يقصّر ليلته بالعافية

أى من العادة أن المرض يطيل الليل ، فالدعاء بقصر الليل معناه العافية .

رِجِعْ قفاه يقمّر عيش

أى رجع خجولا لم ينجح فى مهمته .

رِجْلُهُ اتْلوحت

أى التوت .

رُحْنَا وجينا بالسلامة

يغنى بها السيدات كثيرا .

ردّ البدع

أى أنه مصدر لأشياء كثيرة عجيبة . ومثله قولهم بَخّ حشيش ، يقولونها للولد أو البنت إذا كانت من نسل حشاشين ، يعمل عملهم .

الرك

يقولون فى كلامهم « الرّك على الدوّاق » أى إن ما أنادى عليه حلو ، فإذا شككت فى حلاوته كان الحكم بيننا الذوق . وأكثر ما يستعمل فى النداء على الجميز . ويقولون : « الرك فى هذه المسألة على فلان » ، أى أن فلانا فيها ذو أهمية كبرى فهو الذى يستطيع أن ينجّحها أو يفشلها . . ولا نعرف أصلها اللغوى . ويقولون : « حطّيت ركّى عليه » أى وضعت كل أمنيتى فيه . و « فلان عليه الرك » أى واقعة عليه المسئولية ! !

رِكِبْها ميت عفريت

أى غضب .

رمضان عشرات عشرات

عشرة مَرَق ، وعشرة حلق ، وعشرة خلق . أى أنهم يعتنون فى العشرة الأولى بالأكل ، وفى العشرة الثانية بعمل الكحك ، وفى العشرة الثالثة بتحضير ثياب العيد .

روح بأه لحالك

أى أىّ شىء لك عندى .

رِيقُه نشف

أى أنه ألحّ فى الطلب ولم ينجح .

(حرف الزاى)

زادْ به الحدّ

أى طغى عليه الأمر .

زَغَرْله

بمعنى (حدّق فيه) .

زقزقت عصافير بطنه

أى جاع .

زَكِّى عن جمالك

تعبير لطيف ، يقال للسيدة أو الآنسة إذا كان عندها جمال فيجب أن تزكى عنه بالوصال كما يزكى عن كل مال .

الزمان معاندنى

أى أن الحوادث تجرى على غير ما يأمل .

الزّمن معاكِسْ

أى أن الزمن لا يساعده على إتيان عمله ، بل يعاكسه حتى لا يعمله .

زىّ التعبان يقرص ويلبد

معنى يلبد يختفى .

زىّ أم العروسة فاضية ومشغولة

تقال للرجل يشتغل بأتفه الأشياء .

وقريب منه قولهم : زى اللى رقصت على السلم ، لا شافوها أهل تحت ، ولا أهل فوق .

زىّ البدر ليلة ١٤ شعبان

يعتقدون أن أحسن الأقمار قمر شعبان فى ليلة أربعة عشر .

زىّ تنابلة السلطان

التنابلة جمع تنبل ، وهو الكسلان المفرط فى الكسل ، وتنابلة السلطان كسلاء ليس لهم من عمل إلا الأكل والنوم من غير عمل . ويحكون أن السلطان غضب على قوم منهم فأمر برميهم فى البحر ، فركبهم عربة إلى البحر ، فأشفق عليهم رجل وقدّم لهم أكلا يحتاج إلى تقشير وغسل ، فقالوا حَنِغْسِل ونقَشّر ، وَدّى ع البحر .

زىّ الجِوَار ، كل يوم عند ياسرجى

الجوار ، أى الإماء ، والياسرجى ، تاجر الرقيق يقال للمرأة الحرّة تتزوج ثم تطلق ، فهى كالجارية تتنقل فى أيدى بائعى الأرقاء .

زىّ خلع الضرس

أى أنه صعب كما يخلع الضرس .

زيّ سَبْع البرُومْبة

وأحيانا يقولون ، سبع البرومبة ، الذى نايم على جنبه ، ولا يقولون الذى إلا فى هذا الموضع ، وما عداه يقولون اللى ، أى أنه نافش منتفخ .

زىّ المسطول

أى متعاطى المنزول .

زى مضغ الزلط

أى أنه صعب ثقيل كمضغ الزلط .

(حرف السين)

ساعة لقلبك ، وساعة لربك

تقال للحث على تخصيص وقت للهو ، ووقت للجدّ .

الساهى يا ما تحته دواهى

أى أن الساكن الرزين ، قد يخفى سكونه شراً كثيراً .

سْتعنت عليه بصبّاغ اللّوُن

أى بالله .

سْتنّه لحدّ مايجى الترياق من العراق

أى انتظر طويلا .

سَحَبْ عليه لسانه

أى وجّه إليه سبّه وهجاءه ، ويقولون إنه تعبير مصرى قديم .

السّحّ النّحّ

يقولها الأطفال فى اللعب بقرون الخروف ، وخصوصاً فى خروف العيد الكبير ، يقولون : السحّ النحّ ، يا خروف نطّخ . وربما لاحظوا الكلمات التى تنتهى بحرف الحاء لاستثارة الخروف للنطح .

سكتناله دخل بحماره

أى سكتنا عن شره ، فتوغّل فى شره .

سِكْتِرْ برّة

أى أخرج برة .

سكران سكرة يَنِّى

ومثله دا سكران طينة ، أى غارق فى السكر .

سلم عليه سلام الماوردى على بياع الفسيخ

تقال للأرستقراطى النظيف يسلم على السوق القذر . فهو يسلم عليه بأطراف أصابعه أو من تحت أطراف لسانه .

سَمْن على العَسَلْ

تقال للشخصين يمتزجان امتزاجا تاما .

سورَق

فلان سُورق : أغمى عليه ؛

(حرف الشين)

شالوه شيلة بيلة

أى شالوه تماما من يده ومن رجليه .

شدّ دِى جريت دى

يقولها الحاوى فى لعبة معروفة . يشد بها الخيط من ناحية فتذهب من الناحية الأخرى ، ويستعملونها كذلك كناية عن أن شيئاً حصل ، فذهب غيره .

شرا العبد ولا تربيته

كانت تقال أيام كان الرقيق منتشراً ، أى أن شراءه كبيراً خير من تربيته وهو صغير إلى أن يكبر ، وهكذا تقال على سبيل المجاز فى أشياء أخرى ، يقولها مثلا الرجل يشترى عمارة بدل أن يبنيها لما فيها من التعب وهكذا .

شِرِبت المرّ

أى لقيت العذاب . ومن أغنياتهم أنا شربت المرّ . وأحيانا يقولون : أنا أسقيه المرّ من كيعانه .

شُرُمْ بُرُم حالى غلبان

كثيراً ما يقولها الأدباتية ، وربما كانت حالى غلبان تفسيراً لشرم بُرُمْ .

شغله يجنّن

أى إن عمله فاق الحدّ إلى درجة أنه يكاد يُجن من رآه أو سمعه ، فمثلا يقولون داضربه على البيانو يجنّن .

شفاعة لَا الله ، كرامة لَا الله

تقال عند الاستعانة برجل والاستشفاع به

شكّه مقلب

أى أوقعه . والمقلب ما يقلب الشخص على وجهه أو على ظهره . وهو أيضاً المكيدة التى تكاد للشخص ، ولو معنويا . واشتهر فى مصر بعض الرجال بتدبير المكايد .

شقانق ومقانق

ينطقونها بالهمزة ، يقول الرجل لآخر ، أو المرأة لأخرى : إذا ورتنى ورّيتك شقانق ومقانق ، أى أشياء طريفة .

شَمّتِ الناس فىّ

أى جعلهم يفرحون فىّ .

شمّع الفتلة

أى ذهب بحيلة . يروون أن ملكا

أخبر عن نصاب فناداه وقال له : انصب عليّ فقال له : اعطنى عشرين قرشا لأشترى عدّة النصب فأعطاها له ، فحضر ومعه فتلة طويلة وقال للملك : امسك بهذا الطرف ، حتى أشمّ الفتلة ، فأمسك الملك فتلة ، وصار النصاب يشمع الفتلة حتى غاب ، فقالوا فى الشخص الذى يغيب بحيلة : شمع الفتلة .

الشيء دا بريمو

أى من أحسن صنف ، فيقولون طباخ بريمو ، وسوّاق بريمو ، وأكلة بريمو .

الشيء دا طلع شيطانى

أى من غير وسائل .

شيِّكْ

أى لبس ثيابا أنيقة .

(حرف الصاد)

صباحك فلّ

يهتم المصريون كثيراً بمن يرونه فى الصباح .

صباعه مِدُوحس

أى : ضربَ فيه (المِدّة) .

صَبَحْ جلدَة على عضمة

أى صار نحيفاً جداً .

صَبَحْ منيِّلْ

أى غير منشرح النفس ، ومثله صبح مدخن .

صبح ندامة

أى ساء حاله . ومثله صبح عدم .

صْحَ تعمل العمل ده

أى لا تعمله وليكن عقلك صاحياً . فلا تأت به .

صحن كنافة وجنبه آفة

يقولونها للشىء الجميل بجانبه شىء ردىء كشجرة الورد فيها الشوك ، والبنت الجميلة تكون فقيرة .

صَهْيِن عليه

أى اسكت عنه .

(حرف الضاد)

ضارب الدنيا طبنجة

بمعنى غير مكترث بشيء ، إلا شهواته .

ومن أغانى سيد درويش :

عَ النسوان يا سلام سلّم
ما فيش كده أبداً بهجة
إحنا الوارثين يا أفندم
ضار بين الدنيا طبنجة .

وهى أبيات مملوءة بالاصطلاحات ، فالشطر الأول تعبير معناه : إذا قلنا فى النسوان فما أعجبهن وأعظمهن . وقوله ما فيش كده أبداً بهجة ، تعبير يستعمل بمعنى ، وليس مثلهن شىء فى البهجة . وقوله إحنا الوارثين يا أفندم ، دلالة على استهتار الوارثين ، لأنهم حصلوا المال من غير تعب ، فهم يسرفون فى صرفه من غير حرص . وفهم هذا المعنى أكثر الحكومات فضربوا ضرائب الأيلولة لأنها تحدث قبل أن يمتلك . والطبنجة فى الشطر الأخير شىء يشبه المسدس . وهو تعبير لطيف فى الاستهتار ، كأن المستهتر بأعماله قد صوب إلى الدنيا طلقة نارية .

ضحك فى سرّك

أى إن هذا العمل ، يستوجب الضحك منك والسرور .

ضَرَبَ

الضرب معروف ، ومن قديم استعمل الضرب فى صياغة الدراهم والدنانير ، فيقولون ضَرَبَ الدراهم وضرب الدنانير ، ولكن من الاستعمالات المصرية ، ضرب الطوب ، أى صنعه « وضرب تَخْدَتْ » أى تكلم كثيراً ، وضربُ له تلغراف أوشَدَّلُهُ تلغراف ، أى أرسل إليه . وضرب على البيانو أو الكمنجا أو العود بمعنى أنه حرّك أوتارها . ومن الاستعمالات المألوفة « ضرب الدنيا طبنجة » أى أنه لم يكترث بشىء .

ومن استعمالاتها قولهم « يضرب الودع أو الرمل »

وقولهم « يضرب فى المليان » بمعنى أنه يطلق أعيرة نارية بحق .

وقولهم « يضرب فى حتة ميتة » وهذا كقول العرب « يضرب فى حديد بارد » .

ضَرَبْ كف على كَفّ

إذا تعجب من شىء ، لأن العادة جرت على أنه عندشدة التعجب يضرب كفاً على كف .

ضربنِى وبكَى ، وسبقنى واشتكى

أى اعتدى علَىّ وادعى أنه معتدًى عليه .

(حرف الطاء)

طاب واستوى

أى نضج .

طبق فى زُوره

أى أمسك به إمساكا شديداً .

طِلِـعْ

لهم فى هذه الكلمة استعمالات كثيرة . فيقولون ، طَلَع من باب الجمال ، أى خرج سالماً وطِلِـع فيها بمعنى اغتر بنفسه وتجبّر ، وطِلِـع نقبُه على فاشوش ، أى أنه بعد ما اجتهد وتعب لم ينل شيئاً . وطِلِعت عليه الجُنونة ، وأحيانا يقولون طلعت عليه الغزالة ، بمعنى أنه أصابته لُوثة من الخبل . وطِلِـع يجرى ، أى أخذ يجرى . وكذلك « طِلِعْ راجل » أى اتضح أنه رجل .

و « البيض طلّع كتا كيت »

و « الـكلمة دى لا طلعت ولا نزلت » أى لم تزد شيئاً ولم تنقص شيئاً فليس لها قيمة . وكذلك « طِلِـعْ بوش » و « طلع من المولد بلا حُمّص » أى لم يُسفر عمله عن نتيجة . وكذلك «طلع القرافة » أى زارها .

طِلِعْت أشمّ الهوا

أى أتنزه .

طلعت المسألة فِيَشْكو

أى لا قيمة لها .

طِهِقْتْ وبِقِيتْ روحى فى مناخيرى

أى تمللت .

طول عمرك يا ردا وانت كدا

أصل الردا الرداء ، وهو الثوب ، يقال للشىء يصدر عنه ما اعتيد منه .

(حرف العين)

عاوِج الطربوش

عوج الطربوش ، كناية عن التكبر والدلال . ومثله تبختر فى المشى .

عاوز للجمل ناقة

يحكون أن مديراً فى ناحية كان له جمل ، فكان يذهب الجمل إلى الغيطان يأ كل منها ما شاء ، حتى تضرر الناس ، فاجتمعوا ليذهبوا إلى المدير يشكونه جمله ، فذهب عشرون رجلا ، وكلما خطوا خطوة نقص رجل ، حتى إذا وصلوا إلى باب المدير التفت رجل فلم يجد معه أحداً ، فشخط فيه المدير ، ماذا تريد ، فقال عاوز للجمل ناقة : أى أنه لما وجد الناس انفضوا من حوله لم يستطع أن يشكو الجمل ، فانقلب منافقاً ، فبدل أن يشكو الجمل طلب له ناقة .

عايش كمالة عدد

أى لا فائدة كثيرة منه ، كل مافيه أنه يعدّ بواحد .

عِشْنا وشفنا

أى طال عمرنا حتى رأينا العجب .

عضمة خشنة

يسمون الرجل الذى لا يمكن اللعب عليه ولا أخذ شىء منه عضمة خشنة ، كقول العرب القدماء « إن لحمه مرّ » .

عقبال أَمَالْتُه

يقولونها عند ما يرون رجلا أو امرأة فى سعادة مّا ، ويسمون السعادة أملا ، وعقبال أصلها العاقبة لى .

عقله مَنَوِيشى

أى مختلّ ، وقريب منه قولهم ، عقله تَرَلِّى .

عَلَشَان

يستعملونها كثيراً بمعنى لأن . ومن أغانيهم علشان بَحِبَّك تدَّلع .

علِّمناه الشحاتة سبقناعَ الأبواب

تقال لمن علّم الإنسان شيئاً ، فسبق معلمه كمن تعلّم من إنسان علماً ، وتصدّر فيه حتى على المعلّم .

على السكين

تقال فى بيع البطيخ والشمام . أى أن البائع ضامن لحمار البطيخ وحلاوة الشمام . وهو نداء غريب كان يجب أن نخلص منه من زمان بعيد ، وذلك بإعدام السىء وإبقاء الأصلح كما فعلت الأمم الأخرى ، فليس عندهم هذا النداء .

على سنجة عشرة

تستعمل فى من يتزين أو تزينت على آخر طرز . فيقولون جاءت على سنجة عشرة . ولا أدرى أصل معناها .

على عينك يا تاجر

تقال للشىء يعطى جهاراً من غير دس ولا تخبئة ، فهو يعطيه الشى على عينه ، أى جهرة .

عليه العوض ومنّه العوض

تقال عند ضياع شىء ، فهو يطلب العوض من الله . وأحيانا تقال فى شىء جيّد يباع أى أن ثمنه لا يفى به ، كالذى ينادى على خيار طايب ، فيقول العوض على الله .

عمر الشّقى بَقِى

يزعمون أن الموت يسرع للأخيار ، أما الأشقياء فعمرهم طويل . وربما كان السبب أن الرجل الحسن الأخلاق الطيب يكاد لا يشعر به الناس لحياته الهادئة ، أما الشقى فكل ساعة يشعرك بوجوده بما ينغص عليك ، فعمره ولو قصر مملوء بالأحداث فيكون طويلا .

العمل دا جَلْيَطَه

أى أنه مُقرف وفى غير محلّه .

عَمَل على عِنْدى

أى أتى بأمور ضدّى . يعاندنى فيها . ويستخدمونها كثيراً فى الجناس ، فيقولون ، تعال عندى ، ولا تعملش على عندى ، والأولى بمعنى معى ، والثانية ضدّى .

عَمَلْ معاه شُغْل البِليَاه

أى مكر عليه ، وضحك على ذقنه .

عَمَلْها زعْلَة

أى تصنّع الغضب .

العمى يا بدر

تقال لمن يعثر مثلا فى شىء ظاهر .

عِنْده عكوسات

أى عليه جن بتعا كسه .

عيشّني النهارده وموّتني بكرة

أى أنقذنى اليوم وليكن غداً ما يكون .

عيّطت من كل عين حِفَان

أى بكت بكاء كثيراً. حتى إن دموعها تملأ حفنة اليد .

عينَكْ ما شافِتْ إلا النّور

دعاء لمن يخاطب ، بأن عينه لا تقع إلا على ما يسرّها .

العين ما تعلاش على الحاجب

تقال فى الرجل يتواضع ويتكلم بكلام يدل على أنه أصغر ممن أمامه وأحقر ، فيقول له العين ما تعلاش على الحاجب ، أى أن الذى يكلمه حاجب ، وهو عين ، فهو أرفع .

العيِّنة بيِّنة

أى نموذج الشىء يدلّ على ما تحته .

عينُه شيش بيش

أى لا يرى إلا قليلا .

عِنِيهْ مبظّظة

أى جاحظة .

(حرف الغين

غاب القط العب يا فار

يقولونها عند غياب من يخاف منه . ثم استهتار من يشرف عليه الذى غاب .

غرض الاهتم

أى أنها تناسب من لم يكن له أسنان يقولونها للتحبيب فى الذرة والدلالة على أنها لينة وكذلك فى أمثالها ، ومثلها غرض العجايز .

غصبا عنى

أى بالإكراه .

غنّى على خراب عشه

أى أنه ما زال يغنى ، حتى خرب عشه تقال للرجل صاحب الحظ ، ظل يغنّى حتى خرب بيته .

(حرف الفاء)

فَالَ الله ولا فالك

أى ما عند الله خير .

فتّح كده فى عنيّه

أى أن الغالب على من أتى عملا إجراميا أن يخجل إذا نظر الإنسان فى عينه ، فيقول له فتّح فى عينى ، ليعرف إن كان أتى بهذه الجريمة أولا .

فتكرنا القط ، جا ينطّ

الفَرَحْ باينْ على عينه

أى أن عينه تلمع لمعة الفرح .

فرشتِ الملاية

تقال للمرأة الفجرية إذا رَدَحَتْ . وقد يقال للناس المهزئين إذا ردح بعضهم لبعض .

فرِغ الهذار ما بقى إلا الجدّ

أى ذهبَ وقت الهزل ولم يبق إلا الجد .

الفرقة كانت على عينه

يقولون الشىء دا حصل ، وكان على عينى ، أى تألمت له وكان غصباً عنى .

الفستان دِهْ شِفتشِى

أى أنه رقيق يكاد يبين ما تحته .

فَشّ غليله

محرّفة عن شفا غليله .

فصّ لَمُونه

يسمون كل جزء من الليمونة أو من البرتقالة فصّ لمونة أو فص برتقال .

فصّ ملح وْداب

يستعملونها فى الدلالة على أنه اختفى كما يختفى فص ملح يذوب . أى اختفى فجأة !

فِضِلْتِ أهْرِى وانكُتْ لما جَهْ

أى بقيت فى حالة قلق إلى أن جاء .

فِضِلْ يِبَستفه لمّا قال بَسّْ

أى أفرط فى تقريعه .

فِضِل يحتيه لمّا كل مخُّه

يحتيه : أى يدّحلب عليه ، ويحتيه من الحاتى . وأصل الحاتى عائلة مصرية اشتهرت

بصنع الكباب والكفتة ، فسموا كل صانع لهذا الصنف بالحاتى ثم اشتقوا منه حَتَى ويحتى

فِضِلْ يزْغر وينفخ

أى نظر إليه شذراً ، ونَفخ نفْخ الغضب

فِضِلْ يصفَح ويصَلَّح

أصلها من استعمال المراكبية ، والصفح والتصليح مجاراة الريح فى سير المركب ، فلا يسير مستقيما إذ يعاكسه الريح فيميل بالمركب ميلة تبع الهواء . ثم يميل بها مرّة أخرى ليستطيع السير . ثم استعملت فى الأمر المعقد يحاور فيه ويداور حتى يحلّ .

فضّها سيرة

أى لا تذكر هذا الشىء ، ولا تستمر فى الحكاية عنه .

الفقر حشمة والعزّ بهدلة

أى أن الفقر يَحْشِم صاحبه ، فلا يجعله يختال أو يتبهرج . أما العز أو الغنى فيجعل صاحبه يغالى فى بهرجته وزينته .

فَقَمِتْ بالصُّوت

أى صَوَّتت .

فى الوشّ مراية ، وفى القفا سلّاية

أى أنه يتظاهر لك بالحب والموافقة ، ويتكلم فى غيابك بما تكرهه . والسّلّاية هى الإبرة الكبيرة .

(حرف القاف)

القادر عايب

أى أن من لوازم القدرة الطغيان . فمتى أحس القادر بقدرته طغى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

قُلُّه فى وشّه ولا تغشّه

أى صارحه ، ولا تخدعه .

قاعد للساقطة واللاقطة

أى أنه مترقب ترقباً دقيقاً ، لا يفوته شىء فى الملاحظة .

قاعد مِطَرْشَقْ

ومثله قاعد مبوّز أى زعلان .

قاعِدْ يبيع ويقيس

أى يتصرف فى دكانه كما يشاء .

قاعد بِمخّخْ

تقال لمن يتأمل ويتفكر ويتخيّل . ويستعملون المخّ للدلالة على العقل ، فيقولون مخّه فاضى أى أبله ، ومخّه مليان ، أى عقله كبير ، وما فيهش مخ أى مجنون ، وأحياناً يقولون مخّ فقط بمعنى أن فهمه بطىء ، ودا شىء يطيّر المخ ، أى العقل ، أى يجنّ

قَالِتْ يا ما الحلاوة حلوة ، قالوا دقتيها ؟
قالت بنت عمى شافت اللّى داقتْها

تقال لمن يتكلم عن شىء على السماع من بعيد .

قال يا داخل بين البصلة وقشرتها
قال ما ينوبك إلا ريحتها

قال يا ما الجمل كَسَّر بَطِّيخ
قال يا ما البطيخ كسر جِمَال

تقال عندما ينزل الشر بأحد ، وهو يُنْزِل الشر به . فكلاهما يعذر الآخر .

قالوا للراجل يا حرامى ، شَرْشَرْ مَنْجِلُه

أى اتهموا الرجل بالسرقة ، وشوّهوا سمعته ، فأصبح من أجل ذلك لصّا جريئا ، يسرق علانية ، فهو قد شرشر منجله علانية ليسرق به .

قال لى وقلت له

تستعمل فى كلام المصريين كأنها حكاية صغيرة كقولهم : قال لى نام علشان أذبحك ، قلت له دا شىء يطيّر النوم ، وقال للجارية اطبخى قالت له ياسيدى كلّف وهكذا .

قاموس الحب

أكثر أغانى المصريين فى الحب . وللحب قاموس تكثر فيه كلمات معينة . وهو الحب ، الهجر ، الوصال ، الضنا ، القلب ، العذول . طول الليل ، طيف الخيال ، اللقاء الخ .

قبة بلا شيخ

القبة عادة تدل على شيخ تحتها ، فإذا حصل شىء وذهب مدلوله ، قالوا فيه هذا التعبير .

القرعة تتباهى بشعْر بنت اختها

تقال للتى تفخر بما ليس لها .

قَضَا أخفّ من قضا

يعنى أن ما أصابنى اليوم وقُضى به علىّ أخف من قضاء أشد منه كان يحتمل أن يجرى . ومسألة القضاء داخلة فى حسابهم كثيراً . ومن هذا الباب « مين عارف كان راح يجرى إيه ؟» أى لعله كان سيجرى شىء أكبر من ذلك ، فلُطِف بذلك . ومن هذا الباب أيضاً « قدّر ولاطف » .

القطّ ما يحبّش إلّا خنّاقُه

تقال للرجل أو المرأة يحب من يؤذيه .

قَعَد يِحَقِن فى نفسه

أى يحرّكها بما يثير الغضب والحزن .

قعد يرطن وقعد يبرجم

أى يتكلم فى غمغمة مع غضب .

قَعَدْ يشخط وينتُرْ

أى استمر يشتم ويحرك يده للتهديد .

قعد يودّى ويجيب

هو كما تقول العرب يضرب أخماساً فى أسداس .

قلبى على ولْدى انفَطر
وقلب ابنى علىّ حجر

يقال عند ما يبدو عطف من الوالدين وعقوق من الولد .

(حرف الكاف)

كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا

أى كأننا لم نعمل شيئاً ، لأن عملنا ضاع .

كانت وقعته زحل

يتشاءمون من زحل ، فيعبرون عن ذلك بسوء الوقعة .

كانْ فى حال ، صَبَحْ فى حال

أكثر ما تقال فى الصيرورة إلى الشر ، كغنىّ أصبح فقيراً ، أو صحيح أصبح مريضاً

كبر الجرن ولا شماتة الأعداء

أى أن كبر الجرن الدال على كثرة المحصول ، إذا لم يغن فى كثرة المحصول ، منع من شماتة الأعداء .

كَتَب الكتاب

بمعنى عقد العقد . وفتح الكتاب بمعنى رأى البخت .

كُتْرت لهَاليبه

أى اشتعل قلبه نارا .

كتّر خير الأرض اللّى شيلاه

تقال للثقيل .

كَعْبِلْنى الحب

أى جعلنى أتعثر فى السّير .

الكمك دا دايب

تقال للفطير والكمك وأمثالهما بمعنى أنها ناعمة هَشّة كثيرة السمن .

كل إنسان أولى بحقه

أى أن كل إنسان أولى بماله ، ولوغاب عنه .

كلام فى العضم

وأحياناً يقولون دا كلام فى المليان ، أى أنه كلام حازم ، متجه إلى الغرض .

كَلْ بعقله حلاوة

أى أنه أنفق عقله فيما لا يفيد .

كلمات متقابلة

كويّس ووحش .
حِلو زَىّ الشّهد ، مُرّ زَىّ العلقم .
طَرِى ، ناشف .

ملموم ، ومفروط .

فَارِغ ، ومليان .

نهاره أبيض واسود .

طازَة وبايت .

صحيح ومكسَّر .

عين سليمة وعَمية ومْدَغششة .

عالى وَوَاطِى .

دُغرِى وعْوَر .

الأرض ناشفة ومْزَلّقَة .

مفرفش ومدخمِس .

عريض وكِنِز .

تِخِين وارْفيَّع .

مرتاح وتعبان .

مَكْسِى وعريان .

كلمة وردّ غطاها

أى كلمة قصيرة .

كله عند العرب صابون

أى أنهم يستخدمون كل ما يقوم مقام الصابون ولا يفرقون . يقال لمن لا يفرق بين الأشياء المتقاربة .

كنت افتِكر إنك وَفِىّ
أتارِيكْ تكايدنى وتختِى

هو تعبير عامى مشهور ، بمعنى كنت أظنك كذا فلقيتك كذا ، فيقولون مثلا كنت أظنك ملك ، أتاريك شيطان .

كوز

الكوز هو الإناء المعروف ، ويستخدم كثيراً فى ملئه بالماء والسوائل . وكثيراً ما تكون له يد يمسك منها . ولكنه يستعمل أيضاً للتعبير عن ثمرة عود الذرة ، ويكاد يكون استعمالا مصرياً بحتاً فيقولون كوز ذرة . وهم يتركون هذه الكيزان حتى تجفّ ، ثم يقشرونها ، ويفرّطون الذرة منها ، ثم يخزّنونها ، ويأخذون منها شيئاً فشيئا لطحنها عند الأكل . ونظير ذلك أيضاً ما يقولون « كوز الحلبة » ، يطلقونه على الحلبة إذا وضعت فى كوز أو نحوه وبُلّت بالماء ، حتى نبتت ، ويسمون التين الشوكى بكيزان العسل ، تشبيهاً له بكوز ملئ بالعسل ، للدلالة على حلاوته .

(حرف اللام)

لا تْمَاير ني ولا عايْرَكْ

الهمّ طايلني وطايْلَك

يقال للاثنين اشتركا فى المأساة .

لا تكتر لهمّك ما قدّر يكون

أصلها من قصيدة للشيخ على الليثى وفيها :

الله المدبّر والعالم شؤون

لا تكتر لهمّك ما قُدر يكون

ويشحذ بها الشحاذون فى الشوارع .

لا راح الزمان عليه ولا جَهْ

تقال لمن بقى على شكله بعد مضىّ السنين ، لم يؤثر فيه الزمان .

لا شافع ولا نافع

ومثله لا يشفع ولا ينفع ، أى لا خير فيه .

لا قينى ولا تغدينى

أى أن تحسن لقائى خير من أن تحسن غدائى .

لا كده نافع ولا كده نافع

أى اتبعت معه كل السبل فلم تنجح .

لا لهُ فى التُّور ولا فى الطحين

أى ليس له من الأمر شىء .

لا لُهُم مال ولا يحزنون

أصلها الآية القرآنية لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ثم صاروا يستعملونها فى النفى فيقولون لا عنده مال ولا يحزنون ، أى ولا أى شىء آخر ، ومثله : لا عندهم فرح ولا يحزنون إلخ .

لا وراه ولا قدّامه

أى ليس له شىء .

لَاوِى بوزُه

أى غضبان .

لا يعجبه العجب ولا الصيام فى رجب

أى ليس يعجبه شىء ، حتى العجب نفسه لا يعجبه ، ولا الصيام فى رجب مع أنه محبوب .

لا ينفع طبلة ولا طار

أى لا ينفع فى شىء ، ولا يفيد فى أمر من أمور الحياة .

اللبس دا خايل عليه

أى أنه ملائم له ، ومناسب لشكله .

اللحمة مَنهِيّة

أى ناضجة جداً . فإذا لم تكن ناضجة نضجاً تاماً قالوا نُص نُص .

لسانُه يسبّح ، وقلبه يِدبّح

أى أن لسانه حلو ، وقلبه مر ...

لسّه فيه الرّمَق

أى لا يزال فيه بعض الحياة .

اللعب بالأسماء

يقولون لنفيسة نفوسة ، ولزينب زنوبة ولعيشة عيوشة ، ولعزيزة زيزة ، ولمحمد حمادة ولعبد الفتاح توحة ، ولمصطفى مصمص ، ولخديجة خدّوجة ، ولهانم هنومة ، ولاستيتة ستوتة وهكذا .

لعبت عليه نفسه

يقولونها فى الدعاء على الشخص ومعناها تحركت عليه نفسه للقىء . ومثله غمّت عليه نفسه .

الله عليه

تقال عند استحسان شىء.

الله يلطف به

تقال لمن مرض وخصوصاً مرضاً عقلياً

اللّى اختشوا ماتوا

اختشى بمعنى استحيا ، ولذلك يقال للرجل إذا أتى بفعل منكر اختِشى ، ومعنى الجملة أن الناس الذين كانوا يستحيون ذهبوا ولم يبق إلا من لم يستح . ومن هذا القبيل اختشى على عرضك .

اللّى تجمعه النملة فى سنة
ياخده الجمل فى خُفّه

اللى جاب لك يخلّيلك

أى إن الله الذى أعطاك يبقى نعمته عليك .

اللّى حبّك يا هَناه

أى ما أهنأ من يحبّك .

اللى زمّر ما يغطيش دقنه

أى أن الذى يأتى بالعمل لا يصح أن يتستّر منه إذا صمّم عليه .

اللى ما يرضى بالخوخ يرضى بشرابه

تعبير يقولونه فى معنى : من لم يرض بالكثير اضطر إلى أن يرضى بالقليل .

اللى يبات فيه يصبح فيه

أى أنه مستمر على حالة واحدة .

اللى يُعُد وياه ما يشيلش هَمّ

أى أنه فرح مرح ، يفرح من جالسه .

لمونة فى بلد قرفانة

أى أنه حاوٍ لصفاتٍ الطلبُ عليها كثير .

لونه توت عَنخ أمون

استعمال ظهر على أثر ظهور ذخائر توت عنخ آمون وما فيها من ألوان كثيرة زاهية ، وأصباغ متعددة .

ليَالِى زىّ قُرُون الخرّوب

أى ليالى سوداء . تقول المرأة أو الرجل مرّت علىّ ليالٍ زىّ قرون الخرّوب ، أى سوداء حزينة .

لِيكْ ألف عوزة
وادخرّتك ليوم عوزة

العوزة ، الحاجة إليه .

ليلته مش فايتة

أى لا تنقضى بسلام ، بل يحدث فيها من الشر ما يطيلها . لأن العادة جرت بقصر الوقت السعيد كليل الوصال ، وطول الوقت الشقى كليل الهجران .

(حرف الميم)

مَا بُه الْمُوتْ ومَا به زانقة القبر

هو تعبير غريب ، يقولونه للدلالة على الرجل وقع فى مصيبة فما لبث أن وقع فى مصيبة أخرى ، كقولهم « تكسرت النصال على النصال » واللفظ نفسه لا يدل على هذا المعنى ، ولكن يدل عليه الاستعمال . وهو استعمال شائع فى لسانهم ، فيقولون : ما به كذا وما به كذا ، للدلالة على أنه كانت تكفيه المصيبة الأولى ، فجاءته المصيبة الثانية زيادة عليه .

مَاتْ فِطيسْ

أى مات بسبب لا يدعو إلى الموت .

مات فى جلده

أى خاف .

ماشِى بالدّراع

أى القوّة .

ما شاء الله

كلمة يستعملها المصريون ثلاثة استعمالات : يستعملونها مرة للاستعظام ، فإذا رأوا شيئاً حسناً ، قالوا ما شاء الله . ومرة للاستهجان ، فإذا رأوا أمراً قبيحاً لم يكن ينتظر قالوا ما شاء الله . ويقولونها أيضاً للمدح والتشجيع ، فإذا روى لهم مثلا عن رجل يحفظ آلافا من الشعر ، قالوا ما شاء الله . ومثلها فى ذلك : يا سلام . والفارق بين الاستعمالات النغم وموضع القول .

مافيش بينى و بينه عمار

أى ليس بينهما ألفة .

مانيش فى وشّه دم

أى لا حياء عنده .

مافيش لزوم

أى لا داعى لهذا .

ما كانش عشمى

أى خاب أملى .

ما هى دى عوايدك

أى من معتاداتك ، وليس غريبا . وقريب منها قولهم من وحايدك ، أى إحدى العجائب التى تأتى بها .

ما يِرْدَحْ لسالم إلا مْطاوع

يظهر أنهما كانا لسِنْيِن تهاجيا ، وأنهما كانا ندّين فى التهاجى . تقال لاثنين لا يقدر على أحدهما فى الشر إلا الآخر .

ما يستاهلش ملء وِدْنُه نخاله

أى أنه رجل تافه لا يساوى شيئاً .

ما يُقَع إلا الشاطر

تقال عند ما يزلّ الماهر .

المجنون ما يعجبوش إلا عقله
ولو جبت له ألف عقل على عقله

أى أن المجنون متمسك برأيه . وهم يعتقدون أن المجنون ، إنما يعرف كيفية معاملته مجنون مثله . ويحكون فى ذلك أن مجنونا أخذ طفلا وطلع به مئذنة ، وأراد أن يحذف الطفل من المأذنة ، فخاف أهله ، فنادوا بمجنون مثله . فقال له : إن لم تنزل نشرت المئذنة ، فوقعت بالطفل ، فخاف ونزل . ونجا الطفل .

المحسّنات اللفظية

يعتمد المصريون كثيراً على المحسنات اللفظية من جناس وسجع وكناية ونحو ذلك ؛ حتى ليغيرون الكلمات أحيانا التماساً للسجع أو الجناس . فمثلا يقولون : سيدى بَندق ما صدّق . وبندق لا معنى لها ، إلا أنها فرش للسجع ، ومن مثل إمعانهم فى الجناس قولهم :

محبكم داب وانتم لم دريتوبه
والنار بترعى فؤاده وانتم لم دريتوبه

فاللفظتان واحدة ، والمعنى فى اللفظة الأولى ما دريتم به ، وفى الفقرة الثانية ما درى ثوبه .

مدد يا أسيادى

تقال عند زيارة شيخ يطلب منه المدد والإعانة .

المُرّ

يستعملونه هو والصبر كثيراً فى كلامهم ، بمعنى تجرّع الغصص ، فيقولون شربت المرّ ، وسقاه المرّ من كيعانُه ، وشفت المرّ ، وذقته حلو على مرّ ، وشربت كاس المر وهكذا .

المراكبي فى حساب والنوتى فى حساب

تقال لاثنين أو أكثر كلٌّ يرمى حسابه على أساس .

المسألة دى ريحتها فاحت

أى كثر فيها الكلام السيء .

مِسكه بهدله

أى أنه شهّر به وهجاه .

مْشى سنة وَلَا اتخطّى قَنَا

أى إن احتاج الأمر إلى ممارسة ومداورة فافعل وإن طال الزمن ، وذلك خير من أن تتغلب على العقبات فى سرعة مع تعرضك للخطر . وقد يقع فيها من أراد تخطّيها .

مِشْ عارف إن كانت الدنيا بتهوِى ولّا بتِدْوِى

أى لا يعرف كيف تصير الدنيا وما فيها ، كأنه أبله ، لا يدرى .

مش مِلاحِق

يقال فلان مش ملاحق على كده ، إذا زاد عليه الطلب ، وهو لا يستطيع إجابة الطلبات كلها .

مِشِى

المشى معروف ، ولكن يقولون : مِشى على كيفه ، ومشى على حلّ شَعْرُه ، بمعنى أطلق لنفسه العنان . ويقولون مشت بطنه إذا أصيب بالإسهال . ومن تعبيراتهم « الحق يمشى » .

مشى لحال سبيله

أى انصرف لوجهه .

ملاّ

تستعمل للتعظيم . يقال ملاّ راجل ، وملا كتاب ، أى رجل عظيم ، وكتاب عظيم ، إلا إذا قصد بذلك الاستهزاء .

من دَقْنُه وافتِلْ لُه حبل

كلمة تقال بمعنى أنك تعمل له حيلة من صميم عمله . وأحيانا يقولون : من دقنه وافتل له كعك .

مِنْ شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته

أى من رأى مصائب غيره ، هانت عليه مصيبته .

من طقطق لِسلامُ عليكم

طقطق حكاية صوت الباب عند الدخول ، وسلام عليكم علامة الانتهاء من الزيارة ... يضربونه فى أن الرجل حكى الحكاية كلها ولم يترك منها شيئاً .

منفوخ عَ الفاضى

أى متكبر على لا شىء .

موت يا حمار على ما يجيلك العليق

أى انتظر طويلا ، حتى يحدث ما تأمل ، ولن يحدث . ومثله حتى يجىء الترياق من العراق .

المَيّة تِكدِّب الغَطّاس

أى إن الرجل إذا ادّعى أنه غطاس ، وشُكّ فى ذلك ، فالماء كاف فى تجريبه .

حرف النون)

النّار ولا العار

هو تعبير أيضاً من تعبيرات العوام ، أى أنه يفضّل النار على العار ، ومثل هذا الاستعمال شرًا العبد ولا تربيته ، فولاً هنا بمعنى أحسن . ومثله أيضاً الشرط عند الحرت ولا الخناقة فى الجرن .

ناس ياكلو البلح ، وناس يترموا بالنوى

أى ناس سعداء وناس أشقياء .

نظره على قده

يستعملون على قدّ كثيراً بمعنى قليل ، فيقولون نظره على قده إذا كان قصيراً ، ومعيشته على قدّه ، إذا كان فقيراً وهكذا .

انْفَتَحْ زىّ البَرَابَنْد

أى تكلم كثيراً بطلاقة وتدفق .

نقاوة عينى

أى اخترته على عينى .

نَقْبُهُ على شونة

تقال فى الأصل للحرامى ظلّ ينقب . وأخيراً انتهى نقبه إلى شونة حيث لا ذهب ولا فضة ، إلا قمحاً أو شعيراً تصعب سرقته ثم استعيرت لكل رجل يأتى عملا لغرض ثم ينقلب عليه غرضه فلا يكسب شيئا .

النيل نجاشى

تعبير اخترعه أحمد شوقى . ومعناه أسمر نحاسى .

(حرف الهاء)

هاتُه من شَعْر راسه

أى بالقوّة .

هاتى يا سِذْرة ، ودّى يا مدرة

أى أنه أسرف فى حياته حتى أنفق ما جمع .

هَفَّتْنِي نِفسى

أى اشتهت .

هُفّ طِلِع النّهار

كان الناس قديماً يعيشون ليلا فى ضوء الشمع أو القنديل ، أو مصباح الجاز ، فإذا بدأ النهار أطفأوا المصباح بقولهم « هف » وهى حكاية صوت الإطفاء . فإذا قالوا هف أطفأوا المصباح وذلك دليل على طلوع النهار . وهم يقولونها للدلالة على تغيّر الحال إلى أسوأ ، فمثلا إذا ذهبت أيام عزّه ، وأصبح شقياً بائساً . أو ذهبت أيام غناه ، وأصبح فقيراً ، قالوا إذ ذاك « هُفْ طلع النهار » .

هَلّ نورك

يقولونه للرجل أو المرأة ترحيباً به .

وأحيانا يقولونها عند قدوم شهر رمضان .

هَمّ عيّان ، وهمّ ما معاهُوشْ فلوس

تعبير يستعملونه كثيراً ، فيستعملون هم بمعنى من ناحية .

هوّ أنا اشتكيت من شىء شوية

أى لم أشكُ من شىء قليل ، بل شكوت لما فاض بى الهم .

هُوّ داخل عامل زيطة وزنبليطة

أى دوشة .

هُوّ السما وِانْت القمر

أى أنك حللت فى قلبه محلّ السماء يدور فيها القمر .

هُوّ عقلك دَفْتر ؟

تقال للاستغراب ممّن حسنت ذاكرته .

هوَ قال كده وأنا اتبلّيت

أى بمجرد ما قال ذلك خجلت من قوله .

هى دى أخلاق بنى آدْمِين

بنى آدمين جمع ابن آدم . أى أهذه أخلاق ناس طيبة ؟ ؟

هى حسبة بِرْمة

يقال للحسبة . . يحسبها الرجل فيطيل في حسابها ، فيستنكر عليه ويقال هىّ دى حسبة برمة ولا أدرى ما أصلها .

هِيلَهْ هُبّ هيلة

كلمة يقولها المراكبية عند زحزحة المركب . ومثلها هُبّ لِيصَا .

(حرف الواو)

وأبوها

تستعمل كثيراً فتسأل رجلا ، هل تستطيع أن تفعل هذا الشيء فيقول لك وأبوها ، أي أنه يستطيع أن يفعل أكثر منها .

الواحد ما يا خدش إلا نصيبه

دلالة على الإيمان بالقضاء ، ولكن من الأسف أنها تستخدم أحيانا لتبرير الكسل .

الواحد يكلمه بعرض حال

أي إنه متكبر لا يتكلم إلا بصعوبة .

واخد منّى على خاطرُه

أي هو غضبان منى وعاتب علىّ .

وِدْنَكْ منين قال من هنا

ثم يشير إلى أذنه البعيدة لا القريبة ، وكانت الإشارة إلى القريبة أولى . يقولونه لمن حاول إتيان الشيء من بعيد وكان يمكنه أن يأتى به من قريب .

وِدْن من طين ووِدن من عجين

تقال للرجل أو المرأة لم يعلق على هذا الحديث أهميّة . بل أغضى عنه حتى كأن آذانه من طين ومن عجين لا تسمع ولا تحسّ .

ورّاه نجوم الظهر

أي صب عليه الشدائد .

ورّيني عَرْض كتافك

أي اذهب لحال سبيلك .

وَزُّهْ عَلَىّ

أي حرّضه علىّ .

وشّه يقطع الخميرة من البيت

أي أنّ وجهه وجه شؤم .

وعَنْها وشمّع الفتلة

كلمة وعنها يستعملونها كثيراً بمعنى إذا به ، وشمّع الفتلة يكنون بها عن الهروب .

وقِعْ فى أرابيزه

يقال للشيء المعيب ، لم يقدر صاحبه على أن يتصرف فيه ، أو تصرف فيه ، ولكن عاد إليه لعيوب ظهرت فيه فيقولون : وقع فى أرابيزه .

وقع فى شرّ أعماله

أي ما اكتسب من سوء عمله .

وَلَه يا راجل أو يَاخِي وَلَه

أى حاسب ، لا تسكثر .

والنبي اللى حطيت إيدى على شباكه

يقسم بها من حجّ وزار النبي ووضع يده على ضريحه .

والنبيّ ما كان ينعزّ

تقال للاعتذار عن شيء طلب ، وليس في إمكان المطلوب منه ولا فى نيته أن يعطيه ، فإذا قلت لرجل أقرضنى عشرة جنيهات مثلا وهو لا يريد أن يعطيك أو ليس معه قال هذه الجملة .

ويّاك ويّاك عليك عليك

أى يجاريك فى قولك ، ويجارى الناس ضدّك معهم . وهو دليل على خلق فاسد .

(حرف الياء)

يا بخت اللّى نفع واستنفع

كلمة شائعة على لسان المصريين ، وهى تدل على فساد شائع فى الخلق ، لأن معناها ما أحسن بخت الذى ينفع وينتفع ، أى يأخذ الرشوة ويقضى الحاجة . وهو خير عندهم من الذى لا يأخذ رشوة ولا يقضى شيئاً . ومعنى هذا أن الرشوة تحلّ وتستحسن إذا اقترنت بقضاء الحوائج .

يا بن الحلال فُضّك من الخصام

ابن الحلال تقال للمدح . وعكسه ابن الحرام . وفضّك من الخصام بمعنى اترك . وهو كثير فى كلامهم . يقولون : فضّك من كده . وفضّك من الكلام الفارغ ، فهى مرادفة لكلمة بلاش . فبعضهم يقول : بلاش كلام فارغ ، وبعضهم يقول فضّك من الكلام الفارغ .

يا خبر بفلوس بكره يبقى بلاش

بلاش أى بلا ثمن . أى إن هذا الشىء اليوم بثمن لندرته ، فغداً يكون بلا ثمن لكثرته .

يا داخل بين البصلة وقشرتها
ما ينوبك إلا ريحتها

أى لا تتدخل بين المتخاصمين فيلحقك الأذى .

يا دار ما دخلك شر

تقال عند انتهاء المسألة من غير أن تثير شراً .

يا دوب قعدنا وجَه فلان

هذا تعبير عامى غريب ، يقال إذا حصل الشىء تماماً فى وقت الشىء الآخر ، أو عقبه بقليل ، يقولون ، يادوب ركبنا والقطر مِشِى ، أى عقب الركوب مشى القطار ، يادوب دخل البيت ووقع مات ، أى عقب دخوله مات .

يا رايح قول لِلجاى
ويا شاهد قول للغايب

أى ليخبر بعضكم بعضا .

يا رُوحى على كِدَه

كلمة تقال فى الغالب لمغازلة السيدات

يا ريت اللى جرى ما كان

تقال عند الندم على ما حدث .

يا زرع البدارى ، يا جنى العَصَارى

زرع البدارى تقال للجسيم ، لأنهم يعتقدون أن ما زرع مبكراً يسرع إليه النمو ، وجَنى العصارى ، أى أنهم يجنونه فى العصر ، وهو خير أوقات الجنى .

يا سلام

تقال فى مواضع كثيرة ، فمثلا تقال ياسلام سلّم عند الرعب والطلب من الله السلامة ، فيقولون مثلا من عينيه ياسلام ، أى يارب سلم من تأثير عينيه . ويقول المريض عند الوجع ياسلام . ويقول المتعجب عند العجب ياسلام على كده مثلا .

يا عدوى

نداء ينادى به على الولد التائه أو البنت التائهة فهم يقولون يامن شاف ولد صفته كذا ، ويلبس كذا ، واللى يلاقيه له الحلاوة يا عدوى . والعدوى هذا شيخ ينسب إليه أنه يحضر التائه .

يا ليلة بيضة يا نهار سلطانى

تقال عند الفرح والسرور . والنهار المشرق الجميل يسمى نهار سلطانى . والسكة الواسعة الممتدة تسمى سكة سلطانى .

يا مَا

يستعملونها بمعنى كثير ، فيقولون ياما رأيت ، أى رأيت كثيراً ، وياما قُلت ، أى قلت كثيراً . وأحيانا يستعملون يا زائدة ، فبدل أن يقولوا ما أكثر فلوسه ، يقولون : ياما أكْتر فلوسه .

ويقولون « ياما » باعتبارها صفة . فمثلا يقال « فلوسه ياما » أى كثيرة ؛ وكذلك « خيره ياما » .

يا ما ناسْ كتير متعذّبَهْ

ومِنِ الغَلَا مِتْلهلبَهْ

هو تعبير ظريف ، أى أن قوماً كثيرين فى عذاب من الغلاء ، كأنهم فى لهلوبة نار .

يا مِستَكْتَر ، الدهر أكتر

أى لا تغتر بكثرة ما فى يدك ، فالزمان يستطيع أن يضيع الكثير .

يا ميتْ ندامة

يستعملون ميت بمعنى مائة ، فيقولون يا ميت ندامة ، بمعنى ما أكثر ما يستحق الشيء من الندامة . ونحوه ياميت حسرة ، وياميت مرحبة .

يا نموتْ سوا يا نعيش سوا

يستعملون يا بمعنى إما ، أى إما أن نموت سوا و إما أن نعيش معاً ، ومثله قولهم يا كده يا كده ، وتقول الأمّ لولدها ، يا تيجى يا اضربك .

يا نهارْ زىّ بعضه

أى أنه نهار لا يسرّ .

ياهل ترى

كثيراً ما تستعمل بمعنى الاستفهام عن الشيء ، هل يحدث فى المستقبل أولا يحدث . تقول ياهل ترى نعود إلى بلادنا ، أو نعيش طول العمر كده .

يا هَنَاى لمّا افرحْ بِيكْ

أى إذا فرحتُ به فما أهنانى .

يا ويل اللى ما يرضى عنه أبوه وأمه

أى ويل له .

يبوس إيده وش وضَهر

تقال إذا أنعم على الإنسان بنعمة ، لأنهم اعتادوا أن يقبلوا أيديهم ظهراً و بطناً علامة على شكر الإله وحمده .

يتعلم الحلَاقة فى رءوس اليتامى

تقال لمن يستحقر أفراداً يتعلم فيهم صنعة كمعلم الجراحة يعلّم طلبته الجراحة فى رءوس المجرمين .

يخلق من الفسيخ شربات

أى يعمل من الشيء الردىء شيئاً حلوا .

ياذّا العَدِى

تستعمل كثيراً على ألسنة النساء ، تقول ياذّا العدى يا فلانة .

يُرُدّ الروح

أى أنه جميل جداً ، حتى ليكاد يرد الروح على من فارقته .

يزمزأ

أى يغضب ويضجر .

يصبر على الأسيّة

أى إذا أسيءَ إليه صبر .

يصوم يصوم ويفطر على بصلة

يقال لمن يصبر على الشيء ثم لا ينال شيئا يكافئُ صبره .

يضرب بلطة

يقولونها لمن يتمشى سبهللا أى لا لغرض.

يعمِلْها الصغار ، ويقع فيها الكبار

أى أن الشيء يأتيه الصغير ، ويقع فيه الكبير ، كقول العرب « معظم النار من مستصغر الشرر » .

يضيّع المستكى ، ويحافظ على الورقة

أى يضيع الشيء الهامّ ، ويحتفظ بالتافه كقولهم : « سرق الصندوق يا محمد ، لكن مفتاحه معايه » .

يعملوها ويْخِيلُوا

أى يأتون بالعَمْلَة فتكون منسجمة منهم ويخيلوا ، يقال إذا لبس أحد ثوباً وانسجم معه خال عليه ، والمضارع يخيل .

يفضل الإنسان يتعلم لحد ما يموت

أى يتعلم طول حياته .

يفهمها وهيّ طايرة

أى أنه سريع الفهم قوى الذكاء .

يقتل القتيل ويمشى فى جنازته

أى يعمل العمل ، ثم يمارى ، حتى لا يظن أنه هو الذى عمل .

يكلمك ومناخيره لفوق

أى متكبراً .

يَمُّه

أى ناحيته ، يستعملونها بمعنى ناحية يقولون إن رحت يمّه ، قول له كذا .

يموت الزّمّار وإصْباعُه يلعب

ومثله قولهم ، الليفِهْش ما يخافْهش .

يهون عليك دا كله

أى هل يسهل عليك هذا . ؟

يوضع سرُّه فى أضعف خلقه

مثل قوله تعالى : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

فهرس الكتاب

(حرف التاء)

(حرف الدال)

(حرف الذال)

(حرف الراء)

(حرف الزاى)

(حرف السين)

(حرف الشين)

(حرف الصاد)

(حرف الضاد)

(حرف الطاء)

(حرف الظاء)

***

(حرف العين)

(حرف الغين)

(حرف الفاء)

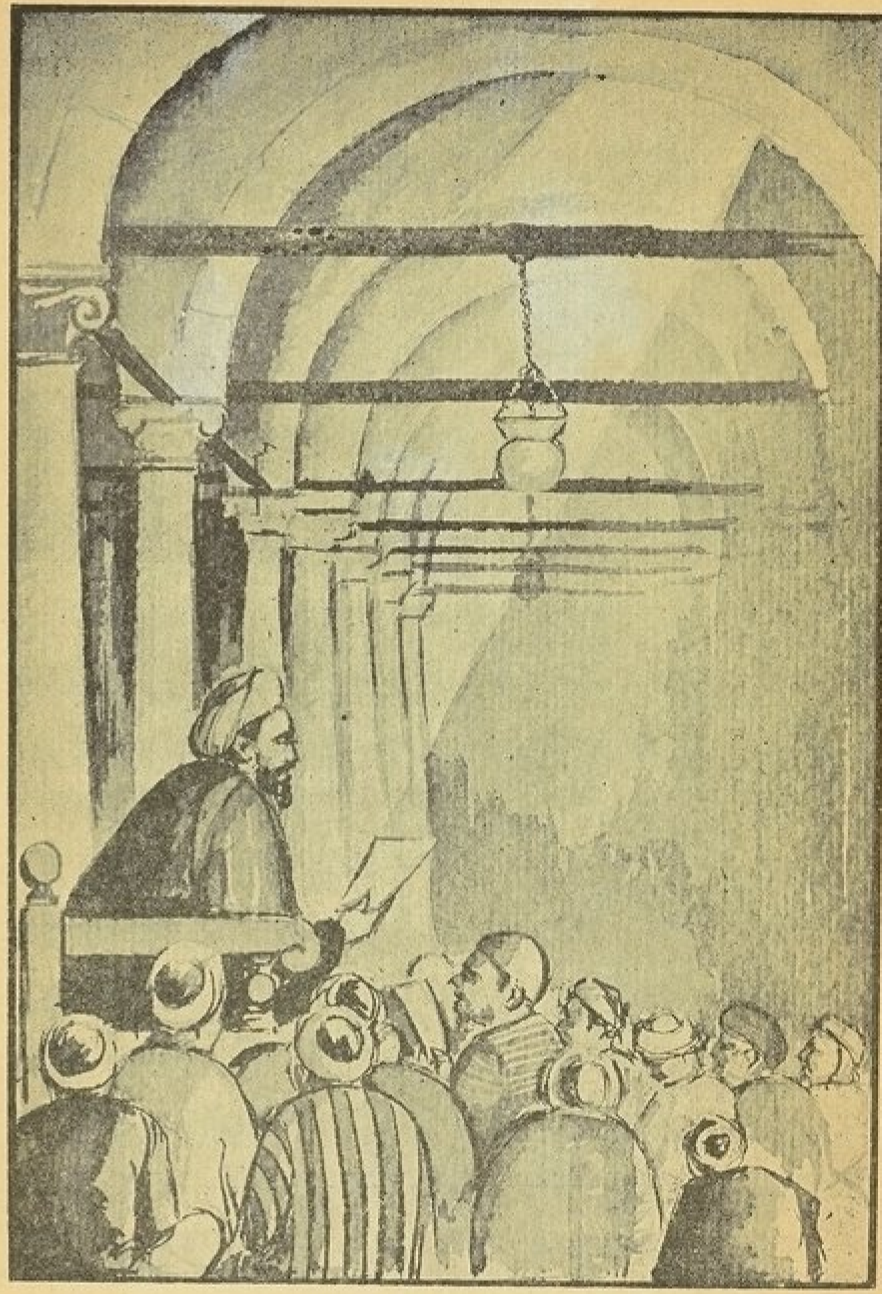
(حرف النون)

(حرف الهاء)

(حرف الواو)

(حرف الياء)

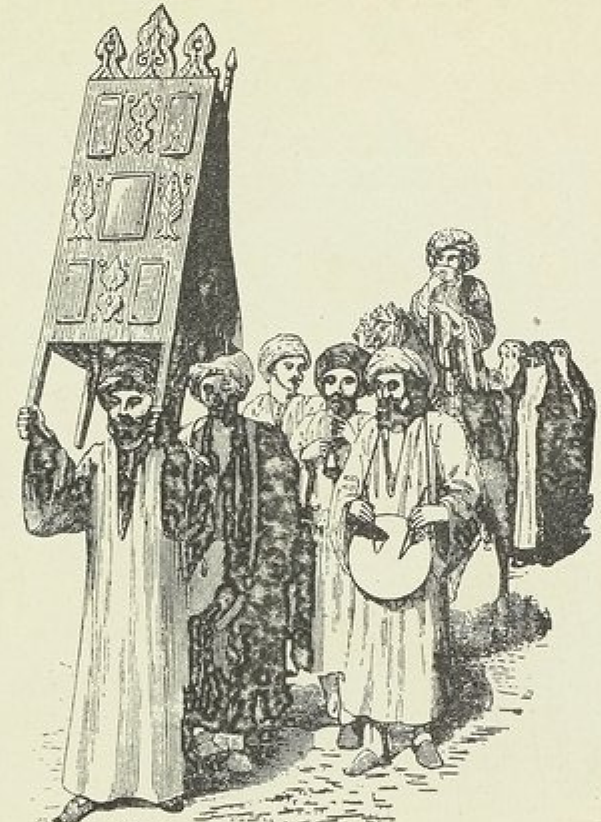
فهرس التعابير



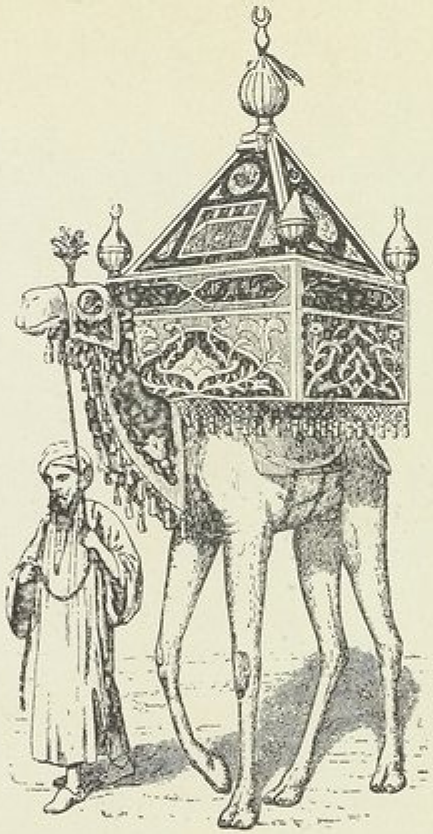
منظر من التدريس فى الأزهر فى العهد الماضى
(انظر ص ٣٠)



غرفة أكل



زفة



المحمل
(انظر ص ٣٦٠)

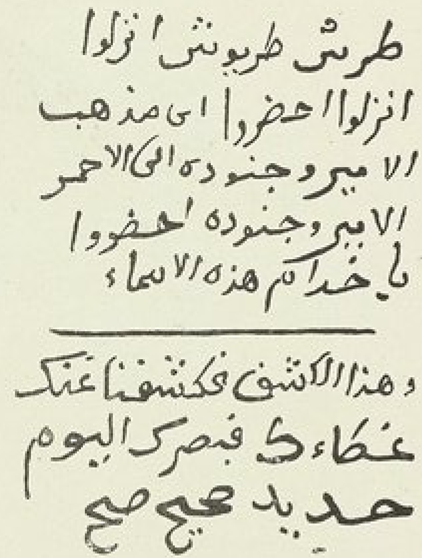


دوسة



درويش

(انظر الدراويش ص ١٩٩)



حجاب

(انظر الأحجبة ص ٢٥)



بيرق



قمقم ومبخرة

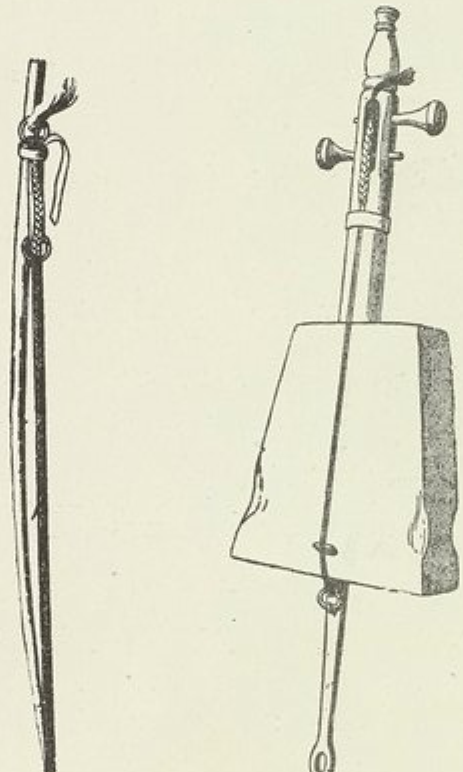
(انظر قمقم ص ٣٢٧)



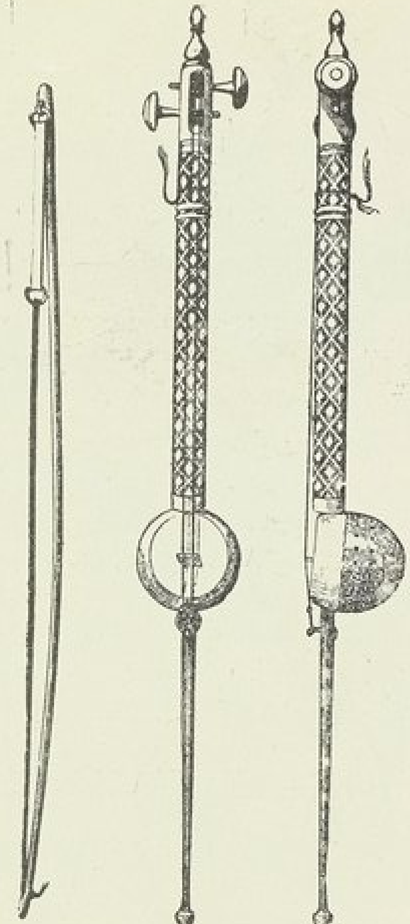
لبس الطبقة العليا فى العهد الماضى



عباءة



ربابة الشاعر



كمنجة موسيقى
(انظر الموسيقى ص ٣٨٤)



الشاعر



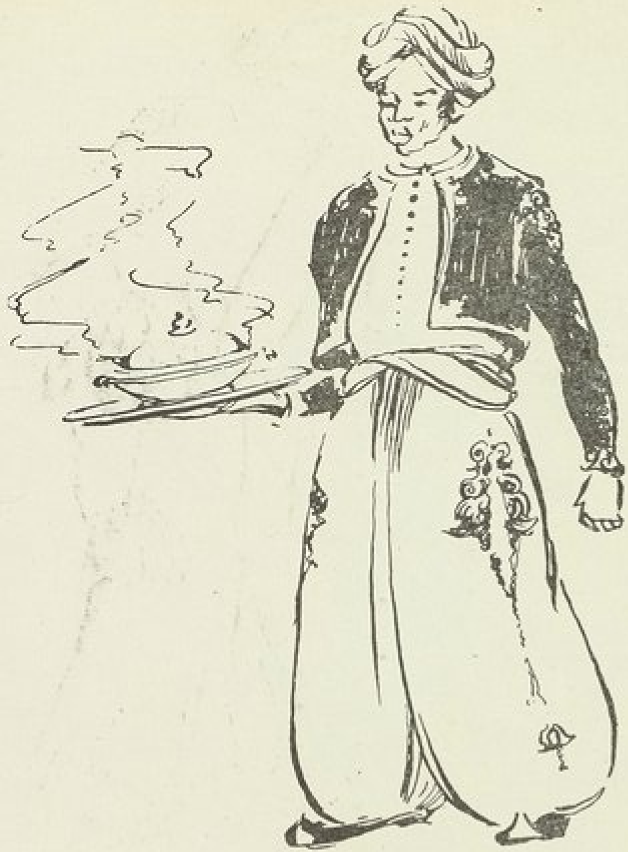
قانون



ناى
(انظر موسيقى ص ٣٨٤)



مسحراتى
(انظر ص ٣٦٦)



سفرجى يقدم أكلا
(انظر ص ٢٣٣)



مبخراتي
(انظر ص ٣٥٣)



مسبلاتي



عرقسوس



سقا

(انظر ص ۲۳۳)



رجل يسن السكين
(انظر ص ٣٩٦)



مسلكاتي



قرادآتي
(انظر ص ٣٢١)



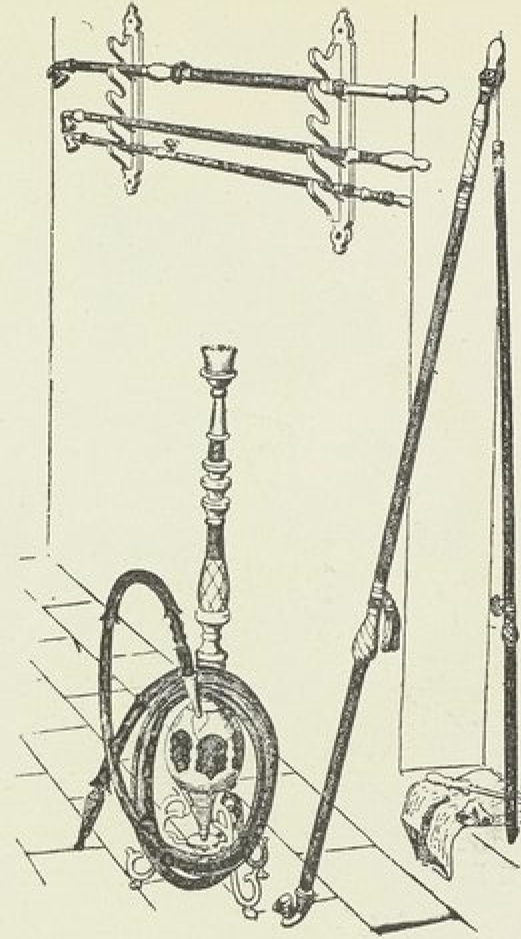
الغـــول
(انظر ص ٢٩٩)



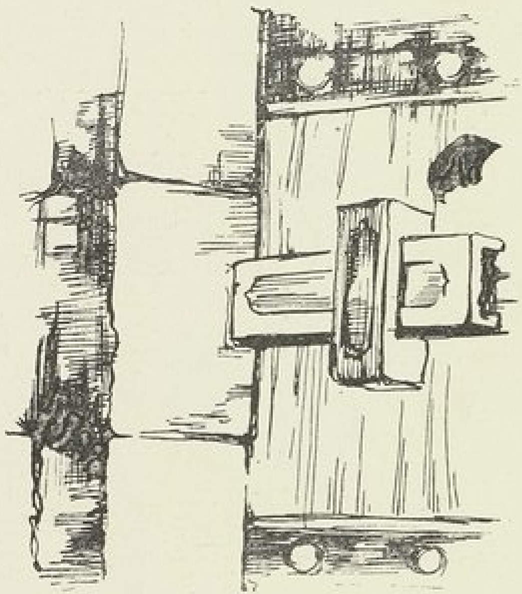
رجل يشرب جوزة



جوزة شبك
(انظر ص ٢٤٥)



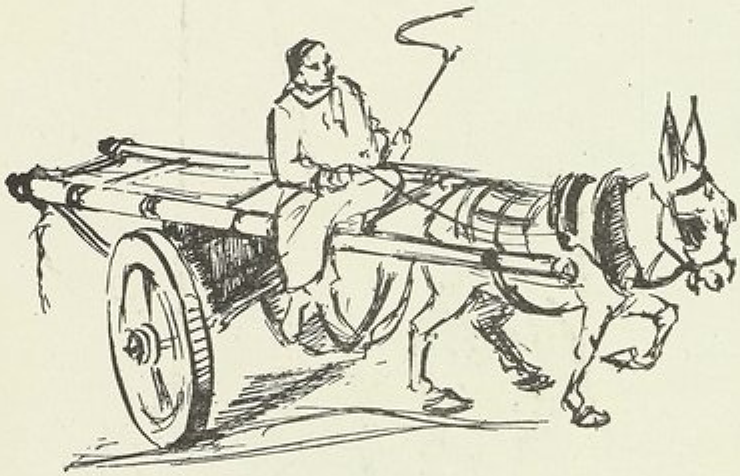
شبك وشيشه
(انظر س ٢٤٥)



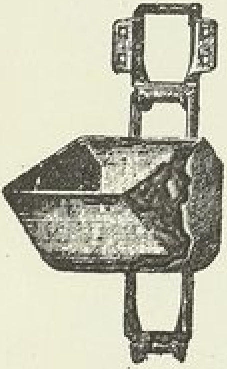
ضبّة
(انظر س ٢٦٧)



رجل يركب حماراً



حمار يجر عربة كارو



القادوس



الشادوف



منسج



امرأة تضرب الرمل
(انظر ص ٢٦٨)



امرأة تلبس للخروج



لبس امرأة فى بيتها



امرأة وأولادها من الطبقة الدنيا



امرأة تلبس الملاءة



امرأة من أعلى الصعيد



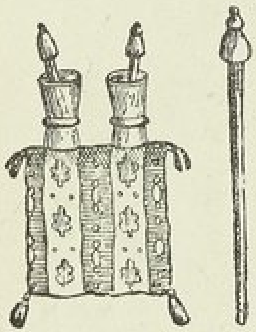
امرأة متحلية بالقرص والصفا



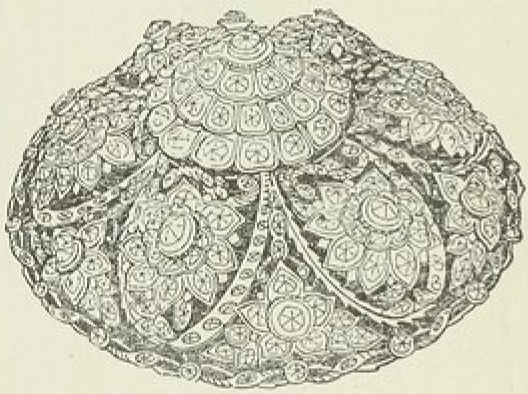
برقع ملابس النساء
(انظر ص ٨٥)



قرط



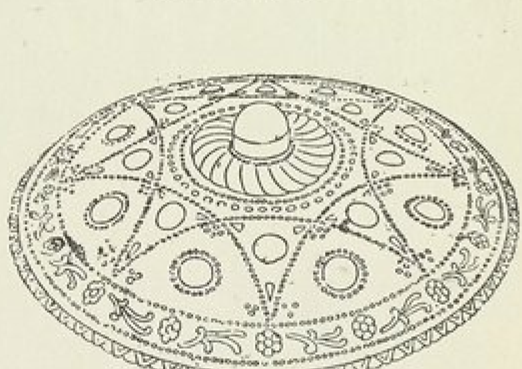
مرود



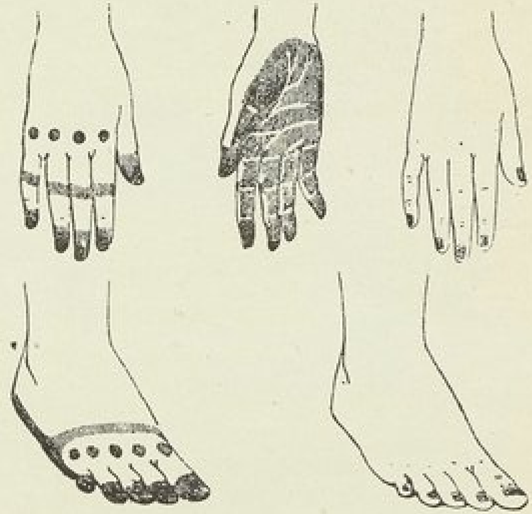
قرص يوضع على الرأس



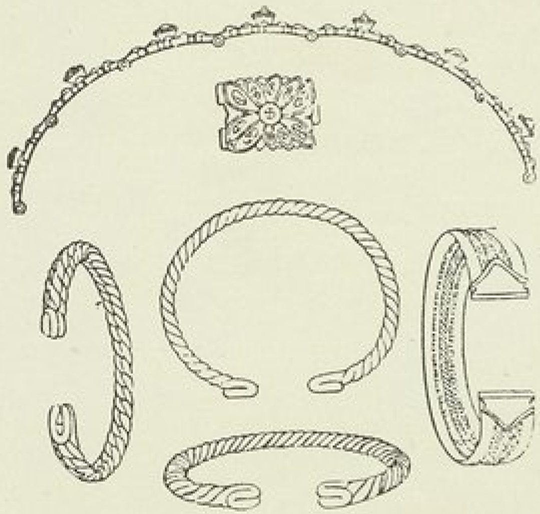
مروحة



قرص ذهب (ملابس النساء)



كف محنى (انظر ليلة الحنا ص ٣٤٩)



أساور ملابس النساء



خلخال

(انظر ص ١٩٤)